الوسيط

فى

الأدب العربى وتاريخه

تأليف

الشيخ أحمد الاسكندرى و الشيخ مصطفى عنانى

المدرس بمدرسة دار العلوم

المفتش الأول للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها :
الثانوية ، والمعلمين العليا ، والمعلمين الأولية ، والمعلمات السنية

(الطبعة التاسعة) ١٣٥٠هـ — ١٩٣١م

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

لمؤسسها نجيب متري

الوسيط

فى

الأدب العربى وتاريخه

تأليف

الشيخ أحمد الاسكندرى
المدرس
بمدرسة دار العلوم

و

الشيخ مصطفى عنانى
المفتش الأول
للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

قررت وزارة المعارف العمومية تدريس هذا الكتاب بمدارسها :
الثانوية ، والمعلمين العليا ، والمعلمين الأولية ، والمعلمات السنية

(الطبعة التاسعة) ١٣٥٠هـ — ١٩٣١م

يطلب من
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
لمؤسسيها نجيب مترى

بسم الله الرحمن الرحيم

المحمودُ اللهُ جلّ جلالُه، والمصلّى عليه محمدٌ وآلُه، والمدعوُّ له الوطنُ ورجالُه.

وبعدُ فإنا رأينا النشْءَ من طلّاب الأدب العربىّ فى حاجة إلى مُخْتَصَرٍ مُلِمٍّ بفنونه، مُؤْثِرٍ لعيونه، مؤرِّخٍ لشُئونه؛ فوضعْنا هذا الكتاب، لعلّنا نُقرِّب اليهمُ القصْدَ، ونُسَهِّلُ عليهمُ الصَّعبَ. وعلى الله قصدُ السبيلِ!

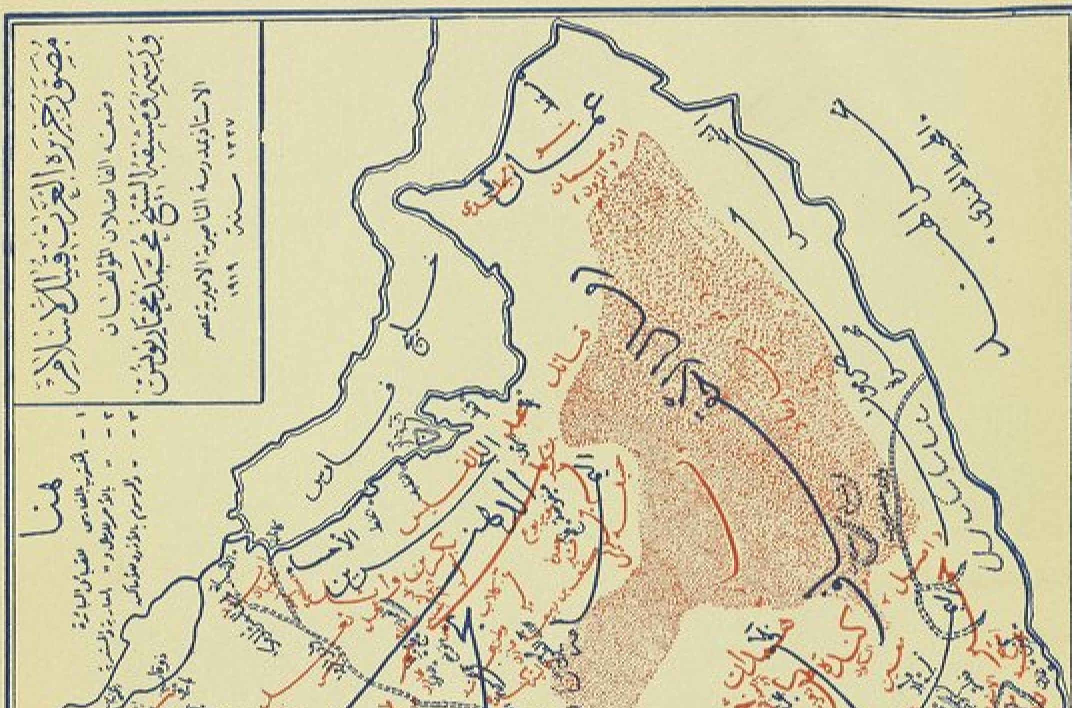
وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ!

٩ ذى القعدة سنة ١٣٣٥
٦ اغسطس سنة ١٩١٦

احمد الاسكندرى
المدرّس
بمدرسة دار العلوم

مصطفى عنانى
المفتش الأول
للعلوم العربية بالأزهر والمعاهد الدينية

الوسيط فى الادب العربى وتاريخه



ملاحظة — وضعت « مدينة عسقلان » شمالىّ « يافا » والصواب أن تكون جنوبيها

« الطبعة التاسعة »

تاريخ أدب اللغة

التاريخ

التاريخ – هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيثُ معيشتِهم، وسياستِهم، واعتقادهم، وأدبهم، ولغتهم

الأدب

والأدب – (كل رياضة[1] محمودة يَتخَرَّجُ[2] بها الإنسانُ فى فضيلة من الفضائل، وهذه الرياضةُ كما تكون بالفعل، وحسن النظر[3]، والمحاكاة، تكون بمزاولة الأقوال الحكيمة التى تَضَمَّنَتْها لغةُ أىّ أمّة

اللغـة

واللغة[4] – ألفاظ يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم

---

(١) الرياضة — التذليل والتمرين والمعالجة

(٢) خرّجته فتخرج — درّبته فتدرّب، والأدب بهذا التعريف نقله المصباح عن أبى زيد

(٣) التعقل والاستنباط

نشأة اللغات

(٤) المعروف بشهادة العقل والاستقراء، وتتبع نطق الأطفال والأمم المتوحشة والراقية، أن لغات العالم (على كثرتها التى لم تتناه ولن تتناهى) ترجع الى أمهات أصلية تولدت وتتولد عنها، وأن كل واحدة من هذه الأمهات هى المنشأ الأول لفروعها، وأنها كلها تنشأ من جدة عليا مجهولة هى لغة الانسان الأول. وتلك الجدة هى الكلمات القليلة التى كان يعبر بها الانسان عن رغائبه القليلة أو عن الأشياء المحيطة به. وبعض هذه الكلمات مقتبس من محاكاة الأصوات التى تصدر من الحيوان والانسان والرياح وغيرها : كما تفعل الببغاء التى هى دون الانسان فى الادراك، وبعضها مرتجل بطبيعة القوة الناطقة التى أودعها الله الانسان وميزه بها من سائر الحيوان، وهى فيه إلهام فطرى أسمى من الالهام المودع الحيوان الأعجم : فانا نسمع الهرة مثلاً تموء بضعة أصوات مختلفة تظهر بها انفعالاتها ومطالبها : فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والغضب الخ. فعند ما يجيش صدر الانسان باظهار رغبة أو رهبة يصيح بصوت مصوّر بصورة ما على حسب ما يلهمه الله فيسمعه غيره ويفهم منه مراده باضافة قرينة حال أو اشارة (كما نشاهد ذلك كثيراً فى بعض الأطفال عند محاولتها النطق) فاذا وجد أنه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة فى افهام رفقائه فيذاع بينهم ويعرف، ولا يحتاج فى استعماله الى قرينة، وهكذا يفعل غيره فعله، ويقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون اللغة الأولى الضرورية للبيئة التى يعيشون فيها ويتفق عليها من غير تعمل ولا قصد الى الاتفاق. ثم تتسع هـذه اللغة بطرق النموّ المعروفة كالاشتقاق والزيادة والنقص والتحريف والتحويل من الحقيقة الى المجاز فيشتهر المجاز ثم يصير حقيقة

أدب اللغة

وأدب لغة أىّ أمة – هو ما أودع نثرَها وشعرها من نتائج عقول أبنائها، وأمثلة طبائعهم، وصُوَر أخيلتهم (١) ومَبلغ بيانهم: مما شأنه أن يهذّب النفس، ويُثقِّف (٢) العقل، ويُقوّم اللسان

تاريخ أدب اللغة

وتاريخ أدب اللغة – هو العلم الباحث عن أحوال اللغة: نثرِها ونظمها فى عصورها المختلفة من حيث رفعتُها وضَعتها، وعما كان لنابغيها من الأثر البيّن فيها. وهو على النظام الآتى بعدُ حديث النشأة فى مصر

هذا. والأظهر أن الانسان نطق أولا بأسماء المحسوسات، ثم بأسماء بعض المعقولات، وبالمصادر وبالأفعال، وبأسماء الاشارة والضمائر والموصولات، ثم بالحروف والمشتقات، يعرف ذلك من تتبع لغات الأمم الوحشية، ومشاهدة كلام الأطفال عند ابتداء نطقهم

أما اللغات الفرعية فتنشأ من هجرة بعض طوائف أهل اللسان الأصلى الى جهات متباعدة، فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات: لعدم استعمالها فى وطنهم الجديد، أو الى تحريفها على طول الزمان، ثم هم يرون فى هذا الوطن مالم يروه قبل: من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون إلى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا، فتتباعد اللغة الفرعية عن الأصلية كلما تباعد الزمان والمكان. ويزيد مدى التباعد إذ اجاوروا أمماً تتكلم بغير لسانهم الأصلى، فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين فى بقية لغتهم. ثم إذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم، اتسعت هذه اللغة وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ أى فرد من علمائها عن أن يحيط بها

فظهر من هذا أن اللغات وضعها البشر من غير سابقة اصطلاح واتفاق، وأن قول من يقول إنها توقيفية لا يعقل منه إلا أنها متوقفة على إلهام من الله واهب النطق للانسان

أما من يقول إنها توقيفية: بمعنى أن الله أوحى بها إلى أنبيائه (عليهم صلواته) وهم علموها الناس، فماذا يقول فى اللغات التى نشأت وتنشأ بعد الأنبياء كلغاتنا العامية ولغات أهل أوربة الحديثة؟ أم ماذا يقول فى اللسان العام (الاسبرنتو) الذى ارتجله أحد علماء أوربة ليكون لسان العالم ويرفع به العصبية الجنسية من الأرض، ويستعمله الآن كثيرون فى أغراض خاصة

واحتجاجه بقوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها الآية» ليس بقطعى لجواز أن يكون معنى علمه: ألهمه وأقدره، ولأنه قد فسرت الأسماء بأسماء الملائكة بدليل اعادة ضمير العقلاء عليهم. ولجواز أن تلك خصوصية لآدم فكما خلقه ابتداعاً علمه ابتداء. ولو أريد بالأسماء أسماء جميع الموجودات فهل تعلمها بجميع ألسنة أولاده وهى الآن ألوف مؤلفة ومنها المخترعات ذوات الأسماء المرتجلة. هذا ما ظهر لنا والله أعلم

(١) الخيال والخيالة ما يتراءى لك: من ظل أو شبح أو صورة. والمراد هنا الصورة الباهرة المنتزعة من محسوس متعدد بقصد تمليحها فى النفس أو تشويهها فيها ولو لم تقع فى الخارج

(٢) أى يقوم ويعدل

ومن أهم فوائده :

فوائد تاريخ أدب اللغة

١ – معرفة أسباب ارتقاء (أدب اللغة) وانحطاطه ، دينية كانت تلك الأسباب أو اجتماعية أو سياسية ، فنستمسك بأسباب الارتقاء ، ونتحامى أسباب الانحطاط

٢ – معرفة أساليب اللغة ، وفنونها ، وأفكار أهلها ، ومُواضعاتهم[١] ، واختلاف أذواقهم فى نثرهم ونظمهم ، على اختلاف عصورهم ، حتى يَتَهيأ للمُتَخرّج فى هذا العلم أن يميز بين صُوَر الكلام فى عصر وصُوره فى آخر ، بل ربما صحّ له أن يُلحِق القول بقائله عينه

٣ – معرفة أحوال النابهين[٢] من أهل اللغة فى كل عصر ، وما كان لنثرهم ، وشعرهم ، وتأليفهم : من أثر محمود ، أو حال ممقوتة ، لنحتذى مثال المحسن ، وتنكّب عن طريقة المسىء

اصل اللغة العربية

واللغة العربية — إحدى اللغات الساميّة[٣] . وهى لغة أمة العرب القديمة العهد ، الشائعة الذكر ، التى كانت تسكن الجزيرة المنسوبةَ إليها فى الطرف الغربىّ من آسيا .

ويُظن أنها أقربُ اللغات الساميّة إلى أصلها : لأن العرب لم تُخالط غيرها كثيراً ولم تَدْخل طويلاً تحت حكم أمة أعجميّة

أمة العرب

وهذه الأمة — منها القدماء ، وهم الذين كانوا يسكنون تلك الجزيرة وينطقون باللغة العربية سليقةً وطبعاً

طبقات العرب

وهم ثلاث طبقات أُولاها العرب البائدةُ ، وهؤلاء لم يصل إلينا شىء صحيح من أخبارهم إلاّ ما قصّهُ الله علينا فى القرآن الكريم ، وإلاّ ما جاء فى الحديث النبوىّ . ومن أشهر قبائلهم طَسْمُ ، وجَدِيسُ[٤] ، وعادٌ[٥] ، وثمودُ[٦] وعِمْليقُ[٧] وعَبدُ ضَخْمٍ[٨]

---

(١) مصطلحاتهم (٢) المشهورين (٣) أى اللغات التى تكلمت بها الشعوب المختلفة من أولاد سام بن نوح ، ولغة سام أمها مجهولة لم تعلم أصولها ولا قواعدها (٤) كانتا تسكنان اليمامة أيام ملوك الطوائف من الفرس (٥) كانت تسكن الاحقاف (٦) كانت تسكن الحجر (المسمى الآن بمدائن صالح) ووادى القرى بين الحجاز والشام (٧) العمالقة قوم سكن أوائلهم اليمن ثم انحدروا الى مكة ويثرب وأرض الشام ومنهم فراعنة الرعاة بمصر (٨) كانوا يسكنون الطائف ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربى (راجع مصور بلاد العرب فى هذا الكتاب)

وثانيتها العرب العاربة — وهم بنو قحطانَ الذين جَلَوْا عن سِقِى[١] الفُرات ، واختاروا اليمنَ منازلَ لهم ، وامتزجت لغتهم بلغة سابقيهم ، ثم انتشرت فى أنحاء الجزيرة . ومن أمهات قبائلهم كَهْلانُ[٢] ، وحِمْيَرُ[٣]

وثالثتها العرب المستعربة — وهم بنو إسمعيل الطارئون على القحطانيين ، والممْتزجون بهم لغــة ونسبًا ، والمعروفون بعدُ بالعَدْنانيّين[٤] ومن أمهات قبائلهم ربيعةُ ، ومُضَرُ ، وإيادُ ، وأنْمارُ[٥]

وبقية القبائل المشهورة وبطونها من الطبقات الثلاث مبينة فى الأشكال الآتية بعدُ مراعًى فى ترتيبها مرتبة الشهرة لا مرتبة البنوّة الحقيقية[٦]

ومنها المحدَثون — وهم سلائل[٧] هؤلاء الأقوام الممتزجون بسلائل غيرهم ، والمنتشرون بعدَ الاسلام فى بقاع الأرض من المحيط الأخضر (الأطلنطى) الى ما وراء بحرِ فارسَ ودِجْلَةَ ، ومن أعالى النهرين[٨] الى ما وراء جاوة وسومطرة . ويتكلمون بلهجات عامية مختلفة ترجع الى اللغة العربية الفصيحة التى يتعرّفونها بالتّعلُّم

---

(١) سقى النهر ما يسقيه من الأرض وهو المسمى الآن بحوض النهر

(٢) كهلان بن سبأ وأصل مساكنهم اليمن ثم تفرقوا ببادية جزيرة العرب

(٣) قبيلة تنسب الى حمير بن سبأ : وكانوا يسكنون أول أمرهم غربى صنعاء ، وأكثر قبائل اليمن متفرعة من حمير وكهلان

(٤) نشئوا بمكة والحجاز ثم انتشروا ببادية جزيرة العرب أواسطها وشماليها ممتزجين بالقحطانيين

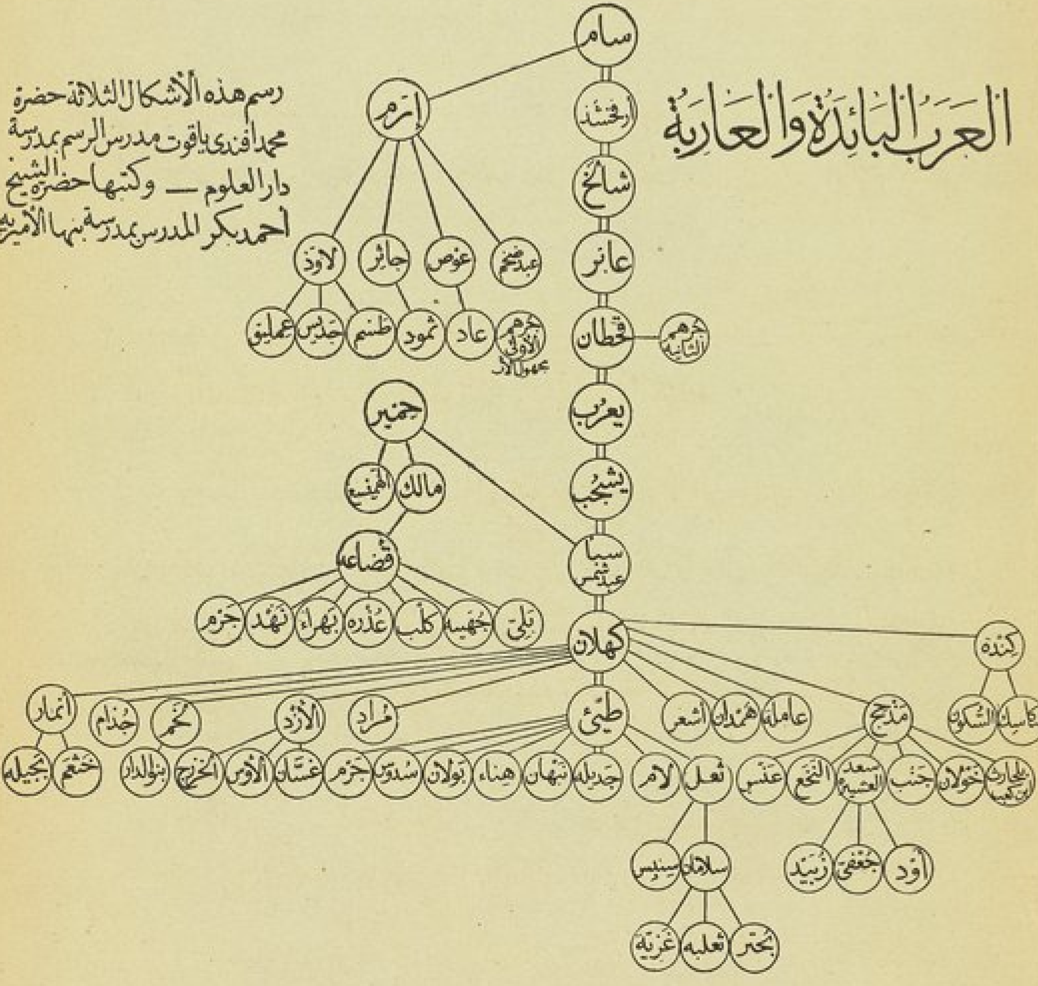
(٥) هؤلاء هم الشعوب الأربعة الكبرى التى تفرعت منها قبائل العدنانية وأكثرهم عدداً : مضر ، ثم ربيعة ، وهم أولاد نزار بن معد بن عدنان

(٦) أخذنا أشكال الانساب الثلاثة فى هذه الطبعة من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى صاحب كتاب (نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب) وهو أشهر كتب النسب عند المتأخرين ومنه رسم جداوله صاحب سبائك الذهب المشهور . وأخذت فى الطبعة الأولى من تاريخ أبى الفداء ، واعتمدنا هنا بعض زياداته فى الشكل الثالث . والخلاف بينهما انما هو فى الزيادة أو النقص أو ترتيب البطون باعتبار الشهرة أو باعتبار البنوة الحقيقية . هــذا واضطراب النسابين فى الانساب طويل عريض

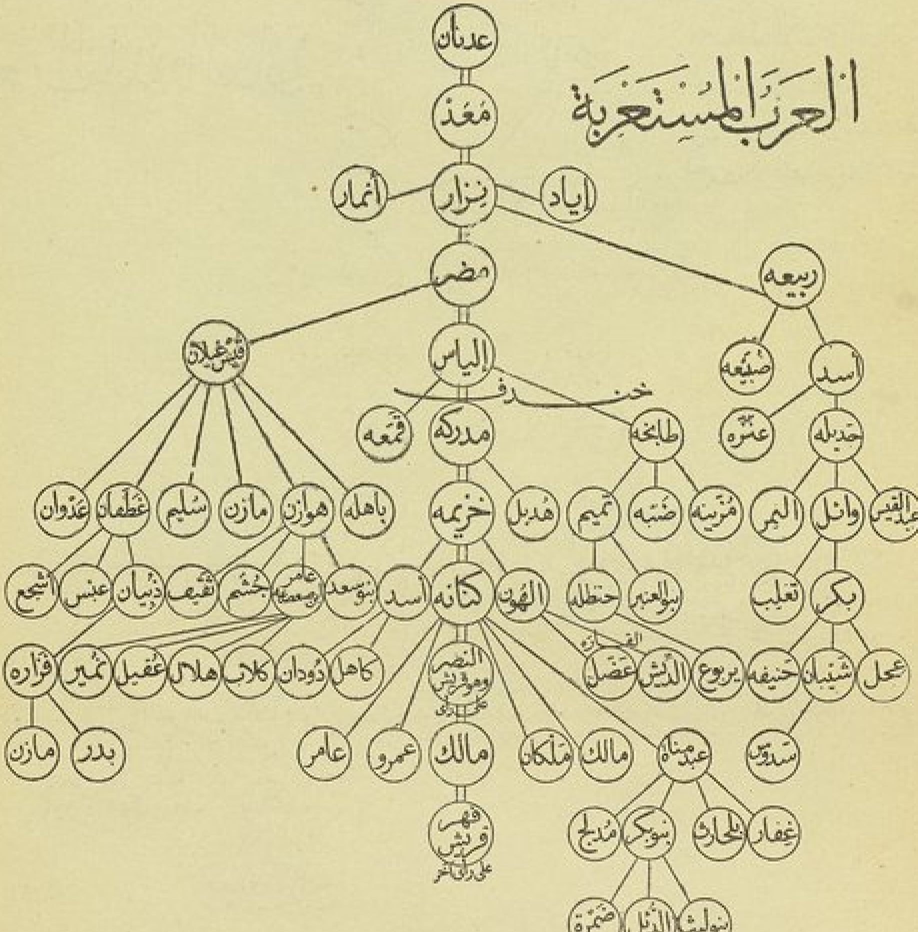
(٧) أولاد (٨) دجلة والفرات

العرب البائدة والعاربة

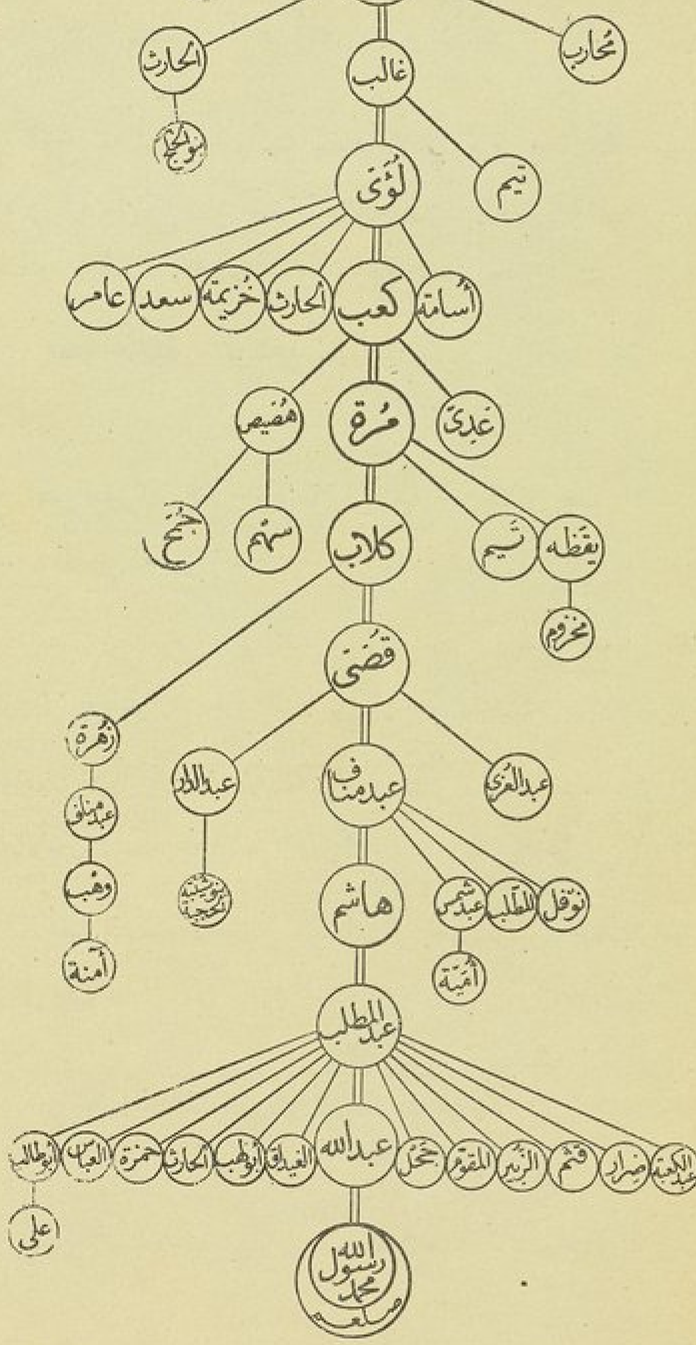
رسم هذه الأشكال الثلاثة حضرة
محمد افندي ياقوت مدرس الرسم بمدرسة
دار العلوم — وكتبها حضرة الشيخ
أحمد بكر المدرس بمدرسة بنها الأميرية



العرب المستعربة



نسب قريش


فهر وهو قريش
محارب
غالب
الحارث
تيم
لؤي
أسامة
كعب
الحارث
خزيمة
سعد
عامر
عدي
مرة
هصيص
يقظة
تيم
كلاب
سهم
جمح
مخزوم
قصي
زهرة
عبد العزى
عبد مناف
عبد الدار
عبد مناف
وهب
آمنة
نوفل
المطلب
عبد شمس
هاشم
أمية
عبد المطلب
عبد الكعبة
ضرار
قثم
الزبير
المقوم
حجل
عبد الله
الغيداق
أبو لهب
الحارث
حمزة
العباس
أبو طالب
علي
رسول الله محمد صلعم

عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخُ لغة أى أمة وأدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التى تقع بين ظَهْرانَىْ[١] هذه الأمة ، ناسبَ لذلك ، ولسهولة الدرس وضبطه أن نقسم تاريخ أدب اللغة العربية خمسة أعصر :

الأول – عصر الجاهلية – وينتهى بظهور الاسـلام ، ومدته نحو خمسين ومائة سنة

الثانى – عصر صدر الاسلام – ويشمل بنى أمية – ويبتدئ بظهور الاسلام ، وينتهى بقيام دولة بنى العباس (سنة ١٣٢ هـ)

الثالث – عصر بنى العباس – ويبتدئ بقيام دولتهم ، وينتهى بسقوط بغداد فى أيدى التتار[٢] (سنة ٦٥٦ هـ)

الرابع – عصر الدول المتتابعة التركية[٣] – ويبتدئ بسقوط بغداد ، وينتهى بمبدإ النهضة الأخيرة (سنة ١٢٢٠ هـ)

الخامس – عصر النهضة الأخيرة – ويبتدئ من حكم الأسرة المحمدية العلوية بمصر ويمتدُّ الى وقتنا هذا

---

(١) مثنى ظهر ، وزيدت الألف والنون فى الصيغة لزيادة المعنى والتأكيد ، ومعناه ان ظهراً منها قدامها ، وظهراً منها وراءها ، فهى مكنوفة من جانبيها ، ثم استعمل فى معنى الاقامة والحلول بين القوم مثلاً

(٢) هى احدى الأمم الطورانية التى كانت تسكن شمالىّ الصين ثم انتشرت فى غربى آسيا وشرقى أوربة

(٣) وتشمل دولتى المماليك بمصر والشام ، والدول المتخلفة عن التتار فى آسيا ، وممالك الدولة العثمانية فى القارات الثلاث القديمة

العصر الأول عصر الجاهليـــة

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

وصف اللغة العربية ومزاياها

لغة العرب من أغنى اللغات كَلِماً ، وأعرَقها[١] قِدَماً ، وأخلدِها أثراً ، وأرحبها[٢] صدراً ، وأدومها على غِيَر[٣] الدهر مُحاسَنَةً وصَبراً ، وأعذبها مَنطقاً ، وأسلسها أسلوباً ، وأرْوَعِها[٤] تأثيراً ، وأغزرها مادّة ، وأوسعها لكل ما يقع تحت الحِس ، أو يجول فى الخاطر : من تحقيق علوم ، وسنّ قوانين ، وتصوير خيال ، وتعيين مَرافق[٥] . وهى على هَنْدَمَةِ[٦] أوضاعها ، وتناسق أجزائها ، لغة قوم أميين ، لم يكونوا فى حكمة اليونان ولا صنعةِ الصين ، بادوا و بقيت بعدهم سائرة مع كل جيل ، ملائمة لكل زمان ومكان . ولولا روحٌ عظيم ما خَلَدَت ودَرَجَ[٧] أقرانُها ، وأَنِفَت[٨]

عوامل نمو اللغــة

واستخذى[٩] سلطانُها[١٠] . ولا عجب أن بلغت تلك المنزلة : من بَسْطة الثروة و بُعْد المَدَى[١١] ؛ إذ كان لها من عوامل النموّ ، ودواعى البقاء والرقىّ ، ما قلما يتهيّأ لغيرها ، وذلك لما فيها من اختلاف طرق الوضع والدلالة ، وغلبة اطّراد التصريف ، والاشتقاق ، وتنوُّع المجاز ، والكناية ، وتعدّد المترادفات ، الى النحت والقلب ، والابدال ، والتعريب ، ولِما تشرفت به من ورود القرآن الكريم ، والسنّة النبوية بلسانها

توحد اللغة العربية المروية

وما رواه لنا منها أئمة اللغة ، وجاء به القرآن الكريم ، والحديث ، النبوىّ هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التى سكنت جزيرة العرب . ولا يُعلَم بالضبط الوقت الذى تمثّلت فيه بصورتها المعروفة لنا ، ولا كلُّ الأسباب التى أدت الى اندماج لغات بعض هؤلاء الشعوب فى بعض ، وغاية ما علم من الآثار الحجرية و بعض الروايات أنه كان جنوبىّ الجزيرة وشماليّها لغات متميزة كل التميز من العربية التى رُوِيت

---

(١) آصلها (٢) أوسعها (٣) حوادث (٤) أشدها اعجاباً وهزة فى النفس
(٥) جمع مرفق كمنبر وهو كل ما ارتفقت به أى انتفعت (٦) الهندمة اصلاح الشىء على مقدار خاص ونظام بين (٧) انقرض (٨) استكبرت (٩) خضع (١٠) السلطان الغلبة والقهر والمراد سلطان أهلها (١١) الغاية أو مد البصر

لنا دَرَست و بقيت منها أشباح [١] تتراءى أحياناً فى بعض لهجات العربية الأخيرة وأوجه إعرابها واشتقاقها وترادف ألفاظها ، كما أنه لا شك عندنا فى أن من أسباب امتزاج هذه اللغات ما يأتى :

مراتب تهذيب اللغة

(١) هِجْرة القحطانيين الى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العربَ البائدة باليمن ، ثم تمزقهم فى بقاع الجزيرة كلَّ مُمزَّق بظلمهم أنفسَهم وتخرُّب بلادهم بسيل العَرِم [٢]

(٢) هجرة اسمٰعيل عليهِ السلام الى جزيرة العرب واختلاطه و بنيه بالقحطانيين بالمصاهرة ، والمجاورة فى المنازل والمرابع [٣] ، والمحاربة ، والمتاجرة

وأظهر مواطن هذا الامتزاج مشاعرُ [٤] الحجّ وخاصةً بيت الله الحرامَ بمكة بَلدِ قريش [٥] الأمين ؛ والأسواقُ التى كانت تقيمها العربُ فى أنحاء بلادها ، ومن هذه الأسواق : عُـكاظُ [٦] ومَجَنَّةُ [٧] وذو المَجَاز [٨]

سوق عكاظ

وأهمها سوق عكاظ – وكانت تقام من أوّل ذى القعدة الى اليوم العشرين منه . واقيمت تلك السوق بعـد عام الفيل [٩] بخمسَ عشرةَ سنةً ؛ و بقيت الى ما بعد الإسلام وان لم تكن فى شأنها الأوّل حتى سنة تسع وعشرين ومائة ، وكان يجتمع بهذه السوق أ كثرُ أشراف العرب للمتاجرة ، ومفاداة الأسرى ، والتحكيم فى

---

(١) جمع شبح وهو سواد الانسان وغيره تراه من بعد (٢) العرم جمع عرمة كفرحة وهى سد يعترض به الوادى ، أو هو جمع بلا واحد ، أو هو الاحباس والسدود تبنى فى الوادى لحبس المياه خلفها وهى المسماة الآن بالخزانات . وحادثة سيل العرم أنه كان لسبأ فى اليمن عرم تحبس المياه خلفها لتوزع بنظام فتهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الأهلية سبباً فى تفرق قبائل سبأ فى أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل فى التفرق فقيل (تفرقوا أيدى سبا) (٣) جمع مربع وهو فى الأصل المكان الخصيب يقيم فيه القوم زمن الربيع (٤) معالم الحج وأماكن نسكه (٥) قبيلة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى بطن من كنانة من المضرية (٦) موضع قرب الطائف (٧) موضع قرب مكة (٨) سوق على فرسخ من عرفة بناحية كبكب ، وكبكب جبل بعرفات خلف ظهر الامام اذا وقف (٩) عام الفيل هو العام الذى ولد فيه النبى عليه الصلاة والسلام وهو سنة ٥٧١ من الميلاد — وملخص حادثة الفيل أن الحبشة طمعت فى الاستيلاء على مكة وقهر قريش وهدم الكعبة فتجرد لذلك أحد ملوكهم المسمى أبرهة بجيش ومعه فيل عظيم فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول

الخصومات ، والمفاخرة[١] والمنافرة[٢] بالشعر والخطب فى الحسب والنسب والكرم والفصاحة والجمال والشجاعة وما شاكل ذلك حتى فى عِظَم المصائب والأرزاء[٣] وكان من أشهرِ المُحَكَّمين بهـا فى الشعراء النابغةُ الذبْيانىّ ، ومن أشهر خطبائها قسّ بن ساعدة الإيادى . وقد لَهِج الشعراء بذكرها فى شعرهم[٤] ، وحضرها منهم الرجال والنساء

آثار قريش فى اللغة

ولقريش عظيم الأثر فيما نجمَ عن اجتماع العرب فى مشاعر الحج والأسواق بتهذيب لغتهم أنفسهم : لأخذهم من لغات القبائل الوافدة عليهم ما خف على اللسان وحسُن فى السمع ؛ حتى لطُفت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم ، واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خيرُ الكلام كلام الله . ولمكانهم من الفصاحة والرياسة حا كاهم شعراء القبائل وخطباؤها فى استعمال لغتهم : ليكون مقالُهم أسيرَ ، وخبرُهم أشهرَ

وما نشأ من الهجرتين السابقتين وغيرهما من تداخل اللغات واندماج بعضها فى بعض حتى تكونت اللغة الفصيحة هو ما يسمى طورَ تكوين اللغة وتهذيبها

اختلاف لهجات[٥] العرب

لهجات العرب

قدَّمنا أن الأُمة العربية تألفت أخيراً من شَعبين[٦] عظيمين : القحطانيين أو (اليمانين) والعدنانيين أو (النِّزارِيين) . وتشعَّب من كليهما شعوب وقبائل لها لهجات مختلفةُ الفروع متحدة الاصول ، غير أن لغة حِمْيَر من القحطانيين غلبت على أخواتها[٧] . ثم دخل فيها من اللغة العدنانية ألفاظ وأساليب اختلفت قلةً

(١) المفاخرة المحاكمة فى الحسب . والحسب ما تعده من مفاخر آبائك (٢) المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يحكما بينهما رجلا ، وسميت منافرة لأن المتنافرين كانا يسألان الحكم : أينا أعز نفراً (٣) وتسمى المفاخرة بذلك (المعاظمة) ومنها معاظمة هند بنت عتبه أم معاوية حين قتل أبوها وعمها شيبة وأخوها الوليد وغيرهم بوقعة بدر ، مع الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمى المصابة بموت أبيها وأخويها صخر ومعاوية ، فقرنت هند جملها بجمل الخنساء وتعاظمتا فى مصائبهما نثراً ونظماً بسوق عكاظ

(٤) قال حسان : (سأنشر ان بقيت لهم كلاماً ينشر فى المجامع من عكاظ)

وقال طريف بن تميم (أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلىّ عريفهم يتوسم)

(٥) لهجة القبيلة لسانها مراعى فيه الترقيق والتفخيم ، والتتميم ، والترخيم ، والهمز والتليين والسرعة والبطء ، والوصل والقطع ، والامالة وعدمها ، وما الى ذلك من النبرات الصوتية

(٦) الشعب بالفتح القبيلة العظيمة (٧) كالمعينية والسبئية

وكثرةً باختلاف الجهات ، وعُمِّرت حتى ظهور الإسلام ، وزالت بعده و بقيت منها ألفاظ امتزجت بالعدنانية

أسباب اختلاف اللهجات

ولغة عدنان الممثَّلة بعدُ فى المُضَرية ظهرت أيضاً على أخَواتها بل على الحِمْيرية فى مواطنها . ولكننا لا ننسى أن البيئة ، ونزوح الديار ، ووسائل المعيشة ، واختلاف المرئيات : وتنوّع طرق الوضع والارتجال ، كل ذلك قد أبقى فى كلام كل قبيلة مِيزات هى ما يسمى مجموعها باسم لهجة القبيلة أو لغتها . وتكاد تنحصر طرق الاختلاف فيما يأتى : الإبدال [١] ، وأوجه الإعراب [٢] ، وأوجه البناء والبنية [٣] ، والتردد بين الإعراب والبناء [٤] ، والتصحيح والاعلال [٥] وما يشبههما ، والاتمام والنقص [٦] ، والادغام والفك [٧] ، والترادف [٨]

طرق اختلاف اللهجات

اللهجات المشهورة

ولكل لهجة من لهجات العرب عدا القرشية هَنَةٌ أو أكثر ، واشتهر من هذه الهَنَوات عَجْعَجةُ [٩] قُضاعة ، وغَمغمتها [١٠] وشَنْشَنةُ [١١] اليمن ، ووَتْمِم [١٢]

---

(١) مثل ابدال الميم باء والباء ميما فى لغة مازن فيقولون با اسمك فى ما اسمك ، ومكر فى بكر

(٢) كنصب خبر ليس عند الحجازيين مطلقاً ، ورفعه عند تميم اذا اقترن بالا حملا لها على ما مثل ليس الطيب إلا المسك (٣) كتسكين شين عشرة عند الحجازيين وفتحها وكسرها عند تميم وكبناء الهاء من أيها على الضم عند بنى مالك من بنى أسد اذا لم يتلها اسم اشارة فيقولون يا أيه الناس ، وبنائها على الفتح ووصلها بالف عند غيرهم مثل يايها الناس (٤) كاعراب لدن عند قيس بن ثعلبة وبناؤها عند غيرهم (٥) كاعلال الأفعال الثلاثية التى من باب علم كرضى وبقى عند طيء بقلب يائها الفاً وكسرتها فتحة فيقولون رضى وبقى وغيرهم يصححها ، وكقلب الألف المتطرفة همزة عند تميم مثل العلأ فى العلى وغيرهم يبقيها على حالها (٦) كحذف نون من الجارة عند خثعم وزبيد اذا وليها ساكن وابقائها عند غيرهم فيقولون فى خرجت من البيت خرجت مليت كلغة العامة فى مصر (٧) مثل فك المثلين فى المضارع المجزوم بالسكون المضعف وأمره عند الحجازيين مثل إن يغضض طرفه فاغضض طرفك ، وادغامها عند تميم ، مثل إن يغض طرفه فغض طرفك (٨) هذا النوع كثير فى اللغة المروية لانها جمعت من لغات قبائل شتى ، وذلك كالمدية عند اليمانين والسكين عند الحجازيين (٩) وهى تحويل الياء جيما إذا وقعت بعد العين فيقولون الراعج خرج معج يريدون الراعى خرج معى ، وفى المزهر هى قلب الياء المشددة جيما فيقال فقيمج فى فقيمى ومرّج فى مرّى (١٠) وهى عدم تميز حروف الكلمات وظهورها فى أثناء الكلام (١١) وهى جعل الكاف شيناً مطلقاً كلبيش ، وشلمنى فى لبيك ، وكلمنى

(١٢) وهو جعل السين تاء فيقولون النات فى الناس

وطُمْطمانية(١) حمير، وتَلْتَلة بَهراء(٢) وفَحْفحة(٣) هُذيل، وعَنْعنة(٤) تميم، وكَشْكشة(٥) أسد أو ربيعة، ووَهْم(٦) كلب، ووَكْم(٧) ربيعةِ كلب، ولَخْلَخانية(٨) الشِّحر وعُمان، وقطْعة طيّئ(٩)، واستنطاء(١٠) سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والأنصار

كلام العرب

الغرض من كلام العرب كغيره الإبانةُ عما فى النفس من الأفكار؛ ليكون مَدْعاةً إلى المعاونة والمعاضدة، وذريعة إلى تسهيل أعمال الحياة

ولما كانت هذه الأفكارُ لا تزال متجددةً غيرَ متناهية، كانت صور الكلام الدال عليها لا تزال كذلك متجددةً خاضعةً لقُوَى الاختراع والابتداع، على حسب ما يقتضيه المقام؛ فقد تصل صورة الكلام إلى الغاية القُصوى فى البلاغة من حيث إيجازُ اللفظ، وصحة المعنى، وحسن البيان، ولطف الاشارة، واصابة الغرض، وصدق التجربة، فترتاح النفوس لها وتنشط لحفظها، ليسير مئونتها، وحسن وقعها، وسهولة الاحتجاج بها، ولأنها تورث ما تَتَخَلَّلُه من الكلام رواجًا، وتكسبهُ قبولاً، وهذا

---

(١) وهى جعل أم بدل ال فيقولون طاب امهواء . فى طاب الهواء
(٢) وهى كسر أحرف المضارعة مطلقاً . وهم بطن من قضاعة
(٣) وهى جعل الحاء عيناً مثل العسن أخو العسين فى الحسن أخو الحسين
(٤) وهى ابدال العين من الهمزة المبدوء بها فيقولون فى أن، عن، وفى أمان عمان
(٥) وهى ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث كعليش فى عليك . أو هى زيادة شين بعد الكاف المكسورة مثل عليكش فى عليك . وأشهر ما يكون ذلك فى الوقف
(٦) وهو كسر هاء الغائب اذا وليها ميم الجمع وان لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون منهِم وعنهِم وبينهِم
(٧) وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع اذا كان قبلها ياء أو كسرة فيقولون عليكِم وبكِم: وكلب بطن من قضاعة
(٨) كقولهم مشا الله فى ما شاء الله
(٩) وهى حذف آخر الكلمة يقولون (يا أبا الحكا) يريدون يا أبا الحكم كما فى لغة بنى سويف الآن وشمالى مديريتى الغربية والبحيرة
(١٠) وهو جعل العين الساكنة نوناً اذا جاورت الطاء مثل أنطى فى أعطى

المثل والحكمة

ما يسمى (بالمثل أو الحكمة) . وقد تنحط صورة العبارة الى الدرك الأسفل من الإبانة ، بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبه ، و بين الحالين مراتب تتفاضل فيها العقول ، وتتبارى[١] الفحول

وجُلُّ بحث علم الأدب وتاريخه فى التفاوت بين هـذه المراتب ورجالها ، وسنتكلم بعد فيها

تعريف المثل والحكمة

ونشير هنا إلى أن المثل قول محكيٌّ سائر يقصد منه تشبيه حال الذى حُكى فيه بحال الذى قيل لأجله . والحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مُسَلَّماً . وكما يكون كل منهما نثراً يكون نظماً . فمن أمثال الجاهلية النثرية :

طائفة من الأمثال

ان البُغاثَ[٢] بأرضنا يَسْتَنْسِرُ ، — إذا عزَّ أخوك فهُن[٣] — رُبَّ رَمْيةٍ من غير رام[٤] — أنتَ تَئِقٌ ، وأنا مَئِقٌ ، فمتى نتفق[٥] — جَوِّع كلبك يَتْبَعْك[٦] — قد اسْتَنْوَق الجملُ[٧] — الحديث ذو شجُون[٨] — إن العَوان[٩] لا تعلَّم الخِمْرة[١٠] — سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل[١١] — ما يومُ حليمة[١٢] بسرّ — مواعيد عُرقوب[١٣] — مُكْرَهٌ أخاك لا بطل[١٤] — ثَكِلَ أرْأَمَها وَلَدا[١٥] — أَتْبِع الفرس لجامها[١٦]

---

(١) تتعارض وتتسابق (٢) البغاث مثلث الباء طير أغبر ضعيف ، يستنسر يصير كالنسر فى القوة ، يضرب للضعيف يصير قوياً ، وللذليل يعز بعد الذل (٣) قائله هذيل بن هبيرة التغلبي ومعناه كما قال أبو عبيد : مياسرتك صديقك ليس بضيم يركبك منه ، فتدخلك الحمية به ، انما هو حسن خلق وتفضل ، فاذا عاسرك فياسره . يضرب فى التساهل مع ذوى القربى والأصدقاء

(٤) أى رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ ، وأول من قال ذلك الحكم ابن يغوث المنقرى يضرب للمخطئ يصيب أحياناً (٥) التئق السريع الى الشر ، والمئق السريع البكاء . يضرب للمختلفين أخلاقاً (٦) قائله أحد ملوك حمير الجبابرة — يضرب فى معاشرة اللئام وما ينبغى أن يعاملوا به (٧) قائله طرفة بن العبد — يضرب للرجل الواهن الرأى المخلط فى كلامه

(٨) طرق ، قائله ضبة بن أد بن طابخة . يضرب فى الحديث يذكر به غيره (٩) التى سبق لها زوج (١٠) كيفية لبس الخمار (الطرحة) يضرب للعالم بالأمر المجرب له (١١) العذل ، اللوم ، قائله ضبة بن أد بن طابخة يضرب فى استحالة تدارك ما فات (١٢) حليمة بنت الحارث ابن أبى شمر الغسانى — يضرب فى كل أمر متعارف مشهور (١٣) رجل من العمالقة — يضرب فى خلف الوعد (١٤) قائله أبو حنش — يضرب لمن يحمل على ما يكره

(١٥) قائله بيهس الملقب بنعامة لحمقه — يضرب فى استعظام الحقير للحاجة اليه

(١٦) قائله عمرو بن ثعلبه بن كلب ، يضرب للرجل قضى الحاجة ولم يتمها

ومن أمثالهم النظمية :

تمتَّع من شَمِيم عَرَار نَجْدٍ فما بعد العشيةِ من عرار (١)

لا تقطعَنْ ذَنبَ الأفعى وتُرْسلها إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا (٢)

إنِّي وقتْلى سُلَيْكا ثم أعقِلَه كالثور يُضْرَب لما عافت البقر (٣)

أنْ ترد الماء بماء أوفقُ لا ذنب لى قد قلت للقوم استقوا (٤)

وتسمى الأمثال حقيقة ان كان لها أصل معروف نُقلت عنه وسيقت له : كالأمثال السابقة ، وفَرَضية ان كانت تُمَثَّلُ على لسان حيوان أو نبات أو جماد : مثل « فى بيته يُؤْتَى الحكم » (٥) و « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » (٦) ، والأول محكىّ على لسان الضب ؛ والثانى على لسان الحية تقسيم الامثال

وتكثر الفرضية فى الأيام التى يكثر فيها الجور والاستبداد ، والتضييق على الهداة والمرشدين ، فيُضطرُّون اليها للوصول الى أغراضهم ، مع الأمن على حياتهم ، على

(١) قائله الصمة بن عبد الله القشيرى — ويضرب فى التمتع من الزائل ، والعرار نبت طيب الرائحة وهو النرجس البرىّ (٢) قائله أبو أذينة اللخمى يحرض الأسود بن المنذر على قتل أسراه من ملوك غسان ، وألا يقبل منهم فدية ، يضرب فى التحريض على استئصال شافة الشر (٣) قائله أنس بن مدرك . يضرب فى عقوبة الكبير لبخضع الصغير (٤) يضرب لمن لا يقبل الموعظة (٥) هذا المثل مما زعمته العرب على ألسن البهائم قالوا ان الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وأكلها ، فانطلقا يختصمان الى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل — قال سميعا دعوت — قالت أتيناك لنختصم اليك — قال عادلا حكمتما — قالت فاخرج الينا — قال فى بيته يؤتى الحكم — قالت انى وجدت تمرة — قال حلوة فكليها — قالت فاختلسها الثعلب — قال لنفسه بغى الخير — قالت فلطمته — قال بحقك أخذت — قالت فلطمنى — قال حر انتصر — قالت فاقض بيننا — قال قد قضيت — فذهبت أقواله كلها أمثالا (٦) أصل هذا المثل على ما حكته العرب أن أخوين أجدبت بلادهما وكان بالقرب منهما واد خصب فيه حية تحميه فهبط أحدهما الوادى مخالفاً نصيحة أخيه فرعى فيه زمناً ثم نهشه الحيـة فقتلته ، فجاء أخوه الوادى يطلب ثأره فقالت له الحية هل لك فى الصلح : أدعك فى هذا الوادى وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت . فحلف لها ألا يؤذيها ما وفت . فلما حسن حاله ذكر أخاه فاخذ فأساً ثم تبعها وضربها فاخطاها ، وأثرت الفاس فى جحرها ، فقطعت عنه الدينار ، فخاف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق ونعود كما كنا ، قالت كيف أعاودك وهذا أثر فأسك : يضرب لمن لا يفى بالعهد

ما فيها من الترويح عن الخاطر، ولطف المَدخَل، وجمال الفكاهة المطويّة فى تضاعيفها النصيحةُ، وذلك أعمل فى النفس وأدعى الى الاتعاظ

أثر الامثال

والأمثال مِرآة تُريك صُور الأمم وقد مضت، وتقِفُك على أخلاقها وقد انقضت وهى ميزان يوزن بهِ رُقىّ الشعوب وانحطاطها، وسعادتها وشقاؤها، وأدبها ولغتها، ولقد أكثر العرب منهـا فلم يتركوا باباً إلاّ ولجوه، ولا طريقاً إلاّ سلكوه. وقد أفردها العلماء بالتأليف. وأقدم الأمثال (على ما نعلم) أمثال لقمان الحكيم[1]

طائفة من الحكم

ومن الحكم النثرية : مَصَارع الرّجال تحت بُروق الطمع. من سَلَكَ الجَدَد[2] أمِن العِثار[3]. خيرُ الموت تحت ظلال السيوف. كَلْم[4] اللسان أنكى[5] من كَلْم السِّنان. العتاب قبل العقاب. خيرُ الغنى القناعة. قطيعة الرحم تورث الهم. رضى الناس غاية لا تُدرك. أوّلُ الحَزْم المَشورة. رب عجلةٍ تهَب رَيْثاً[6]. أنجز حرّ ما وعَدَ. اترك الشرّ يتركك. من عزّ بزّ[7]. بعض الشر أهون من بعض. إنّ أخاك من واساك[8]. يكفيك من شر سماعُه

ومن الحكم النظمية :

قد قيل ما قيل ان صدقاً وان كذباً ... فما اعتذارُك من قولٍ إذا قيلا

واكذِبِ النفسَ اذا حدّثتها ... ان صدق النفس يُزرى بالأمل[9]

اذا المرء لم يَدْنَس من اللؤم عرضه ... فكلُّ رداء يرتديه جميل

اذا المرء لم يَخزُن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزّان

ولستَ بمُستبق أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ أىُّ الرجال المهذّبُ[10]

(١) هو لقمان بن عاد أحد حكماء العرب ومن أمثاله رب أخ لك لم تلده أمك — الصمت حكم وقليل فاعله — كل امرئ فى بيته أمير — كل امرئ بشأنه عليم — آخر الدواء الكىّ

(٢) ما استوى من الأرض (٣) مصدر عثر بمعنى زل وسقط (٤) جرح (٥) أشد إيلاماً (٦) بطئاً (٧) من غلب سلب (٨) ساعدك (٩) لا تحدث نفسك بانك لا تظفر فان ذلك يثبطك (١٠) الشعث انتشار الأمر وخلله : أى ولست مستديماً صحبة صديق لا تحتمله على ما فيه من زلل. بل ينبغى لك لاستدامة صحبته أن تلمه وتصلحه وتجمع ما تشتت من أمره، إذ لا يوجد رجل خال من العيوب

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومن لا يَظلِم الناس يُظلَمِ

وكلام العرب بمراتبه : (العليا والدنيا وما بينهما) تعتورهُ كغيره أحوال تتغير بتغيُّر حياة أهله : العقلية والمعاشية والدينية والسياسية ، وتلك الأحوالُ تتجلى فى (أغراض اللغة ، ومعانيها ، وعباراتها) وهى فى اللغة الواصلة الينا المروية عن العرب أخرياتِ جاهليتهم و بعد تَضعضُع مدنيتهم القديمة يمكن الاشارة اليها بما يأتى

أغراض اللغة(١) فى الجاهلية

(١) كانت اللغة تستعمل فى أغراض المعيشة البدوية ، ووصف مرافقها : من حَلّ وتَرحال ، ونَتْج حيوان ، وانتجاع كلأ ، واستدرار غيث

(٢) وفى اثارة المنازعات والمشاحنات ، وما يتبعها : من الحض على إدراك الثار ، والتفاخر بالانتصار ، والتباهى بكرم الأصل والنِّجار

(٣) وفى شرح أحوال المشاهدات ، والإخبار عن الوقائع ، والقصص ، وغير ذلك مما يلائم بيئتهم ، ويناسب طباعهم

معانى اللغة فى الجاهلية

تُجمل أحوال معانى اللغة فى الأمور الآتية :

(١) قَصْر معانى المفردات على ما تقتضيه البَدَاوةُ والفطرة الغضة الخالية من تكلف أهل الحضر وتأنُّقهم

(٢) سَيرُ التعقُّل — المُستَنْبَط من الحس ، والمشاهدة ، أو الطبيعة ، أو التجربة ، أو الوجدان — فى طريق غير طريق المبالغة والاغراق

(٣) إرسالُ التخيُّل — المنتزَعةِ صوَرُه من المحسوسات — على وجه قلما يخرج عن الإمكان العقلى والعادىّ

---

(١) أغراض اللغة مقاصدها التى تؤديها وتستعمل فيها

عبارة اللغة فى الجاهلية

تُلخَّص أحوالُ العبارة فى الجاهلية فيما يأتى :

(١) استعمال الألفاظ فى معانيها الوضعية ، أو فى معان مناسبة للمعنى الأصلىّ بطريق المجاز الذى يُصبح بعد غلبة الاستعمال والإِلْف حقيقةً جديدة ؛ ولذلك يظهر لنا عند تلاوة الشعر العربىِّ القديم أن المجاز فيه أقلُّ مما هو فى كلامنا ، وأنه قريب من الحقيقة . لشدَّة علاقته بالمعنى الأصلى ، وارتقاء بعضه الى رتبة الحقيقة

الترادف

(٢) كثرة الترادُف فى المفردات ؛ والحقُّ أن لأ كثر الألفاظ المترادفة معنى خاصًا لا يؤدّيه الآخر بالدقة[1] ، وان تُنُوسِى بعض هذه الخصائص . و بعض المترادف آت من اختلاف لغات القبائل الفصيحة التى جُمِعت لغاتها وتكوّن منها اللسانُ العربىّ المروىُّ لنا المحفوظ فى كتب اللغة

المعرب

(٣) قلة الأعجمى المعبّر عنه بالمُعرَّب ، على أنه لم يقم الى الآن دليل قطعى على أن كل الألفاظ المشتركة بين لغة العرب ولغات الأعاجم نقلها العرب عن غيرهم ولم ينقلها غيرهم عنهم حتى نحكم بأنها أعجمية لا عربية

(٤) ارسال الأساليب الكلامية على حَسَب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف، وبدون مراعاة لما تستلزمه الصناعةُ البديعية ، فلم يتعمدوا جناسًا ، ولم يتكلفوا طباقًا ولم يقصدوا الى تورية[2] ، وما وقع لهم من المحسنات الكلامية على قِلته فانما كان عفوًا لا تعمّل فيه خلا بعضًا من سجع الكهان

(٥) خلو الكلام العربى من اللحن . لأن الحق أن العربى القح لا يلحن فى لغته

(٦) شيوع الايجاز فى كلامهم كما ترى ذلك واضحًا فى نثرهم وشعرهم

---

(١) كالحث والحض فالأول يكون فى السير والسوق وكل شىء والثانى لا يكون فى سير ولا سوق . وكالجلوس والقعود ؛ الأول عن ضجعة ، والثانى عن قيام

(٢) وأما ادعاء بعضهم — أن فى (سخينا) من قول عمرو بن كلثوم :

مشعشعة كأن الحص فيها   اذا ما الماء خالطها سخينا

تورية مقصودة بجعله فعلا من السخاء أو اسما من السخونة ، فتخرص وظن بلا دليل

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب قسمين : نثراً ونظماً ؛ فالنظمُ هو الموزون المقفى ؛ والنثر ما ليس مرتبطاً بوزن ولا قافية

النـــثر

المحادثة — الخطابة — الكتابة

أقسام النثر

الأصل فى الكلام أن يكون منثوراً : لإبانته مقاصدَ النفس بوجه أوضح ، وكلْفة أقلّ . وهو إما حديثٌ يدور بين بعض الناس و بعض فى إصلاح شئون المعيشة ، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع ، وذلك ما يسمَّى (المحادثة) أو (لغة التخاطب) ؛ و إما خطاب من فصيح نابه الشأن يُلقيه على جماعة فى أمر ذى بال ؛ وهذا ما يسمى (الخطابة) ؛ و إما كلامٌ نفسىّ مدلول عليه بحروف ونقوش : لإرادة عدم التلفظ به ، أو لحفظه للخَلف ، أو لبعد الشُّقَّة بين المتخاطبين ، وذلك ما يسمى (بالكتابة) . فأقسام النثر ثلاثة : محادثة ، وخطابة ، وكتابة . وكلها : إما أن تكون كلاماً خالياً من التزام التقفية فى أواخر عباراته ، وذلك ما يسمى (النثر المُرْسَل) ، و إما أن تكون قطعاً ملتزَماً فى آخر كل فقْرتين منها أو أ كثرَ قافيةٌ واحدة ، وهــذا ما يسمى (السَّجعَ) ، وهو نوع من الحلية اللفظية إذا جاء عفواً ولم يُتَعَمَّد التزامُه ؛ ولحسن وقعه فى الأسماع وحَوْكه[1] فى الطباع ، كان اكثرَ ما يستعمل فى الخطابةِ ، والأمثالِ ، والحِكَمِ ، والمفاخراتِ ، والمنافراتِ ، وتخرُّصات الكهان ، والكتابة التى من هذا الوجه

المرسل

السجع

مميزات النثر الجاهلى

ومن مميزات النثر فى الجاهلية :

(١) قلة تأنقهم فى انتقاء الألفاظ المتناسبة الوزن ، المتشابهة فى النغم والجرس

---

(١) حوكه تأثيره وأخذه

وإنما يعمدون فى تأدية المعنى الى ألفاظ تطابقه على ما يتفق وكما يكون

(٢) قلة استعمالهم الجمل والعبارات المتواردة على معنى واحد كما يفعل الجاحظ وأشباهه من المولدين

(٣) قلة وَلوعهم بالتكلف فى صوغ عباراتهم وأساليبهم وسجعهم ، اللهم إلاَّ ما وقع من سجع كاهن ، أو عرّاف

(٤) قِصر الجُمل ، أو توسطها ، وكثيراً ما يلتزمون ذلك فى الحكم والأمثال والوصايا

(٥) ميلهم الى الايجاز من غير إخلال بالمعنى

(٦) كثرة استعمالهم الكناية القريبة المنال ؛ اتقاء التصريح بما يستهجن ، أو تحريكاً للنفس فى استحضار صورة المكنىِّ عنه بذكر أخص صفاته

(٧) قلة تعمقهم فى استخراج المعانى البعيدة وفى استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج الى كد خاطر أو درس علم

مثال للمرسل — ومن أمثلة النثر المرسل ما قاله أبو جُبيل قيس بن خُفاف البُرْجُمىُّ لحاتم فى دماء[1] حملها : انى حَملت دماء عوّلت فيها على مالى وآمالى ، فأما مالى فقدَّمتُه ؛ وكنتَ أكبرَ آمالى ، فان تحملتها فكم من حق قضَيتَ ، وهمٍّ كفيتَ ؛ وان حال دون ذلك حائل ، لم أذُمَّ يومك ، ولم أيئَس من غَدك

أمثلة للسجع — ومن سجع الكهان قولُ سَطِيح[2] بن مازن فى تعبير رؤيا ربيعة بن نصر اللخمىِّ أحد ملوك اليمن :

أحلِفُ بما بين الحَرَّتين[3] من حَنَش ، ليَهبِطَنَّ أرضَكم الحبش ، وليَملِكُنَّ ما بين أبيَن[4] الى جُرَش[5]

وقولُ شِقِّ أنمار[6] فى تعبير تلك الرؤيا :

---

(١) جمع دم والدم هنا الدية

(٢) اسمه ربيع بن ربيعة ، مات فى أيام أنو شروان بعد مولده صلى الله عليه وسلم

(٣) الحرة كل أرض ذات حجارة سود نخرة (٤) مخلاف منه مدينة عدن المشهورة

(٥) مخلاف باليمن من جهة مكة (٦) كاهن كان فى زمن كسرى أنو شروان

أحلف بما بين الحَرَّتين من إنسان ، لينزِلَنَّ أرضكم السودان ، وَليَغلِبُنَّ على كل طَفْلةِ[١] البَنَان ، وليَملِكُنَّ الى ما بين أبيَن ونَجْران[٢]

ومن السجع فى غير الكهانة قول لبيد[٣] يصف بَقْلة[٤] تُدْعَى التَّرِبَة : هذه التربة التى لا تُذْكِى[٥] ناراً ، ولا تُؤْهِل[٦] داراً ، ولا تسُرّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل[٧] ، وخيرها قليل ، بلدها شاسع[٨] ونبتها خاشع[٩] ، وآكلها جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أقصر البقول فرعاً ، وأخبثها مرعى ، وأشدّها قلعاً ، فتعساً[١٠] لها وجَدْعاً[١١]

المحادثة أو لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أن توحّدت[١٢] لغاتها هى اللغة المعربة المستعملة فى شعرها وخطبها وكتابتها ؛ ولا فرق بينها فى البلاغة إلاّ بقدر ما تستدعيه حال الخطابة والشعر والكتابة : من نبالة الموضوع والتأنق فى العبارة

خلوها من اللحن واقوال باحثى زماننا فيها

وأكثر ما وصل الينا منها ما كان شريف المعنى ، فصيح اللفظ . وما زعمه بعض باحثى زماننا : من أن هذه اللغة لم تكن مُعْرَبة مطلقاً ، أو أنها كانت معربة عند الخاصة ، غيرَ معربة عند العامة ، أو أن غيرَ المعربة كانت خاصة بالمحادثة دون الشعرِ والخطابة والكتابة ، أو خاصّة بلغات أطراف الجزيرة ؛ لمجاورتها أممَ الأعاجم دون أواسطها — ظنون لم يقم عليها دليل ؛ نشأت من عدم فهم كلام العلماء ونَقَلةِ اللغة

الخطـــابة

الخطابة ضَرب من التكلم ، وهى — إذا تهيّأت داعيتها ، ووَفَرتْ أداتها ، وقلت كفاية الكتابة أو ثَقلت مئونتها — سبيلُ الاقناع ، وعُدة التأثير : لما فيها من حضور المتكلم بشخصه ، ودفاعه عن رأيه بنفسه ، وافاضَتِه[١٣] فى كل ما يؤيد مذهبه . ومن طبيعة القبائل المُتبدّية[١٤] التى تعمّها الأمية ، ولا يربطها قانون عام ، ولا

---

(١) ناعمة (٢) مخلاف شمالى اليمن (٣) شاعر ستأتى ترجمته (٤) البقل ما نبت من بزرة لا من أرومة ثابتة والبقلة واحدته (٥) أذكى النار أوقدها (٦) من قولهم ثريدة مأهولة أى فيها إهالة وهى ما يؤتدم به من زيت ونحوه أى لا تؤدم (٧) ضعيف غير صليب (٨) بعيد (٩) دان من الأرض (١٠) هلاكا (١١) قطعاً (١٢) المراد بتوحد اللغات توحدها بعد امتزاج لغات العرب البائدة والقحطانية والعدنانية بعضها ببعض (١٣) اندفاعه (١٤) المقيمة بالبادية

تضبطها حكومة منظمة ، ولا تضمها راية سلطان واحد — كما كانت الأمة العربية فى جاهليتها — أن تكون الخطابة لها ضرورية ، وفيها فطرية

فمن الدواعى الطَبَعِيَّة للخطابة فى الجاهلية

(١) غلبة الأمية على العرب غلبةً ألجأتها الى الاستعانة باللسان أداةِ القول ، بدلَ القلم أداةِ الكتابة

(٢) تملكهم زمامَ الفصاحة ، وانقيادهم لسلطان البلاغة ، واستجابة خاصتهم وعامتهم لدعاء سادتهم وكبرائهم وأولى النجدة فيهم عند الأمر الحافز[١] ، والخطب الداهم[٢] ؛ لما بين الداعى والمدعوّ من وحدة الجنس واللسان ، وتوافر أسباب التفاهم والبيان

(٣) تفرقهم قبائل مستقلة ، وعشائرَ صغيرة ، وفئاتٍ مُقاتلة ، بحيث يتيسر لكل جمهور منهم الاجتماع فى صعيد واحد ، والاستماع الى خطيب فرد

(٤) تعذر طرق التواصل المنظمة بينهم : كبريد يحمل رسائلَ ضافية ، وكتباً مطولة ، أو برقٍ يوصل أخباراً هامةً ، أو صحف تنشر حوادث عامة ، فكانت الداعية شديدةً الى رسول مُوفَدٍ نابه الشأن ، فصيح اللسان ، قوىّ الحجة

(٥) شن الغارات لأوهى الأسباب ، وافضاء ذلك الى الدفاع عن النفس والعرض والمال ، ثم الى الانتقام ؛ لفراغ أكثرهم مما يشغل الخواطر والجوارح : من صناعة وزراعة وتجارة ، وللخطابة فى ذلك المثل الأعلى ، والقِدْح المعلَّى[٣]

ومن أغراض الخطابة والمقامات التى يخطب فيها ما يأتى :

(١) التحريض على القتال ، والحض على الأخذ بالثار ، وما الى ذلك من تهوين لشأن العدوّ ، أو تنبيه على غِرّةٍ[٤] منه ، أو تهيئةِ تعبئة لملاقاته

(٢) إصلاح ذات البين عند نشوب القتال : فيخطب رؤساء القبيلتين فى تعظيم رزايا الحرب ، وتعديد مصائبها ، والتنفير منها ، أو فى إمكان تحمل دماء القتلى ، ومفاداة الأسرى ، ونحو ذلك .

---

(١) الدافع والسائق (٢) دهمه غشيه (٣) سابع سهام الميسر وهو اكبرها حظاً (٤) غفلة

(٣) المفاخرة والمنافرة ، والمباهاة بقوة العصبية وكرم النِّجار[١] ، وشرف الخصال وعِظَم الفعال : ترهيبًا للطامعين ، وتهديدًا للمعادين

(٤) توضيح المقاصد، وتربية التواصل بالسفارات ما بين سادات قبائلهم وأقيالهم، وبينهم وبين ملوك الممالك المجاورة لهم فى تأمين سبيل ، أو خَفارة دَرْب ، أو إجازة تجارة ، أو استنجادٍ ، أو تهنئة : أو تعزية

(٥) خطبة الإملاك[٢] بترغيب القبيل المخطوب اليه فى قبيل المخطوب له ، وعد فضائله ، وذكر ما يسوقه من المهر ونحو ذلك

(٦) التوصية بفعل الرغائب ، واقتناء المحامد ، والتبصر فى العواقب ، والتروى عند الحوادث ، ويكثر ذلك من حكمائهم وكهانهم لعامتهم ، أو من الآباء لأبنائهم وخاصة عند دنوّ آجالهم

قلة ما ورد من الخطب

وانما لم تصل الينا أخبار خطبائهم الأوائل ، وشىء من خُطَبهم كما كان ذلك فى الشعر؛ لحفلهم قديمًا بالشعر دون الخطابة ، ولصعوبة حفظ النثر

وما عُنِى الرواةُ بنقل أخبار الخطباء وخطبهم الاَّ عند ما حلت الخطابة بعدُ منزلة أسمى من الشعر : لابتذاله بتعاطى السفهاء والعامة له ، وتلوثهم[٣] بالتكسب به والتعرض للحُرَم ، فنبُه بذلك شأن الخطابة ، واشتهر بها الأشراف . وكان لكل قبيلة خطيب، كما كان لكل قبيلة شاعر

أدلتها وسجعها

واذ كان جل القصد من الخطابة إثارة الشعور ، وايقاظ الوِجدان كما هو الشأن فى الشعر ، كان جل الاعتماد فيها على الأدلة المؤثرة فى النفوس ، المهيجة للعواطف ، مُمثَّلة فى صوَرِ العبارات الرائعة ؛ وكثرت فيها الفواصل و الأسجاع لحسن وقعها ، على ما فيها : من استرْواح الخطيب ، وسهولة تدارك المعانى

قصرها

وخطب العرب منها الطوال ومنها القصار ، ولكلٍّ مكانٌ يليق به ، وهم الى القصار أميل : لانطباعهم على الايجاز ؛ ولأنها الى الحفظ أسرع ، وفى الأصقاع أشيع ؛

(١) الأصل (٢) الزواج (٣) تلطخهم

وكانوا يُعْنَوْنَ فى خطبهم ولا سيما القصار منها بسرد كثير من الحكم والأمثال والنصائح ، على أنه قلما رُويت لنا خطبة بنصها وفصها[١] : لفشوّ الأمية فى الجاهلية ولعجز الرواة عن استظهار جميعها ، وانما يحفظون منها ما كان أشدّ قرعاً للسمع ، ووقعاً فى النفس ، بعبارات تتفق فى أصل المعنى ، وتفترق فى بعض اللفظ

قيامهم فيها

وكان من عادة الخطيب فى غير خطب الإملاك[٢] أن يخطب قائماً ، أو على نَشْزٍ من الأرض[٣] ، أو على ظهر راحلته ؛ لابعاد مدى الصوت ، وللتأثير بشخصه ، واظهار ملامح وجهه وحركات جوارحه ؛ ولا غنى له عن لَوْث[٤] العامة ، والاعتماد على مِخْصرة[٥] ، أو عصا ، أو قناة[٦] ، أو قوس ، وربما أشار باحداها أو بيده

صفات الخطيب

وقد كانوا يستحسنون من الخطيب أن يكون رابط الجأش[٧] ، قليل اللحظ[٨] جَهِير الصوت ، مُتَخَيِّر اللفظ ، قوىّ الحجة ، نظيف البِزّة[٩] ، كريم الأصل ، عاملاً بما يقول

أقدم الخطباء

وخطباء العرب كثيرون (من أقدمهم) كعب بن لؤى[١٠] وكان يخطب العرب عامة ، ويحض على البرّ كنانةَ خاصّةً ، ولما مات أكبروا موته ، وأرّخوا به حتى كان عام الفيل . وذو الأصبع العَدْوانى وهو حُرْثان بن مُحَرِّث ، وسمى كذلك لأن حية نهشت إبهام رجله فقطعها

أشهر الخطباء

(ومن أشهرهم) قيس بن خارجة بن سِنان خطيب حرب داحِس والغبراء[١١]

---

(١) النص تعيين الشىء والفص مفصل الشىء • والمعنى أتت معينة مفصلة كما قالها صاحبها بالضبط (٢) التزويج (٣) مرتفع من الأرض (٤) عصب (٥) المخصرة السوط ونحوه وما يأخذه الملك ليشير به أو الخطيب اذا خطب (٦) رمح (٧) النفس أى شجاع (٨) اللحظ النظر بمؤخر العين وهو أشد من الشزر ، والمراد قليل التلفت والنظرات (٩) الهيئة والثياب

(١٠) هو الجد السابع للنبى صلى الله عليه وسلم

(١١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس ، راهنه حذيفة بن بدر الفزارى على أن يسابقه بفرسيه : الخطار والحنفاء ، فوضعت فزارة كميناً فى طريق السباق فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة • فهاجت الحرب بين عبس وفزارة ، ثم بين عبس وذبيان لنصرتها فزارة ، وفى القصة روايات أخرى

وخُوَيلد بن عمرو الغَطَفانىّ خطيب يوم الفِجار[١] . وقسّ بن ساعدةَ الإيادىّ[٢] خطيب عُكاظ . وأكثَم بن صيفىّ زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان – فيما يقال – على كسرى : وهم (أكثَم بن صيفى وحاجب[٣] بن زُرارةَ التميميّان ، والحارث ابن عُبَاد[٤] وقيس بن مسعود[٥] البكريان ، وخالد بن جعفر[٦] وعلقمة بن عُلاثة[٧] ، وعامر بن الطُّفَيل[٨] العامريون ، وعمرو بن الشَّريد السُّلَمى[٩] وعمرو بن معدِيكرب الزُّبيدى[١٠] ، والحارث بن ظالم المُرّى[١١])

---

(١) يوم الفجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وكان عمره أربع عشرة سنة ، وسميت كذلك لأنها كانت فى الأشهر الحرم (٢) ستأتى ترجمة قس وأكثم

تراجم مختصرة للخطباء

(٣) سيد من سادات تميم ، وهو الذى وفد على كسرى حين منع تميما من ريف العراق حتى أصابهم القحط ، فأعجب به ومنحه مطلبه ، وتعهد له حاجب بحسن الجوار ، ورهن عنده قوسه على ذلك فقبلها منه ، وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد باربعة آلاف درهم

(٤) كغراب كان خطيباً مؤثراً ، وشاعراً بليغاً ، وله عمل جليل فى الحرب التى نشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها ، وله فيها قصيدة مشهورة منها :

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال

(٥) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذى الجدين ، كان كريماً عالى الهمة من أفضل العرب حسباً ونسباً وكانت تقر له القبائل كلها بذلك بل هى وكسرى أيضاً ، وكان له حظيرة فيها مائة من الابل لأضيافه إذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها (٦) سيد من سادات بنى عامر ، خلص قومه من العبودية لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن جذيمة (٧) خطيب بليغ اشتهر فى قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح (٨) هو ابن عم لبيد الصحابى شاعر متين ، وفارس من أشهر فرسان العرب نجدة ، وأبعدهم اسماً ، ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان إذا قدم عليه قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر فان كانت بينه وبينه رحم واشجة ، قربه وأكرمه

(٩) هو أبو السيدة تماضر الخنساء يميل الى الفخر والصراحة فى القول ولقد بلغ من تغاليه فى ذلك أنه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخراً فى المواسم العامة ويقول أنا أبو خيرى مضر فمن أنكر فليغير فلا يغير ذلك عليه أحد (١٠) خطيب شاعر ، وفارس قاهر ، وصحابى جليل ، شهد اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر فى سنه وضعف فى جسمه وستأتى ترجمته فى المخضرمين (١١) كان شجاعاً فاتكا ، وخطيباً شاعراً ، يميل الى معاقرة الخمر . وهو الذى قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله أباه وكثيراً من قومه

نماذج من الخطب والوصايا

قال هانئ بن قَبِيصَة الشَّيبانى لقومه فى يوم ذى قار وهو يحرضهم :

يا معشر بكر : هالك معذور ، خير من ناج فَرور ، إن الحذر لا يُنجى من القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ، ولا الدنية . استقبال الموت خير من استِدبَاره . الطعن فى ثُغَر[1] النحور ، أكرم منه فى الأعجاز والظهور . يا آل بكر . قاتلوا فما للمنايا من بدٍّ

وخطب مَرْثَد الخير أحد أقيال حمير فى الصلح بين سُبيع بن الحارث أخى ذى جَدَن ، ومِيثَم بن مثوب بن ذى رُعَين حين تنازعا الشرف وتشاحنا حتى خيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جِذماهما[2] فقال :

إن التخبط[3] وامتطاء الهَجاج[4] ، واستحقاب اللَّجاج[5] ، سَيَقِفُكما على شَفا هُوَّة[6] فى تَوَرُّدها بَوار الأصيلة[7] ، وانقطاع الوَسيلة . فتلافيا أمركما قبل انتكاث[8] العهد ، وانحلال العقد ، وتشتُّت الألفة ، وتباين السُّهمة[9] ، وأنتما فى فُسحة رافهة[10] ، وقدم واطِدة[11] ، والمودة مُثْرية[12] والبُقيا مُعرضة[13] ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى الى التقاطع ، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوق سعيهم ، وكيف كان صيُّور[14] أمورهم . فتلافَوُا القَرحة[15] قبل تفاقم الثَّأى[16] ، واستفحال[17] الداء ، وإعواز الدواء ، فانه إذا سُفكت الدماء ، استحكمت الشَّحناء ، وإذا استحكمت الشحناء ، تقضبت[18] عُرى الإبقاء ، وشمِل البلاء

---

(١) جمع ثغرة وهى نقرة النحر بين الترقوتين (٢) أصلاهما (٣) السير على غير هدى (٤) أى ركوب الرأس وعدم التروى (٥) والاحتزام بالخصومة أى التمسك بها (٦) حافة حفرة (٧) هلاك الأصل (٨) انتقاض (٩) القرابة (١٠) ناعمة (١١) ثابتة (١٢) متصلة (١٣) ممكنة (١٤) عاقبة (١٥) أى الجرح (١٦) الافساد (١٧) اشتداده (١٨) تقطعت

ومن منافرة عامر بن الطفَيل مع علقمة بن عُلاثة :

قال علقمة – الرياسة لجدى الأحوص وانما صارت الى عمك أبي بَراء من أجله ، وقد استسنّ [١] عمك وقعد عنها فأنا أولى بها منك ، وان شئت نافرتك . وقال عامر : قد شئت ؛ والله لأنا أشرف منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول قصباً [٢] قال علقمة : أنافرك : وانى لبرٌّ وانك لفاجر ، وانى لولود وانك لعاقر ، وانى لوافٍ وانك لغادر . قال عامر : أنافرك وانى أنشَر منك أُمَّة [٣] ، وأطول قِمَّة ، وأحسن لِمَّة [٤] وأجعد جُمَّة [٥] ، وأبعد همة . قال علقمة : أنا جميل وأنت قبيح ، ولكن أنافرك ، أنا أولى بالخيرات منك . فخرجت أم عامر وقالت نافره : أيكما أولى بالخيرات ؟ ففعلوا على مائة من الإبل وحكّموا هَرِماً الفَزارىّ فلم يفضل أحدهما على الآخر حتى لا تكون فتنة بين الحيّين

وخطب أبو طالب حين تزوج النبيُّ صلى الله عليه وسلم السيدةَ خديجة

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابرهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى مَن لا يُوازَنُ به فتى من قريش الأرجح [٦] عليه بِرًّا وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونُبلاً [٧] ، وان كان فى المال قُل [٨] فانما المال ظل زائل ، وعاريّة [٩] مسترجَعَة . وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك . وما أحببتم من الصداق [١٠] فعلىّ

لما احتُضِر ذو الأصبع العَدْوانى دعا ابنه أسِيداً ليوصيه فقال :

يا بُنَىَّ إن أباك قد فنِي وهو حىّ ، وعاش حتى سئم العيش ، وانى موصيك بما

---

(١) كبرت سنه (٢) القصب عظام اليدين والرجلين ونحوهما والمراد طول قامته (٣) أى أكثر قوما (٤) اللمة الشعر المتجاوز شحمة الأذن (٥) مجتمع شعر الرأس (٦) فاق (٧) ذكاء ونجابة (٨) قلة (٩) ما تداوله الناس بينهم (١٠) المهر

ان حفظته بلغتَ فى قومك ما بلغتُه ، فاحفظ عنى : أَلِن جانبك لقومك يُحبوك ، وتواضع لهم يَرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يُطيعوك ، ولا تستأثِر عليهم[1] بشىء يسَوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم ، يكرمْك كبارهم ، ويكبَرْ على مودتك صغارهم . واسمح بمالك ، واحم حريمك وأعزز جارك ، وأعِنْ من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصَّريخ[2] ، فان لك أجلاً لا يَعدوك ، وصُن وجهك عن مسألة أحد شيئاً فبذلك يتم سؤدُدُك

وقال مرْوان بن زِنباع العبسى :

يا بنى عبس ! احفظوا عنى ثلاثا : اعلموا أنه لم يَنقُل أحد اليكم حديثاً الاَّ نقل عنكم مثله ، واياكم والتزويجَ فى بيوتات السوء ؛ فان له يوماً ناجثاً[3] ، واستكثروا من الصديق ما قدرتم ، واستقلوا من العدوّ فان استكثاره ممكن

قُس بن ساعدة الإيادىّ

هو خطيب العرب قاطبة ، والمضروب بهِ المثل فى البلاغة والحكمة والموعظة الحسنة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو العرب الى نبذ العكوف على الأوثان[4] ، ويُرشدهم الى عبادة الخالق ، ويَخْطُبهم بذلك فى المحافل العامة . ومواسم الأسواق ، ويقال إنه أوَّل من خطب على شرَف ، وأوّل من قال فى خطبه (أما بعد) . وأول من اتكأ على سيف أو عصا فى خطابته . وكان الناس يتحاكمون اليه فيقضى بينهم بسديد رأيه ، وصائب حكمه ، وهو القائل (البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر) وكان قس يفد على قيصر ويزوره . فقال له يوماً : ما أفضل العقل ؟ قال معرفة المرء بنفسه ، قال فما أفضل العلم ، قال : وقوف المرء عند علمه ، قال فما أفضل المروءة ، قال استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال فما أفضل المال ، قال ما قضى به الحقوق .

---

(١) تختص بالحسن (٢) أى عند الصريخ وهو نداء المستغيث (٣) الناجث الحافر ، والنجيثة ما يخرج من تراب البئر ، يريد كاشفاً (٤) الأصنام

وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يخطب فى عكاظ على جمل أورَق[١] فعجب من حسن كلامه وأظهر من تصويبه ، وأثنى عليه ؛ وعُمِّر قسٌ طويلاً ومات قبيل البعثة

وقد كان مهذَّب الألفاظ ، قويّ التأثير ، بعيداً عن الحشو واللغو فى كلامه . وسجعه كما سترى ، قصير الفواصل ظاهر على مرسله

ومن خطبه خطبته التى خطبها فى سوق عكاظ وهى كما فى صبح الأعشى[٢]

أيها الناس . اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آتٍ آتٍ ليلٌ داج[٣] . ونهارٌ ساج[٤] . وسماء ذات أبراج[٥] . ونجوم تزهَر[٦] . وبحار تزْخَر[٧] وجبال مُرساة ، وأرض مُدحاة[٨] وأنهار مُجراة . ان فى السماء لخبرا[٩] ، وان فى الأرض لعِبَرا ، ما بالُ الناس يذهبون ولا يرجِعون ، أرضُوا فأقاموا ؟ ، أمْ تُرِكوا فناموا . يُقسم قُسٌّ بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه . أنكم لتأتون من الأمر منكراً .

ويُروَى أن قساً أنشأ بعد ذلك يقول :

فى الذاهبين الأولـــــين من القرون لنا بصائر[١٠]
لمـا رأيت موارداً للموت ليس لها مَصَادِر[١١]
ورأيت قومِيَ نحوها تمضى : الأكابرَ والأصاغر
لا يرجع المـاضى إلىَّ م ولا من الباقين غابر[١٢]
أيقنت أنى لا محـا لة حيث صار القوم صائر

(١) الاورق من الابل ما فى لونه بياض الى سواد (رمادى)

(٢) صفحة ٢١٢ من الجزء الأول طبعة سنة ١٣٣١ هـ بالمطبعة الأميرية

(٣) مظلم (٤) الساجى الساكن والدائم (٥) البرج واحد الأبراج : وهى اثنا عشر برجاً تقابلها الشمس فى طريقها طول السنة . والبرج صورة من مجموعة كواكب تشبه صورة حيوان أو غيرة (٦) تضىء وتتلألأ (٧) تطمى وترتفع (٨) مدحوّة أى مبسوطة وانما جاءت على هذا الوزن لمشاكلة أخواتها فى اللفظ (٩) أى أن فى صنع السماء لدليلا على خالق عظيم (١٠) جمع بصيرة وهى العلم والخبرة (١١) ورد الماء أتاه ليشرب ، وصدر عنه شرب ورجع أى تذهب الناس للموت ولا تعود (١٢) مقيم

اكثم بن صيفى

هو من أبلغ حكماء العرب ، وأعرفها بأنسابها ، وأكثرها ضربَ أمثال ، واصابةَ رأى ، وقوةَ حجة . كان خطيباً مِصْقعاً[١] ؛ وحَكَماً مُوفَّقاً ، رفيع المكانة فى قومه ، يُعدّ من أشرافهم ومن كبار المحكَّمين فيهم ؛ وقَلَّ من جاراه من خطباء عصره فى معرفة الأنساب ، وضرب الأمثال ، والاهتداء لحل المشكلات ، والسَّداد فى الرأى . وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى ، وكلهم خطباء مصاقع ، ولسُنٌ مقاول . ولقد بلغ من إعجاب كسرى به أن قال لهُ : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . وقد عُمِّر طويلاً حتى أدرك مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وجمع قومَه وحثَّهم على الايمان به . وفى إسلامه رواياتٌ

وكان فى خطبه قليل المجاز ، حسن الإيجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعانى ، مُولَعاً بالأمثال ، لا يلتزم السجع ، يميل الى الاقناع بالبرهان ، ويعتمد فى خطابته على قوة تأثيره وشدة عارضته[٢] لا على المبالغة والتهويل ؛ ومن جيد خطبه خطبته أمام كسرى وهى :

ان أفضل الأشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكهم ، وافضل الملوك أعمُّها نفعاً . وخيرَ الأزمنة أخصبُها . وأفضلَ الخطباء أصدقُها . الصدق مَنْجاه . والكذب مَهواه والشرُّ لَجاجة[٣] ، والحزم مركَب صعب . والعجز مركَب وَطىء[٤] . آفة الرأى الهوى . والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، وحسنُ الظن وَرْطة[٥] ، وسوء الظن عِصْمَة . إصلاحُ فساد الرعيَّة خير من إصلاح فساد الراعى . من فسدت بِطانته[٦] كان كالغاصّ[٧] بالماء . شر البلاد بلاد لا أمير بها . شر الملوك من خافه البرىء .

---

(١) المصقع البليغ أو العالى الصوت أو الذى لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع (٢) البيان واللسن والجلد والصرامة والقدرة على الكلام (٣) اللجاج واللجاجة تماحك الخصمين وتماديهما أى أن أصل الشر اللجاجة (٤) سهل لين (٥) الورطة الهلكة وكل أمر تعسر النجاة منه (٦) أصحابه وأصدقاؤه (٧) الشرق بالماء

المرء يعجز لا المحالة [1]. أفضل الأولاد البَرَرَةَ. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلّغك المَحلّ. حسبُك من شرّ سماعُه. الصَّمتُ حُكمٌ [2] وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدّد نفّر، ومن تراخى تألّف

(١) الحيلة (٢) الحكم: الحكمة، ومنه قوله تعالى «وآتيناه الحكم صبياً» والمعنى أن استعمال الصمت حكمة وقل من يستعمله

الكتابة

نشأة الخط العربي

يراد بالكتابة عند الأدباء صناعة انشاء الكتب والرسائل ، واذ كانت الكتابة بهذا المعنى تؤدّى بالنقوش المسماة بالخط ، ناسب أن نُشِير هنا الى نشأة الخط العربىّ فنقول :

أوّل حلقة من سلسلة الخط العربىّ هى الخط المصرى القديم ، ومنه اشتق الخط الفينيقىّ (١) ومن هذا اشتق الآرامىّ (٢) والمسندُ بأنواعه : الصَفوىّ والثمودىّ واللِحيانىّ شمالىّ جزيرة العرب والحميرىّ جنوبيّها . ومن هنا اختلف رأى رواة العرب ورأى باحثى الأفرنج ، فيرى باحثو الأفرنج أن قد تولّد من الخط الآرامىّ خطوط منها النبَطى (٣) والسريانىّ ؛ والأوّل يظهر فى حروفه الاتصال ، ومنه أخذ أهلُ الحِيرة والأنبار خطهم النسخىّ المنسوبَ اليهم ، ومنهما وصل الى أهل الحجاز . والثانى اشتق العرب من نوع منه (يسمى بالسَّطْرنْجِيلى) خَطّهم الكوفى

رأى الافرنج فيه

رأى العرب

أما رواة العرب قبل الاسلام وبعده فانهم يقولون : انهم أخذوا خطهم الحجازىّ عن أهل الحيرة والأنبار ، وهما عن كِندة (٤) والنبط (٥) الناقلين من المسند

أدلتهم

ونحن نرى رأيهم لأسباب : منها العثورُ على فروع من الخط المسند فى أراضى النبط وشماليها ، بعضها وهو الصفوى قريب الشبه جدًّا من أصله الفينيقى

(١) الفينيقيون سكان أرض كنعان وكانت على ساحل البحر الأبيض بمحاذاة جبل لبنان

(٢) الآرام الأمم السامية القديمة التى كانت تسكن شمالى بلاد العرب فى فلسطين والشام والعراق

(٣) مملكة الأنباط كانت فى القرن الأول قبل الميلاد تتسع من شمالى الحجاز الى نواحى دمشق أى كانوا يملكون مدين وخليج العقبة والحجر وفلسطين وحوران

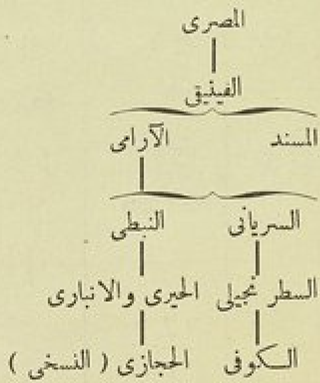
(٤) يعلم ذلك مما قاله ابن عباس حين سئل عن أصل الخط العربى . وخلاصته أن قريشاً أخذته عن حرب بن أمية وهو عن عبد الله بن جدعان أو بشر بن عبد الملك أخى أكيدر صاحب دومة الجندل ، وهما عن أهل الحيرة والانبار عن طارئ طرأ عليهم من اليمن من كندة

(٥) يعلم ذلك من رواية المسعودى وابن الكلبي وهى أن بنى المحصن بن جندل بن يعصب بن مدين هم الذين نشروا الكتابة بريد النبط

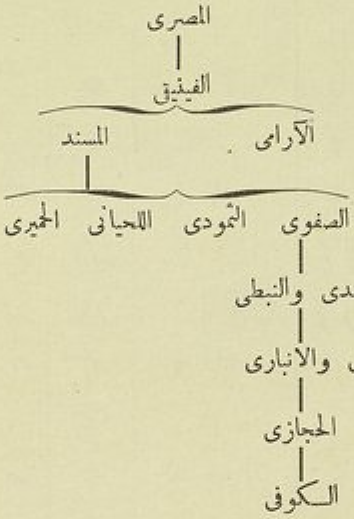
ومنها وجود حروف الروادف وهى : ثخذ ضظغ فى الخط المسند دون الآرامى .
ومنها صريح الاجماع من رواة العرب على أن الخط العربى مأخوذ من الحيرى والأنبارى ، وهو مأخوذ من المسند على يد كندة والنبط

أما الكوفى الذى لم يعرف إلاَّ بعد تمصير الكوفة فليس إلاَّ نتيجة هندسةٍ ونظام فى الخط الحجازى . ولعل شبهة الأفرنج آتية من شيوع استعمال السطر نجيلى والكوفى فى الكتابة الجَلية على المعابد والمساجد والقصور وما شاكلها ، مع شدَّة تشابه ما فيهما من الزخرفة والزينة

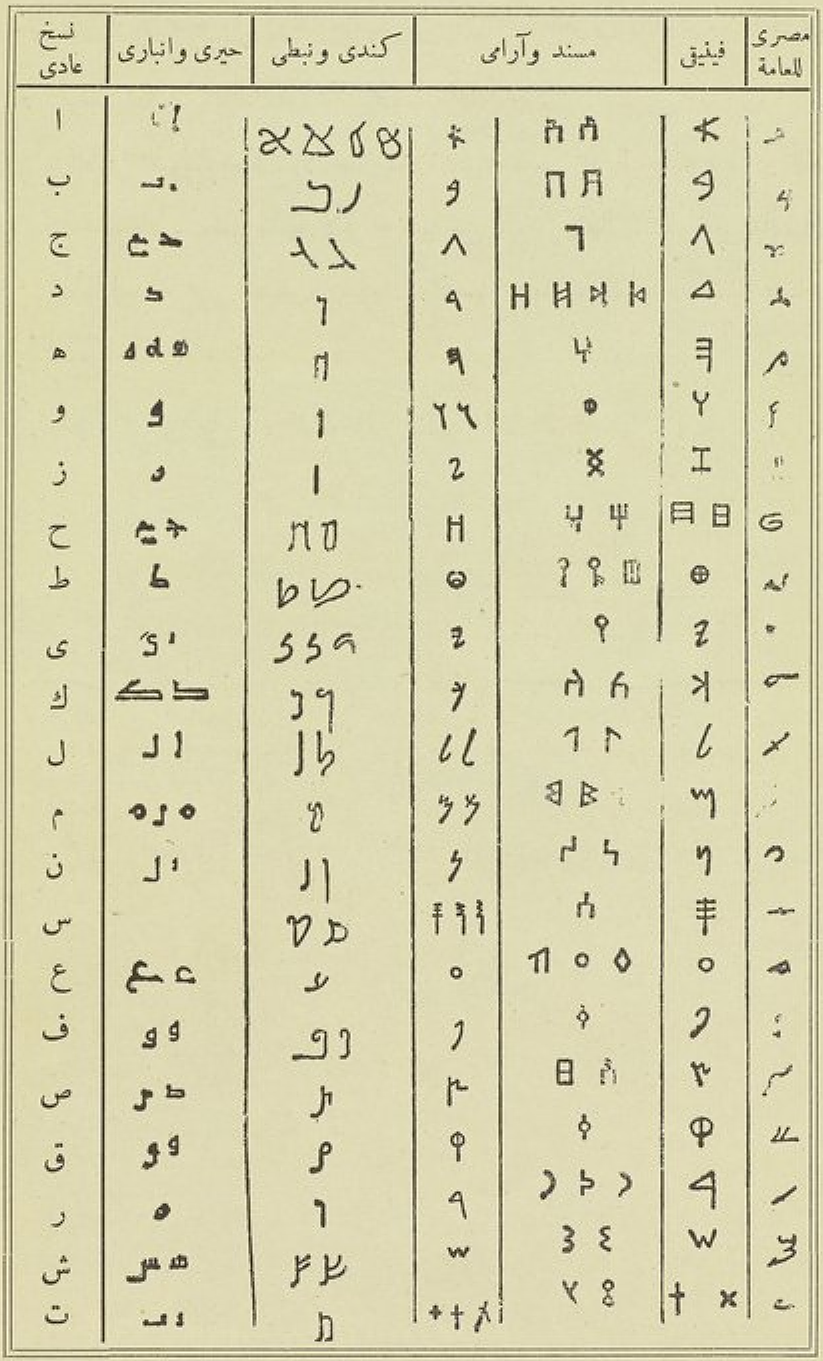
سلسة الخط العربى على رأى رواة العرب



سلسة الخط العربى على رأى الأفرنج



وهاك جدولاً يبين لك نشأة هذه الخطوط المختلفة على رأى العرب :



كتابة الرسائل والفنون

أما الكتابة بمعنى إنشاء الكتب والرسائل ، فهى لازمة لكل أمة متحضرة ذات دولة منظّمة ، ودواوين متعدّدة ، وصناعات متنوّعة ، وتجارة رائجة ، وزراعة نامية ، وفنون مختلفة ، وقد كان بعض ذلك موفوراً فى ممالك التبابعة جنوباً ، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالاً : ولذلك استعمل الخط المسند الحميرى عند الأولين من عهد مديد ، والأنبارى الحيرىّ عند الآخرين ، وإنما لم يصل الينا شىء من رسائل تلك الأمم ولا من كتب فنونها ودينها غير ما عُثر عليه فى بقايا خرائبهم وسدود مياههم وبعض دفائن الأحجار والقبور : لتقادم عهد أهلها وعدم استكمال البحث بعدُ فى بلادها . ولعل الزمان يُعثِرنا على شىء منها

استعمالها فى الشمال والجنوب

كتاب الجاهلية

ولم يعرّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتاب هذه الصناعة الاّ بلَقِيط بن يعمَر الإيادى وعَدِىّ بن زيد العِبادىّ (١) وابنه ، وكانوا كتاباً وتراجمة عند كسرى

أما أهلُ البدو من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مضرَ وبعضُ القحطانيين فكانوا أميين ، ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الانشائية الاّ بعد أن عرفوا الخط آخر عصور الجاهلية ، وهو ما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون فى بدء رسائلهم باسمك اللهمّ ، ومن فلان الى فلان ، وأما بعد(٢). ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق إلاّ بقيام الإسلام فهو الذى أفشى فيهم الخط والكتابة

جهل الكتابة فى أهل البدو

كتابة التدوين والتصنيف

ولما كانت علوم كل أمة — وخاصة اللسانية منها — لها الأثر العظيم فى تكوين فكر الأديب ، وخيال الشاعر ، والبلاء الحسن فى تقويم اللسان ، وتوفير مادّة اللغة ، وكانت كتابتها قسماً قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين(٣) والتصنيف(٤) — ناسب أن تُعرَّف موضوعاتها ويؤتى على خلاصة نشأتها فى تاريخ الأدب

---

(١) نسبة الى عباد ككتاب وهم قبائل شتى من العرب اجتمعوا على النصرانية بالحيرة

(٢) وقد عثرنا على وصية مطولة كتب بها اكثم الى طيء

(٣) تدوين الكتاب جعله ديواناً ، والديوان مجتمع الصحف ، والكتاب والدفتر ما يكتب فيه

(٤) تصنيف الأشياء جعلها صنوفاً ، وتمييز بعضها من بعض ، ومنه تصنيف الكتب أى لأنه جمع كل طائفة متشابهة من المسائل فى باب ، فالتدوين أعم من التصنيف

﴿ علوم العرب وفنونها ﴾

العلومُ والصناعاتُ لازمة لحضارة الأمم ، متناسبةٌ معها ؛ ومن العرب أهلُ حضارة دلت عليها دولهم العظيمة ، وقِدَمُ تاريخهم وآثارُهم الخالدةُ ، وهم التبابعة فى اليمن والمناذرةُ والغساسنة فى الشمال ، وإذاً تكون هندسة إرواء الأرض وعِمارة المدن ، والحساب ، والطبُّ ، والبَيْطَرَةُ ، والزراعةُ ونحوُها معروفةً فى الجنوب والشمال، مدوّنة فى الكتب ، وان لم يحفظ لنا الدهرُ صوراً منها . أما أهل البدوُ منهم وان كانوا أمّيين ، يمقتُون الصناعاتِ ويتنقَّصُونَ أهلها فلا غنًى لهم عن تجربة ترشدهم الى ما ينفعهم فى بواديهم المقفرة ، ومجاهلهم الطامسة . ليعلموا ما به تصح أنفسهم وأنعامهم ، وتُستطلَع خفايا أمورهم ، وتدوّن فيه مفاخرهم ؛ وليعرفوا متى تجودُ السماء . وبم يتميز الأقرباء من البعداء ، فكسبهم ذلك علمَ النجوم ، والطب الضروريّ ، والأنساب والأخبار ، ووصف الأرض والفِراسة ، والعِيافة ، والقِيافة والكِهانة ، والعِرافة والزجر ، وقرض الشعر

علم النجوم — هو معرفة أحوال الكواكب : من طلوعها ، وغروبها ، وألوانها وأنوائها ، ومواضعها ، وقِرانها ، وصورِ أفرادها وجماعاتها ؛ وما يرتبط بها : من حرّ وبَرد ، وأمطار ورياح ، واعتدال زمان ، ونتاج حيوان ، الى غير ذلك : مما تمس اليه حاجتهم ، وتدعو اليه ضرورتهم . وقد كانوا أبرع فى هــذا العلم منهم فى كل علم سواه تعرفه عامتهم (١) قبل خاصتهم : للاهتداء به فى ظلمات البر والبحر ومعرفة أزمنة الخِصب والمَحْل ، وبعضُ معارفهم فيه مستمدّ من الكَلْدان :

علم النجوم

(١) قال الاصمعي : كان شيخ من الاعراب فى خبائه وابنة له بالفناء اذ سمع رعداً فقال ما ترين يابنية ؟ قالت أراها حوّاء قرحاء ، كأنها أقراب أتان قمراء ، ثم سمع راعدة أخرى فقال كيف ترينها ؟ قالت أراها جمة الترجف ، متساقطة الاكناف ، تتألق بالبرق الولاف . قال هلمى المغرفة انتثى نؤيا

لاختلاطهم بهم ، ولاتفاق اللغتين فى بعض أسماء الكواكب والبروج ؛ ومن أشهرهم فيه بنو حارثة بن كلب ، و بنو مُرَّة بن همام الشَّيبانى

الطب والبيطرة

الطب الانسانى والحيوانى (البيطرة) — وقد عاناه من العرب كثيرون اكتسبوه بحذقهم وتجاربهم ومما نقلوه عن غيرهم ، يدل لذلك كثرة ما تجده فى لغتهم من أسماء الأمراض ، والأدوية ، وأسماء الأعضاء الباطنة والظاهرة وأوصافها المختلفة وأجزائها الدقيقة ، وكانوا يعالجون بالعقاقير[1] تارة و بالعزائم والرُّقَى[2] أخرى ، وأطواراً يستعملون الحجامة[3] والكىّ بالنار . ومن أمثالهم (آخر الدواء الكىّ) . ومن مشهوريهم الحارث بن كَلَدة الثقفىّ وابن حِذْيَم التَيْمِىّ

الانساب

الانساب — علم تُتَعرَّف به القرابات التى بين بعض القبائل و بعض فتلحق فروعها بأصولها . و إنما دعاهم الى العناية به حاجتُهم الى التناصر بالعصبية : لكثرة حروبهم ، وتفرُّق قبائلهم وأنفتهم من أن يكون لغريب عنهم سلطانٌ عليهم ، وحبِّهم الافتخارَ بأسلافهم ، ولذلك كانوا يحفظون أنسابهم ، ويروُونها أبناءهم ، ويحافظون عليها جهدَهم . وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب دَغْفَل بن حنظلة الشَّيبانىُّ وزيدُ بن الكيِّس النَمَرى ، وابن لسان الحُمَّرة

الاخبار والتاريخ

الأخبار والتاريخ والقصص — هى معرفة أحوال السابقين ، وكانوا يعرفون منها ما كان عليها أسلافهم و بعض مجاوريهم من الأحوال المأثورة ، ووقائع أيامهم المشهورة ، وهى كغيرها من أخبار الأمم القديمة بعضها صحيح و بعضها حديثُ خُرافة . وقد جاءنا منها شىء ليس بالقليل فى شعرهم ونثرهم وأمثالهم : كقصة الفيل

---

(١) جمع عقار ككتان وعقير كسكيت ما يتداوى به من نبات وغيره

(٢) العزائم جمع عزيمة من عزم الراق على الداء والجن والأرواح كانه أقسم عليها ، والرقى جمع رقية وهى ما يتلوه الشخص فى ذلك

(٣) صناعة الحجام ، والحجم مص الدم من المريض باداة تسمى المحجم

وحرب داحس والغبراء، وحرب البَسوس[١]، ويوم ذى قار[٢]، وحرب الفجار

وصف الأرض

وصف الأرض — هو معرفة كل بقعة وما يجاورها وكيف يهتدى اليها .

ومن قرأ شعر العرب فى نسيبهم، وأطلع على وصف أطلالهم[٣]، ودِمَنهم[٤] ومصايفهم ومرابعهم، وكيف كانوا يحدّون الحقير منها بحدود قلّما تُحَدّ بها مملكة عظيمة — عرف شدّة حِذقهم بمعرفة بلادهم مما كان له الفائدة الجُلّى فى إمداد علم وصف الأرض (الجغرافية) بمواضع بلادهم وطبائعها

الفراسة

الفراسة — هى الاستدلال بهيئة الانسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله، وقد نبغ فيها من العرب من لا يحصى عددهم، ولهم فى ذلك نوادر شتّى[٥]

القيافة

القيافة — ضرب من الفراسة منشؤه قوة الخيال والحافظة والذكاء : وهى الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها، أو الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسَبه، وربما خصوا النوع الأول باسم العيافة؛ وللعرب فى ذلك أمور تدخل فى عداد

---

(١) هى حرب دامت بين بكر وتغلب أربعين سنة، وسببها أن رجلا من قبيلة جرم نزل ضيفاً على البسوس التميمية خالة جساس بن مرة البكرى، وللجرمى ناقة أخذت ترعى مع ابل كليب سيد تغلب، وكان جباراً يحمى أرضه أن ترعى فيها ابل غيره، فبصر بناقة الجرمى بين ابله فرماها بسهم فى ضرعها فولت تصيح الى فناء صاحبها، فاستغاث بام مثواه البسوس فصاحت : واذلاه، فانتهز جساس غرة من كليب وقتله غيلة، فنشبت الحرب بين القبيلتين

(٢) موضع بقرب الكوفة كان به يوم لبنى شيبان وعجل على الفرس، وهو أول يوم انتصف فيه العرب من العجم

(٣) الطلل الشاخص من الآثار (٤) الدمن وهى جمع دمنة وهى آثار الناس وما سودوه بالرماد والسرجين (٥) منها ما يقال أن أولاد نزار ذهبوا الى الأفعى الجرهمى ليحكم بينهم فى ميراث أبيهم وبينما هم فى الطريق اذ رأى مضر كلأ قد رعى فقال ان البعير الذى رعى هذا أعور، وقال ربيعة هو أزور، وقال إياد هو أبتر، وقال أنمار هو شرود وبعد قليل لقيهم رجل ينشد بعيره فوصفوه كما تفرسوا فتعلق بهم وذهبوا الى الأفعى الجرهمى فقال كيف وصفتموه ولم تروه، فقال مضر رأيته يرعى جانباً ويترك آخر فعرفت أنه أعور، وقال ربيعة رأيت احدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدته فعرفت أنه أزور، وقال اياد رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر، وقال انمار رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوزه الى غيره فعرفت أنه شرود . فقال الجرهمى لصاحب البعير اطلب بعيرك من غيرهم . ثم قال لهم أتحتاجون الىّ وأنتم كما أرى ؟

المستحيلات ، فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير ، والأحمق والكيّس ، واذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وعرفوا الأجنبى من بينهم — وممن اشتهر بالقيافة بنو مُدْلِج[١] ، وبنو لِهْب[٢] . ولا يزال هذا العلم باقياً عند عرب البوادى الى الآن

الكهانة والعرافة

الكهانة والعرافة — وهما القضاء بالغيب ، وربما خُصَّت الكهانة بالأمور المستقبلة والعرافة بالماضية ، وطريقهم فى ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية : لما بينهما من المشابهة الخفية ، أو المناسبة البعيدة ، أو الارتباط الدقيق ، ويحتاج صاحبهما الى كثرة التجارب وحدّة الذكاء وصدق الفِراسة

وللعرب فى الكهّان اعتقاد عريض : لزعمهم أنهم يعلمون الغيبَ ، فيرفعون اليهم أمورهم للاستشارة ، ويستقضونهم فى الخصومة ، ويستفسرونهم عن الرُّؤى ، ويستطبُّونهم فى أمراضهم . وممن اشتهر من الكهّان شِقٌّ أنمار ، وسَطِيحٌ الذئبى ، ومن الكواهن طريفةُ[٣] الخير ، وسَلمى[٤] الهمْدانية ، ومن العرّافين عراف نجد : الأبلقُ الأسدى ، وعراف اليمامة : رَباح بن عَجَلة

الزجر

الزجر — وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال والاسترسال فيه . ومن أشهر الزجّارين بنو لهب وأبوذؤيب الهُذَلىّ ، ومُرة الأسدى

ومن العرب من لم يعبأ بالزجر وما شاكله كالمرقّش الشاعر ، ولبيد بن ربيعة ، ومن قوله فى ذلك .

لعمْرُك ما تدرى الطوارق[٥] بالحصَى ولا زاجِراتُ الطيرِ ما الله صانع

---

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الأزد (٣) زوج عمرو بن عامر مزيقياء : أحد ملوك اليمن (٤) بنت سيد همدان (٥) الطرق بالحصى هو ضرب الحصى بعضه ببعض والقاؤه للنظر فيه كما يفعل بعض النساء بالودع

النظم

الشعر والشعراء

﴿ الشعر ﴾

الشعر عند العرب

النظم هو القسم الثانى من قسمى الكلام . وعرَّفه العَرُوضيون بأنهُ الكلام الموزون المقفى قصداً ؛ ويرادفه الشعر عندهم . أما المحققون من الأدباء فيخُصُّون الشعر بأنه الكلام الفصيح الموزون المقفى المعبر غالباً[١] عن صور الخيال البديع . وإذ كان الخيال أغلب مادَّته أطلق بعض[٢] العرب تجوّزاً[٣] لفظ الشعر على كل كلام تضمَّن خيالاً ولو لم يكن موزوناً مقفى . وهو يوافق رأى قدماء الأفرنج ومُحْدَثيهم فى شعرهم ، ورأى المناطقة أيضاً : لأن المنطق مستمد من اليونان .[٤]

تأثير الشعر

ولجَريه وَفق النظام الممثَّل فى صورة الوزن والتقفية ، وظهوره فى حُلل الخيال الرائع ، كان تأثيره فى النفس من قبيل إثارة الوِجْدان والشُعور بَسْطاً وقبضاً وترغيباً وترهيباً ، لا من قبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة ، والبرهان العقلىّ . ولذلك يجمُلُ أثره فى إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس ، لا فى الحقائق النظرية ولاريب أن النفس ترتاع بصور المحسوس الباهر[٥] وما انْتُزِع منه من الخيال الجَلىّ[٦] لخفة

---

(١) وقد يعبر به عن الحقائق الثابتة من غير مدخل للخيال فيها كأبيات الحكم والمواعظ والأمثال

(٢) فقد قال حسان لابنه (شعر ورب الكعبة) حينما سمعه يصف الحيوان الذى لسعه بقوله : « كأنه ملتف فى بردى حبرة » ومن هذا تسمية بعض علماء الأدب عندنا النثر المسجوع المعتمد على الخيال من مثل مقامات الهمذانى والحريرى ، ورسائل القاضى الفاضل ، ونسيم الصبا شعراً منثوراً . وأما تسمية بعض المعاندين من كفار العرب القرآن شعراً والنبي شاعراً . فذلك من باب العناد أو الحيرة والدهشة : لأنهم كما سموه شعراً سموه سحراً وكهانة وقصصاً لاساطير الأولين

(٣) من باب اطلاق الجزء على الكل (٤) ومن هنا يظهر وجه شبهة بعض كتاب عصرنا ممن درس أدب لغة الافرنج فى خلطهم بين مذهب القوم ومذهب العرب فى الشعر الحقيق

(٥) بهره غلبه أما بقوته وشدته وأما بحسنه وجماله (٦) أى فى الحسن أو القبح

مئونته عليها ، واراحته لها من المعاناة والكدّ ، فكيف إذا انضم الى ذلك نغمُ الوزن والقافية الشديد الشبه بتأثير الإيقاع[1] والتّلْحين[2] الذى يَطْرَبُ له الحيوانُ بَلْهَ الانسان

سبب انطباع العرب على الشعر

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشعر : لبداوتهم ، وملاءمة بيئتهم لتربية الخيال ، فالبدوىّ لحرّيته واستقلاله بأمر نفسه ، وعدم خضوعه لسيطرةٍ مُذِلّة ، أو لقوانين نظرية ، أو سلطانٍ قاهر ، يغلِب على أحكامه الوِجدانُ ، ويُسْلكُ اليه من طريق الشعور ؛ ومعيشَتهُ فوق أرض نقية التُّرْبة ، مبسوطة الرُّقعة ، مَجْلوّة الآفاق ، وفيرة الوَحْش والطير ، وفى جوّ صحيح الهواء ، وتحت سماء صافية الأديم ، ساطعة الكواكب ، ضاحيةِ الشمس ، سافرةِ البدر ، جَلت لحِسّه مناظرَ الوجود ، وعوالمَ الشُهود ، فكان لخياله من ذلك مادةٌ لا يغورُ ماؤها ، ولا يَنْضُبُ معينُها ، فهام بها فى كل واد ، وأفاض[3] منها الى كل مراد ؛ وكان له من لغته وفصاحةِ لسانه أقوى ساعد . وأكبر معاضد

مرتبة الشعر فى الوجود

ويَشْعُرُ الانسان بطبعه أن الشعر متأخر فى الوجود عن النثر ضرورةَ تأخر المقيد عن المطلق . وان كانت واسطةٌ بين النثر المرسل والشعر ، فليست إلاَّ السجع لما فيه من معادلة الفِقَر ، والتزام القافية ، والميلُ الى التغنّى به ، كما يشاهدُ ذلك فى صِغار الصبيان ؛ فيظن أن مُتَغَنّيًا بسجع وقع له سجعتان متوازنتان وزنًا سهلاً (قيل إنه الرَّجز) فأعجبه ذلك ومضى فيه ، وتمَّت له قطعة من الشعر ، رَاقتْ من سَمِعها ، وحاكَوْه فيها ، وتغنَّوْا بها ؛ فكان من ذلك المقطعات[4] والأراجيز الصغيرة ، يَحْدُون بها الابل ، ويعدِّدون بها المكارم . ثم لما تمت ملكة الشعر فيهم ، واتسعت أغراضهُ أمامهم نوَّعوا الأوزان وأطالوا القوافى وقصَّدوا القصيد

اختراع الشعر

أولية الشعر

ولبعد العهد بقدماء الحضر من العرب ، ومكان الأمية من أهل بدْوهم ، خفى علينا

(١) الايقاع تبيين الالحان وضبط نسبها (٢) التلحين الصوت المصنوع بكيفية خاصة
(٣) اندفع وأسرع (٤) المقطعة ما دون القصيدة من الأبيات ، والقصيدة على أرجح الأقوال ما بنيت من سبعة أبيات فصاعداً

— كأكثر الأمم — مبدأ قول الشعر، وأولُ من قاله، بل لم يبلغنا مما قيل منهُ في تلك العصور الغابرة والقرون الطويلة الخالية شيء، حتى كان منتصفُ القرن الثاني قبل الهجرة، فرُوِيَ لنا منهُ قُلٌّ من كُثر أدركه رواة اللغة ودَوَّنُوه قبل أن يَبيد كما باد سلفهُ. أما ما نسب من الشعر إلى آدم[١] وابليس[٢] والملائكة[٣] والجن[٤] والعرب البائدة[٥]، فهو حديث خرافة مدسوسٌ على أهل الغفلة من الرواة: لسخافة نَسْجه، وركاكة[٦] لفظه، وبذاذة[٧] معناه؛ ولأن لغة هؤلاء غيرُ لغة مضر المنظوم بها هذا الشعر، وانما ساقهم الى ذلك ما رأوْه في طبائع الناس من ميلهم الى معرفة المجهول. وشغفهم بالغريب، واسترسالهم في الخيال.

بدء الشعر الصحيح

والشعر الذي صحت روايته منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة ينتهي أقدمُ مُطَوَّلاته الى مُهلهِل بن ربيعة، وأقدم مقطَّعاته الى نفر لعلهم لم يبعدوا عنه طويلاً، مثل العَنْبر بن عمرو بن تميم، ودُوَيد بن زيد بن نهْد — وأعْصُر بن سعد بن قيس عَيْلان، وزهَير بن جَناب الكلبي، والأفوه الأوْدي، وأبي دُوَاد الإيادي

تقصيد القصائد

وقد رووا أنهُ لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاَّ الأبياتُ يقولها الرجل في حاجته، وأن أوَّل من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهلهلُ بن ربيعة التَّغْلَبي في قتل أخيه كليب؛ فهو أوَّل من رُوِيت له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً، وتبعهُ الشعراء: مثل امرئ القيس، وعَلْقَمة، وعَبيد: ممن أخرجوا لنا الشعر العربي في صورته الحاضرة.

تدرج الشعر

والمعقول أن هذه الصورة لم تتشكَّل طَفْرَةً: في تنوع الأوزان، وطول القوافي، وتعدّد الأغراضِ واختلاف الأساليب، وبراعة الاستعارة، ورَوْعة التشبيه، ودقة الكناية، على يد مهلهل وامرئ القيس وطرَفة وأمثالهم، بل لا بدَّ من أن يكون

---

(١) كالقطعة التي أولها: تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبر قبيح
(٢) » » » تنح عن البلاد وساكنيها ففي الفردوس ضاق بك الفسيح
(٣) كقولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير الى الذهاب
(٤) » الخير أبقى وان طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
(٥) وقال مرثد بن سعد: زعموا أنه من أصحاب هود:
عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا ما تبلهم السماء
(٦) ضعف (٧) البذاذة سوء الحال ورثاثة الهيئة

هؤلاء قد سُبقوا بأقوام نقلوا الشعر من السجع الى الرجز ، ومن المقطعات الى القصائد ، وقالوه فى غرض واحد ، ثم فى أغراض شتّى ، وهذّبوه ورققوه ، وجوّدوه وهلهلوه[١] ، قبل مُهَلْهِل ببضعة قرون ، يشهد لهذا قول امرئ القيس فى شعره :

عُوجَا على الطلل المُحِيل[٢] لَأَنَّنا[٣] نبكى الديارَ كما بكى ابنُ خِذَام[٤]

وقول عنترة :

هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّم[٥] أم هل عرفت الدار بعد توهّم

وقول زهير[٦] :

ما أُرانا نقول إلاَّ مُعارا أو مُعاداً من لفظنا مكْرُورا

يشير الأول الى أن ابن خِذَام وهو رجل من طيئ بكى الديار قبله ، ولم يرْوِ الأئمة له شيئًا ، ولا سمعوا عنهُ تنويهاً فى غير هذا البيت ؛ ويعدُّ الثانى نفسه مُحْدَثاً قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناسُ منه ولم يغادروا له شيئًا ، وهو (كما يقولون) ممن عاصر امرأ القيس ؛ ويشير زهير الى أن كثيراً من أقوال الشعراء مستعار من غيرهم

كثرة الشعر المروى

ومع قِصَرِ عهد الشعر الجاهلىّ المروىّ لنا الذى لم يطل أجله الى أكثر من قرن ونصف ، وموتِ الكثير من حفظته فى المغازى والفتوح الاسلامية ، ألمَّ الأئمة فيه بشعر كثير من الشعراء حتى قيل إن بعضهم[٧] كان يحفظ عشراتِ الألوف من قصائده وأراجيزه ، مما لم يؤثرْ عن أمة من الأمم (فيما نعلم)

سبب اكثار العرب من قول الشعر

وما أربى العربُ على غيرهم فى قول الشعر إلاَّ لأنهم قوم أميون ، لم يرجعوا فى تدوين حكمتهم ، وتخليد مآثرهم ، الى رَقْمٍ فى رَقّ ، أو نقرٍ فى حجر ، فكسبهم ذلك التأنّق فى الكلام ، وجودة الحفظ ، ومُعاناة الرواية ؛ ولا تمثُّل هذه الأمور فى أمْثل من الشعر ، فاتخذوه كما قال الجُمَحىُّ « ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم ،

---

(١) هلهل النساج الثوب نسجه رقيقاً ، ولقب الشاعر بمهلهل لأنه أول من رقق الشعر على زعمهم
(٢) المتغير (٣) لأننا لغة فى لعلنا (٤) ككتاب شاعر جاهلىّ قديم (٥) تردم الثوب رقعه ، وكلامه وشعره تتبعه حتى أصلحه وسدّ خلله ، أى لم يترك السابق من الشعراء للاحق منهم شيئاً يحتاج الى الاصلاح (٦) وفى العقد الفريد كعب بن زهير
(٧) كحماد والاصمعى وخلف وأبى عمرو الشيبانى وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم

به يأخذون ، وإليه يصيرون » ، وأحلوه من الاعتبار فى الغاية ، ومن الرعاية فى الذِّروة . وكانت القبيلة يرفعها البيتُ من الشعر ، ويخفِضُها الآخر (١)

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر ونشأته فى الجاهلية ، أما ما يتعلق بمادّته وجوهره ، فانه يرجع الى الأمور الآتية :

(أولاً) — أغراضه وفنونه . (ثانياً) — معانيه وأخيلته . (ثالثاً) — ألفاظه وأساليبه . (رابعاً) — أوزانه وقوافيه

(١) أغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر فى كل ما أدركته حواسهم ، وخطر على قلوبهم : مما يلائم بيئتهم ، وينتظم مع تنشِئتهم . ويضيق المقام عن سرد الكثير من فنون الشعر وأغراضه عندهم ، وإنما يجمل الالمام بأشهرها ، وهى :

النسيب ودواعيه

النسيب — ويسمَّى التَّشبيب ، وطريقه عند الجاهليـة يكون بذكر النساء

---

(١) فمن ذلك فى الجاهلية قصة الأعشى الشاعر مع آل المحلق وسنذكرها بعـد . وقصة حسان مع بنى عبد المدان وذلك أنه هجاهم بقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فقالوا له والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من ذكر أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ، ثم قال :

وقد كنا نقول اذا رأينا لذى جسم يعدّ وذى بيان
كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بنى عبد المدان

وفى الاسلام قصة الحطيئة مع بنى أنف الناقة : وقد كانوا يعيرون فى الجاهلية هذا الاسم حتى قال فيهم الحطيئة :

(قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا)

فعاد هذا الاسم شرفاً لهم وفخراً فيهم

وقصة جرير مع بنى نمير أشراف قيس وذوائبها وذلك أنه قال فيهم :

فغض الطرف انك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فما بقى نميرى الا طأطأ رأسه وانتسب عامريا ، بعد أن كان اذا سئل « ممن الرجل ؟ » فخم لفظه ومد صوته وقال « من بنى نمير »

ومحاسنهن [١] ، وشرح أحوالهن : من ظَعْنِهِن واقامتهن [٢] ، ووصف الأطلال والديار بعد مغادرتهن [٣] والتشوق اليهن بحنين الإبل ، وغناء الحمائم [٤] ، ولمع البروق ولَوْح [٥] النِّيران ، وهبوب النسيم ، و بذكر المياه والمنازل التى نزلنها [٦] والرياض التى حللنها [٧] ، ووصف ما بها من خُزَامَى [٨] ، وبَهار [٩] ، وأُقحُوان [١٠] ، وعَرَار [١١] . وكانوا لا يعدُّون النساء إذا نسبوا ، وكان للنسيب عندهم المقام الأوَّل من بين أغراض الشعر ، حتى لو انضم اليه غرض آخر ، قدم النسيب عليه ، وافتتح به القصيد : لما فيه من لهْو النفس ، وارتياح الخاطر ، ولأن باعثه الفذَّ [١٢] هو الحب ، وهو السر فى كل اجتماع انسانىّ ، وأهل البدو أكثر الناس حباً : لفراغهم وتلاقى قبائلهم المختلفة فى المصايف والمرابع ، فاذا ما افترقوا ذكر كلٌ أليف إلفه وحبيب حِبّه ، ثم إذا عاودوا تلك الأماكن مرة أخرى ، هاج أشجانهم ، وجدَّد الذكْرَى فيهم ما يرونه من آثار أحبابهم وأطلال منازلهم

الفخر والحماسة

الفخر — وهو تمدُّح المرء بخصال نفسه وقومه ، والتحدّث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم ووفرة قبيلهم ، ورفعة حسبهم ونسبهم ، وشهرة شجاعتهم

---

(١) قال النابغة : بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها ... فى جيـد واضحة الخدين معطار

(٢) الظعن الرحيل قال زهير :
تبصر خليلى هل ترى من ظعائن ... تحملن بالعلياء من فوق جرثم
علون بأنماط عتاق وكلة ... وراد حواشيها مشاكهة الدم

(٣) قال عنترة : حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
وقال زهير : وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيا عرفت الدار بعد توهم
أثافىّ سفعا فى معرس مرجل ... ونؤيا كجذم الحوض لم يتثلم

(٤) قال النابغة : اذا تغنى الحمام الورق هيجنى ... وان تغربت عنا أم عمار

(٥) مصدر لاح بمعنى بدا ولمع

(٦) قال زهير : بكرن بكوراً واستحرن بسحرة ... فهن ووادى الرس كاليد للفم
فلما وردن المـاء زرقاً جمامه ... وضعن عصىّ الحاضر المتخيم

(٧) أنظر نماذج الوصف (٨) نبت برى زهره أطيب الأزهار نفحة (٩) نبت طيب الرائحة زهره أصفر أكبر من زهر البابونج (١٠) البابونج البرى (١١) بهار البر (١٢) الفرد

المدح — وهو الثناء على ذى شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية : كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة وأن هذه الصفات عريقة فيه وفى قومه : وتعداد محاسنه الخَلْقية كالجمال و بسطة الجسم . وشاع المدح عند ما ابتُذِل الشعر واتخذه الشعراء مِهْنةً . ومن أوائل مَدَّاحيهم زهير والنابغة والأعشى المدح

الرثاء — وهو تعداد مناقب الميت ، واظهارُ التَّفجُّع والتَّلهُّف عليه . واستعظام المصيبة فيه . ومن عادات الجاهلية فى الرثاء كما قال ابن رشيق[1] فى كتابه العمدة « ضربُ الأمثال بفناء الملوك العظام . والممالك الكثيرة ، والأمم القوية والوعول[2] الممتنعة فى قُلل الجبال ، والأسود الخادرة[3] فى الغِياض[4] ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار : و بالنسور والعِقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها » الرثاء

الهجاء — هو تعداد مثالب المرء وقبيله ، ونفىُ المكارم والمحاسن عنه . وكانت العرب فى بدء أمرها لا تُفحش فى هجوها ، وتكتفى بالتهكم بالمهجو والتشكك فى حقيقة حاله[5] ، ثم أقذع[6] فيه بعض الاقذاع المحترفون بالشعر ، وحاكاهم السفهاء فى ذلك الهجاء

الاعتذار — هو درْء الشاعر التهمة عنهُ ، والترفُّقُ فى الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر اليه ، واستعطافه عليه ، والنابغة فى الجاهلية فارس هذه الحلبة[7] الاعتذار

الوصف — هو شرح حال الشىء وهيئته على ما هو عليه فى الواقع : لاحضاره فى ذهن السامع كأنهُ يراه أو يشعرُ به . وهذا هو الأصل الذى جرى عليه أكثر العرب قديمًا ، وقد يبالغ فيه : لتهويل أمره ، أو تمليحه ، أو تشويهه ، أو نحو ذلك الوصف

---

(١) هو الحسن بن رشيق القيروانى من أدباء أفريقية توفى سنة ٤٦٣ هـ (٢) جمع وعل هو تيس الجبل (٣) المستترة (٤) جمع غيضة وهى الاجة والشجر المجتمع فى مغيض ماء

(٥) كقول زهير : وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

(٦) أفحش (٧) جماعة الخيل المتسابقة

فيكون منه المقبول والممقوت . ولا سبيل الى حصر ضروب الوصف عند العرب ، فانهم وصفوا كل ما رأَوْه أو عانَوْهُ أو خالط نفوسهم :

فوصفوا من الحيوان الإبل [١] ، وافتنُّوا فى ذلك بما لم تفُقْهم فيهِ أمة فى وصف نفيس لديها . ومن أبلغ وُصَّاف الإبل طرَفة — ووصفوا الخيل [٢] فى ضروب خَلقها وأحوال سَيْرِها . ومن أشهرهم فى ذلك امرؤ القيس وأبو دُواد الإيادى

ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش [٣] ، وجوارح الطيور وصوادِحِها [٤] ، وخَشاش الأرض وهوامّها [٥] — ووصفوا من النبات ضروبه وشِياتِهِ — ومن السماء نجومها وكواكبها ، وسحائبها وبروقها ، وأنواءها وأمطارها [٦] ، ومن الأرض سهلها وجبلها [٧] ، ومرابعها ومصايفها ، وخاصةً الديارَ والأطلال والدِمنَ وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، وشبَّهوها أحياناً برقْم الكتب ، وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخَلَق أو المرقَّم ، ونحو ذلك [٨]

---

(١) قال عنترة : هل تبلغنى دارها شدنية ... لعنت بمحروم الشراب مصرم
خطارة غب السرى زيافة ... تطس الاكام بوخد خف ميثم

(٢) انظر نماذج الوصف

(٣) قال امرؤ القيس : فعن لنا سرب كأنّ نعاجه ... عذارى دوار فى ملاء مذيل
فأدبرن كالجزع المفصل بينه ... بجيد معم فى العشيرة مخول
فألحقنا بالهاديات ودونه ... جواحرها فى صرة لم تزيل

(٤) وقال أيضاً : كأنّ مكاكىّ الجواء غدية ... صبحن سلافا من رحيق مفلفل

(٥) حشرات الارض ما لا دماغ له من هوامها (والهوام) جمع هامة وهى كل ماله سم يقتل
وقال شاعر جاهلى يصف أفعى :
ويدير عينا للوقاع كأنها ... سمراء طاحت من نفيض برير
وكأن شدقيه إذا استعرضته ... شدقا عجوز مضمضت لطهور

(٦) أنظر نماذج الوصف

(٧) قال امرؤ القيس : كأن ثبيراً فى عرانين وبله ... كبير اناس فى بجاد مزمل

(٨) قال طرفة : لخولة اطلال ببرقة ثهمد ... تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد
وقال حاتم : اتعرف اطلالا ونؤيا مهدما ... كخطك فى رق كتاباً منمنما
وقال عبيد : مثل سحق البرد عفى بعدك الـ ... قطر مغناه وتأويب الشمال
وقال امرؤ القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ... ورسم عفت آياته منذ أزمان
أتت حجج بعدى عليها فأصبحت ... كخط زبور فى مصاحف رهبان

ووصفوا جمال الانسان وأخلاقه وطباعه وأحواله فى الظعن والاقامة ، وأفعاله فى قتاله ونزاله ، ودفاعه بمختلف سلاحه

هذا و باب الوصف عند العرب أ كبر فنون الشعر

الحكمة والمثل

الحكمة والمثل — وقد تقدَّم تعريفهما ؛ وا كثر ما تكون أمثالُ العرب وحكمها مُوجَزة متضمنة حُكماً مقبولاً ، أو تجربة صحيحة ، تمليها عليها طباعُها بلا تكلف كتكلف فلاسفة المولّدين ، ولا إكثارٍ منها حتى يخرج الشعر بها عن بابه المبنىِّ على الخيال والأوصاف ، وانما يُؤتَى بها فى كلامهم كالمِلح فى الطعام — وأ كثر شعرائها أمثالاً زهير والنابغة

(٢) معانيه وأخيلته

قصدُ الشاعرِ من شعره الإبانةُ عما يُخالج نفسه من المعانى فى أىّ غرض من الأغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعانى : ما هو فِطرىٌّ فى الناس مُتأصّل فى نفوسهم ، فيشترك فيه البدوىُّ والحضرىُّ والعربىُّ والعجمىُّ : كالأخبار الصادقة ، وأوصاف المشاهدات ، وشرح الوجدانات كما يمليها الخاطر بلا مبالغة ولا إغراق ، ومنها ما هو غريبٌ نادر انتزعه الخيال من المرئيَّات البديعة ، والأشكال المنتظمة ، والهيئات المتناسقة ، وذلك ما يسمى بالمعنى المختَرَع ، وهو فى الفِطَر السليمة أنمى ، وللأمم المتحضّرة أطوع ؛ وتتفاضل الشعراء بالاجادة فيه والا كثار منه . و إذا قسنا الشعر الجاهلى بهذا المعيار وجدنا معانيه وخيالاته تتجلى فى الأمور الآتية :

(١) جلاء المعانى وظهورها ، ومطابقتها للحقيقة والواقع

(٢) قلة المبالغة والغلو فيها بما يخرجها عن حدّ العقل ومألوف الطبع

(٣) قلة المعانى الغريبة المنزَع ، الدقيقة المأخذ ، المتجلية فى صور الخيال البديع ، والتشبيه الطَّريف ، والاستعارة الجميلة ، والكناية الدقيقة ، وحسن التعليل ، وغير ذلك مما لا يُهتدَى اليه إلاّ بعد التَّعمل وكدِّ الفكر

(٤) قلة تأنقهم فى ترتيب المعانى والأفكار على النظام الذى يقتضيه الطبع أو العقل ، بل يرسلونها على ما خيّلتْ نفوسُهم ، واستدعتهُ بديهتهم وارتجالهم ، فيدخلون معنى فى معنى ؛ وينتقلون من غرض الى آخر اقتضاباً بدون تَحَيُّل ولا تلطُّف ، وربما مهّد بعضهم لانتقال الذهن بقوله : دعْ ذا ، وعدِّ عن ذا

(٣) الفاظه وأساليبه

ولما كانت العرب أُمماً بدوية تنظم الشعر بطبعها ، من غير معاناة صناعة ، ولا دراسة علم غلب على شعرها صراحة القول ، وقلة المواربة فيه ، والبعد عن التكلف وصحة النظم والوفاء بحق المعنى ؛ أضف الى ذلك الأمور الآتية :

(١) جودة استعمال الألفاظ فى معانيها الموضوعةِ لها : لاحاطة علمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجوه دلالتها

(٢) غلبة استعمال الألفاظ الجزْلة

(٣) استعمال الألفاظ الغريبة التى هجرت عند المحدثين : إما لقلة استعمال مدلولها ، وإمّا للاقتصار على مرادف لها أسهل منها

(٤) القصد فى استعمال ألفاظ المجاز

(٥) مقتُ استعمال الأعجمى إلاَّ ما وقع نادراً على سبيل التمليح والتظرف فى مثل شعر الأعشى[١]

(٦) عدم تعمد المحسّنات البديعيــة مثل الجناس ، والمقابلة ، والمطابقة ، وما شاكلها

(٧) متانة الأسلوب بحسن إيراد المعنى إلى النفس من أقرب الطرق اليهــا وأطْرفِها لديها : كتجاهل العارف ، ومخاطبة الديار والأطلال

(٨) إيثار الايجاز إلا إذا دعتِ الحالُ

---

(١) انظر ترجمة الأعشى

(٤) أوزانه وقوافيه

الحق أن العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلُّم قوانين صناعية ، وتعرُّف أصول وضعية ، وانما كانت تنظِم بطبعها على ما يُهيئه لها إنشادُها وتغنيها وحُداؤها . وقد هدتهم هذه الفطرة الى أوزان أرجعها الخيل[١] الى خمسة عشر وزناً سمَّاها بحوراً وزاد عليها الأخفش[٢] بحراً . وقد أكثروا النظم من بعضها دون بعض بل إن بعضهم كان يكثر النظم من بحر دون آخر . وشعر العرب رجزُه وقصيده يبنى على قافية واحدة كيفما طال القول

نماذج من الشعر الجاهلى فى الأغراض الآتية

الحماسة — قال المرقِش الأكبرُ : عمرو بن سعد

ان تُبْتَدَرْ[٣] غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ تلق السَّوابق[٤] منا والمصلّينا[٥]
وليس يهلِك منـا سيدٌ أبداً إلاَّ افتلينا[٦] غلاماً سيِّـداً فينا
انا لنرْخِص يوم الرَّوْع أنفُسَنا ولو نسامُ بهـا فى الأمن أُغلينا
شُعثٌ مقادُمنا نُهْبَى مراجلنا[٧] نأسو بأموالنـا آثار أيدينا[٨]
إنِّى لَمِنْ معشرٍ أفنى أوائلهم قِيلُ الكُماة[٩] : ألا أين المحامونا ؟
لو كان فى الألف منا واحدٌ فدعَوْا مَنْ فارسٌ ؟ خالَهمْ إياه يَعْنونا
إذا الكماة تنحَّوْا أن يُصيبَهمُ حدُّ الظبات[١٠] وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وان جلَّت مصيبتهمْ مع البُـكاة على من مات يبكونا
ونركب الكره[١١] أحياناً فيفرِجه عنا الحِفاظُ[١٢] وأسيافٌ تُواتينا

(١) هو الخليل بن احمد الفراهيدى النحوى اللغوى مخترع العروض وستأتى ترجمته
(٢) هو سعيد بن مسعدة النحوى تلميذ سيبويه ، وسيبويه تلميذ الخليل
(٣) أى يعجل اليها (٤) السابق والمجلى من الخيل فى الحلبة الذى يجىء أولا
(٥) المصلى من الخيل التالى للسابق (٦) فطمنا من الرضاع ، أى نشأ فينا بدله
(٧) يريد أصحاب حروب وقرى للضيفان ، والمقادم النواصى
(٨) يريد ترفعهم عن القود ورفع أطماع الناس عن مقاصتهم ، والاسو المداواه أى نقتل وندى
(٩) الشجعان (١٠) يريد السيوف لاحدّها (١١) المكروه (١٢) الدفاع عن المحارم

المـدح — قال زهير بن أبى سُلْمى :

وفيهم مقامات حسانٌ وجوهُهُمْ | وأندية ينتابُها القولُ والفعلُ (١)
وان جئتهم ألفيتَ حول بيوتِهِمْ | مجالسَ قد يُشْفى بأحلامها الجهلُ
على مكثريهم رزقُ من يعتريهم | وعند المقلّين السماحةُ والبذلُ (٢)
سعى بعدهم قوم لكى يدركوهُمُ | فلم يفعلوا ولم يليموا (٣) ولم يألوا (٤)
فما كان من خير أتوهُ فانما | توارثه آباءُ آبائهم قبل
وهل يُنْبِتُ الخطّىَّ إلاّ وشيجُه | وتُغْرسُ إلاّ فى منابتِها النخلُ (٥)

وقال أُمَيَّةُ بنُ أبى الصَّلْت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى | حياؤُك إن شيمتَك الحَياء
وعلمُك بالحقوق وأنت فرعٌ | لك الحَسبُ المهذَّبُ والسَّناء
خليلٌ لا يُغيّره صباح | عن الخُلق الجميل ولا مَساء (٦)
وأرضك كلُّ مكرُمة بَنَتْها | بنو تَيْمٍ وأنت لهـا سماء (٧)
إذا أثنى عليك المرء يوماً | كفاه من تعرُّضِه الثناء
تُبارِى الريح مكرُمة ومجداً | إذا ما الكلب أجْحره الشتاء (٨)

الرثاء — وقال لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربد :

بلينا وما تَبلَى النجومُ الطوالعُ | وتبقَى الديار بعدنا والمصانعُ (٩)

---

(١) جمع مقامة وهى الجماعة يجتمعون فى مجلس ، والأندية المجالس ، والانتياب القصد الى الموضع والحلول به (أى يبث فيها الجميل من القول ويعمل به)

(٢) مكثريهم أغنيائهم ، يعتريهم يقصدهم . أى أن فقراءهم يسمحون ويبذلون جهد طاقتهم وأغنيائهم يكفون من يقصدهم (٣) يقعوا فى اللوم (٤) يقصروا

(٥) الخطىّ الرمح نسبة الى الخط وهى جزيرة فى البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحدته وشيجة ، أى لا تنبت القناة إلا فى شجرها ، ولا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد أنه لا يلد الكرام إلا الـكرام

(٦) أشار بالصباح والمساء الى وقتى الضيافة والغارة

(٧) أى تحيى تلك الأرض بالغيث فى وقت الشدة والمحل (٨) أى أدخله برد الشتاء فى جحره (٩) المبانى من القصور والحصون

وقد كنت فى أكناف جارِ مَضِنة ... ففارقنى جارٌ بأربدَ نافع[١]

فلا جَزَعٌ ان فرّق الدهر بيننا ! ... فكل امرئٍ يوماً به الدهرُ فاجع !

وما الناس إلاّ كالديار وأهلها ... بها يوم حلّوها وغَدْواً بلاقع[٢]

وما المرء إلاّ كالشهاب وضوئه ... يحور[٣] رماداً بعد إذ هو ساطع

وما المـال والأهلون إلاّ ودائعٌ ... ولا بدّ يوماً أن تُردّ الودائع

وما الناس إلاّ عاملان : فعامل ... يُتَبِّرُ[٤] ما يبنى وآخرُ رافع

فنهمْ : سعيد آخـذ بنصيبه ... ومنهمْ شقىٌّ بالمعيشة قانع

الهجـاء — قال يزيد بن قُنافة يهجو حاتماً :

لعَمْرى وما عَمْرى علىَّ بهيّنِ ... لبئس الفتى المدعوُّ بالليل حاتمُ

غداةَ أتى كالثور أحرِج[٥] فاتَّقى ... بجبهتـه أقتالَه[٦] وهو قائم

كأنَّ بصحراء المُرَيط نعامةً ... تبادِرُها جُنحَ الظلام نعائم

أعارتك رجْلَيْها وهافِىَ[٧] لُبِّها ... وقد جُرِّدتْ بيضَ المتون صوارم

وقال قريط بن أُنَيف أحد شعراء بَلْعَنْبر يهجو قومه ويرميهم بالجبن عن دفع المغيرين عليهم ويتهكم بهم :

لو كنتُ من مازِنٍ[٨] لم تستبح[٩] إبلى ... بنو اللَّقيطة من ذُهل بن شَيبانا

لكن قومى وان كانوا ذوى عدَدٍ ... ليسوا من الشرّ فى شىء وإن هانا

يَجْزُون من ظُلْم أهل الظّلم مغفرةً ... ومن اساءة أهل السُّوء احسانا

كأن ربك لم يخلُق لخشيته ... سواهمُ من جميع النـاس إنسانا

فليت لى بهمُ قوماً إذا ركبوا ... شَدُّوا[١٠] الاغارةَ فُرسانا وركبانا[١١]

---

(١) اكناف ظلال ، جار مضنة يضن به ويتنافس فيه ، بأربد أى هو أربد (٢) الغدو الغد والبلقع الأرض القفر والجمع بلاقع وهى خبر لمبتدأ تقديره هى (٣) يرجع (٤) يهلك ويهدم (٥) ضيق عليه وأخرج عن عادته (٦) الاقران والاعداء ، يقول متهكماً جاء كالثور الهائج مغضباً فلما جاء وقت القتال انهزم (٧) خافق قلبها وأراد نفى العقل عنه . يقول لما انهزم كأن نعامة تسابقها نعائم الى اداحيها أعارت حاتما رجليها فكان اسراعه فى العدو اسراعها

(٨) مازن تميم (٩) الاستباحة أخذ الشىء مباحا (١٠) حملوا (١١) الاغارة مفعول لأجله

الاعتذار — قال أعشى قيس يعتذر إلى أوس بن لام[1] عن هجائه اياه :

وانى على ما كان منّى لَنادمٌ وإنى الى أوس بن لامٍ لتائب
وانى الى أوسٍ ليقبَل عِذرَتى[2] ويصفح عنى « ما حَييتُ » لراغب
فهبْ لى حياتى فالحيـاة لِقائم بشكرك فيها ، خير ما أنت واهب
سأمحو بمدحٍ فيك إذ أنا صادقٌ كتابَ هجاء سار إذ أنا كاذب

وقال النابغة الذبيانى :

نبئتُ أن أبا قابوس[3] أوعدنى[4] ولا قَرار على زَأْر[5] من الأسد
مهـلاً فداءٌ لك الأقوام كلهمُ وما أُثَمِّرُ[6] من مال ومن وَلَد
فلا لعمر الذى طيفتْ بكعبته وما هُريق على الأنصاب من جسد[7]
والمؤمنِ العـائذاتِ الطيرِ يمسحها ركبانُ مكة بين الغِيل[8] والسَّند[9]
ما قلت من سيّئ مما أتيت به إذن فلا رفعتْ سوطى إلىَّ يدى
إذن فعاقبنى ربى معاقبـة قرّت بها عين من يأتيك بالحسد

الوصف — قال امرؤ القيس يصف فرسه :

وقد أغْتَدِى والطيرُ فى وُكناتها[10] بمنْجَرِدٍ[11] قَيدِ الأوابدِ[12] هيكَلِ[13]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ[14] مُقبلٍ مُدْبرٍ معًا كجُلمودِ صخرٍ[15] حطّه السيلُ من عل

وقال عَبيد بن الأبرص يصف الغيث :

فسقى الربابَ مُجلْجِلُ[16] الـــأكناف لمَّـاعٌ بُروقُهُ
جَوْنٌ[17] تُكفْكِفُهُ[18] الصَّبا وَهْنًا[19] وتَمرِيه[20] خَرِيقُهُ[21]

---

(١) بنو لام من طيء (٢) عذرى (٣) كنية النعمان بن المنذر (٤) هددنى
(٥) صوت (٦) أجمع (٧) هريق : صب . الانصاب : الاصنام . جسد : دم (٨ — ٩) نوعان من الشجر (١٠) الوكنات أعشاش الطير (١١) ماض فى السير (١٢) الوحوش
(١٣) طويل (١٤) الكر الهجوم والفر الهرب وفرس مكر مفر جيدهما
(١٥) الحجر العظيم (١٦) سحاب مجلجل مصوت بالرعد (١٧) اسود من تكاثفه
(١٨) تدفعه (١٩) الوهن نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه (٢٠) تدره وتستخرج ماءه
(٢١) الخريق الريح الباردة الشديدة الهبابة وهى التى تنزل المطر

مَرْىَ العَسيفِ[١] عِشارَه[٢] حتى إذا دَرَّت عُروقه[٣]
ودنا يضىء رَبابُه[٤] غاباً يُضرِّمـه حَريقـه
حتى إذا ما ذَرْعـهُ بالمـاء ضاق فما يُطيقه
هبّت له من خلفه ريح شآميـةٌ تسوقُه
حلّت عَزَاليَـهُ[٥] الجنو بُ فثجّ[٦] واهيةً خروقه

وقال طرَفةُ يصف السفينة التى شبه بها الحُدُوج :

كأن حُدوج[٧] المـالكيّة غُدوةً خلايا[٨] سفين بالنَّواصِف[٩] من دَدِ[١٠]
عَدَوْلِيَّةٌ[١١] أومن سفين ابن يامِن[١٢] يجور بهـا الملاّح طوراً ويهتدى
يشقّ حَباب[١٣] الماء حيزومُها[١٤] بها كما قَسَم التُّرْبَ المُفايِلُ[١٥] باليـد

وقال عنترة يصف غراب البين :

ظعنَ الذين فِراقَهم أتوقَّعُ وجرى بينهمُ الغرابُ الأبقع[١٦]
خَرِق[١٧] الجناح كأن لَحْيَى[١٨] رأسه جَلَمان[١٩] بالأخبار هَشٌ[٢٠] مُولَع

(١) العسيف الاجير أو العبد المستعان به فى الحلب ونحوه
(٢) جمع عشراء كنفساء لفظاً ومعنى أو هى الحامل لعشر أى أن الريح تستخرج الماء من السحاب كما يستخرج العبد اللبن من العشار
(٣) أى السحاب (٤) الرباب السحاب الابيض — أى أن السحاب يرسل صواعقه ببرقه فيصيب الغاب فيضىء من الحريق الذى نشب فيه
(٥) جمع عزلاء وهى مصب الماء من الراوية ونحوها (٦) ثج الماء سال — والمعنى حتى إذا ضاق السحاب ذرعاً بالماء ساقته ريح شآمية من الشمال وقابلته ريح باردة من الجنوب فحلت أفواهه
(٧) جمع حدج كبئر وهو مركب للنساء كالمحفة (٨) جمع خاية كقنية وهى السفينة العظيمة
(٩) الشعاب فى الجبال تكون مسايل ومجارى للمياه زمن الامطار (١٠) اسم مكان
(١١) أى منسوبة الى عدولى وهى بلدة بالبحرين أو الى عدول رجل كان يتخذ السفن
(١٢) ملاح كان يتخذ السفن الكبار (١٣) الموج (١٤) الحيزوم الصدر
(١٥) الفيال لعبة كان يلعبها صبيان الاعراب يخبئون الشىء فى التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون: فى أيهما هو ؟ (١٦) الذى فيه سواد وبياض (١٧) الخرق الذى لا يحسن العمل، يذمه بأنه ليس حسن الطيران فى الخير وانما ينقل أخبار الشؤم (١٨) أصل اللحى عظم الحنك الذى تنبت عليه الاسنان من الحيوان والمراد باللحيين فى الغراب شقا منقاره
(١٩) الجلمان المقراض يأتى على صورة المفرد والمثنى باعتبار شقيه
(٢٠) أى خفيف نشيط فرح بنقل الاخبار، وكذلك معنى المولع هنا

وقال حسّان السعدىّ يصف القمر :

مهما يكن رَيبُ المنون فاننى ... أرى قمر الليـل المعذّبَ كالفتى

يُهَلُّ صغيراً ثم يعظم ضوءه ... وصورتهُ حتى إذا ما هو استوى (١)

تقارب يخبو (٢) ضوءه وشعاعه ... ويَمصَح (٣) حتى يستسر (٤) فما يرى

وقال عنترة يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلةَ بعد ما ... لعب الربيعُ (٥) بربعها المتوسّمِ (٦)

جادت عليـه كل عين ثَرّة (٧) ... فتركن كل قرارة (٨) كالدرهم

سَحًّا (٩) وتَسكاباً فكل عشيةٍ ... يجرى عليها المـاء لم يتصرّمِ (١٠)

وخلا الذّباب بها فليس ببارح ... غَرِداً كفعل الشارب المترنّمِ

هزِجاً (١١) يحُكّ ذراعه بذراعه ... قَدْحَ المُكِب على الزناد (١٢) الأجذم (١٣)

وقال أيضاً فى وصف مبارزة :

ومدَجّجٍ (١٤) كرِه الكُماة (١٥) نزاله ... لا مُمعن (١٦) هربا ولا مُستَسْلم

جادت له كفى بعاجل طعنـة ... بمثقّف (١٧) صَدْق الكعوب مقوّم

برحيبة الفرغين (١٨) يهدى جرْسُها (١٩) ... بالليل مُعتسَ (٢٠) الذئاب الضُّرَّم (٢١)

فشكـكت بالرمح الأصم (٢٢) ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرّم

(١) استوى بلغ تمامه (٢) يخفى ويزول (٣) يذهب وينقطع (٤) يستتر ويخفى (٥) المطر (٦) المتفرس فيه أى يتخيل المتوهم موضعه (٧) العين مطر أيام لا يقلع ، والثرة الكثيرة الماء (٨) القرارة الحفرة (٩) سح المطر وتسكابه : هطاله (١٠) لم ينقطع (١١) كثير الصوت (١٢) أى كقدح الاجذم المكب على الزناد ليوريها . والزناد جمع زند وهو عود يحرك بالكفين فوق عود آخر من خشب سريع الاحتراق فيشتعلان ، والعود الاسفل يسمى زندة (١٣) الناقص اليدين (١٤) تام السلاح (١٥) جمع كمى كغنى الشجاع المستتر بالسلاح (١٦) مسرع (١٧) أى برمح معدل صلب الكعوب (١٨) الرحيبة الواسعة ، والفرغ مخرج الماء من الدلو (١٩) صوتها (٢٠) طالب فريسة (٢١) الجياع (٢٢) الصلب — أى انفذت الرمح فى جسمه وثيابه كلها . وقيل أن معنى الثياب هنا القلب

فتركته جَزَرَ[1] السباع يَنُشْنه[2] يقضَمن[3] حسن بنانه والمِعصم

الحِكَم والأمثال — قال طرفة بن العبد :

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلتُه لا تَرَكَ اللهُ له واضِحَهْ[4]
كلُّهمُ أروغُ[5] من ثعلبٍ ما أشبهَ الليلةَ بالبارِحَه !

وقال الأفوه الأوْدِي :

والبيت لا يُبتَنى إلا له عَمَدُ ولا عِمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فان تجمَّعَ أوتادٌ وأعمدة وساكنٌ بلغوا الأمرَ الذى كادوا
لا تصلُح الناس فوضَى لا سَراةَ لهم ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهم سادوا
تبقى الأمور بأهل الرأى ما صلحتْ فان تولتْ فبالأشرار تنقاد

﴿ الشعراء ﴾

شعراء الجاهلية أكثر من أن يُحاط بهم ، ومن جُهل منهم أكثرُ ممن عُرف ؛ وانما اشتهر بعضهم دون بعض : لنبُوغه ، أو كثرة المرويّ من شعره ، أو قرب عهده من الاسلام زمنِ الرواية ، أو تعصُّبِ عشيرته له ، أو عظم جاهه ، أو اشتهارِه بمَنْقَبة أخرى فوق الشعر : كالشجاعة والكرم والوفاء ، أو اشتراكه بشعره فى حادث عظيم

سبب اشتهار الشاعر

وهم بعدُ متفاوتون فى القول قلةً وكثرةً ، ورداءة وإجادة ، وجفاء ورقة ، وروِيّةً وارتجالاً

وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة ، وحكم نافذ ، وسلطان غالب ، إذ كانوا ألسنتهم الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم ، وأسلحتهم التى يَذُودون بها عن حياض شرفهم وبهم كانوا يماجدون ، وينافرون ، ويفاخرون . وما كانوا يُسَرُّون بشىء أعظمَ من

منزلة الشاعر عند القبيل

(١) جمع جزرة وهى الشاة المعدة للذبح (٢) يتناولنه (٣) القضم الاكل بمقدم الاسنان أى ينهشنه (٤) الواضحة الاسنان تبدو عند الضحك (٥) راغ الثعلب ذهب يمنة ويسرة فى سرعة للخديعة فهو لا يستقر فى جهة

سرورهم بشاعر ينبغ فيهم . قال ابن رشيق فى العمدة : (وكانت القبيلة من العرب اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنّأتها ، وصنعَت الأطعمة وأتت النساء يلعبن بالمزاهر[1] كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدانُ لأنهُ حِمايةٌ لأعراضهم ، وذَبٌّ عن حياضهم ، وتخليد لمفاخرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يُهنِّئُون الاَّ بغلام يُولَد أو شاعر ينْبغ ، أو فرس تُنْتَج)

طريقة نظم الشعر

وكانت طريقة نظم الشعر فى أكثر الأحوال أن يرتجلوه ارتجالاً ، فتأتيهم ألفاظُه عفْواً ، ومعانيه رَهْواً[2] ؛ كما وقع للحارث بن حِلِزة ، وعمرو بن كلثوم . أما مَن اتخذه منهم صناعة يستدرُّها ، ومكسباً يستمرئه ، ويلتمس به الجوائز ، وينشده فى المحافل والمواقف العظام، فانه ينْحِى[3] عليه بالتثقيف والتجويد ، والتهذيب والتنقيح : ليجعله كله متشابهاً فى الصنعة متساوياً فى الأحكام ، رقيق الحاشية[4] حسن الديباجة[5] متخيَّرَ الألفاظ ، يصح أن يقال فيه : إنه المثل الأعلى للشعر الجاهلى ؛ كما ترى ذلك واضحاً فى حَوْلِيّات زهير ، واعتذاريات النابغة

التكسب بالشعر

وقد غبر الناس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر إلاّ فى الأغراض الشريفة والمقاصد النبيلة ، لا يمدحون عظيماً طمعاً فى نَوَاله ، ولا يهجُون شريفاً تشفياً منه وانتقاماً، حتى نشأت فيهم فئة امتهنت الشعر وتكسبت به ، ومدحت الملوك والأمراء كالنابغة الذبيانى وحسان مع النعمان بن المنذر وملوك غَسَّان ؛ وزهير بن أبى سُلْمى مع هَرِم بن سنان ، وأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت مع عبد الله بن جُدْعان : أحد أجواد قريش ، والأعشى مع الملوك والسُّوقة ، حتى قصد به الأعاجمَ ، وجعله مَتْجراً يتجر به ، فتحامى الشعر الأشراف وآثروا عليه الخطابة

---

(١) المزهر كمنبر العود يضرب به (٢) سهلة متتابعة

(٣) يقبل عليه (٤) حاشية الثوب جانبه وكلام رقيق الحواشى حسن

(٥) الديباج ثوب من الحرير الخالص ويكون عادة منقشاً فيستعار للكلام الحسن المزين فيقولون لهذه القصيدة ديباجة حسنة إذا كانت محبرة منمقة

﴿ طبقات الشعراء ﴾

طبقات الشعراء باعتبار عصورهم أربع :

(١) طبقة الجاهليين

(٢) طبقة المُخَضْرَمين : وهم الذين اشتهروا بقول الشعر فى الجاهلية والاسلام

(٣) طبقة الاسلاميين : وهم الذين نشئوا فى الاسلام ولم تفسد سليقتهم العربية وهم شعراء بنى أمية

(٤) طبقة المولدين ، أو المُحدَثين : وهم الذين نشَئوا زمنَ فساد العربية ، وامتزاج العرب بالعجم ، ولو كانت أصولهم عربية بحتة ، وذلك من عصر الدولة العباسية الى يومنا هذا

والشعراء الجاهليون يُقَسَّمون باعتبار شهرتهم فى الشعر للإجادة أو للكثرة إلى طبقات كثيرة نذكر منها ثلاثاً[١]

(١) الطبقة الأولى — امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة

(٢) الطبقة الثانية — الأعشى ، ولبيد ، وطرَفةُ

(٣) الطبقة الثالثة — عنترة وَعُرْوَةُ بن الوَرد ، ودُرَيد بن الصِّمة ، والمُرَقّش الأكبر ؛ على أن كثيراً من الفصحاء والأدباء يقدِّمون بعض هؤلاء على بعض ويزيدون غيرهم عليهم : لملاءمة شعرهم لأذواقهم وهوى نفوسهم

---

(١) على رأى أبى عبيدة

(١) امرؤ القيس

هو الملك الضِّلّيل[١] أبو الحارث حُنْدُج[٢] بن حُجْر الكِنْدِيُّ ، شاعر اليمانيَة ورأسُ شعراء الجاهلية ، وقائدُهم الى التفنن فى أبواب الشعر وضروبه

وآباؤه من أشراف كِندة وملوكها ، وأمه فاطمة بنت ربيعة أُخْتُ كُليب ومُهَلْهِل التَّغْلبِيَّيْن . وكانت بنو أسد من المضرية خاضعة لملوك كندة ، وآخر ملك عليهم هو حُجْر أبو امرئ القيس

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعيَّة أبيه من بنى أسد ، وسلك مسْلك المُتْرَفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ، ويعاقر[٣] الخمر ويغازل الحسان . وزاد على ذلك أنه أنفق وقته فى التشبيب بالنساء ، والخروج فى ذلك الى حدّ الصَّراحة فى الفُحش ، منصرفاً عما يأخذ به أمثالُه أنفسَهم : من الاعتداد للملك وقيادة الشجعان ؛ فمقته أبوه لذلك ، وزجره عن اللهو والتشبيب بالنساء ، ولما لم ينجع فيـه القولُ طرده عنه وأقصاه . فالتف عليـه بعض صعاليك[٤] العرب وذُؤْبانهم[٥] وشُذّاذهم[٦] ، ينزلون المياه وينعَمون ويذبحون ويشربون ويَطْرَبون ، وتغنّيهم القيان[٧] . وانهُ لكذلك فى إحدى نزلاته بأرض (دَمُّون[٨]) يشرب ويلْعَب النَّرْد مع رفاقه إذ جاءه نبأ ثَوَران بنى أسد على أبيه وقتْلِهم له : لأنه كان يعسِف فى حكمه لهم ، ويشتطُّ[٩] عليهم فى الإتاوة[١٠] التى يؤدُّونها اليه . فلم ينزعج امرؤ القيس للخبر خشيةَ أن ينغص على رفاقه عيشهم . ثم قال : « ضيَّعنى صغيراً ، وحمَّلنى دمه كبيراً ! لا صَحْو اليوم ، ولا سُكر غداً ، اليومَ خمرٌ ، وغداً أمرٌ » وأخذ يجمع العُدَّة ويستنجد القبائل فى إدراك ثأره ، فكان يجيبه بعضها ويعتذر بعضها ، فنازل بنى أسد وقتل فيهم كثيراً ولم يَشْف ذلك من

خروجه فى ثأر أبيه

---

(١) كسكيت الكثير الضلال ، وسمى بذلك لانه كان يتعهر فى شعره (٢) أصل الحندج الرملة الطيبة تنبت ألواناً (٣) يلازم ويدمن (٤) فقراء (٥) لصوصهم وصعاليكهم (٦) الشذاذ الذين لم يكونوا فى حيهم ومنازلهم (المتشردون) (٧) جمع قينة وهى الأمة المغنية (٨) بلدة بحضرموت من اليمن (٩) يجور ويظلم (١٠) الخراج

غُلته . وكانت فى نفس المنذر أحدِ ملوك الحِيرة ، موجِدَةٌ(١) على آل امرئ القيس : لأن الحارث جدَّ امرئ القيس زاحم المَناذرة ملوك الحِيرة عنــد كِسْرَى فى النيابة عنه على مُلْك الحِيرة ، وقت أن شَجَرَ(٢) الخلافُ بين المناذرة وكسرى قُباذ(٣) فألَّب المنذرُ على امرئ القيس العربَ : من إياد وبَهْراء وتَنُوخ ، وأمدَّه كسرى أنوشِرْوان بن قباذ بجيش من الأساورة(٤) لرضاه عن آل المنذر . فلم يكن لامرئ القيس به طاقة ، وتفرق عنــه أصحابه فجعل يستجير بالقبائل واحدة بعد واحدة ، وتقع من أجله حروب عدة ، حتى نزل على السَّمَوْءل فأودعه ابنته ودروعه وسلاحه . وطلب اليه أن يكتب له الى الحارث بن أبى شِمْر الغسانى بالشام ليوصله الى قيصر ، فلما بلغ قيصَرَ استنصره على أعدائه الذين جلهم من شيعة المناذرة التابعين للفُرْس أعداء الروم فأمدَّه بجيش لم يَفْصِل(٥) به امرؤ القيس عن بلاد الروم حتى بدا(٦) لقيصر ، فاسترجع الجيش ، وقفل امرؤ القيس راجعاً وحده : واشتدت به فى طريقه علة قروح مات منها ودُفن بأنْقِرة ، وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن

شعره — يعتبر امرؤ القيس رأس فحول الجاهليــة والمقدّم فى الطبقة الأولى من شعرائهم المعروفة أخبارهم ، وهو وان كان مسبوقاً بمثل أبى دُواد الإيادى ، وخالهِ مهلهِلٍ لم يسبقه على مبلغ علمنا الى طرْق كثير من أبواب الشعر والإفاضة فيه أحد ؛ فهو أوَّل من أجاد القول فى استيقاف الصحْب ، وبكاء الديار ، وتشبيه النساء بالظباء ، والمها ، والبَيْضِ ، وفى وصف الخيل بقَيْد الأوابد(٧) وفى ترقيق النسيب ، وتقريب مآخذ الكلام ، وتجويد الاستعارة ، وتنويع التشبيه حتى ليُظَنُّ أنه المبتكر

---

(١) غضب (٢) شجر بينهم الامر اضطرب (٣) هو أبو كسرى أنوشروان
(٤) فرسان العجم وقواده (٥) لم يخرج (٦) بداله فى الأمر نشأ فيه رأى ، فيضمر الفاعل ويفسر بلفظ البداء أو الرأى ، وقد يظهر الفاعل أحياناً
(٧) الوحوش ، وفرس قيد الأوابد يلحق الوحش لجودته ، ويمنعه من الفوت لسرعته فكأنها مقيدة له لا تعدو

لأكثر ذلك ؛ ويغلب على شعره التشبيب والوَصفُ أيام صَبْوته[١] وبثُّ الشكوى من الزمان وتنكر[٢] الخُلاَّن زمن محنته

وقد يُفْحش فى تشبيبه بالنساء وتحدُّثه عنهن . ويُشَمُّ من شعره رائحة النُّبل[٣] وتُلْمح فيه شارات السيادة والملك : من ذلك قوله :

فظل العذارَى يرتمين بلحمها ... وشحمٍ كهُدَّاب الدِّمَقْس المفتل[٤]

وظل طهاةُ اللحم من بين مُنْضِجٍ ... صفيفَ شِواء أو قديرٍ معجل[٥]

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلب قليلٌ من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثَّل[٦] ... وقد يدركُ المجدَ المؤثَّل أمثالى

وشعره وان اشتمل بشَمْلة البداوة فى جفاء العبارة ، وخشونة الألفاظ ، وتجهم المعانى ، تراه أحيانًا يخطِر فى حُلَل من حسن الديباجة ، و بديع المعنى ورقة النسيب ، ومقاربة الوصف وسهولة المأخذ : مما كان لخَلفه منه أجملُ مثال حاكَوْه فى ترقيق شعرهم وحسن تَأَتِّيهم فى تصوير معانيه

فمن النوع الأول قوله فى وصف محبوبته :

وإذْ هى تمشِى كمَشْى النزيـــف[٧] ... يَصْرَعه بالكثيب البَهَر

برَهْرَهةٌ[٨] رُودة رَخْصَة ... كخُرْعوبةِ البـانةِ المنفطر

---

(١) الصبوة جهلة الفتوة والشباب (٢) التنكر التغير عن حال تسرك الى حال تكرهها
(٣) الذكاء والنجابة (٤) بقى العذارى اكثر النهار يتعاطين بترامى لحم ناقته التى عقرها لهن وبشحمها المكتنز الشبيه باهداب الحرير الأبيض المفتول (٥) قال هذا البيت بعد أن اصطاد بقر وحش وجلس ينتظر الاكل منه فذكر أنه كان معه فى خروجه الى الصيد طباخون يطبخون له أنواعاً منها الشواء ومنها ما يطبخ فى القدور وذلك غريب فى الصحراء ، لا يفعله إلا الملوك (٦) مؤصل (٧) النزف الاستخراج والنزيف المنزوف دمه من جراحه . الصرع الطرح على الأرض ، الكثيب التل من الرمل ، البهر الكلال وانقطاع النفس . البرهرهة الرقيقة الجلد ، الرودة الشابة ، الرخصة الناعمة ، الخرعوبة الغصن ، المنفطر المتشقق الذى خرج ورقه . ومعنى البيت الأول أنه شبه مشية حبيبته بمشية رجل نزف دمه حتى صار لايقدر أن يسرع المشى لما أصابه من الضعف خصوصاً إذا كان المكان مما يصعب السير فيه كاكثبة الرمال

وقوله فى معلقته :

وفرع يُغَشِّى المَتنَ أسودَ فاحم　　أثيث كقِنْوِ النخلة المتعَثْكل[١]
غدائرُهُ مستشْزِرات الى العُلا　　تَضِلُ المَدَارِى فى مثنًى ومرسَل[٢]
وكشح لطيفٍ كالجديل مخصَّرٍ　　وساق كأنبوب السقىّ المذلَّل[٣]
وتعطو برخْص غير شَثْن كأنه　　أساريع ظَبْى أو مساويك إسحِل[٤]

ومن الثانى قوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا　　وأرْحلِنا الْجزْعُ[٥] الذى لم يُثَقَّب

كان قلوبَ الطير رطْباً ويابساً　　لدى وَكرها العُنَّابُ والحَشَف[٦] البالى

أغرَّكِ منى أنَّ حبَّكِ قاتلى　　وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

ولامرئ القيس المطوّلات والمقطَّعات ، وأشهر مطوّلاته معلَّقتهُ المضروب بها المثل فى الاشتهار ، وأوّلها :

قِفا نَبْكِ من ذِكرَى حبيبٍ ومنزل　　بِسِقْط اللِّوى بين الدَّخُول فحَوْمَل[٧]

(١) الفرع الشعر التام ، المتن الظهر ، الفاحم الشديد السواد ، الاثيث الكثير ، القنو العذق (السباطة) المتعثكل الكثير الشماريخ الداخل بعضها فى بعض . يريد تشبيه شعر محبوبته بكباسة النخل الكثيرة الشماريخ

(٢) غدائره ذوائبه ، مستشزرات مرتفعات ، تضل تغيب ، المدارى الامشاط ومفردها مدرى

(٣) الكشح ما بين الخاصرة الى الضلع الخلف ، الجديل زمام يتخذ من سيور ، المخصر الدقيق الخصر ، والانبوب ما بين العقدتين من القصب وغيره . والسق المذلل يعنى البردىّ المسقّ الملين بالارواء . يريد تشبيه كشح محبوبته بخطام الناقة المتخذ من الجلد ، وساقها بنباتة البردى المسقية كثيراً

(٤) العطو التناول ، الشثن الغليظ ، الاساريع جمع اسروع وهو دود يكون فى البقل والاماكن الندية ، وظبي اسم مكان ، والاسحل شجرة تدق أغصانها فى استواء . يشبه أصابع محبوبته بهذا الصنف من الدود أو هذا النوع من المساويك

(٥) خرز اسود يخالطه بياض　(٦) أردأ التمر　(٧) قال ياقوت قال السكرى الدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع ما بين امرة وأسود العين ، امرة مثل امعة منهل من مناهل حاج البصرة ، وأسود العين جبل بنجد يشرف على طريق البصرة الى مكة

فتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يعفُ رسمُها لِمَا نَسَجتْها من جَنوبٍ وشَمألِ (١)

ومنها يشكو طول الليل :

وليلٍ كموج البحر أرخى سُدُولَهُ عليّ بأنواع الهمــوم ليَبْتَلى (٢)
فقلت له لمــاَّ تمطى (٣) بصُلْبه وأردَفَ أعجازاً (٤) ونَاءَ (٥) بكَلكَلِ (٦)
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألاَ انجَلِ (٧) بِصُبْحٍ وما الإِصباحُ منكَ بأمْثَلِ (٨)
فيالَكَ من ليل كأنّ نُجُومَه بكلّ مُغار (٩) الفَتْلِ شُدَّتْ بِيذبُلِ (١٠)

ومن شعره يذكر رحْلته الى قيصرَ مع صاحبه عمرو بن قَمِيئَة الضبَعى (١١) الشاعر وكان امرؤ القيس غرّه فى رحلته وأخفى عليه وجهَ قصده :

سما لكَ شوقٌ بعد ما كان أقْصَرا وحَلَّتْ سُلَيْمى بَطن ظَبْيٍ فعرْعَرا (١٢)
فدعْها وسَلّ الهم عنها بجَسْرة ذَمول إذا صام النهار وهجَّرا (١٣)
عليها فتًى لم تحمِل الأرضُ مثلَه أبرَّ بميثاق وأوفى وأصْبرا
إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضِيتُه وقرّت به العينانِ بُدّلتُ آخَرَا
كذلك جَدّى (١٤) لاأصاحب صاحباً من الناس إلاّ خانَنى وتَغيَّرا
تذكرت أهلى الصالحين وقد أتت على جَمَلٍ بنا الركابُ وأعْفَرا (١٥)
ولما بدت حَوْران (١٦) والآلُ دونها نَظَرْتَ فلم تَنظُرْ بعينيك مَنْظرا
تقطَّع أسبابُ اللُّبانات (١٧) والهوى عشيةَ جاوزنا حَماةَ وشَيْزَرا (١٨)

---

(١) لم يعف رسمها لم يذهب أثرها ، ونسج الريحين على البقعة اختلافهما عليها جنوباً وشمالا. يعجب من عدم عفاء رسمها للسبب الذى من أجله تعفو الرسوم وهو اختلاف فى الرياح عليها بسفى التراب

(٢) كموج البحر فى توحشه ونكارة أمره ، والمراد بالسدول الظلمات الشبيهة بالستور

(٣) مد ظهره (٤) مآخير (٥) مقلوب نأى بمعنى بعد (٦) الكلكل الصدر. والمعنى أفرط فى الطول (٧) انكشف (٨) أفضل ، وذلك لأنى أقاسى الهموم نهاراً كما أعانيها ليلاً (٩) حبل محكم الفتل (١٠) جبل بنجد (١١) نسبة الى ضبيعة قبيلة من بكر

(١٢) عاودك الشوق بعد ما كان تركك . وظبي وعرعر مكانان الأول فى أرض كلب والثانى فى نجد (١٣) الجسرة الناقة الماضية ، والذمول السريعة ، وصام النهار وهجر اشتد حره

(١٤) بختى وحظى (١٥) جمل وأعفر موضعان بالشام (١٦) كورة واسعة من أعمال دمشق (١٧) الحاجات أى تقطعت الحاجات (١٨) حماة مدينة بالشام بينها وبين شيزر مسيرة يوم ، وقد افتتحها المسلمون سنة ١٧ هـ

بكى صاحبي لما رأى الدربَ[١] دُونَه ... وأيْقَنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ له : لا تبْكِ عينك انما ... نُحَاول مُلكاً أو نموت فَنُعْذَرا

ومن أبياته السائرة :

إذا المرء لم يخزُنْ عليه لسانَه ... فليس على شيء سواه بخزّان

فإنك لم يفخر عليك كفاخِرٍ ... ضعيف ولم يغلبك مثلُ مغلَّب[٢]

وقد طوّفتُ فى الآفاق حتى ... رَضيتُ من الغنيمة بالإياب

(٢) النابغة الذبيانى

منشؤه وتكسبه بالشعر

هو النابغة الذُّبيانى أبو أُمامة زيادُ بن معاوية : أحدُ فحول شعراء الجاهلية ، وحَكَمهم بعكاظ ، وأحسنهم ديباجةَ لفظ ، وجَلاء معنى ، ولطفَ اعتذار . ولُقِّبَ بالنابغة لنبُوغه فى الشعر فُجَاءة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير . وهو من أشرف ذُبيان الاّ أن تكسُّبه بالشعر غضّ من شرفه ، على أنه لم يتكسب بشعره الاّ فى مدح ملوك العرب . وكان من أمره فى ذلك أن اتصل بملوك الحِيرة ومدحهم وطالت صُحبته للنعمان بن المُنْذر ، فأدناه منه ، واتخذه جليساً ونديماً ، ووصله بجوائزه السَّنية ونوقه العصافير[٣] حتى صار لا يأكلُ ولا يشربُ الاّ فى صِحاف الذهب والفضة ، الى أن وَشَى بهِ عند النعمان أحد بطانته فغضب عليهِ وهمّ بقتله . فأسرّ اليهِ بذلك عِصام حاجب النعمان ، فهرب النابغة الى ملوك غسّان المنافسين للمناذرة فى مُلْك العرب ، فمدح عمرَو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان ؛ غير أن قديم صحبته للنعمان ، وحسنَ صنيع النعمان عنده ، ورجاء اظهار براءته ، كل ذلك جعله يحنُّ الى معاودة العيش فى ظلاله فتنصل مما رُمى بهِ واعتذر اليهِ بقصائد

(١) الدرب باب السكة الواسع وكل مدخل الى الروم فهو درب
(٢) المغلوب مراراً
(٣) العصافير نوق نجائب كانت للملوك تنجت من أكرم فحل للعرب يسمى عصفوراً

استلَّت سَخيمته[١] وعطفتْ عليه قلبه ؛ وحل عنده فى منزلته الأولى . وعُمِّر النابغة طويلاً ، ومات قبيل البعثة

*
* *

شعره — أهل البَصَر بالشعر على أن النابغة الذبيانىّ من فحول الطبقة الأولى الجاهلية ، بل جعل بعضهم شعره غايةَ المدى الذى بلغه الشعر الجاهلى من الجمال وحسن الرونق ؛ ويعدُه الكثير من الرواة فى أصحاب المعلقات . ويمتاز شعره برَشاقة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وحسن النظم ؛ وقلة التكلف ، حتى عُدَّ عند المرَقِّقين من الشعراء — كجرير — أنه أشعر شعراء الجاهلية . وأغراه تكسبه بالشعر أن يَفْتَنّ فى ضروب المدح والاستقصاء فيه حتى مدح بالشىء وضدِّه : فقال من قصيدة يمدح بها النعمان :

وأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يَبدُ منهن كوكب

وقال من أخرى من اعتذارياته :

فانك كالليـل الذى هو مُدْركى   وإن خلتُ أن المُنتأى عنك واسع

كما أغراه بلطف الاعتذار واجتلاب الرضا عند ما فاته طيِّب المكسب . ولعل تقديمه على الشعراء لم يكن من حكم علماء الشعر وحْذَهم ، بل يظهر أنه قد شاركهم فيه شعراء الجاهلية أنفسهم ، فلأمرٍ ما قدموه عليهم فى عكاظ وجعلوه حكماً يتناشدون أمامه أشعارهم ، فيقضى لشاعر على شاعر . وله ديوان شعر شرحه البَطَلْيَوْسِى[٢] وطبع مراراً وان لم يجمع اكثر قوله . ومن أبلغ شعره معلقته التى أوّلها :

عُوجُوا فَحَيّوا لنُعْمٍ دِمْنَةَ الدار   ماذا تُحَيون من نُؤْى وأحجار[٣]
أقْوَى وأقْفَرَ من نُعْم وغيّره   هُوجُ الرياح بهابِى التُرْبِ مَوّار[٤]

---

(١) حقده (٢) هو ابن السيد البطليوسى شارح أدب الكاتب لابن قتيبة ، منسوب الى بطليوس مدينة بالاندلس (٣) عوجوا قفوا ، الدمنة ما اجتمع من آثار الديار ، النؤى الحفير يكون حول الخباء يمنع المطر (٤) أقوى وأقفر خلا ، هوج الرياح جمع هوجاء وهى الشديدة ، الهابى السافى ، موار يجىء ويذهب

وقفْتُ فيها سَرَاةَ اليوم أسألها ... عن آلِ نُعْمٍ أَمُوناً عِبْرَ أسفار [١]

فاستعجمتْ دارُ نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

ومن جيد قوله فى الاعتذار :

أتانى (أبَيْتَ اللعنَ [٢]) أنك لُمْتَنى ... وتلك التى أهتم [٣] منها وأنصَبُ [٤]

فبتّ كأنَّ العائداتِ [٥] فرشن لى ... هَرَاساً [٦] به يُعْلَى فِراشى ويُقْشَبُ [٧]

حلفت فلم أترك لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنى جنايةً [٨] ... لَمُبْلِغُكَ الواشى [٩] أغش وأكذب

ولكننى كنت امرأً لِىَ جانبٌ [١٠] ... من الأرض فيه مُسْتَرادٌ [١١] ومَهْرَب

ملوك [١٢] واخوان إذا ما أتيتهم ... أحَكَّمُ [١٣] فى أموالهم وأُقرَّب

كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم تَرَهم فى شكر ذلك أذنبُوا [١٤]

فلا تتْرُكَنّى بالوَعيد كأنَّنى ... إلى الناس مَطْلىٌّ به القارُ [١٥] أجرب

ألم ترَ أن الله أعطاك سُوْرَةً [١٦] ... تَرى كلَّ مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ [١٧]

وأنك شمس والملوك كواكبُ ... إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب [١٨]

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمُّهُ ... على شَعَثٍ ؛ أىُّ الرجال المُهَذَّب [١٩]

---

(١) سراة اليوم وسطه ، الامون الناقة التى يؤمن عثارها ، عبر أسفار أى يعبر عليها فيها

(٢) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ، ومعناها أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام

(٣) أصير لاجلها ذاهم (٤) أتعب وأعيا (٥) الزائرات فى المرض

(٦) شوكا كأنه حسك (٧) يخلط (٨) ذنباً (٩) النمام

(١٠) الجانب الناحية وأراد به الشام (١١) موضع يتردد فيه لطلب الرزق

(١٢) بدل من مستراد ومهرب أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك (١٣) أتصرف كيف أشاء

(١٤) قال الاصمعى كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم تر ذلك ذنباً عليهم (١٥) القطران (١٦) منزلة رفيعة وشرفاً (١٧) يضطرب

(١٨) أراد بهذا البيت والذى قبله تسلية النعمان على ما حصل منه من مدحه لآل جفنة

(١٩) تلمه تصلحه ، والشعث الفساد ، المهذب المنقى من العيوب ، يعتذر بذلك عن زلته ، والمعنى أى الرجال يكون مبرأ من العيوب فان قطعت اخوانك بذنب لم يبق لك أخ

فان أكُ مظلوماً(١) فعبدٌ ظلمتَه وان تك ذاعُتبى (٢) فمثلك يُعتِبُ (٣)

ومن أبياته السائرة :

وأنت كالدهر مَبثوثاً حبائلُه والدهر لا ملجأَ منه ولا هرَبُ

أضحَتْ خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخْنَى عليها الذى أخنَى على لُبَدِ (٤)

نُبّئْتُ أن أبا قابوسَ (٥) أوعدنى ولا قَرار على زَأر من الأسد

فلو كفِّى اليمين بغَتْكَ خونًا لأفردت اليمينَ عن الشمال

(٣) زهير بن أبى سُلمى

هو زهير بن أبى سُلْمى ربيعة بن رِياح المزُنىُّ ثالث فحول الطبقة الأولى من الجاهلية ، وأعفهم قولاً ، وأوجزهم لفظاً ، وأغزَرهم حكمةً ، وأكثرهم تهذيباً لشعره

منشؤه نشأ فى غَطَفان ، وكان نسبُه فى مُزَينَة ، من بيت جُلُّ أهله شعراء : رجالاً ونساءً ، وأكثر ما استفاد حكمتَه وشعرَه وأدبه من خال أبيه بَشَامةَ بن الغدِير أحد أشراف غَطَفان ، وكان بشامة هذا مُقعَداً حازماً شاعراً مُجيداً يرجعون اليه فى مُعضِل أُمورهم ويَقسِمون له من غنائمهم كأفضلهم ، فشب زهير متخلِّقاً ببعض صفاته وارثاً عنه شعرَه ، ولزم أيضاً أوْس بن حَجر زوجَ أمه ، وكان شاعرَ مُضر فى زمانه فروى عنه الشعر ثم ظهر عليه وأخمله . واختص زهيرٌ بمدح هَرِم بن سنان الذُّبيانى مدحه لهرم

---

(١) جعل غضبه ظلماً لانه من غير موجب (٢) رضا (٣) يرضى

(٤) اسم لآخر ما هلك من نسور لقمان السبعة التى وهب الله له عمراً يطول بطول أعمارها فطال عمر هذا النسر حتى قيل طال الامد على لبد ، وأخنى عليه أهلكه ، ويريد بالذى أخنى عليها ، الزمان وحوادثه

(٥) أصل القابوس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون ، وأبو قابوس كنية النعمان بن المنذر أحد ملوك العرب

المزنى ، فمدحه بمدائح خلّدتْ اسمهُ أبدَ الدهر(١) حتى ضرب بمدحه فيه المثل كما يقول البوصيرى فى بُردته :

ولم أُردْ زَهرة الدنيا التى اقتطفت يدَا زهيرٍ بما أثنى على هرم

وأول ما أعْجَبه من أمره وحبَّبَ اليه مدحَه حسنُ سعيه هو والحارثُ بن عَوف فى الصلح بين عبس وذُبيان فى حرب داحس والغبراء ، بتحمُّلهما دياتِ القتْلى التى بلغت ثلاثة آلاف بعير ، وقال فى ذلك قصيدته احدى المعلقات السبع التى أوَّلها

أمِنْ أمّ أوفى(٢) دِمنةٌ(٣) لم تكلَّمِ بحَوْمانةِ الدرَّاج فالمتَثلَّم(٤)

ثم تابع مدحه كما تابع هرم عطاءه حتى حلف لا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلّم عليه إلا أعطاه : عبداً أو وليدة أو فرساً . فاستحْيا زهير منه فكان إذا رآه فى ملأ قال : أنْعِموا صباحاً غير هرم وخيرَكم استثنيت

وكان زهير سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع مُتديّناً مُؤمِناً بالبعث والحساب كما يظهر من قوله :

فلا تكتُمُنَّ اللهَ ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يُكتَم اللهَ يعلمِ

يُؤخَّرْ فيُوضَعْ فى كتاب فيدَّخرْ ليوم الحساب أو يُعَجَّلْ فيُنقَمِ

وعُمّر زهير ومات قبل البعثة بسنة

روِيّة زهير — وكان زهير صاحب رويّة وتعمُّل وتهذيب لما يقول ، ولا سيما مطوّلاته ، حتى قيل إنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ، ويهذّبها فى أربعة أشهر ويعْرضها على خواصه فى أربعة أشهر . فلا يظهرها إلا بعد حوْل ، ولذلك يسمون بعض مطوّلاته الحوليات

---

(١) قال عمر بن الخطاب لبعض ولد هرم أنشدنى بعض مدح زهير أباك فأنشده فقال عمر ان كان ليحسن فيكم القول ، قال ونحن والله ان كنا لنحسن له العطاء ، قال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم ، وقال رضى الله عنه لابن زهير ما فعلت الحلل التى كساها هرم أباك قال أبلاها الدهر ، قال لكن الحلل التى كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر

(٢) امرأة زهير (٣) ما اسودّ من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما

(٤) حومانة الدرّاج ماء بنجد على الطريق التى بين البصرة ومكة ، والمتثلم موضع قريب منه

*
* *

شعره — لا خلاف بين أئمة الشعر ونقدته فى أن زهيراً أحد ثلاثة الفحول المتقدمين فى الجاهلية على من سواهم ، وان كثيراً منهم ليفضلونه على صاحبيه : امرئ القيس ، والنابغة ، وحجتهم فى ذلك أنه يمتاز بالمزايا الآتية :

أولاً — حُسْن الإيجاز وحذف فضول الكلام[1] وحشوه بحيث يودع اللفظ اليسير المعنى الكثير . كقوله :

فما يك من خير أتَوْه فانما توارثه آباء آبائهم قبل

ثانياً — إجادة المدح وتجنب الكذب فيه ، فلا يمدح الرجلَ إلا بما عرف من أخلاقه وصفاته[2] كقوله :

على مُكْثِريهم رَزْق من يَعْتَريهمُ وعند المقلِّين السماحة والبذل

ثالثاً — تجنب التعقيد اللفظىّ والمعنوىّ ، والبعد من حُوشىّ الكلام وغريبه[3] كقوله :

ولو أن حمداً يُخلِد الناس أُخْلِدوا ولكنّ حمد الناس ليس بمُخْلِد

رابعاً — قلة السُّخْف والهذَر[4] فى كلامه ولذلك كان شعره عفيفاً يقلُّ فيه الهجاء ، ولقد هجا قوماً فأوجع ، ثم ندم على ما صنع

---

(١) سأل معاوية الاحنف بن قيس من أشعر الشعراء قال زهير ، قال وكيف ، قال ألقى عن المادحين فضول الكلام ، قال مثل ماذا ، قال مثل قوله « فما يك من خير . . البيت »

(٢) قال عبد الملك بن مروان حين سمع هذا البيت ما يضر من مدح بما مدح به زهير آل أبى حارثة من قوله « على مكثريهم . . البيت » أن لا يملك أمور الناس (يعنى الخلافة) ثم قال ما ترك منهم زهير غنياً ولا فقيراً الا وصفه ومدحه

(٣) قال ابن عباس قال لى عمر بن الخطاب هل تروى لشاعر الشعراء قلت ومن هو ؟ قال الذى يقول « ولو أن حمداً . . البيت » قلت ذلك زهير قال فذاك شاعر الشعراء ، قلت وبم كان شاعر الشعراء قال : لانه كان لا يعاظل فى الكلام وكان يتجنب وحشيه ولم يمدح أحداً الا بما فيه . يعاظل بين الكلام يداخل فيه ويعقده . وحوشىّ الكلام وحشيه وغريبه

(٤) السخف فى الكلام رداءته ، الهذر الكثير الردىء أو سقط الكلام

خامساً — الإكثار من الأمثال والحكم بما لم يفقه فيه شاعر جاهلى وبما فتح به باب الحكم والأمثال فى الشعر العربى ، فكان كلامُه الدرب الذى سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة : أمثال صالح بن عبد القدّوس[1] وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرّى[2] من المولدين . ومن حكمه فى معلقته قوله :

وأعلم ما فى اليوم والأمس قبلَه ... ولكنّنى عن علم ما فى غدٍ عَمِ
رأيت المنايا خَبْطَ عشواء[3] من تُصِبْ ... تُمِتْه ومن تُخطِئْ يعمَّر فيهرَم
ومن يجعل المعروف من دون عِرْضِه ... يَفِرْه[4] ومن لا يتّق الشتمَ يُشتَم
ومن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضلِه ... على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَم
ومن يُوف لا يُذْمَم ومن يُهْدَ قلبُه ... إلى مُطْمَئِنّ البر لا يَتَجَمْجَم[5]
ومن هابَ أسباب المنايا ينلْنه ... وإن يرقَ أسبابَ السماء بسلَّم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكنْ حمده ذمًّا عليه ويَندَم
ومن لم يَذُد[6] عن حوضه بسلاحه ... يُهدَّمْ ومن لا يظلِم الناسَ يُظلَم[7]
ومهما تكنْ عند امرئ من خليقةٍ[8] ... وإن خالها تَخْفَى على الناس تعلَم

ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هَرِماً :

قد جعل المبْتغون الخيرَ فى هرِم ... والسائلون الى أبوابه طرُقا[9]
من يلق يوماً على عِلّاته هرماً ... يلقَ السماحة منه والندى خلقا[10]
لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرُمةٍ ... أُفْقَ السماء لنالت كفه الأفقا

---

(١) من نابغى شعراء الدولة العباسية قتل لاتهامه بالزندقة

(٢) ستاتى تراجمهم ، وهم من شعراء الدولة العباسية

(٣) الخبط الضرب باليد ، والعشواء الناقة التى لا تبصر ليلا ، يريد أن المنية كالناقة العشواء تسير على غير هدى فتصيب الناس على غير نسق معروف أو ترتيب محدود

(٤) يصنه ويحفظه (٥) يتزلزل ويضطرب (٦) يدفع ويكف

(٧) من انقبض عن الناس وكف يده عن الامتداد اليهم رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه (٨) طبيعة (٩) المبتغون الطالبون ، فى هرم عند هرم أو منه ، جعل طلاب المعروف عند هرم طرقا الى أبوابه لكثرة ترددهم عليه وقصدهم اليه (١٠) على علاته أى إن تلقه على قلة مال وعدم تجده سمحا كريماً فكيف به وهو على غير تلك الحال

وقوله : وأبيضَ(١) فياضٍ(٢) يداه غمامةٌ ... على مُعتَفيه(٣) ما تُغِبُّ(٤) فواضلُه
أخي ثقةٍ لا يُهلك الخمرُ ماله ... ولكنه قد يُهلك المالَ نائله
تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تُعطيه الذي أنت سائله

(٤) عنترة العبسي

هو عنترة بنُ عمرو بن شدّاد العبسي أحد فُرسان العرب وأغْرِبَتها(٥) وأجوادها وشعرائها المشهورين بالفخر والحماسة

منشؤه ونسبه

وكانت أمُّه أمَةً حبشية ، وأبوه من سادات بنى عَبْس

وكان من عادات العرب ألاَّ تُلحِق ابن الأمة بنسبها بل تجعله فى عِداد العبيد ولذلك كان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانِهِ ، يَرعى له إبلَه وخيلَه . فربأ بنفسه عن خِصال العَبيد ومارس الفُروسية ومَهَر فيها ، فشبَّ فارساً شجاعاً هُماماً . وكان يكره من أبيه استعباده له وعدم إلحاقه بهِ ، حتى أغار بعضُ العرب على عبس واستاقوا إبلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترةُ لاستنقاذ الإبل : قال له أبوه : كرَّ يا عنترة . قال : العبدُ لا يُحْسن الكرّ ، انما يُحْسِن الحِلاَبَ والصَّرّ(٦) . قال كرّ وأنت حُر ، فقاتل قتالاً شديداً حتى هَزَمَ القومَ واستنقذ الإبل ، فاستلحقهُ أبوه . ومن ذلك الوقت ظهر اسمهُ بين فرسان العرب وساداتِها وخاض مع عبس اكثر وقائعها : وخاصةً حربَ داحس والغَبْراء ، حتى أصبح فارس حومتها ، وحامىَ بَيْضَتها وحتى ضُرِب به المثل فى الشجاعة والاقدام . قيل له يوماً أنْت أشجع العرب وأشدُّها ، قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا فى الناس ، قال كنت أُقدِم اذا رأيت الإقدام عزماً ، وأُحْجم اذا رأيت الأحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى منه مخرجاً ،

---

(١) نقى من العيوب (٢) كثير العطاء (٣) الطالب لمعروفه
(٤) أى لا تأتى فى الغب (والغب أن تأتى يوما وتنقطع آخر) بل هى دائمة لا تنقطع
(٥) أغربة العرب سودانهم والاغربة فى الجاهلية عنترة ، وخفاف بن ندبة ، وأبو عمير ابن الحباب ، وسليك بن السلكة (٦) الحلاب الحلب ، والصر شد ضرع الناقة

وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضر به الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأُثنى عليه فأقتله . وطال عمر عنترة حتى ضعف جسمه وعجَز عن شن الغارات ومات قبيل البعثة

☆
☆ ☆

شعره — لم يشتهر عنترة أوّل أمره بشعرٍ غير البيتين والثلاثة ، وانما غلبت عليه الفروسية مكتفياً بها حتى عيّره يوماً بعض قومه سوادَه وأنه لا يقول الشعر ، فاحتج لسواده بخلقه وشجاعته : واحتج لفصاحته بنظم معلقته المشهورة التى كانت تسمى المذهَّبة أيضاً وأوّلها : شعره

هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ أمْ هل عرفْت الدار بعد توهم (١)

وقد ضمنها خصاله ومكارم قومه . وحسن دفاعه عنهم ووفرة جُوده ، معرّجاً فيها على أوصاف أمور شتّى ، وهى من أجمل المعلقات وأسهلها لفظاً ، وأكثرها انسجاماً ، وأبدعها وصفاً ، وأشدّها حماسة وفخراً ، وكذلك كل ما عرف من شعره

وأكثر ما فى سيرته الموضوعة فى زمن الفاطميين . وما فى الديوان المنسوب اليه المستخرج من هذه السيرة منحول لا يعتدّ به

ومن قوله فى معلقته :

لما رأيتُ القوم أقبل جمعُهم يتذامرون (٢) كررت غير مذمَّمِ
يدعون عنتر والرماحُ كأنَّها أشْطان (٣) بئر فى لَبان (٤) الأدْهم (٥)
ما زلت أرْميهم بثغرة (٦) نحره ولَبانه حتى تسرْبل بالدم
فازورّ (٧) من وقع القَنا بلَبانه وشكا إلىَّ بعبْرة وتَحَمْحُم (٨)

---

(١) تردم الرجل ثوبه رقعة و « أم » بمعنى بل والتوهم التفرس ، والمعنى لم يترك الشعراء لى شيئاً أصلحه ثم خاطب نفسه قائلا هل عرفت دار محبوبتك بعد شدة بحثك عنها

(٢) يحض بعضهم بعضاً على القتال (٣) الحبال التى يستق بها (٤) اللبان الصدر

(٥) الحصان الاسود (٦) أعلى نحره (٧) مال (٨) العبرة تردد البكاء فى الصدر ، والتحمحم من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له

لو كان يَدْرى ما المحاورةُ اشتكى ولكان لو علم الكلام مُكلّمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقمَها قيلُ الفوارس وَيكَ(١) عنترُ أقدِمِ
والخيلُ تقتحمُ الخَبار(٢) عوابساً من بين شيظَمةٍ(٣) وأجْرَد(٤) شيظَم

ومنها :

أثنِى علىَّ بما علمت فاننى سَمْحٌ مخالطتى إذا لم أُظلَمَ
فاذا ظُلمتُ فانَّ ظُلمى باسل مُرٌّ مَذاقتُـه كطعم العَلقم

ومن جيد قوله :

بَكَرتْ تُخوِّفُنى الحتوف(٥) كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعْزِل
فأجبتها : انـ المنيـة منْهلٌ(٦) لا بد أن أُسقى بكأس المنْهل
فاقْنَىْ(٧) حياءك (لا أبالك(٨)) واعلمى أنى امرُؤ سأموتُ ان لم أُقتَل
ان المنيـة لو تُمثَّل مُثِّلتْ مثلى إذا نزلوا بضنك(٩) المنزِل
انى امرؤ من خير عبس منصِباً شطرى(١٠)، واحمى سائرى بالمُنْصُل(١١)
واذا الكتيبة(١٢) أحجمت(١٣) وتلاحظت(١٤) أُلْفِيتُ خيراً من مُعَمّ مُخْول(١٥)
والخيلُ تعْـلم والفوارس أننى فرّقت جمعهمُ بضربة فيْصل
والخيل ساهمة(١٦) الوجوه كأنما تُسْقى فوارسهـا نقيع الحنْظل
ولقد أبيت على الطَّوى(١٧) وأظلُّه حتى أنال به(١٨) كريم المأكل

ومن افراطه قوله :

وانا المنية فى المواطن كلّها والطعن منى سابق الآجال

---

(١) وى كلمة يقصد منها التعجب والكاف للخطاب (٢) الارض اللينة
(٣) الفرس الطويل (٤) الاجرد القصير الشعر الرقيقه
(٥) الحتف الموت (٦) مشرب (٧) الزمى (٨) كلمة يراد بها هنا التنبيه والاعلام لا الجفاء والشدة (٩) ضيق (١٠) نصفى (١١) السيف (١٢) الطائفة من الجيش
(١٣) تأخرت عن الاقدام (١٤) نظر بعضهم بعضاً بمؤخر عينه من شدة الهول
(١٥) كريم الاعمام والاخوال (١٦) متغيرة عابسة (١٧) الجوع (١٨) الباء للبدل

(٥) عمرو بن كلثوم

هو أبو الأسود عمْرو بن كُلْثوم بنِ مالك التغلَبى سيّد تغلِب وفارسها وأحد فتّاك العرب وشعرائها المشتهرين بقصيدة واحدة ، والمجيدين للفخر . وأُمُّه ليلى بنت مهلهل أخى كليب . نشأ عمرو فى قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتيــة شجاعاً هماماً خطيباً جامعاً لخصال الشرف ، وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفّراً فى كثير من أيامهم ؛ وأ كثر ما كانت فتن تغلب وحربها مع أختها بكر بن وائل بسبب الحرب المشئومة المشهورة بحرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند آخر ملوك الحيرة من آل المنذر . ولم تمض مدّة يسيرة بعد الصلح حتى حدث بين وجوه القبيلتين ملاحاة ومشاحّة فى مجلس عمرو بن هند قام فى أثنائها شاعر بكر الحارث بن حِلِزة اليشْكرى وأنشد قصيدته المشهورة . وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو بن كلثوم أنّ هوى الملك مع بكر ، فانصرف ابن كلثوم وفى نفسه ما فيها : ثم خطر فى نفس ابن هند أن يكسِر من أنَفَة تغلِب بإذْلال سيدِها وهو عمرو بن كلثوم ، فدعاه وأُمّه ليلى بنت مهْهل ، وأغرى هنداً أُمَّه أن تستخدمها فى قضاء أمر من أمورها ، فصاحت ليلى : واذلاه ! فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه ، ثم رحل توًّا إلى بلاده بالجزيرة وأنشد معلقته التى أوّلها

ألا هُبّى بصحنك[1] فاصْبَحينا[2] ولا تُبقِى خُمور الأنْدرينا[3]

يصف فيها حديثه مع ابن هند ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة ، ثم كان يخطب بها فى عكاظ وغيرها ، وحفظها بنو تغلب وأ كثروا من روايتها . ومات عمرو بن كلثوم قبل الاسلام بنحو نصف قرْن

*
* *

شعره — كان عمرو بن كلثوم من عظماء الجاهلية وأشرافهم وفرسانهم الذين

---

(١) الصحن القدح العظيم (٢) أسقينا الصبوح وهو ما أصبح عندهم من الشراب
(٣) قرية بالشام

شغلتهم الرياسة وخوض الحروب عن أن يُفيضوا فى الشعر ويطرقوا أكثر أبوابه كدأبِ من يتَّخِذون الشعر مِهْنةً وتجارة ، ولذلك لم يشتهر إلاَّ بمعلقته الواحدة التى قامت له مقام الشعر الوفير : لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها ، ووضوح معناها ، ورشاقة أسلوبها ، وعُلوّ فخرها ، ونبالة مقْصِدها ، ولولا أنه افتخر فيها وعدَّدَ مآثر قومه ما قالها ؛ ورويت له مقطَّعات لم يخرج بها عن أغراض معلقته ؛ ولعل شهرته بالخَطابة لا تقل عن شهرته بالشعر

ومن سامى فخره فى معلقته :

وقد علِم القبائل من مَعَدّ ... إذا قُبَب بأبطَحها[1] بُنينا
بأنّا المطْعِمون إذا قدرنا ... وأنّا المهْلِكون إذا ابتُلينا
وأنّا المانعون لما أردْنا ... وأنّا النازلون بحيث شِينا
وأنّا التّاركون إذا سخِطنا ... وأنّا الآخذون إذا رَضِينا[2]
ونشْرب إن وردنا الماء صفْواً ... ويشربُ غيرُنا كَدِرا وطينا
إذا ما الملْك سام الناس خَسفاً[3] ... أبيْنا أن نُقِرَّ الذلَّ فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ... ونبطِش حين نبطِش قادرينا
بغاةً ظالمين وما ظُلِمنا ... ولكنّا سنبدأ ظالمينا
ملأنا البرَّ حتى ضاق عنا ... ونحن البحرَ نملؤه سَفِينا
إذا بلغ الرضيع لنا فِطاما ... تخِرُّ له الجبابر ساجدينا

وقال يتوعد عمرو بن أبى حجر الغسانى :

ألا فاعلم (أبيت اللعن) أنّا ... على عمْد سنأتى ما نريد
تعلَّمْ أن محمِلنا ثقيل ... وأن ذِياد[4] كُبتّنا[5] شديد
وأنّا ليس حىٌّ من معدٍّ ... يوازننا إذا لبس الحديد

---

(١) الابطح والبطحاء مسيل واسع فيه دقاق الحصى
(٢) لا تقبل عطايا من غضبنا عليه وتقبل هدايا من رضينا عنه (٣) أولاهم ذلا
(٤) دفاع (٥) جماعتنا

(٦) طرَفة بن العبد

منشؤه

هو عمرو بن العبد البكرىّ أقصر فحول الجاهلية عمراً ، وأجودهم طويلةً ، وأوصفهم للناقة . مات أبوه وهو صغير ، وولى أمره أعمامه ومال الى البطالة واللهو والأخذ بأسباب الصَّبْوةِ والفتوة وقول الشعْر والوقوع به فى أعراض الناس ، حتى هجا قومه وأهله ، وحتى هجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة ، مع أنه كان يتطلب معروفه وجوده . فبلغ عمرو بن هند هجاه طرفة له ، فاضطغنها عليه ، حتى إذا ما جاءه هو وخاله المتلمس يتعرضان لفضله — وكان قد بلغه عن المتلمس مثل ما بلغه عن طرفة — أظهر لهما البشاشة والوداد ليؤمّنهما ، وأمر لكل منهما بجائزة ، وكتب لهما كتابين وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . و بيناهما فى الطريق ارتاب المتلمس فى صحيفته ، فعرّج على غلام يقرؤها له . (ومضى طرفة) . فاذا فى الصحيفة الأمر بقتله ، فألقى الصحيفة وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه ، وفرّ الى ملوك غسّان ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين وقتل هناك وعمره بضع وعشرون سنة

*
* *

شعره

شعره — قال طرفة الشعر وهو صبىّ فنبغ فيه حتى عدّ من الفحول ولم ينيّف على العشرين ، وزاد عليهم بقصيدتِهِ الطويلة التى وصف فيها الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً وصفاً لم يسبقه اليه أحد ؛ وتعد معلقته من أجود المعلقات وأكثرها غريباً وأغزرها معنى ، وأدقها وضعاً . ورُوى له غيرها من الشعر ولكنه قليل بالنسبة إلى شهرته ، وربما دل هذا على أن الرواة قد جهلوا اكثره

ويجيد طرفة الوصف فى شعره مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع قصد فى الغلو ، ومعاظلة فى بعض التراكيب ، واسترسال فى حوشى اللفظ ، وخفىّ المعنى [1] ، وكذلك

---

(١) قال يصف ناقته : لها فخذان اكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد
وطىّ محال كالحنىّ خلوفه ... وأجرنة لزت بدأى منضد
كأن كناسى ضالة يكنفانها ... وأطر قسىّ تحت صلب مؤيد

كان هجاؤه على شدّة وقعه ؛ ومطلع معلقته :

لخَوْلة[١] أطلالٌ ببُرقةِ[٢] ثَهْمَدِ[٣] ... تَلُوح[٤] كباقى الوَشْم[٥] فى ظاهر اليد

ومن أجودها قوله :

أرَى الموتَ يعتام[٦] الكرامَ ويصطفى ... عَقيلةَ[٧] مال الفاحش المُتَشَدِّدِ
أرَى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلة ... وما تَنقُصِ الأيامُ والدهرُ ينفدِ
لعَمْرُكَ إن الموت (ما أخطأ الفتى) ... لكالطِّوَل المُرخَى وثِنْياه[٨] باليدِ
متى ما يشأ يوماً يقُدْه لحتْفه ... ومن يك فى حبل المنية ينقَدِ

ومن أبياته السائرة ،

وظُلمُ ذوى القُربى أشدُّ مَضاضةً ... على المرء من وقْع الحُسام المُهَنَّدِ
أرى الموت أعدادَ[٩] النُّفوس ولا أرى ... بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !
ستبْدِى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تُزوِّد

قد يبعث الأمر الصغير كبيرَه ... حتى تظلُّ له الدماء تصبَّبُ

ومن قوله يفتخر :

نحن فى المَشْتاة[١٠] ندعو الجَفَلى[١١] ... لا نرى الآدِبَ[١٢] فينا ينتقِر[١٣]
حين قال النــاس فى مجلسهم ... أقُتار[١٤] ذاك أم ريحُ قُطُر[١٥]

---

(١) اسم محبوبته (٢) البرقة مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى
(٣) موضع فى ديار بنى عامر (٤) تلوح تلمع
(٥) النقش على اليد وغيرها بالنيلج وهو المسمى الآن (بالدق)
(٦) يختار (٧) كرام المال
(٨) الطول الحبل الذى يطول للدابة فترعى فيه والثنى الطرف والجمع أثناء ، والمعنى أقسم بحياتك أن الموت مدة مجاوزته للفتى بمنزلة حبل طول الدابة ترعى فيه وطرفاه بيد صاحبه . فكما أن الدابة لاتفلت مادام صاحبها آخذاً بطرفى طولها فكذلك الانسان لايهرب من الموت
(٩) جمع عدد أى لكل انسان ميتة فاذا ذهبت النفوس ذهبت ميتتهم كلها ، أو جمع عد بالكسر وهو الماء الذى لا تنقطع مادته وكل أحد يرده
(١٠) أى زمن الشتاء والبرد وهو أشد الزمان عندهم لما فيه من المحل والجدب
(١١) الدعوة العامة الى الطعام (١٢) الذى يدعو الى المأدبة
(١٣) يدعو النقرى وهى الدعوة الخاصة (١٤) ريح شواء (١٥) العود الذى يتبخر به

بجفان تعترى[1] نادينا من سَدِيف[2] حين هاج الصِّنَّبِر[3]
كالجوابى[4] لا تنى[5] مُتْرَعَةً[6] لقِرى[7] الأضياف أو للمُحْتَضِر[8]
ثم لا يُخْزَن فينا لحمُها إنما يُخْزَن لحم المُدَّخِر
ولقد تعلم بكرٌ أننا آفة الجُزْر مساميح يُسُر[9]
ولقد تعلم بكرٌ أننا فاضلو الرأى وفى الرَّوْع وُقُر[10]
يكشفون الضرَّ عن ذى ضُرِّهم ويُبِرُّون على الآبى المُبِر[11]
فُضُلٌ أحلامُهم عن جارهم رُحُبُ الأذْرع بالخير أُمُر[12]
ذُلُق فى غارةٍ مسفوحة ولدى البأس حماة ما نَفِر[13]
نُمْسك الخيلَ على مكروهها حين لا يُمْسكها إلاّ الصُّبُر[14]

(٧) أعشى قيس

هو أبو بصيرٍ مَيْمُونُ الأعشى بنُ قيس بنِ جَنْدلٍ القيسى ، رابعُ فحول الجاهلية ، وأمدحهم للملوك ، وأوصَفُهم للخمر ، وأغزَرهم شعراً ، وأكثرهم عَروضاً وافتناناً ، وطوالاً جياداً . وينتهى نسبهُ إلى بكر بن وائلٍ ، وكان من أهل اليمامة ، يسكن قرية منها تُسَمَّى مَنفُوحة . ونشأ فى بدء أمرِه راويةً لخاله المُسَيَّب بن عَلَس أحدِ الشعراء المُقِلّين المُجِيدين . وكان الأعشى يُطْرِى شعرَه ويأخذُ منه ،

(١) تلم وتأتى نادينا (٢) شحم السنام (٣) أشد ما يكون من البرد (٤) جمع جابية وهى الحوض العظيم (٥) لا تفتر بل هى لا تزال (٦) مملوءة
(٧) لاكرام الاضياف (٨) النازلين معنا على الماء
(٩) الجزر جمع جزور والمساميح الاسخياء واليسر الداخلون فى الميسر والمفرد يسور
(١٠) جمع وقور أى لا نتزعزع (١١) أبر عليه غلبه ، والآبى الممتنع ، والمبر الغالب أى يغلبون الغالبين للناس (١٢) جمع أمور وهو الكثير الأمر
(١٣) أى مسرعون الى الغارة ، متقدمون فيها وأصله من ذلق السيف اذا كان يخرج من غمده ، ومسفوحة مصبوبة
(١٤) أى نمسك الخيل على ما تلقاه من شدة الحرب وجهدها ولا ننهزم ، وانما ذكر مكروه الخيل لانها اذا أصابها مكروه فى الحرب فهم أجدر أن يصيبهم

حتى إذا جاد شعره ونبُه شأنه ، قصد الملوكَ والأجواد ، وطوّف اليهم الآفاق ، وأقاصى البُلْدَان مادحًا لهم مُستَجديًا عطاياهم . وهو أوّل من صرح فى شعره بالسؤالِ وطلب الحاجة ، فوضع ذلك من شأنه : وكان الشعراء قبله يمدحون ولا يسألون . وكان يَنْتاب بالمديح بنى عبد المَدَان ملوكَ نَجْران وأساقِفَتها ، يُقيم عندهم ما يشاء ، يشرب الخمرَ ويسمع الغناء ويأخذ عنهم بعض آرائهم فى العقائد ؛ فجاد لذلك وصفُه للخمر ، وظهر بعض معتقدهم فى كلامه : كما كان ينتاب ملوكَ الحيرة وخاصة الأسود أخا النعمان بن المنذر . وما زال هذا شأنه ، حتى طمِع فى جوائز كسرى ، فرحل اليه يمدحه بالشعر العربىّ فأجزَل عطاءه وان لم يرقْ عنده شعرُه ، لسوء ترجمته له

وعمِىَ الأعشى ، وطال عمره ، حتى كان الاسلامُ وعظُم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بين العرب ، فأعدَّ له قصيدةً يمدحه بها وقصده بالحجاز ، فلقيه كفار قُريش وصدّوه عن وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حمراء ويرجعَ إلى بلده : لتَخَوُّفِهم أثرَ شعره ، ففعل . ولما قرب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقت عنقه ومات . ودفن ببلدته منفوحة باليمامة

٭
٭ ٭

شعره — يُعدُّ الأعشى عند الكثيرين رابعًا لثلاثة الفحول : امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وإن كان يمتاز منهم بغزارة شعره ، وكثرة ما روى له من الطوال الجياد ، ونظمِه من أكثر أعاريض الشعر وضروبه . وتفنُّنه فى كل فنّ من أغراضه . واشتهر من بينهم بالمبالغة فى وصف الخمر ، حتى قيل : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركِب ، وزهير إذا رغِب ، والنابغة إذا رهِب ، والأعشى إذا طرِب . ولشعره طَلاوة وروْعة ليست لكثير من شعر غيره من القدماء . ولقوّة طبعه وجَلَبَة شعره سُمّى صَنَّاجة[1] العرب حتى ليُخَيَّل إليك إذا أنشدت شعره أن آخرَ يُنشِد معك . ولجلالة شعر الأعشى فى صدور العرب ، وسرعة طيرانه بين قبائلهم كان يرفع الوضيع الخامل . أثر شعره

(١) وقيل سمى صناجة لذكره الصنج فى شعره وهى آلة موسيقية (العمدة)

ويخفض الشريف النابه . ومن الذين رفعهم شعر الأعشى المحلَّق[١] ، وقد كان أبا ثمانى بنات عوانس ، رغبت عن خِطبتهنَّ الرجالُ لفقرهنَّ ؛ فأضافه على فقره ، فمدحه الأعشى ونوَّه بذكره فى عكاظ ، فلم يمض عام حتى لم تبق جارية منهنَّ إلا وهى زوج لسيد كريم . وكان الأعشى يتظرَّف فى شعره ، ويتملح بذكر بعض أسماء الأدوات والأزهار باللغــة الفارسية[٢] اعلانًا منهُ أنهُ دخل بلاد القوم ، وجالسهم ، وصدر عن ملوكهم . وعدّه بعضهم من أصحاب المعلقات ، وذكر قصيدته التى يمدح بها الأسود الكندى ، ومطلعها :

استعماله للالفاظ الأعجمية

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما تردُّ سؤالى

ومن جيد شعره قصيدتُه التى أعدَّها ليُنشدها بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه فيها فلم يَفُزْ بذلك وأوَّلها :

ألم تَغْتَمِضْ عيناكَ ليلةَ أرْمَدَا[٣] وبتَّ كما باتَ السليمُ[٤] مسهَّدَا[٥]

ومنها يتحدَّثُ عن ناقته ويمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

فآليت لا أرْثِى لها من كَلالة[٦] ولا من حَفًى[٧] حتى تُلاقِى محمداً
متى ما تُناخى عند باب ابن هاشم تَرَاحِى[٨] وتلْقىْ من فواضله ندى
نبىٌّ يرى ما لا يروْن وذكره أغار (لعمرى) فى البلاد وأنجدا[٩]
له صدقات ما تُغِبُّ[١٠] ونائل وليس عطاء اليوم يمنعــه غدا

وقصيدته فى مدح المحلَّق وأوَّلها :

أرِقتُ[١١] وما هذا السُّهاد المُؤرِّق وما بىَ من سُقْم وما بى تعشُّق

---

(١) سمى كذلك لان فرساً عضه فصار موضع عضته كالحلقة

(٢) وشاهدنا الجل والياسمــين والمسمعات بأقصابها
وبربطنا دائم معمــل فأى الثلاثة أزرى بها

(٣) رجل أرمد به رمد فى عينيه (٤) الملدوغ ، وسمى بذلك تفاؤلا

(٥) لا ينام (٦) تعب (٧) رقة القدم (٨) تستريحى (٩) أغار دخل الغور وهو كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، وأنجد دخل النجد وهو ضد الغور (١٠) تنقطع (١١) سهرت

ومنها :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار فى اليَفاع[1] تحرَّق
تُشَبُّ لمقرُورَين[2] يصطَليانها[3] ... وبات على النار الندى[4] والمحلق
رضيعىْ لِبانٍ ثدى أُمٍّ تقاسما ... بأسْحمَ داجٍ : عوْضُ لانتفرّق[5]
ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهِنْدُوانىّ رونقُ
يداه يدا صدق : فكفٌّ مبيدة[6] ... وكفٌّ إذا ما ضُنّ بالمـال تنفق

ومن أبياته السائرة :

عُلقتُها عرَضاً وعُلقتْ رجُلا ... غيرى وعُلق أُخرى ذلك الرجل

كناطح صخرةً يوماً ليُوهِنَها ... فلم يضِرْها وأوهى قرْنَهُ الوعِلُ

(٨) الحارث بن حِلِّزَة

هو الحارث بن حِلِّزَة اليشكرىّ البكرىّ أحدُ أصحاب المعلقات ، والمشهورين بالواحدات ، والمجيدين على البديهة والارتجال ، والمضروب بهم المثل فى الحماسة والافتخار . ويتصل نسبه الى بكر بن وائل . وكان فيها بمنزلة عمرو بن كلثوم فى تغلب . ولم يؤثر عنهُ غير قطعة يسيرة وقصيدته المعلقة التى مطلعها :

آذنتْنـا[7] ببَينِها[8] أسماءُ ... رُبَّ ثاوٍ[9] يُملُّ منه الثَّواءُ

سبب ارتجال المعلقة

وكان من أمر هـذه المعلقة أن عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلب بعد حربهما المشهورة بحرب البسوس . وأخذ من كلا الفريقين رهائن من أبنائهم ليكفَّ بعضهم عن بعض ، وليُقيد منها للمعتدَى عليه من المعتدِى ، فحدث أن سرَّح الملك ركبًا من تغلِب فى بعض حاجته ، فزعمت تغلب أن الركب نزلوا على ماء لبكر فأجلوْهم عنه وحملوهم على المفازة فماتوا عطشاً . وتزعم بكر أنهم سقوْهم

(١) التل (٢) أصابهما البرد (٣) يستدفئان بها (٤) الـكرم (٥) بأسحم داج يريد ليلا شديد السواد ، والمعنى أن الـكرم والمحلق رضعا من ثدى واحـد وتعاهدا على أنهما لا يفترقان أبداً (٦) متلفة (٧) أعلمتنا (٨) فراقها (٩) مقيم

وأرشدوهم الطريق فتاهوا وضلوا وهلكوا . وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو ابن هند ، وكانت ضِلَعه مع تغلب ، فهاج ذلك الحارث بن حلّزة وكان فى المجلس مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفَعالهم وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه . فما أتم قصيدته حتى انقلب الملك الى جانب البكريين واستدنى الحارث ورفع الستر بينه و بينه حتى صار معه فى مجلسه . وعمّر الحارث طويلاً حتى قيل : إنهُ أنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومائة سنة

☆
☆ ☆

شعره — اكثر الرواة ونقدة الشعر معجَبون بارتجال الحارث بن حلّزة قصيدته على طولها ، و إحكام نظمها ، وكثرة غريبها ، وتعدد فنونها ، واشتمالها على كثير من أيام العرب ووقائعها شعره

ومن قوله فيها وهو أوجز ما قيل فى وصف التأهب للارتحال وأصدقه وأوضحه تصويراً للحقيقة :

أجمعوا أمرهم عشاء فلمّاً أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء[1]
من منادٍ ومن مُجيبٍ ومن تصْـــهال خيل ، خلالَ ذاك رُغاء[2]

ومن قوله فيها :

لا يُقيم العزيز بالبلد السَّهْــــل ولا ينفع الذليلَ النَّجاء[3]
ليس يُنْجى مُوائلاً[4] من حِذارٍ رأسُ طوْد وحَرَّة رَجلاء[5]

ومن قوله فى غير المعلقة :

مَنْ حاكمٌ بينى وبيـــن الدهر مال علىّ عمْداً

(١) الضوضاء اختلاط الاصوات (٢) الرغاء صوت البعير (٣) الاسراع فى السير
(٤) وأل هرب وفزع كواءل (٥) الحرة الارض ذات الحجارة السوداء النخرة ، والرجلاء الغليظة الشديدة التى يترجل فيها ، يريد أن الشر كان شاملا لم يسلم منه العزيز ولا الذليل ، وأن الهارب منهم لم ينجه تحصنه بالجبل ولا بالحرة الغليظة الشديدة

أودى بسادتنـا وقد تركوا لنا حَلَقاً(١) وجُرْدا(٢)
خيلى وفارسها وربِّ م أبيك كان أعزَّ فقْدا
فلو آن ما يأوى الىَّ م أصاب من ثَهْلان(٣) هُدَّا
فضعى قناعكِ(٤) ان ريـب الدهر قد أفنى مَعَدّاً
فلكم رأيتُ معاشِراً قد جمَّعوا مالاً ووُلْدا
وهمُ رَباب حائر(٥) لا يُسْمِعُ الآذانَ رعداً
فعش بجَدٍّ لا يضرْ ك النَّوْكُ(٦) ما لاقيت جَدًّا(٧)
والعيش خير فى ظلا ل النَّوْك ممن عاش كدًّا

ومن قوله :

ان السعيد له فى غيره عظة وفى التجارِب تحكيم ومُعتبَر

(٩) لَبِيد بن ربيعة

هو أبو عقيل لبيدُ بن ربيعة العامرىّ أحد أشراف الشعراء المجيدين ، والقُوَّاد الفرسان المعمَّرين ، والأجواد العريقين والحكماء المحنَّكين . وهو من بنى عامر ابن صَعْصعة احدى بطون هوازن من مضر ، أمُّه عبسية . نشأ لبيد جواداً شجاعاً فاتكاً : أما الجود فورثه عن أبيه الملقب بربيعة المُقْتِرين ، وأما الشجاعةُ والفتكُ فهما خصلتا قبيلته ؛ اذ كان عمُّه مُلاعب الأسنّة أحد فرْسان مضر فى الجاهلية ، وكان بين قبيلته وبنى عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عنـد النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنة وكان الربيع مقرَّباً عند النعمان يؤاكله وينادمه ، فأوغر صدره على العامريين ، وعدَّد معايبهم ومخازيهم . فلما دخل وفْدهم على النعمان غض منه وأعرض عنه ، فشقَّ

(١) سلاحا (٢) خيلا (٣) جبل لبنى نمير (٤) القناع ما تستر به المرأة رأسها
(٥) سحاب أبيض لم يتجه جهة (٦) الحمق (٧) حظا

ذلك عليهم وخرجوا غضاباً يتذاكرون فى أمرهم مع الملك ، ولبيد يومئذٍ صغير يسرح ابلهم ويرعاها ، فسألهم عن خَطْبهم فاحتقروه لصغره ، فألحَّ حتى أشركوه معهم ، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام : بهجاء لا يجالسه بعده ولا يؤاكله . فكان ذلك ، ومقت النعمان الربيع ولم يقبل له عذراً ولم يجتمع به بعد ، واكرم العامريين وقضى حوائجهم . فكان هذا أولَ ما اشتَهَرَ به لبيد .

سبب قوله الشعر

ثم قال بعد ذلك المقطعات والمطوَّلات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن حين سمع معلقته التى أوَّلها :

عفت الديار محلُّها فمقامُها بمنًى تأبّد غَوْلُها فرِجامُها[١]

ومن حوادث فتكه أن الحارث الأعرج الغسّانى أرسل مائة من الفتيان الفتّاك على رأسهم لبيد ، ليغتالوا المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ، فذهبوا إليه وأظهروا أنهم أتوه داخلين فى طاعته ، فأدناهم اليه ، ولما صادفوا منه غِرَّةً قتلوه وهربوا ، فتبعهم جنود المنذر وقتلوا كثيراً منهم وفرَّ البقية وفيهم لبيد — ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفود العرب على النبى صلى الله عليه وسلم جاء لبيد فى وفد قومه بنى جعفر ابن كلاب بن عامر وأسلم وعاد الى بلاده وحسن اسلامه . وتنسَّك وحفِظ القرآن كله وهجر الشعر حتى قِيل لم يروَ له فى الإسلام غير بيت واحد وهو[٢]

اسلامه وهجره الشعر

ما عاتب الحرَّ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وبعد أن فتحت الأمصار ذهب إلى الكوفة زمَن عمرو واختارها دار إقامة .

ومن أحاديث جوده أنه نذر فى الجاهلية (ألاّ تهب الصَّبا الاّ أطعم) وألزم ذلك نفسه فى الإسلام ، وكانت له جفنتان يغدو بهما ويروح على مسجد قومه بالكوفة فهبت الصَّبا والوليد بن عُقبة والى الكوفة على المنبر ، ولبيد يومئذٍ قليل

(١) الديار فى الاصل ما حل فيها لايام معدودة ، والمقام ما طالت الاقامة به ، ومنى موضع بنجد غير منى مكة ، تأبد توحش ، الغول ما انهبط من الارض ، والرجام واحده رجمة وهى الهضاب وقيل الغول والرجام موضعان

(٢) وقيل هو : الحمد لله اذ لم يأتنى أجل حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

المال . فحرّض فى خطبته الناس أن يعينوه على مروءته ففعلوا . و بعث هو اليه مائة بكرة . فشكرته ابنة لبيد عن أبيها على ذلك بشعر جميل . وما زال بالكوفة حتى مات فى أوائل خلافة معاوية سنة احدى وأربعين من الهجرة . ومن ذلك تعلم أنه من كبار المعمرين ، وقد قيل أنه عاش ثلاثين ومائة سنة

شعره

شعره — انما جعلنا لبيداً فى فحول الجاهلية وان عُمِّرَ فى الاسلام أكثر من أربعين سنة : لأنه كما قدمنا لم يكن شاعراً فى الاسلام ، بل لم يصح عنه فيه إلا بيت واحد ، وقال لبيد الشعر ونبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سَنَن الأشراف والفرسان : كعنترة وعمرو بن كلثوم ، فلم يجعله مورد كسب ، ولذلك ترى فى شعره ولا سيما معلقته نبالة الفخر والتحدّث بالفتوة والنجدة والكرَم وايواء الجار وعزة القبيل . ويشابه علوَّ همته جزالةُ لفظه ، وفخامة عبارته ، ودقة معانيه ، وشرف مقاصده ، وقلة اللغو فى قوله ، وكثرة اشتماله على عقائد الايمان والحكمة الصادقة والموعظة الحسنة . وقد ثبت فى الصحيحين شهادة النبى صلى الله عليه وسلم له بقوله أصدق كلمة قالها شاعرٌ كلمة لبيد (ألا كل شىء ما خلا الله باطل) . وهو ممن يجيد الرثاء من الجاهليين ، ويأتى فيه بأبدع الحكم والأمثال التى تذهب الأحزان ، وتسلى الهموم ، وتهوّن على النفس ألم المصيبة . وعبارته فيه سهلة تخلص الى النفس بلا عائق : من غرابة فى لفظ ، أو تعقيد فى معنى

ومن جيد شعره قوله فى معلقته مفتخراً بفعاله وقوله وقومه :

انّا اذا التقت المجامع لم يزل ... منا لِزَازُ عظيمة جَشَّامها(١)

ومقسّمٌ يعطى العشيرة حقها ... ومغذْمِرٌ لحقوقها هَضّامها(٢)

(١) رجل لزاز الخصوم يصلح لان يلز بهم أى يقرن ليغلبهم ويقهرهم ، جشم الامر كسمع تكلفه على مشقة وجشام مبالغة منه أى لا تخلو المجامع من رجل منا يتحلى بقمع الخصوم ويتكلف الخصام (٢) الغذمرة الغضب ، والهضم الظلم . يريد منا الذى يقسم الغنائم فيوفر على العشائر حقوقها ويتغضب عند اضاعة شىء منها ويهضم حقوق عشيرته اذا ظلمت وجارت

فضلاً، وذو كرم يعين على الندى سمحٌ كسوب رغائبٍ غنّامها (١)
من معشر سنّتْ لهم آباؤهم ولكل قوم سنّةٌ وإمامها
لا يطبَعون ولا يبور فَعالهم اذ لا تميل مع الهوى أحلامها (٢)
فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الخلائق بيننا علاّمها
واذا الأمانة قسّمت فى معشرٍ أوفى بأوفر حظنا قسّامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سَمكه فسما إليه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أُفْظِعَتْ وهمُ فوارسها وهمْ حكّامها (٣)
وهمُ ربيعٌ للمجاور فيهمُ والمُرملاتِ إذا تطاول عامها (٤)
وهم العشيرة أن يُبطّئ حاسد أو أن يميل مع العدوّ لئامها (٥)

ومن قوله فى النعمان يرثيه :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول أنحبٌ فيُقْضَى أم ضلال و باطل (٦)
أرَى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذى لبٍّ الى الله واسل (٧)
ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل (٨)
وكل أناس سوف تدخل بينهم دُوَيْهيةٌ تصفرُّ منها الأنامل (٩)

---

(١) الرغائب جمع رغيبة وهى العطاء الكثير ، والامر المرغوب فيه ، وفضلا أى يفعل ذلك تفضلا (٢) الطبع تدنس العرض وتلطخه ، والبوار الفساد ، والاحلام العقول

(٣) أفظعت أصيبت بأمر فظيع (٤) أرمل القوم نفد زادهم أى هم لمن جاورهم وللنساء اللاتى نفدت أزوادهن بمنزلة الربيع لعموم نفعهم وأحيائهم أيامهم بجودهم

(٥) هم متعاضدون كراهية أن يبطىء الحساد بعضهم عن نصر بعض أو أن يميل لئامهم الى الاعداء

(٦) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة استعمال الحيلة ، والنحب النذر . اسألوا هذا الحريص على الدنيا عما هو فيه أهو نذر نذراً على نفسه فلا بد من فعله أم هو ضلال وباطل من أمره

(٧) الواسل الطالب والراغب الى الله — أرى الناس لا يعرفون ما هم فيه من خطر الدنيا وسرعة زوالها فالعاقل من يتوسل الى الله بالطاعة والعمل الصالح

(٨) كل شىء غير الله تعالى زائل وفائت ومضمحل ليس له دوام

(٩) التصغير للتعظيم والمراد الموت والمقصود من الانامل الاظفار لان صفرتها لا تكون الا بالموت

وكل امرئٍ يوماً سيعلم غيبه　　إذا كُشِّفت عند الإله الحصائل [١]
إذا المرء أسرى ليلة خال أنه　　قضى عاملاً، والمرء ما دام عامل [٢]
فقولا له إن كان يَقسم أمرهُ :　　ألمَّا يعظك الدهر ؟ أُمُّك هابل! [٣]
فتعلمَ أن لا أنت مدرك ما مضى　　ولا أنت مما تحذَر النفسُ وائل [٤]
فان أنت لم ينفعَك علمك فانتسب　　لعلك تهديك القرون الأوائل [٥]
فان لم تجد من دون عدنان والداً　　ودون معدٍّ فلْتَزَعْك العواذلُ [٦]

(١٠) أُميّة بن أبي الصَّلْت

هو أبو عثمان أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر ثقيف وأحد الملتمسين للدين في الجاهلية

منشؤه — نشأ بالطائف، وكان أبوه شاعراً مشهوراً، فأربى أمية عليه، واستزاد النظر في الأديان، وطلبها من أهل الكتاب؛ وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى، وما بقي في رءوس شيوخ الجاهلية من ملة ابراهيم واسماعيل، وحدّث عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن وشرائع الأنبياء والرسل، وخاض في التوحيد وأمر الآخرة، وتعبد ولبس المُسوح وحرَّم الخمر على نفسه، وشك في الأوثان. ورأى في هذه الكتب ما يبشر ببعثة نبيّ من العرب فطمِع أن يكونه. فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كسف باله، وحمله الحسد والكمد

---

(١) جمع حصيلة والمراد الحسنات والسيئات

(٢) اذا سهر المرء في عمل ظن أنه فرغ منه، وهو ما عاش يعرض له مثل ذلك

(٣) يقسم يدبر. هبلته أمه ثكلته　(٤) فتعلم بالنصب جواب النفي، ووائل من وأل بمعنى نجحت والموئل المنجى

(٥) ان لم تنتفع بعلمك فانتسب وقل أين فلان بن فلان فانك لا ترى أحداً بقي، لعلك تهديك وترشدك هذه القرون الخالية

(٦) تزعك تكفك، العواذل هنا الحوادث، وعدنان جده الاعلى — يقول لم يبق لك أب حي الى عدنان فكف عن الطمع في الحياة

أن ينابذه ويكفر بدينه على علمه بصحته ، ويحرض عليه قريشاً ، ويرثى قتلاهم فى وقعة بدر . فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره فى ذلك . وروى أنهُ هو الذى نزلت فيه آية « واتلُ عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » ، وكان عليه الصلاة والسلام اذا سمع شعره فى التوحيد والإيمان والثناء على الله يقول : آمن لسانه وكفر قلبه . واختص بأكثر مدائحه فى الجاهلية عبد الله بن جُدْعان (أحد سَراة قريش وأجوادها) حتى كان منهُ بمنزلة زهير من هرِم . وأقام بقية حياته بالطائف الى أن مات بها كافراً سنة تسع للهجرة

شعره — يعد أمية من اكبر شعراء القرى على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذى أزرى بشعره فى نظر بعض علماء العربية حتى أسقطوا الاحتجاج به كثرة استعماله للدخيل من العبرية والسريانية فى شعره ، كأنهم أنكروا عليه حق التعريب لشدة مخالطته للأعاجم وان كان عربياً صريحاً كما أنكروه على عدى بن زيد لادخاله الكثير من ألفاظ الفرس فى شعره وطول معاشرته لهم

وكان أمية يسمى السماء صاقورة ، وحاقورة ، ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ويسميه (الساهور) ويسمى الله فى شعره السُّلطِّيط ، والتَّغرور ونحو ذلك

ويمتاز شعره ببعض السهولة فى لفظه وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية والأساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء قبله ، ويتخلل ذلك شىء من الحكم والأمثال

ومن شعره :

الحمد لله مُمسانا ومُصبَحنا ... بالخير صبّحنا ربى ومسّانا
ربّ الحنيفة[1] لم تنفَد خزائنه ... مملوءة طبّق الآفاق سلطانا
ألا نبىّ لنا منا فيخبرنا ... ما بعد غايتنا من رأس محيانا

---

(١) يريد بها ملة ابراهيم

وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا ... أنْ سوفَ تلحق أُخرانا بأولانا

وعتب على ابن له فأنشأ يقول :

غذوْتك مولوداً ومُنتك يافعاً ... تعلُّ بما أجنى اليك وتنْهل

إذا ليلةٌ نابتْك بالشجو لم أبِتْ ... لشكواك إلاَّ ساهراً أتململ

كأنّى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت بهِ دونى فعينىَ تهمل

تخاف الرَّدى نفسى عليك و إننى ... لأعلم أن الموت حتم مؤجَّل

فلما بلغتْ َ السِّن والغاية التى ... اليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنْعم المتفضل

ومن قوله فى المدح :

عطاؤك زين لامرئٍ قد حبوْته ... بخير وما كلُّ العطاء يزين

وليس بشيْن لامرئٍ بذل وجهه ... اليك كما بعض السُّوال يشين

ومن قوله وقد حضرته الوفاة :

إن تغفر اللهمَّ تغفر جماً ... وأىُّ عبدٍ لك لا ألمَّا

الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المرويّ من كلام العرب : شعرها ونثرها وأخبارها معزوّ الى أهل البدو الأميين ، ولذلك لم يصل الينا كتابٌ يجمع بين دَفَّتيه الكثير منها ، إلاَّ ما روى عن هشام بن الكلبي : من أنهُ استخرج أخبار ملوك الحيرة من بعض صحفهم ، و إلاَّ ما قيل من حديث الطُّنوج [١] التى عثر عليها المختار الثَّقفيّ تحت قصر النعمان بالحيرة . وما روى لنا من كلام فصحاء العرب ليس إلا النزر اليسير بوجوه مختلفة : من نقص وزيادة ، وتقديم وتأخير ، ووضع لفظ موضع آخر ، إذ لا يعقل أن الناس كيفما قويت ملكة الحفظ فيهم (كما هو شأنها فى الأمة العربية) يضبطون كل ما يسمعونهُ طبق أصله بلا تغيير ولا تبديل ، ولو كان هذا الأمر ممكناً لغنيت أمة به عن الكتابة ولن تغنى . و بالطبع لا يحفظ هذه الوديعة إلاّ أهل الحفاظ عليها والاعتداد بها ، وهم الشعراء والمتأدّبون وأرباب الاحساب والمفاخر ، فقد كان امرؤ القيس راوية أبي دواد الايادى ، وزهير راوية أوْس بن حجر والأعشى راوية المسيَّب بن عَلَس

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للاشعار وعلماؤهم بالأنساب وهم : مَخْرمة بن نوْفل ، وأبو الجَهْم بن حُذَيْفة ، وحُويْطب بن عبد العُزَّى ، وعَقيل بن أبي طالب

---

(١) الكراريس ولا واحد لها


الدولة العربية
والبلاد التي خضعت لسلطانها
بحر الظلمات
الأندلس
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
إفريقية
الصحراء الكبرى
صنهاجة
لمتونة
غانة
فزان
بلاد السودان
أو التكرور
النوبة
الحبشة
مصر
برقة
البحر
بحر بنطش
دولة الروم
أرمينية
بلاد فارس
خراسان
سجستان
مكران
ما وراء النهر
فرغانة
الترك
السند
الهند
العراق العجمي
العراق العربي
جزيرة العرب
نجد
اليمامة
عمان
مهرة
حضرموت
بحر فارس
شيراز
أرض الصقالبة
امبراطورية شارلمان
بحر الهند
بربرة
جزيرة سقطرى

العصر الثانى

عصر صدر الاسلام ، ويشمل بنى أُميّة(١)

حالة اللغة وآدابها فى ذلك العصر

ملخص حالة اللغة فى الجاهلية

كانتِ العربُ فى أخريات جاهليتّها بحسب طبيعة أرضها أُممًا بدويّة ، وقبائلَ رحّالة ، ليس لها من وسائل العُمران وأسباب الرّخاء ما يحمِلُها على تبحُّرٍ فى علم ، أو تبصُّرٍ فى دين ، أو تفنُّن فى تجارة ، أو تأنُّق فى زراعة ، أو تدبُّر فى سياسة . وكانت من التدابرِ والتقاطع والتصاوُل(٢) على حال لم تقتصِر على سكان القَفْر والوَبَر ، بل عمّت المُدنَ والمدَرَ(٣) ؛ وعلى وَفْق ذلك كانت اللغة العربية لا تعدُو أغراضَ المعيشة البدوية ووصفَ مرافقها ، وإثارةَ المنازعات والمشاحنات ، إلاَّ أن روحًا من الله تَنَسّمَ(٤) بين أرجائها فأيقظها من رَقدتها ونبّهها لضرورة التعاون على الخير فى معاشها ولغتها وجماعتها فظهر ذلك بيّنًا فى الأسواق التجارية اللغوية الاجتماعية وفى الإذعان فيها إلى حكومة الأشراف والفصحاء والنبلاء من قريش وتميم وغيرهما ؛ مما هيّأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد ، ويتفاهموا بلسان واحدة ، فكان ذلك إيذانًا من الله باظهار الاسلام فيهم . وما ألفت نفوسهم هذا النمط الجديد إلاَّ وقد جاء النبى الكريم لامًّا لشَعثِهم ، موَحدًا لكلمتهم ، مهذّبًا لطباعهم ، منشّئًا لهم تنشِئةً جديدة ، مبيّنًا طريق الحق ، وجادّة الصواب ، بشريعة عظيمة تَمثّل فى كلام

(١) خلفاء بنى أمية هم :

١	معاوية بن أبى سفيان	(٤١ — ٦٠)
٢	يزيد بن معاوية	(٦٠ — ٦٤)
٣	معاوية بن يزيد	(٦٤ — ٦٤)
٤	مروان بن الحكم	(٦٤ — ٦٥)
٥	عبد الملك بن مروان	(٦٥ — ٨٦)
٦	الوليد بن عبد الملك	(٨٦ — ٩٦)
٧	سليمان بن عبد الملك	(٩٦ — ٩٩)
٨	عمر بن عبد العزيز	(٩٩ — ١٠١)
٩	يزيد بن عبد الملك	(١٠١—١٠٥)
١٠	هشام بن عبد الملك	(١٠٥—١٢٥)
١١	الوليدبن يزيدبن عبدالملك	(١٢٥—١٢٦)
١٢	يزيد بن الوليد الاول	(١٢٦—١٢٦)
١٣	مروان الجعدى	(١٢٧—١٣٢)

(٢) التواثب والمهاجة (٣) الحضر (٤) تنفس

الله وكلام رسوله ؛ فكان من نتيجة ذلك أن أسّسَتْ لهم جامعة قومية ملية وملك كبير

أثر الاسلام في اللغة

و بالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره ، وتفهُّمهم شريعتَهُ وكلامَه ثم خُضوعهم بعد لزَعامَةِ(١) قومه وخُلَفائه وولاتهم وأعوانهم وأنصارهم ، وفتوحهم تحت ألويتهم ممالكَ الأكاسرة والقياصرة وغيرها : من جبال البرانس(٢) الى الهند والصين ومخالطتهم أهلها بالجوار والمصاهرة — حدث في حياتهم الفكرية واللسانية ما يمكن اجماله في الأمور الآتية :

الأوّل — شيوع اللغة القرشية ، ثم تَوَحُّدُ لغات العرب وتمثُّلُها جميعها في لغة قريش ، واندماج سائر اللهجات العربية فيها ، و بعض أسباب هذا يرجع الى ما قبل الاسلام بتأثير الأسواق والحج واختيار قريش ، وأكثرها يرجع الى نزول القرآن بلغتهم ، وظهور ذلك الداعي العظيم منهم ، وانتشار دينه وسلطانه على أيديهم ، اذ كانوا هم القائمين بأمر الاسلام بعد فتح مكة ، ومنهم كان الخلفاء والأمراء وقادة الجيوش ورجالات الدولة وأصحاب الحل والعقد الذين تألفت منهم عصبية(٣) العرب في الاسلام ، وكان لهم الغَلَبُ على كل قبائله وأممه ؛ و بحكم الضرورة تكون لغتهم هي اللغة الرسمية بين كل القبائل . وإذا علمنا أن أكثر رجال الدولة العربية من السُلالات المضرية وهم أولاد عم قريش ، سهل علينا أن نعرف وجه انتحال أكثر العرب لغة قريش في زمن قليل . أما ما كان باقيًا من لغة حِمْيَر فلم يكن متميزًا من لغة قريش بأمر جوهري في إعراب أو أسلوب أو تصريف ، بل كان باختلاف بعض الألفاظ في دلالتها على المعاني المتحدة ، فمثلاً الشَّناتِر ، بلغة حمير : الأصابع بلغة قريش ؛ والكُتَع عند حمير : الذئب عند قريش ؛ وأنطى في كلام حمير : أعطى في كلام قريش إلى غير ذلك مما له نظائر بين لغات بعض قبائل مُضر أنفسها ولغاتِ بعضها الآخر ؛ فمثلاً السُّدفةُ . الظلمةُ عند تميم ، والضوء عند قيس ، وهكذا . ولذلك لم تتخلف

(١) رآسة (٢) جنوبي فرنسا

(٣) العصبية تناصر العشيرة والقبيلة بعضها لبعض والمراد هنا القوة

لغة حمير عن اللحاق بأخواتها من لغات العرب واندماجها فى لغة قريش

الثانى – انتشار اللغة العربية فى ممالك الفرس والروم وغيرهما بالفتوح والمغازى[1] وهجرة قبائل البدو اليها ، واستيطانهم لها ، واختلاطهم بأهلها ، وتقرُّب هؤلاء الأعاجم اليها بتعلُّم لغتهم والدخول فى دينهم المستمدِّ من القرآن العربى المبين

الثالث – ظهور اللحن فى الكلام بين المستعربين : من الموالى وأبناء العرب من الفتيات ، وبعض العرب المكثرين من معاشرة الأعاجم

اتساع أغراض اللغة

الرابع – اتساع أغراض اللغة بسلوكها منهجاً[2] دينيًا ، واتباعها خُطة نظامية تقتضيها حال الملك وسكنى الحضر وتتضح فيما يأتى :

(١) تبيين العقائد الدينية التى جاء بها الاسلام : من اثبات وجود الخالق ، وتوحيد ذاته ، وتقديس صفاته ؛ ومن الايمان بالبعث والنشور والثواب والعقاب وغير ذلك مما لم يكن يفقه بعضه إلاّ بعض خاصة الجاهلية ، وأصبح بعد الاسلام الشغل الشاغل لجميعهم بل للأمة الاسلامية جمعاء

(٢) تبيين الشريعة واستنباط الأحكام الملائمة لأحوال الزمان والمكان ، والكافلة لحسن معيشة المرء فى منزله ، ومعاملته للناس والسلطان

(٣) استعمالها فى ضبط أُمور الملك ونظام العمران ، ونشر الأمان والعدل ، وفيما تستدعيه مرافق أهل الحضر والأمصار

(٤) وضع مبادئ بعض العلوم ، وترجمة اليسير من العلوم الطبيعية والرياضية والطبية

معانى اللغة

الخامس – ارتقاء المعانى ، ويظهر ذلك فى الأمور الآتية :

(١) اتساع مادَّة المعانى باتساع مادَّة المشاهدات والمعقولات

(٢) حسن نظامها ومراعاةُ الوفاق بينها ، لارتقاء الفكر وتثقيفه بالنظر الصحيح فى أمور الدين والملك والاقتباس من حضارة الفرس والروم ، وتنوّع صور الخيال وروعة جماله ، تبعاً لتنوع المرئيات الجميلة التى انتزع منها

---

(١) الغزوات (٢) المنهج الطريق

السادس — تغير الألفاظ والأساليب بما يأتى :

عبارة اللغة

(١) تهذيب ألفاظ اللغة : بمحاكاة ألفاظ القرآن الكريم والسنة . فى مجانبة حُوشىّ الألفاظ الذى ينبو عنه السمعُ ، ويمجه الذوق السليم

(٢) التوسع فى دلالة الألفاظ : باخراجها من معنى الى معنى بينهُ و بين الأوّل مناسبة ، ومن ذلك الألفاظُ التى استعملها الشارع فى غير معناها الأصلى : كالصلاة والصيام ، والزكاة ، والمؤمن والكافر ، والفاسق والمنافق وغير ذلك ، والألفاظ التى استعملت فى نظام الملك ، ومصطلحات العلوم والصناعات التى عرفت فى ذلك العصر

(٣) موت ألفاظ حظر الشارع استعمال مدلولاتها أو أعاض منها غيرها كالمرباع[١] والنّشيطة[٢] والفُضول[٣] وكِمْ صباحًا ، وعِمْ ظلامًا

(٤) دخول طائفة من الألفاظ الأعجمية فى الكلام ، وتسمى الكلمة حينئذٍ معرّبة[٤]

---

(١) المرباع ربع الغنيمة ، وكان يختص به قائد الغارة وفارسها

(٢) ما كانوا يغنمونه عفوا فى طريقهم الى غارة مقصودة

(٣) الفضول ما فضل من القسمة مما لا يمكن قسمه على الغزاة كفرس ونحوه ويعطى لفارس الغارة أيضاً قال الشاعر العربى :

لك المرباع فينا والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

(٤) التعريب أن تدخل العرب كلمة من كلام العجم فى لغتها ، وتجريها غالباً على منهاج أبنية كلها ، وتنطق بها من مخارج حروفها ، ويسمى اللفظ الأعجمى بعد استعماله « معرباً » ، أو دخيلا » والصحيح منه فى غير الاعلام (على ما قاله أئمة اللغة) ما وقع فى القرآن الكريم ، أو الحديث الصحيح ، أو الشعر القديم ، أو كلام من يوثق بعربيته ، وهم عرب الجاهلية ، وعرب الاسلام الفصحاء ؛ الى أواسط القرن الثانى . وما عربه المتأخرون من المترجمين والأطباء وغيرهم يسمى مولداً ، سواء أكان أعجمى الأصل أم محرفاً عن العربى . وقد أخذ العلماء على صاحب القاموس ذكر بعض الكلمات المولدة فى معجمه من غير أن ينبه عليها ، فأوقع بعض الناس فى لبس . والاشتقاق من الألفاظ الأعجمية سماعى كالتعريب نفسه : مثل ألجم وملجم من اللجام ؛ ومدرهم ومدنر من الدرهم والدينار

هذا واذا احتجنا الى وضع أسماء لمسميات لم تعرفها العرب ، ولم تضع لها ألفاظاً ، وجب أن نأخذها من الألفاظ العربية المهجورة القابلة للتصريف والخفيفة على السمع ، بشرط أن يكون بين المعنيين مناسبة ما ، ويسمى هذا بالوضع العرفىّ أو الاصطلاحىّ ، وهو قياسىّ عند علماء اللغة : لأنه مبنى على المجاز القياسى

(٥) التأنق فى صوغ الأساليب والتفنن فى أنواعها وإحكام نظمها، ووصولها فى البلاغة إلى غايتها: لانبعاث روح القرآن الكريم فى قلوب المتكلمين بها، وسلوكهم سبيله فى البيان وحسن الأداء مؤثرين الإيجاز على الأسهاب فى أكثر المواضع الى أن تقاصرت دونه أفهامُ الناشئين فى الحضر من العرب والمستعربين من العجم آخرَ هذا العصر، فأصبح للاسهاب نصيب من عنايتهم لا يقل عن الايجاز

ولما كان معظم هذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبوى، ناسب أن نذكر قُلًّا من كُثْر مما ينبغى أن يقال فيهما

القرآن الكريم وأثره فى اللغة

القرآن (كتابٌ أُحْكِمتْ آياتُه ثم فُصِّلَتْ من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ) فيه آيات بينات، ودلائلُ واضحات، وأخبارٌ صادقة، ومواعظُ رائقة، وشرائعُ راقية، وآدابٌ عالية، بعبارات تأخذ بالألباب، وأساليبَ ليس لأحد من البشر بالغًا ما بلغ من الفصاحة والبلاغة أن يأتى بمثلها أو يفكرَ فى محاكاتها؛ فهو آية الله الدائمة، وحجته الخالدة، (لا يأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حكيمٍ حَميدٍ). أنزله الله على رسُوله ليبلّغه قومَه وهم فحول البلاغة، وأمراء الكلام، وأُباة الضيم، وأرباب الأنفة والحَمِيَّة، فبهرَهم بيانُه، وأذهلهم افتنانُه، فاهتدى به من صح نظرهُ، واستحْصَفَ[1] عقله، ولطف ذَوقُه. وصَدَّ عنه[2] أهل العِناد والمكابرة واللَّجاج[3] فتحدَّاهم[4] أن يأتوا بمثله فنكَصوا[5]، ثم بعشر سور مثله فعجزوا، ثم بسورة من مثله فانقطعوا[6]؛ فحق عليهم إعجازُه[7]، قال تعالى

---

(١) استحكم (٢) أعرض عنه (٣) الخصومة (٤) تحدى الرجل خصمه باراه ونازعه الغلبة فى الشىء (٥) احجموا (٦) انقطع فى المحاجة غلب وسكت بهراً وانقطعت حجته

إعجاز القرآن

(٧) أجمع المسلمون على أن القرآن معجز، وسلكوا الى بيان اعجازه طرقاً شتى، ونشير هنا الى نقطة من بحر مما قالوه، فهو معجز:

(قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ على أَنْ يأتُوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتُون بِمِثْلِه ولَوْ كان بَعْضُهُم لبعضٍ ظهيراً)(١)

وقد علمت مما تقدم فى حالة اللغة ما كان له من الأثر البيّن فى توحيد اللغة ونشرها وترقيتها من حيث أغراضُها ، ومعانيها وألفاظها ، وأساليبها ؛ ونزيد هنا أنه قد أثَّر فيها ما لم يُؤثّره أىُّ كتاب سماويًّا كان أو غير سماوىّ فى اللغة التى كان بها ؛ إذ ضمِنَ لها حياة طيبة وعمراً طويلاً ، وصانها من كل ما يُشوّه خَلْقَها ، ويُذوِى(٢) غَضَارتها(٣) ؛ فأصبحت وهى اللغة الحيّة الخالدة من بين اللغات القديمة التى انطمست آثارها ، وصارت فى عِداد اللغات التاريخيـة الأثريَّة — وأنه قد أحدثَ فيها علوماً جمّة وفنوناً شتّى لولاه لم تخطُر على قلب ، ولم يَخطّها قلم : منها اللغةُ ، والنحو ، والصرف ، والاشتقاق ، والمعـانى ، والبديع ، والبيان ، والأدب ، والرسم ،

أولا — من جهة أغراضـه ومقاصده — فتجده فى كل غرض وموضوع غاية فى الابانة والجلاء ، ونهاية فى الاصابة واطراد الأحكام : فمن تشريع خالد ، وتهذيب بارع ، وتعليم جامع وأدب بالغ ، وارشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر ، الى حكمة بالغة ، ووعد ووعيد ، واخبار بمغيب ، وغير ذلك من الأغراض والمقاصد

وقد كان فحول البلاغة لا يبرّز أحدهم الا فى فن واحـد من أنواع القول : فمن يبرع فى الخطابة لا ينبغ فى الشعر ؛ ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ، ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ، ولأمر ما ضربوا المثل بامرىء القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب والأعشى اذا طرب ، والنابغة اذا رهب

ثانياً — من جهة ألفاظه وأساليبه — فلا تجد منه الاعذوبة فى اللفظ ، ودماثة فى الأساليب ، وتجاذباً فى التراكيب ، وليس فيها وحشى متنافر ، ولا سوقى مبتذل ، ولا تعبير عويص . ولا فواصل متعملة ، على شيوع ذلك فى كلام المفلقين ، وأهل الحيطة المترون ، حتى أنك لترى الجملة المقتبسة منه فى كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالا ، وتشمله نوراً وتكسوه روعة وجلالة ، الى اجمال فى خطاب الخاصة ، وتفصيل فى تفهيم العامة ، وتكنية للعربى ، وتصريح للاعجمى ، وغير هذا مما يقصر عن احصائه الالمام ، ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام

ثالثاً — من جهة معانيه — فانك تجدها من غير معين العرب الذى منه يستقون : لاطراد صدقها ، وقرب تناولها ؛ واطمئنان النفوس اليها ، وابتكارها البديع على غير مثال معهود : من حجج باهرة ، وبرهانات قاطعة ، وأحكام مسلمة ، وتشبيهات رائعـة ، على تمازج وتواصل ، وبراءة من التقاطع والتدابر . وهو فى جملته نزهة النفوس ، وشفاء الصدور . وهو الكتاب الخالد الذى لا تبديل لـكلماته ، ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض ، (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)

(١) مساعداً ومعيناً (٢) يذبل (٣) غضارة النبات والعيش نضارته

والقراءات ، والتفسير ، والأصول ، والتوحيد ، والفقه

نظم القرآن

ونظم القرآن من نوع النثر وان لم يجر على مألوف العرب فى نثرها المرسل وسجعها الملتزم ، بل هو آيات وفواصلُ يشهد الذوق السليمُ بانتهاء الكلام عندها ، فتارة تكون سجعاً ، وطوراً تكون مُوازنةً وازدواجاً ، وأحياناً لا تكون هذا ولا ذاك

وفى القرآن الكريم من الحكم والأمثال وجوامع الكلم ما كان به هداية الحكيم وارشاد الأديب — فمنها :

طائفة من الآيات الكريمة

أتأمُرُون النَّاسَ بالبرّ وتَنسَوْنَ أنفُسكم — وعَسى أن تَكرَهوا شيئاً وهُوَ خيرٌ لَكم وعسى أن تُحبُّوا شيئاً وهُوَ شرٌّ لَكم — ولا تأكُلوا أموالَكم بَيْنَكمْ بالباطلِ وتدْلُوا بها الى الحُكّام لتأكُلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون — كَمْ من فِئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فِئةً كثيرةً بإذْنِ الله والله مع الصَّابرين — قولٌ مَعروفٌ ومَغفِرةٌ خيرٌ من صَدَقة يتْبعُها أذى — لا يكلّفُ اللهُ نفساً إلاّ وُسْعَها — لنْ تنالوا البِر حتى تُنفِقُوا مما تُحِبُّون — ولو كُنْتَ فَظّاً غليظ القلْبِ لانفضوا من حَولك — إنْ يَنصرْكم اللهُ فلا غالِبَ لكم وإنْ يخذُلْكم فمن ذا الذى ينصرُكُم من بَعْده — ولْيَخْشَ الذين لو تركوا مِن خَلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليْهم فلْيتّقُوا الله ولْيقُولوا قَوْلاً سَديداً — من يعملْ سوءاً يُجْزَ بِهِ ولا يجِدْ له مِنْ دون الله ولياً ولا نصيراً — ما على الرَّسولِ إلاّ البلاغ — قُلْ لا يَسْتوِى الخبيثُ والطيّبُ — لكل نبأٍ مُسْتقَرّ — ما على المحسنين من سَبيل — إن اللهَ لا يُغيِّرُ ما بِقوم حتى يُغيِّرُوا ما بأنفسهم — لكل أجَلٍ كتاب — وَلاَ تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِك وَلاَ تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْطِ فتقعُدَ ملوماً محسوراً — قلْ كلٌّ يَعْمَلُ على شاكلته — للهِ الأمر من قبلُ ومن بعدُ — ما جعل الله لرجل من قلبين فى جَوْفِهِ — وحِيل بينهم وبين ما يشتهون — وَلاَ يَحيق المكرُ السّيئُ إلاّ بأهله — قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون — هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسانُ — فاعتبروا يا أُولى الأبصار — تحسَبُهم جميعاً وقلوبُهمْ شتّى

جمع القرآن وكتابته

نزل القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجّماً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال فى بضع وعشرين سنة ؛ وكان عليه الصلاة والسلام يأمر كتّاب وحيه بكتابة ما ينزّل ، فكانوا يكتبونهُ بين يديه فى عُسُبٍ[١] أو لِخافٍ[٢] أو اكتافٍ[٣]، وهو يرشدهم إلى وضع كل آية من السورة التى ينبغى أن تكون فيها . وفى صحيح البخارىّ أن جبريل كان يعارض[٤] النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل عام مرة ، وانه عارضه به مرتين فى العام الذى توفّى فيه . وفى الاتقان[٥] للسيوطى أن زيد بن ثابت اكبر كتّاب الوحى شهد العَرْضة الأخيرة التى بُين فيها ما نسخ وما بقى ، وكتبها للرسول صلى الله عليه وسلم وقرأها عليه ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر فى جمع القرآن ، وولاه عثمان كتابة المصاحف

وتوفى رسول الله والقرآن كله مكتوب ، وفى صدور الصحابة محفوظ ، وان لم يتفقوا فى حفظه وترتيبه لأسباب شتّى . ولما رأى عمر رضى الله عنه أن القتل قد استحَرّ[٦] بالحفاظ فى وقعة اليمامة[٧] حتى قُتِلَ منهم سبعمائة أشفق من ضياع القرآن ، فذهب الى أبى بكر وأخبره الخبر ، و بعد أخذ وردّ اتفقا على جمع القرآن وكتابته ، وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت ، فجمعه من العسب واللخاف والاكتاف والصدور وكتبه صحفاً ، فكانت تلك الصحف عند أبى بكر حياتَه ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر

وفى مدة عثمان كثرت الفتوح وانتشر القراء فى الأمصار وقرءوا القرآن بلغاتهم على تعدُّدها ، وأدى ذلك إلى تخطئة بعضهم بعضاً ، فخشى عثمان تفاقم[٨] الأمر ،

---

(١) أصل السعف الذى لا ينبت عليه الخوص من الجريد (٢) حجارة بيض رقاق
(٣) مفردها كتف وهو عظم اللوح من الحيوان (٤) يقابله ويصنع معه مثل ما يصنع فى القراءة
(٥) كتاب للسيوطى خاص بعلوم القرآن (٦) اشتد (٧) وهى الواقعة التى قتل فيها خالد بن الوليد مسلمة المتنبى الكذاب (٨) تعاظم

فأمر زيد بن ثابت ، وعبدَ الله بن الزُّبير ، وسعيدَ بن العاص ، وعبدَ الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوا تلك الصحف فى مصحف واحد مرتب السور ، واقتصر فيه من جميع اللغات على لغة قريش لنزوله بلغتهم

الحديث النبوى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح الناس وأبينهم وأحكمهم ، وكانت حياته كلها هداية ونوراً ، وأفعاله وأقواله جميعها مَدَداً يستمد منه الخلق سَدادهم ورشادهم فى معاشهم ومعادهم ، ولهذا حرَص المسلمون على حفظ ذلك الأثر العظيم حرصاً لم توفَّق إلى مثله أمة فى حفظ آثار رسولها ؛ فجمعوا من كلامه ووصف أفعاله وأحواله الأسفار الضخام ، ووعوْا منها فى صدورهم ما لا يدخل تحت حصر . وكلامُه صلى الله عليه وسلم منزَّه عن اللغو والباطل ، وإنما كان فى توضيح قرآن ، أو تقرير حُكْم ، أو ارشاد الى خير ، أو تنفير من شر ، أو فى حكمة ينتفع الناس بها فى دينهم ودنياهم — بعبارة هى فى الفصاحة والبلاغة والايجاز والبيان بالدرجة الثانية بعد القرآن ، ولذلك كان تأثيرها فى اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى ، ولا سيما حِكمه وجوامع كلمه التى هى القدوة الحسنة للأديب ، والحلية التى يزدان بها كلام الكاتب والخطيب

فمن جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم

إنما الأعمالُ بالنيات ، وانما لكل امرئٍ ما نَوى — المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضاً — اليد العُلْيا خير من اليد السُّفلى وابدأ بمن تعول[١] — يد الله مع الجماعة — كلٌّ ميسَّر لما خُلق له — دَعْ ما يَريبك[٢] إلى ما لا يريبك — الناس كلهم سَواسِيةُ كأسنان المُشط — وقوله يخاطب الأنصار : انكم لتَقِلُّون عند الطمع ، وتكثُرون عند الفزع — إن أحبّكم إلىّ وأقربكم منى مجالسَ يوم القيامة أحاسِنكم

طائفة من الاحاديث الشريفة

(١) تكفل (٢) يجعلك شاكاً فيه لست على بينة من أمره

أخلاقاً الموطّئون[١] أكنافاً الذين يألَفُون ويُؤلَفُون ؛ وأن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة الثّرثارون[٢] المتشدِّقون[٣] المتفيهقون[٤]. ومن عجائب تمثيله وروائع كلمه قوله صلى الله عليه وسلم : إن قوماً ركبوا فى سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له ما تصنع ، قال هو مكانى أصنع فيه ما شئت ، فان أخذوا على يده نجا ونَجَوْا ، وان تركوه هلك وهلكوا

النـــثر

لغة التخاطب — الخطابة — الكتابة

لغة التخاطب

كانت لغة التخاطب فى مبدإ الاسلام بين العرب الخُلّص والموالى النابتين فيهم هى العربية الفصيحة المعْربة ، وكانت لغة الموالى الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعد عنها على حَسَب طول لُبْثِهم فيهم أو قصر مقامهم عندهم ؛ ولذلك أُثِر عمن دخل فى الاسلام حينئذٍ من غير العرب (وكانت إقامته بينهم غير كافية لنسخ عُجمته جُملةً) أنهم كانوا يميلون فى كلامهم العربى الى أسلوب لغتهم الأولى ومخارج حرُوفها وان لم يقع منهم اللحن ، أو وقع قليلاً ؛ فقــد رُوِىَ أن بلالا[٥] كان يرتضخُ[٦] لُـكنةً حبشية ، وسَلمان[٧] لُـكنةً فارسيةً ، وصُهيباً[٨] لُـكنةً رومية ؛ وأن رجلاً لحن أمام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرشدوا أخاكم فقد ضَلَّ

أثر الفتوح فى لغة التخاطب

ولما فتح المسلمون الأمصار ، وكثر عندهم سبيُ الأعاجم وأسرى الحروب ، ودخل

---

(١) الممهدة جوانبهم أى السهلة أخلاقهم

(٢) الثرثار المهذار والصياح (٣) المتشدق الذى يلوى شدقه للتفصح (٤) المتنطع فى كلامه المتوسع فيه كأنه يملأ به فمه (٥) هو بلال بن رباح الحبشى مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) ينزع الى العجم فى ألفاظ من ألفاظهم (٧) هو سلمان ابن الاسلام فارسى أسلم وصحب رسول الله ومحض المسلمين النصح (٨) صهيب بن سنان عربى الاصل سباه الروم وهو صغير ثم عاد الى العرب وأسلم وصحب رسول الله وبقيت فى لسانه لـكنه رومية

فى الاسلام منهم ألوف الألوف ، وأصبحوا لهم اخوانًا وشركاء فى الدين ، وتم بينهم التزاوج والتناسُل — نشأ للعرب ذرّية من فتياتهم الأعجميات اختلطت عليهم ملكة العربية ، لتلقيهم عن آبائهم عربية فصيحة وعن أمهاتهم خليطًا منها ومن الأعجمية . وكذلك كان الشأن فى المتعرّبين من الأعاجم ؛ إذ أصبحت لهم لغة تخاطب عربية مَشوبة بشىء من اللحن والكلمات الدخيلة وغير ذلك من أنواع التغيير والتبديل والتصحيف والتحريف . أما العرب أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم فى جزيرتهم مثل ما كانت عليه فى جاهليتهم ، وأما سُكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر ، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم كثيراً بالمعاملة والتسوُّق[١] لم تخلُ لغتهم من لحن أو هُجنة، والخاصة منهم تشدَّدوا فى المحافظة على سلائقهم وتحامَوا التزوج بالأعجميات وبالغوا فى تربيــة أبنائهم على إلف الملكة العربية ، فكانوا يرسلونهم الى البادية ليروضوهم على الفصاحة ، وينشئوا نشأة الأعراب الفصحاء ، أو يُحضرون لهم المؤدِّبين والمعلمين من أفصح الناس وأعلمهم : ليخرِّجوهم فى الإعراب واللسَن ؛ كذلك كان يفعل خلفاء بنى أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم معاوية بن أبى سفيان فى تربية ابنه يزيد . ومَن لحن من خلفاء بنى أمية وأمرائهم وأشراف العرب فى زمانهم ولو مرةً عدُّوا ذلك عليه عاراً لا يمحى، وسُبةً لا تزول ؛ ومن هؤلاء اللحَّانين عبيد الله[٢] بن زياد ، والوليدُ[٣] بن عبد الملك ، وخالد القَسْرى[٤] مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم

ومن هنا تعلم السر فى تسرُّع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والأعجام

---

(١) تسوق القوم اذا باعوا واشتروا فى السوق

(٢) كان والياً على العراق مدة معاوية ويزيد ابنه وكانت أمه فارسية

(٣) هو الخليفة الاموى أشفق عليه أبوه أن يرسله الى البادية فتربى فى المصر وتعلم العربية بالصناعة فعرض لـكلامه بعض اللحن (٤) هو خالد بن عبد الله القسرى والى العراق من قبل الخليفة هشام ، وكانت أمه نصرانية وكان من أبلغ الناس وأخطبهم وعد عليه بعض اللحن

الخطابة فى هذا العصر

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أىّ أمة : إما دعوةً دينية وإما سياسية ، وكانت تلك الدّعوة تستدعى ألسنة قوّالةً من أهلها لتأييدها ونشرها ، وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضها والصدّ عنها ، وذلك لا يكون إلا بمخاطبة الجماعات وأصحاب النّجدات فى الحَفْلِ والمنتديات ، والحج والمواسم والأسواق ، ومواطن الزحف ومَقْدَم الوفود ونحو ذلك — كان ظهور الإسلام بالأمر الجَلَل والشأن الخطير والدعوة العظمى التى لم يمهد لها من قبلُ فى العالم مثيل من أهم الحوادث التى أنشطَت الألسن من عُقُلِها وأثارت الخَطابة من مكمَنها ، وأغرَتِ العقولَ بإحكامها والافتتان فيها ، واختلاب النفوس بسحر بيانها ، فوق ما كانت عليه فى جاهليتها . فكان العملُ الأكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بادئ أمره — غيْرَ تبليغ القرآن — وارداً من طريق الخطابة . ولأمر ما جعلها الشارع شعار كل إمام فى حَفلٍ دينى أو سياسى كالجمعة والعيدين وموسم الحج الأكبر ، ويوم الصف وكل أمر جامع لنشر فضيلة ، أو نهى عن رذيلة أو اعلان نصر ، أو تأكيد وصية ، إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال ، ولذلك كان دُعاةُ النبى صلى الله عليه وسلم ورسُله الى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ، ثم خلفاؤه من بعدُ وعمّالُهم كلُّهم خطباء مصاقع[1] ، ولُسُنا[2] مَقاول[3] أعانهم على ذلك أنهم كانوا يخطبون عرباً مثلهم ، للفصاحة عندهم هِزّة[4] فى النفس وروعة فى الفؤاد ؛ وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذى لا ينهَض باعباء الخطابة ، ولا سيما الدينية ؛ لشرحها الحقائق وقرعها الأسماع بالحجج العقلية والوجدانية ، وترغيبها فى الثواب وترهيبها من العقاب ؛ ولخلوها عن

أسباب رقى الخطابة

(١) جمع مصقع كمنبر البليغ أو العالى الصوت أو من لا يرتج عليه فى كلامه ولا يتتعتع
(٢) جمع لسان البليغ المتكلم عن القوم (٣) جمع مقول كمنبر مثل سابقه
(٤) الهزة النشاط والارتياح

قيود الوزن والقافية، ولأنها تقال بعبارات تفهمها الخاصة والعامة : من الجندى الصغير إلى القائد الكبير، وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مدَد ايما مدد .
ولما حدثت الفتنة بين المسلمين (أو الحرب الأهلية كما يقولون) بعد مقتل عثمان ، وافترقوا إلى عراقيين بِزَعامة علىّ ، وشاميين بزعامة معاوية ، ولكل منهم دعوة يؤيدها — ورغبةٌ يناضل عنها فى تلك الحرب الشَّعواء التى لم يُنْكب الإسلام بمثلها ، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم . ولا يُشَق غبارهم ؛ وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء وفحلُ البلغاء علىٌّ بن أبى طالب ، وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبى سفيان . وما انتهت هذه الحرب حتى تشعبت الفتنُ والآراء والمذاهب والنِحل ، وتفرق المسلمون إلى شِيعة[١] وخوارج[٢] وجَماعيّة[٣] وتفرع من هؤلاء الطوائف فروع شتى ، كل يبذُل وُسعه فى نشر مذهبه ، ويدفع عنه بقائم سيفه ، ولم يعدَم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أوتوا من البلاغة فى الخطابة والفصاحة والبيان

وتمتاز الخطابة فى صدر الإسلام منها فى الجاهلية بأشياء :

الأوّل — سلوكها طريقاً دينياً فى مثل خطب الجُمع والعيدين والحج والارشاد والتعليم ونحو ذلك مما يستدعيه نشر الدعوة الدينية

الثانى — اتباعها خُطة سياسية فى مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتأثيل المُلْك والسلطان ؛ وما وقع للعرب فى الجاهلية من هـذا القبيل فى بعض منازعاتهم فليس بذى شأن كبير ، اذا قيس بنظيره فى الإسلام[٤]

الثالث — قوة تأثيرها ووصولها الى قَرارة النفوس وامتلاكها للوجدان

---

(١) الشيعة هم شيعة على رضى الله عنه وأنصاره وأنصار أهل بيته ، وتغالى بعضهم فى حبه وتفضيله الى حد ممقوت دينا (٢) هم قوم خرجوا فى أول أمرهم على أمير المؤمنين على واستحلوا قتاله لرضاه بأمر التحكيم فى الخلافة بينه وبين معاوية ثم خرجوا بعده على بنى أمية وبنى العباس (٣) هم الجمهور الاعظم المستجيبون لدعوة بنى أميـة والخلفاء المعقودة لهم البيعة العامة من أكثر المسلمين (٤) انظر خطبة أبى بكر يوم السقيفة

والشعور بوعظها الزاجر ، ونصحها البالغ ، مما رقق القلوب القاسية ، وأسال الأعين الجامدة (١)

الرابع — صفاء ألفاظها ، وسهولة عباراتها ، ومتانة أساليبها ، وتجنبها سجع الكُهان وقلة القصد فيها الى سرد الحِكَم القصيرة الدقيقة بمناسبة وغير مناسبة ، كما كانت تفعل خطباء الجاهلية

الخامس — بداءتها بحمد الله والثناء عليه

السادس — محاكاتها أسلوب القرآن فى الاقناع واستمدادها من آياته ، حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شىء منه

السابع — تنوعها بين الإيجاز والأسهاب حتى حُكِىَ أن منها ما استغرق نصف نهار (٢) ، ومنها ما لم يزد على فقرات معدودات (٣) . وقصارَى الكلام أن الخطابة وصلت فى هذا العصر الى أرقى ما وصلت اليه فى اللسان العربى حتى ممن يُعَدُّ عليهم اللحن . ولم تسْعد العربية بكثرة خطباء ووفرة خُطَب مثل ما سعدت به فى هذا الصدر الأول ، إذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خُلَّصاً ، يسمعون القول فيتبعون أحسنه

عادات العرب فى الخطابة

ولم يخرج الخطباء عن مألوفهم : من اعتِجار (٤) العمامة والاشتمال (٥) بالرداء واختصار المِخْصَرة (٦) والخطبة من قيام ، إلا ما روى عن الوليد بن عبد الملك : من أنهُ كان يخطب جالساً ، وربما كان له عذر من طبيعته ، أو أنه كان يرى أن الغرض من الوقوف هو الاشراف على السامعين ، وذلك قد حصل بتعلية بنى أمية درجات المنابر ؛ وتبعه فى ذلك بعض خلفاء بنى أمية وعمالهم

---

(١) أنظر خطبة رسول الله وخطبة سحبان فى النماذج

(٢) كخطبة سحبان وائل التى خطبها بحضرة معاوية يوم أن حضر وفد خراسان

(٣) مثل خطبة خطيب الازد حين بعث الحجاج خطباء من الاحماس الى عبد الملك وهى : قد علمت العرب أنا حىّ فعال ولسنا بحى مقال ، وانا نجزى بفعلنا عند أحسن قولهم ، ان السيوف لتعرف اكفنا ، وإن الموت ليستعذب أرواحنا ، وقد علمت الحرب الزبون انا نقرع جماحها ، ونحلب صراها (٤) لف العمامة دون التلحى (٥) اشتمل بالثوب اداره على جسده كله

(٦) كمكنسة ما يتوكا عليها وما يأخذه الملك يشير به اذا خاطب ، أو الخطيب اذا خطب ، واختصر المخصرة أخذها

نماذج من الخطب والوصايا

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل على الناس فقال [١] : أيها الناس إن لكم معالم [٢] فانتهوا الى معالمكم، وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم، فان العبد بين مخافتين : أجلٍ قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه، وأجل باقٍ لا يدرى ما الله قاضٍ فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات، فوالذى نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مُستعتَب [٣]، وما بعد الدنيا من دار إلاَّ الجنة والنار .

وخطب معاوية رضى الله عنه (وهى آخر خطبة خطبها) فبعد أن صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه، ثم قبض على لحيته وقال :

أيها الناس إنّى من زرْع قد استحصد، وقد طالت عليكم إمْرَتى حتى مَلِلْتكم وملِلتمونى، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى، وإنه لا يأتيكم بعدى إلاَّ مَن هو شر منى، كما لم يأتكم قبلى إلا مَن كان خيراً منى، وإنهُ من أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، اللهم إنى أحببت لقاءك فأحبِب لقائى . ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات

وخطب عمرو بن سَعيد [٤] عند عقد البيعة ليزيد

لمَّا عقد البيعةَ معاوية رحمه الله لابنه يزيد قام الناس يخطُبُون، فقال معاوية لعمرو بن سَعيد . قمْ يا أبا أُميَّة، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد، فان يزيدَ بنَ معاويةَ أملٌ تأملُونَه : وأجل تأمَنونَه . إن استَضَفتمْ الى حِلمه وسِعكم . وإن احتجتم الى رأيه أرشدكم، وإن افتقرتم الى ذات يده أغناكم . جَذَعٌ [٥] قارح [٦] سُوبِقَ فسبَقَ، ومُوجدَ فمجَد، وقُورِع ففاز سهمُه، فهو خَلَف، أمير المؤمنين، ولا خَلَفَ منه، فقال معاوية أوْسعْت يا أبا أميَّةَ فاجلس

---

(١) رواية الكامل للمبرد (٢) معلم الشىء كمقعد ما يستدل به عليه (٣) استرضاء

(٤) هو عمرو بن سعيد بن العاص المشهور بالاشدق الاموى جعله مروان ولى عهده فى الخلافة ثم جعله ولى عهد ابنه عبد الملك فخرج على عبد الملك فاحتال عليه فقتله سنة ٧٠ هـ

(٥) الشاب الحدث (٦) أى شديد مجرب

وخطب عمر بن عبد العزيز وهى أول خطبة له :

أيها الناسُ أصلحوا سرائركم ، تصلحْ لكم علانيتكم ؛ وأصلحوا آخرتكم تصلحْ دُنياكم ، وان امرأ ليس بينهُ و بين آدم أب حى لمُعْرق فى الموت

وأوصى قيس بن عاصم المِنْقَرى[١] بنيه عند احتضاره فقال :

يا بَنِىَّ احفظوا عنى ثلاثاً ، فلا أحَدَ أنصحُ لكم منى ، إذا أنا مُتُّ فَسوِّدوا كبارَكم ولا تسوِّدوا صغارَكم ، فيَحقِرَ الناسُ كبارَكم ، وتَهونوا عليهم ؛ وعليكم بحفظ المال فانه مَنبَهَة للكريم . ويُسْتغنى به عن اللئيم ؛ وإياكم والمسألَة فانها أخِر[٢] كسبِ الرجل

وأوصى عمر بن الخطاب الناس فقال : علموا أولادكم العوْم والرِّماية ، ومروهم فليثبوا على الخيل وثْبا ورَوُّوهم ما يجمل من الشِّعر

وروى المبرد فى الكامل : إن عبد الله بن عباس قال : قال لى أبى : يا بنىَّ إنى أرى أمير المؤمنين قد اختصَّك دون من ترى من المهاجرين والأنصار فاحفظ عنى ثلاثاً : لا يُجرِّبنَّ عليك كذباً ، ولا تَغتَبْ عنده مُسلماً ؛ ولا تُفْشِيَنَّ له سرًّا — قال فقلت له يا أبت كل واحدة منها خير من ألف ، فقال كل واحدة منها خير من عشرة آلاف

الخطباء

ليس فى عصور أدب اللغة عصرٌ أحفل بالخطباء المعروفين نسباً وقولاً وعملاً من هذا العصر ؛ إذ كانت الخَطابة فيه سَلِسَة القياد على خلفائه وزعمائه : لفطرتهم العربية ومحلهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أساليب القرآن ، واتساع مداركهم . ولهذا نكتفى بذكر الخطباء من الخلفاء الراشدين ، و بعض وُلاة المسلمين وفصحاء الناس : لأن الخطابة إذ ذاك كانت من أعظم أعمال الأمامة والولاية

---

(١) منقر بطن من سعد من تميم . وفد على رسول الله سنة تسع فأسلم وقال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « هذا سيد أهل الوبر » وكان من أحلم الناس

(٢) بقصر الهمزة أدنى وأرذل — من الكامل للمبرد

١ — أبو بكر الصديق رضى الله عنه

هو أبو بكر عبد الله عَتيق (١) بن أبي قُحَافة عثمان صاحب رسول الله ، وأوّل خليفة له فى الاسلام ، وخطيب يوم السقيفة

ويجتمع نسبه مع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مُرّةَ بن كعب . ولد بعد مولد رسول الله بسنتين و بضعة أشهر ، ونشأ من أكرم قريش خلقاً ، وأرجحهم حلماً ، وأسماهم يداً وأشدهم عِفّة . وكان أعلمهم بالانساب وأيام العرب ومفاخرها . صحِب رسولَ الله قبل النبوّة ، وكان أوّلَ من آمن به من الرجال وصدّقه فى كل ما جاء به : ولذلك سمى الصدّيق ، وأنفق أمواله فى تأييد دعوته ، وهاجر معه الى المدينة مؤثراً صحبتَه على كل أهله وولده ، وشهد معه أكثر الغزوات ؛ وما زال ينْفق ماله وقوّته فى معاضدة رسول الله حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى . واختلفت العرب وارتدت عن الأسلام ومنعت الزكاة إلا أهل المدينة ومكة وثقيف بالطائف ، فجرد عليهم الجيوش حتى قمعهم ، وجمع العرب على الاسلام وساقهم توًّا الى فتح ممالك كسرى وقيصر ، وما مات إلا وجيوشه تهزم جيوش الفرس والروم وتستولى على مدائنهم وحصونهم . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ

وكان رحمه الله فصيحاً بليغاً ، خطيباً مفوّهاً حاضِر البديهة ، قوىّ الحجة ، شديد التأثير ؛ يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة . وذلك أنه لما مات رسول الله اختلفت الصحابة فيمن يبايعونهُ خلفيةً له عليهم : فأبت الأنصار إلاّ أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلاّ أن يكون منهم ، واشتد النزاع حتى كادت تقع الفتنة ، فخطبهم خطبة (٢) لم يلبث الجميع بعدها أن بايعوه خليفةً

---

(١) هو لقب لأبى بكر لقب به لجماله ، أو لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عتيق من النار

(٢) ويظن أنها خطبة طويلة لم يبق فى حفظ الرواة منها إلا اليسير ، ومن وصفها ما قاله عمر رضى الله عنه : وقد كنت زوّرت فى نفسى مقالة أقدمها بين يدى أبى بكر ، وقد كنت أدارى منه بعض الحد وكان هو أوقر منى وأحلم ، فلما أردت أن أتكلم قال على رسلك فكرهت أن أعصيه فقام فحمد الله وأثنى عليه فما ترك شيئا كنت زورت فى نفسى أن أتكلم به لو تكلمت إلا وقد جاء به أو بأحسن منه

خطبته يوم السقيفة

حمِد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناسُ نحن المهاجرون وأوّل الناس إسلاماً ، واكرمهم أحساباً ، وأوسَطُهم داراً ، وأحسنُهم وجوهاً ، واكثر الناس ولادةً فى العرب وأمسُّهم رحِماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدّمنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى (وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلون مِنَ المُهاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالذِينَ اتبعُوهم بإِحْسانٍ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، اخوانُنا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفَىءِ[1] ، وأنصارُنا على العدوّ ، آويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تَدين العرب إلاَّ لهذا الحى من قريش ، فلا تنفَسوا[2] على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله

٢ — عمر بن الخطاب — رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين أبو حفص عُمر بن الخطاب القرشى ، ثانى خليفة لرسول الله وأوّل من تسمى من الخلفاء بأمير المؤمنين ، وأوّل من أرخ بالتاريخ الهجرى ، ومصر الأمصار ، ودوّن الدواوين .

وُلد رضى الله عنه بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثَ عشرةَ سنة ، وكان فى الجاهلية من كبار قريش وزعمائها ، فكان يُسْفر بينهـا وبين قبائل العرب فى الحروب والمفاخرات ونحوها ، وكان شجاعاً صنديداً ، وحازماً أيّدا ، وكان فى مبدأ الدعوة الى الاسلام من أكبر أعداء الرسول ، ثم هداه الله فأسلم ، وأعز الله به دينه وحضر مع رسول الله الغزوات كلها . ثم لما قُبض أعان أبا بكر على توليه الخلافة ، ولما أحسّ أبو بكر بالموت عهِدَ بهـا اليه ، فقام باعبائها خير قيام ، وأتمّ

---

(١) الغنيمة والخراج (٢) نفس عليه خيرا حسده عليه ، ولم يره له أهلا (أساس)

بحزمه وعزمه وسياسته وكياسته وزهده وعفته وحرصه على مصلحة المسلمين جميع ما شرع فيه أبو بكر : من فتح ممالك كسرى وقيصر

وقتله غِيلةً غلامٌ مجوسىٌّ هو الشقىُّ أبو لؤلؤةَ عبدُ المغيرة بن شعبةَ : لأنه لم ينصفه على زعمه فى تخفيض ما يدفعه لسيده من أجرة عمله . وكان قتله سنة ٢٣ هـ

وكان رحمه الله من أبين الناس منطقاً ، وأبلغهم عبارة ، وأكثرهم صواباً وحكمة ، وأرواهم للشعر ، وأنقدهم له .

ومن خطبه خطبته إذ ولى الخلافة (١)

صعِد المنبر فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال : يأيها الناس ؟ انى داع فأمّنوا ، اللهم انى غليظ فليني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاء وجهك والدار الآخرة ، وارزقنى الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدَّعارة (٢) والنفاق من غير ظلم منى لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم إنى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصداً من غير سرَف ولا تبذير ولا رياء ولا سُمعة ، واجعلنى أبتغى بذلك وجهك والدارَ الآخرة ، اللهم ارزقنى خفضَ الجناح ولينَ الجانب للمؤمنين ، اللهم إنى كثير الغفلة والنسيان فألهمنى ذكرك على كل حال وذكرَ الموت فى كل حين ، اللهم انى ضعيف عن العمل بطاعتك فارزقنى النشاط فيها والقوة عليها : بالنية الحسنة التى لا تكون إلاَّ بعزتك وتوفيقك ، اللهم ثبتنى باليقين والبر والتقوى وذكر المقام بين يديك والحياء منك ، وارزقنى الخشوعَ فيما يُرْضيك عنى والمحاسبة لنفسى ، واصلاح الساعات ، والحذر من الشُّبهات ، اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهمَ له ، والمعرفة بمعانيه ، والنظر فى عجائبه والعملَ بذلك ما بقيتُ ، أنك على كل شيء قدير .

---

(١) من العقد الفريد (٢) الخبث والفجور

٣ — عثمان بن عفان — رضى الله عنهُ

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشيّ الأمويّ ، ثالث الخلفاء الراشدين ، وموجد نسخ القرآن المبين . ولد فى السنة السادسة من مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، وآمن فى السابقين الأولين ، و بذل ماله الكثير فى تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين ، وشهد مغازى رسول الله كلها إلاَّ بدراً ، وقد كان عُمَر قبل وفاته عهد بالخلافة إلى ستة هو منهم تنتخب الأمة أحدهم خليفة . فانتخبوا عثمان ، فأكمل مغازى عمر . ومضت على خلافته ست سنين لم يحدث عليه فيها شغب . ثم ثار عليه بعض الأعراب النازلين بمصر والعراق ، بحجة أنه يؤثر أقرباءه بولاية الأقاليم ، غير ناظرين إلى كفايتهم ، ولا إلى وثوق الخليفة بهم ونصحهم له ، فحاصروه فى داره بالمدينة وتسوّروها عليه . وقتلوه وهو يتلو القرآن فى المصحف سنة ٣٥ هـ فكان قتله سبب الفرقة بين المسلمين واجترائهم على مقام الخلافة وقتل الخلفاء والخروج عليهم

وكان رحمه الله من بلغاء الخلفاء ، وأوجزهم لفظاً ، وأجزلهم معنى ، وأسهلهم عبارة ، ومن خطبه خطبته بعد أن بويع ، وهى بعد الحمد والثناء :

أما بعد فانى قد حُمِّلت وقد قبِلت ، ألا وإنى متَّبع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم علىّ بعد كتاب الله عزّ وجلّ وسُنة نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباعَ من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسَنَنْتُم ، وسَنّ سنّة أهل الخير فيما لم تسُنُّوا عن ملأ ، والكفّ الاّ فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضِرة قد شهيّت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ، ولا تثقوا بها ؛ فانها ليست بثقة . واعلموا أنها غير تاركة إلاّ من تركها

٤ — على بن أبى طالب — كرم الله وجههُ

هو أمير المؤمنين أبو الحسن علىّ بن أبي طالب ، وابن عم رسول الله ، وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين ، وإمام الخطباء من المسلمين

ولد رحمه الله بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أوّل من آمن من الصبيان . وكان شجاعاً لا يُشَق له غبار ، أيِداً جليداً . شهِد الغزوات كلها مع النبى إلاّ غزوة تَبُوكَ ، وأبلى فى نُصرة رسول الله ما لم يُبْلِه أحد . ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز ، وامتنع عن بيعته معاويةُ وأهلُ الشام شيعةُ بنى أمية ؛ غضباً منهم لمقتل عثمان ، وقلة عنايته بالبحث عن معرفة القتلة على حَسَب اعتقادهم . فحدث من جرّاء ذلك الفتنةُ العظمى بين المسلمين وافتراقهم الى طائفتين . فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلىّ أو معاوية حتى قتل أحد الخوارج علياً غِيلةً بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ

وكان رحمه الله أفصحَ الناس بعد رسول الله ، وأكثرهم علماً وزُهداً وشدّة فى الحق ، وهو أمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وخطبه كثيرة — منها خطبته كرم الله وجهه بعد التحكيم وهى :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخَطْب الفادِح(١) ، والحَدَث الجَلَل(٢) ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آلهِ . أما بعد فإن معصية الناصِح الشفيق العالم المجرِّب تُورِث الحيرة ، وتُعقب الندامة ، وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة(٣) أمرى ، ونخَلت لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير(٤) أمر ؛ فأبيتم علىّ إباء المخالفين الجُفاة ،

(١) من فدحه الدين أثقله (٢) العظيم

(٣) أى حكومة الحكمين عمرو بن العاص وأبى موسى الاشعرى (٤) هو مولى جذيمة الابرش ، وكان حاذقا ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن للزباء ملكة الجزيرة فخالفه وقصدها اجابة لدعوتها الى زواجه فقتلته فقال قصير (لا يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلا

والمنابذين العصاة حتى ارتاب الناصحُ بنصحه ، وضنَّ الزَّند بقَدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هَوزان(١) :

أمرتُهم أمرى بمُنْعَرَج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضُحَى الغد

٥ — سَحبان وائل

هو سَحْبَان بن زُفَر بن إياد الوائلى ، الخطيب المِصْقع ، المضروب به المثل فى البلاغة والبيان ، نشأ فى الجاهلية بين قبيلة وائل إحدى قبائل ربيعة . ولما ظهر الاسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية رضى الله عنه ، فكان يُعِدُّه للملمات ، ويتوكأ عليه عند المفاخرة : لقوة عارضته وسُرعة خاطره

قدم على معاوية وفدٌ من خُراسان وفيهم سعيد بن عثمان بن عفّان ، فطلب سَحْبان فلم يجده فى منزله ، فاقتُضب من ناحية اقتضاباً وأدخل عليه . فقال له معاوية تكلم فقال : أحضروا لى عصاً — قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ — قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه — فضحك معاوية وأمر له بإحضارها ؛ فلما وصلت اليه رَكَلَها(٢) فلم ترُقْ فى نظره فطلب عصاه فأخذها ، ثم خطب من صلاة الظهر الى أن حانت صلاةُ العصر ، ما تنحنح ، ولا سَعَلَ ، ولا توقف ، ولا تلَكّأ ، ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى منه شىء ، فما زالت تلك حاله حتى دُهِشَ منه الحاضرون . فأشار اليه معاوية بيده ، فأشار اليه سحبانُ لا تقطعْ علىّ كلامى — فقال معاوية : الصلاة ، قال هى أمامك ، نحن فى صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد فقال معاوية : أنت أخطبُ العرب — قال سحبان : والعجم والجن والانس

وكان سحبانُ اذا خطب يَسيل عرقاً ، ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ ﻫ

ومما يؤثر من خطبه قوله(٣)

---

(١) هو دريد بن الصمة (٢) ركل الشىء برجله رفسه والمراد هنا خبرها ليعرف صلابتها

(٢) ونسبها القالى فى الامالى لبعض الأعراب فى صدر بنى العباس . ولعل السر فى عدم تدوين خطبه أنه كان يميل الى الاطالة التى يعجز الرواة معها عن الحفظ ، على أنها لم تكن سياسية والقوم فى هذا العصر مغرمون بالسياسة

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممرّكم لدار مقرّكم ، ولا تهتكوا أستاركم عنـد من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حَييتم ولغيرها خُلِقتم . إن الرجل إذا هَلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقال الملائكة : ما قدّم ؟ قدِّموا بعضاً يكون لكم ولا تُخَلِّفوا كُلاً يكون عليكم

٦ — زياد ابن ابيه

هو أحد دهاة العرب وساستها ، وخطبائها وقادتها

منشؤه — كان للحارث بن كَلَدَة الثقفيّ طبيب العرب ، أمة تسمى سُمَيّة قد قرنها بعبد له روميّ يدعى عَبيداً ، فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة ، فنشأ غلاماً فصيحاً ، شجاعاً ، داهياً ، قارئاً كاتباً ، فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عرف منه ذلك ، فاستكتبه أبو موسى الأشعرى والى البصرة من قِبل عمر (رضى الله عنه) ، فأظهر من الحِذق وحِدّة الذكاء وبُعد الغور ما جعل أمير المؤمنين يقول عند ما عزله عن عمله « إنه لم يعزله لعجز ولا لخيانة ، وإنما كَرِهَ أن يحمل على الناس فضل عقله » غير أن ذلك لم يكن ليصُدّه عن استكفائه بعضَ مهامّ أموره ، فكان فى جميعها مرضيّ المقام : محمود الأثر ، حتى قال فيه عمرو بن العاص « لله هذا الغلام لو كان أبوه من قريش لساق الناس بعصاه ! »

ولما رأى أبو سفيان بن حرب بعد إسلامه حصافة عقل زياد ، وحسن بلائه وفصاحة لسانه ، أسرّ الى بعض قريش ومنهم عليّ (كرم الله وجهه) بأن زياداً ابنه ، اشتملت عليه سمية منـه وهو مشرك ، ولكنه لم يستلحقه علانية أنفةً من العار ، وخشية من عُمر

ولما ولى أمير المؤمنين عليّ الخلافة اضطربت عليه فارس ، فاستشار الناس فيمن يكفيه أمرها ، فأشار بعضهم بزياد ، فسار الى فارس بجمع كثير ، فتمكن بخداعه

ودهائه من إيقاع النفور والشقاق بين رؤساء المشاغبين ، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، ولم يلق منهم حرباً ولا كيداً . وبقى يتولى لعلى الأعمال حتى قتل علىّ ، فخافه معاوية واهتم له كثيراً ، فأرسل اليه المُغيرةَ بن شُعْبَة يتلطف له ويستقدمه ، فقدم عليه فادّعاه أخاً له ، واستلحقه بنسب أبيه أبى سفيان بشهادة شهود فى محضر من الناس ، وصار يسمى زياد بن أبى سفيان بدل زياد بن عبيد ، والمتورعون يسمونه (ابن سُمية أو ابن أبيه)

وولاه معاوية البَصْرة وخُراسان وسِجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعُمان ، ثم ضم اليه الكوفة ، فأصبح بذلك والياً على العراقين ، وهو أول من جُمع له بينهما ، فسار فى الناس سيرة لمَّ بها الشعَث ، وأقام المعْوج ، وكبح الفتنة ، واشتَطَّ فى العقوبة ، وأخذ بالظِّنة . وعاقب على الشبهة ، حتى أكَّد المُلْك لمعاوية ، وحتى شمِل خوفُهُ جميع الناس ، فأمِن بعضهم بعضاً

وكان الشىء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتى صاحبه فيأخذه ، بل كان لا يغلق أحد بابه . وكان زياد يقول : « لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه » وكان مكتوباً فى مجلسه عنوانُ سياسته وهى : الشدة فى غير عُنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسىء يعاقب بإساءته

أما فصاحته فيكفيك فى وصفها ما رواه الجاحظ عن الشَّعبى قال : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلاَّ أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسىء إلاّ زياداً ، فانه كلما أكثرَ كان أجود كلاماً » وتوفى بالكوفة فى رمضان سنة ٥٣ هـ

ومن خطبه البليغة خطبته حينَ قدم الى البصرة وهى[١] :

أما بعدُ فان الجهالة الجهلاء ، والضَّلالة العمياء ، والغىَّ المُوفِىَ بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حُلماؤكم : من الأمور التى ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب

(١) كما فى صبح الأعشى وتروى فى البيان والتبيين والطبرى والعقد الفريد بروايات مختلفة

الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يزُول . إنه ليس منكم إلاّ من طَرَفت عينَهُ الدنيا وسدَّت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تُسْبَقوا اليه : من تَرْكِكم الضعيفَ يُقهر ، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تنصر ، والعددُ غير قليل ، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاة يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار ! قَرَّبتم القرابة ! وباعدتم الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على النُّكْر ، كل امرئ منكم يرد عن سفيه ، صُنْعَ من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو مَعاداً . فلم يزل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونهم حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كُنوساً(١) فى مكانِس الرِّيب . حرام علىَّ الطعام والشراب حتى أضعَ هذه المواخير بالأرض هدْماً و إحراقاً ! انى رأيت آخِرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوّله : لينٌ فى غير ضُعف ، وشدّة فى غير عنف ؛ وانى لأقسم بالله لآخُذَنَّ الولىّ بالمَوْلى ، والمقيمَ بالظاعن ، والمطيعَ بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقولَ « انجُ سعْدُ فقــد هَلَكَ سُعيد »(٢) أو تستقيمَ لى قَناتُـكُمْ . انَّ كِذْبة الأمير بَلْقاء(٣) مشهورة ، فإذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلَّت لكم معصيتى . وقد كان بينى و بين قوم إحَنٌ(٤) فجعلت ذلك دَبْرَ(٥) أذنى وتحت قَدمى . انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتِك له سِتراً ، حتى يُبْدِيَ لى صفحته فاذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ؛ فربَّ مبتئسٍ بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيَبْتَئس ! أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً ؛ وعنكم ذادة(٦) ؛ نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ؛ ونذود عنكم بفىْء الله الذى خوّلنا ؛ فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدلُ فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وَفَيْئَنا بمناصحتكم لنا

(١) جمع كانس أى مستتر — ومكانس الريب مكامنها المستترة

(٢) مثل يضرب فى تتابع الشر (٣) أى كالدابة البلقاء لأن شيتها تشهرها

(٤) أحقاد (٥) خلف (٦) مدافعين

٧ — الحَجَّاج

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثَّقَفى ، رجلُ ثقيف ، وأحد جبابرة العرب وساستها وقادتها وحُكّامِها ، ومُوَطِّدُ ملك بنى أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع

ولد سنة ٤١ ﻫ وكان هو وأبوه يعلمان الصبيان بالطائف موطن ثقيف ، ثم لحق بِرَوْح بن زِنباع الجُذَامى أحَدِ أعوان عبد الملك بن مروان فكان فى شُرْطته ثم صار رئيسها[(١)]

وأوَّلُ ما اشتهر من أمره قيادته الجيشَ الذى وُجِّه لقتال عبد الله بن الزبير . فسار إليه وحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فولّاه عبد الملك العراق وكان كلُّه ناراً ملتهبة بفتنة الشّيعة والخوارج ، فاستعمل من الشدّة والقسوة وسفك الدماء وإرهاب الأمة ما لم يُسْمَع بمثله ، وجدَّدَ الملك لبنى أمية ، وكانت عاقبة أمره أمرين عظيمين : أولهما يُمْدَح عليه : وهو جمع أشتات المسلمين تحت راية واحدة هى راية الخليفة العربى الأموى ، وثانيهما يُذَم به : وهو اذلال الأمة العربية إذلالاً لم تَعْهَدْه منذ خُلقت . بما قتل من نخوتها ، وسلب من حريتها ، وأخرس من

---

(١) وأول ما عرف من كفايته أن عبد الملك بن مروان شكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله حين توجه الى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث عند ما عصى عليه — فقال له روح بن زنباع يا أمير المؤمنين إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله — يقال له الحجاج بن يوسف — قال فانا قد قلدناه ذلك فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول الا أعوان روح بن زنباع فوقف عليهم يوما وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون — فقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين — فقالوا له أنزل يا بن . . . فكل معنا — فقال هيهات ذهب ما هنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر وأمر بفساطيط روح بن زنباع فاحرقت بالنار . فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً فقال له ما لك فقال يا أمير المؤمنين الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبيدى وأحرق فساطيطى — قال علىّ به ! فلما دخل عليه قال ما حملك على ما فعلت قال ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين — قال ومن فعله قال أنت والله فعلت ، انما يدى يدك وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له . فأخلف لروح ابن زنباع ما ذهب له وتقدم الحجاج فى منزلته وكان ذلك أول ما أعجب عبد الملك منه

ألسنتها ، فدخلت بعده فى طوْر خُضوع وامتثال للحكام المستبدين أكمل بقيته نصراء الدولة العباسية من الأعاجم

وخدم الحجاج بولايته عبدَ الملك بن مروان وابنه الوليـد ، حتى كان ملكه ما بين الشام والصين . ومات سنة ٩٥ ﻫ فى مدينة واسط [١] التى بناها بالعراق

وكان الحجاج آية فى البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة : قال الأصمعى : — أربعة لم يَلحَنوا فى جِدّ ولا هزل : الشَّعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج ابن يوسف [٢] وابن القِرِّيَّة [٣] ، والحجاج أفصحهم . وقال مالك بن دينار :ما رأيت أحداً أبين من الحجاج ؛ إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم اليه ، حتى إنى لأحسَبه صادقاً وأظنهم كاذبين

ومن مآثره ما يأتى لك من اهتمامه بوضع النُّقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخِه عدة مصاحِفَ من مصاحف عثمان : وإرسالها إلى بقية الأمصار

ومن خطبه المشهورة خطبته لما قدم أميراً على العراق : فانهُ دخل المسجد معْتَماً بعمامة قد غطّى بهـا أكثر وجهه مُتَقَلِّداً سيفاً ، متنكباً [٤] قوساً يؤمُّ المنبر فقام الناس نحوه حتى صعِدَ المِنبر فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض قَبَح الله بنى أمية حيث تَستعمل مثل هـذا على العراق : حتى قال عُمَيْر ابن ضابِىء البُرجُمى : ألا أحصِبُهُ لكم — فقالوا أمْهل حتى ننظر ، فلما رأى عيونَ الناس إليه حَسَرَ اللثام عن فيه ونهض ثم قال :

---

(١) بلد بالعراق (٢) زعم بعضهم أن الحجاج قد أخطأ ونسب له ما يأتى : قال الحجاج للشعبي كم عطاءك فى السنة قال الفين — قال ويحك كم عطاؤك قال الفان — قال وكيف لحنت أولا — قال لحن الامير فلحنت فلما أعرب أعربت ، ولم أكن ليلحن الامير فاعرب أنا عليه فأكون كالمقرع له والمستطيل عليه بفضل القول ، وروى أيضاً أن الحجاج قال ليحي بن يعمر أتسمعنى ألحن قال فى حرف واحد قال فى أى قال فى القرآن قال ذلك أشنع . ثم قال له ما هو قال : تقول « قل ان كان أباؤكم وأبناؤكم واخوانـكم وأزواجكم وعشيرتـكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله » فتقرأ أحب بالرفع قال الحجاج لا جرم أنك لا تسمع لى لحناً بعد هذا ثم ألحقـه بخراسان (٣) هو أيوب بن يزيد والقِرّية أمه (٤) تنكبت القوس ألقيتها على منكبي

أنا ابنُ جلا وطلاعُ الثنايا　　متى أضع العِمامة تعرفونى

ثم قال : يأهل الكوفة إنى لأرى رءوساً قد أينعَتْ وحان قطافها ، وإنى لصاحبُها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِحى ، ثم قال :

هذا أوانُ الشَّدِّ فاشتدّى زِيَمْ[1]　　قد لفَّها[2] الليل بسوَّاق حُطَمْ[3]

ليس براعى إبل ولا غَنَمْ　　ولا بجزَّار على ظَهْر وَضَمْ[4]

قد لَفَّها الليــل بعَصْلَبِيّ[5]　　أرْوَعَ[6] خرّاجٍ من الدَّوِّىّ[7]

مهاجر ليس بأعرابىّ

قد شمَّرت عن ساقها فشُدّوا　　وجدَّت الحربُ بكم فجِدّوا

والقوْسُ فيها وتَرٌ عُرُدُّ[8]　　مثْلُ ذِراع البَكْر[9] أو أشدّ

لا بُدَّ مما ليس منه بدّ

إنى والله يأهل العراق ما يُقَعْقَع لى بالشِّنان[10] ولا يُغمز جانبى كتَغماز التين ولقد فُررتُ[11] عن ذكاء ، وفُتِّشت عن تجربة ، وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نَثَر كنانته[12] بين يديه فعَجَم[13] عيدانَها فوجدنى أمرَّها[14] عُوداً ، وأصلبَها مَكسِراً فرماكم بى : لأنكم طالمــا أوْضَعْتُم[15] فى الفِتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ، والله لأحزمنــكم حَزم السَّلَمة[16] ، ولأضربنكم ضرب غرائب[17] الإبل

---

(١) اسم فرس أو ناقة　(٢) جمعها

(٣) لا يبقى من السير شيئاً　(٤) كل ما قطع عليه اللحم　(٥) شديد　(٦) ذكى

(٧) الدو الصحراء أى خراج من كل غماء شديدة ، والدوية الصحراء المتسعة التى تسمع لها دويا بالليل　(٨) شديد　(٩) الفتىّ من الابل　(١٠) الشنان جمع شن وهو الجلد اليابس فاذا قعقع به أى ضرب نفرت الابل منه ، يضرب ذلك مثلا لنفسه

(١١) فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها ، وعن الأمر بحث عنه

(١٢) الـكنانة جعبة السهام من جلد　(١٣) عضها لينظر أيها أصلب　(١٤) أقواها

(١٥) الأيضاع حمل الدابة على الاسراع . والمراد : أسرعتم فى الشر

(١٦) نوع من الشجر ، وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان　(١٧) وهى تضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب

فإنكم لكأهْل قرية كانت آمنةً مطمئنةً يأتيها رزْقها رَغداً من كل مكان فكفرت بأنْعُم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخَوْف بما كانوا يَصْنعون . وإنى والله ما أقول إلاّ وَفَيْت، ولا أهُمّ إلاّ أمضيت ، ولا أخلُق(١) إلا فريت(٢) وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأنْ أوجّهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلّب(٣) بن أبى صُفرة . وانى أُقسم بالله لا أجد رجلاً تخلّف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلاّ ضربت عنقه

الكتابة

للكتابة كما أسلفنا معنيان : خطِّيــة وانشائية

الكتابة الخطية

كان الخط الذى يكتب به العرب فى مبدأ ظهور الإسلام هو الخط الأنبارى الحِيرى المسمَّى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازى ؛ وهو أصل النسخ ، وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة ، وبعض أفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من اليهود . فلما انتصر النبى صلى الله عليه وسلم على قريش فى يوم بدر وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أميّهم وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صِبيان المدينة ، فانتشرت الكتابة بين المسلمين ، وحض النبى على تعلُّمها وتمكن أمرها بعد فتح مكة واجتماع شمل المهاجرين منها والأنصار . فما تم نزول القرآن حتى كان لرسول الله أكثر من أربعين كاتباً

---

(١) اقدّر (٢) قطعت (٣) هو أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة الازدى البصرى قائد قواد الامويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الحديدية . ولد بالبصرة ونشأ بها وظهر أمره فى مقاتلة الخوارج مدة الحجاج وقد أبلى فى مقاتلتهم هو وأولاده أعظم بلاء حتى أخلى البصرة منهم فنسبت اليه فقيل بصرة المهلب . وولاه الحجاج خراسان فأقام بها حتى مات سنة ٨٢ ﻫ على ما رواه الطبرى . وله كلمات مأثورة منها الحياة خير من الموت ، والثناء الحسن خير من الحياة — لو أعطيت ما لم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها ما يقال فىّ غدا اذا مت — يابنى أحسن ثيابكم ما كان على غيركم

ومن أشهر كُتَّاب الصحابة النفر الأربعة الذين كتبوا المصاحف لعثمان : وهم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام . ولما فتح المسلمون الممالك ومصروا الأمصار ونزلت جَمْهَرة الكُتاب منهم الكوفة ، عُنوا بتجويد الخط العربى وهَنْدَسةِ أشكاله وتمطيط عَراقاته (كاساته) ، حتى صار خطُّ أهل الكوفة ممتازاً بشكله من الخط الحجازى ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفى) وبه كانت تُكتبُ المصاحف المجَوَّدةُ الخط ، وحلى القصور والمساجد ، وسكك النُّقود . وبقى الحجازىُّ مستعملاً فى المكاتبات العادية . ثم حدث فى الكوفى أنواع بعد هذا العصر نذكرها بعد

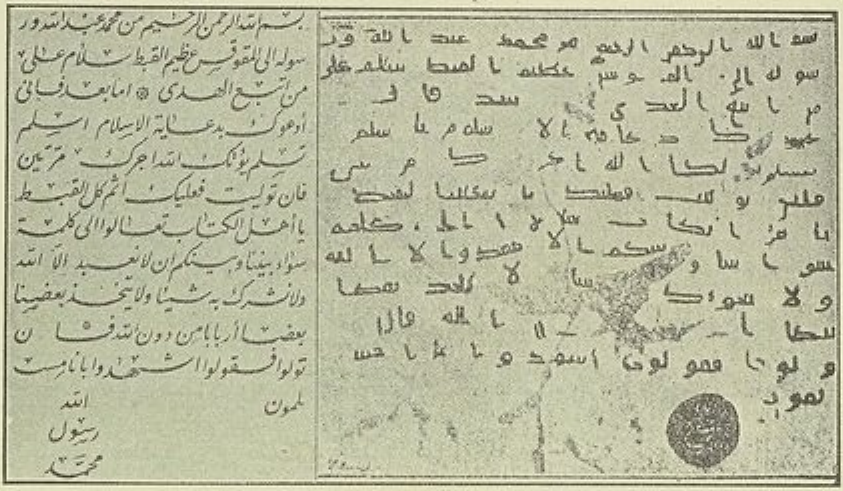
وكان الصحابة وتابعوهم من بنى أمية يكتبون بلا إعجام[١] ولا شكل إلاَّ قليلاً ، اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ، واكتفائهم بالرمز القليل فى قراءة اللفظ . فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف فى الألسنة وفى قراءة القرآن ، أشْفَقَ المسلمون على تحريف كلِم الكتاب الكريم ، فوضع أبو الأسود الدُّؤَلى[٢] علاماتٍ فى المصاحف بصبغ مخالف ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة نقطة أسفله ، والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجعل التنوين نقطتين . وكان ذلك فى خلافة معاوية

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يَعمَر بأمر الحجاج نَقْط الإعجام بنفس المداد الذى كان يكتب به الكلام حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبى الأسود . وكان ذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان . ثم شاع فى الناس بعدُ ، كما ترى ذلك واضحاً فى النماذج الآتية :

---

(١) لعل الأعجام بالنقط لتمييز الحروف سابق هذا العهد الا أنه لم يكن ملتزماً وربما لم يكن شاملا لجميع ما أعجمه نصر ويحيى

(٢) هو ظالم بن عمرو الدؤلى من سادات التابعين وأعيانهم كان من أكمل الرجل رأياً وأسدهم عقلا . وهو أول من وضع النحو واخترع الشكل بالنقط توفى بالبصرة سنة ٦٩ هـ عن خمسة وثمانين عاماً



بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ور
سوله الى المقوقس عظيم القبط سلام على
من اتبع الهدى اما بعد فانى
أدعوك بدعاية الاسلام اسلم
تسلم يؤتك الله اجرك مرتين
فان توليت فعليك اثم كل القبط
يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة
سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله
ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا
بعضا أربابا من دون الله فان
تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسـ
لمون
الله
رسول
محمد

صورة كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى المقوقس عظيم القبط

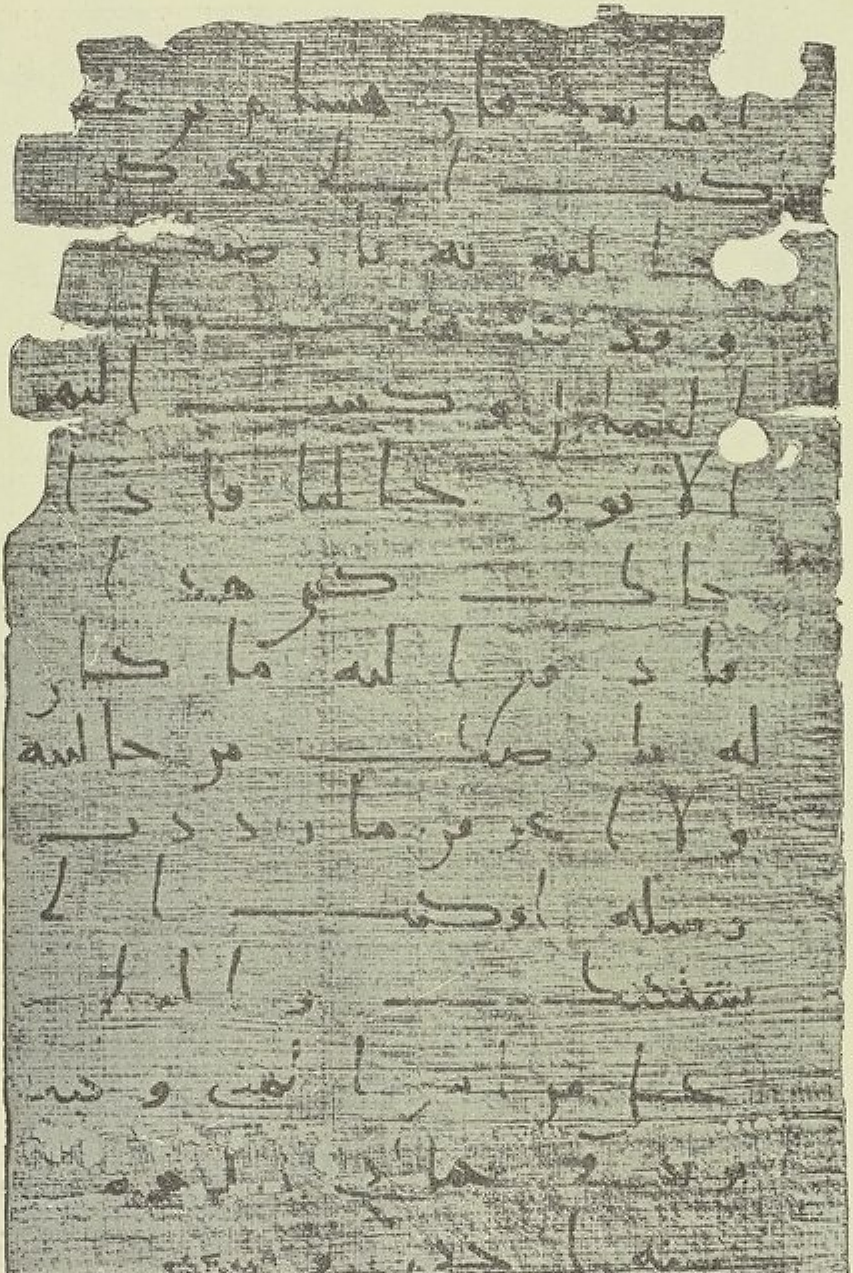
والصورة الآتية كتابٌ توضيح ما يقرأ منه هكذا :

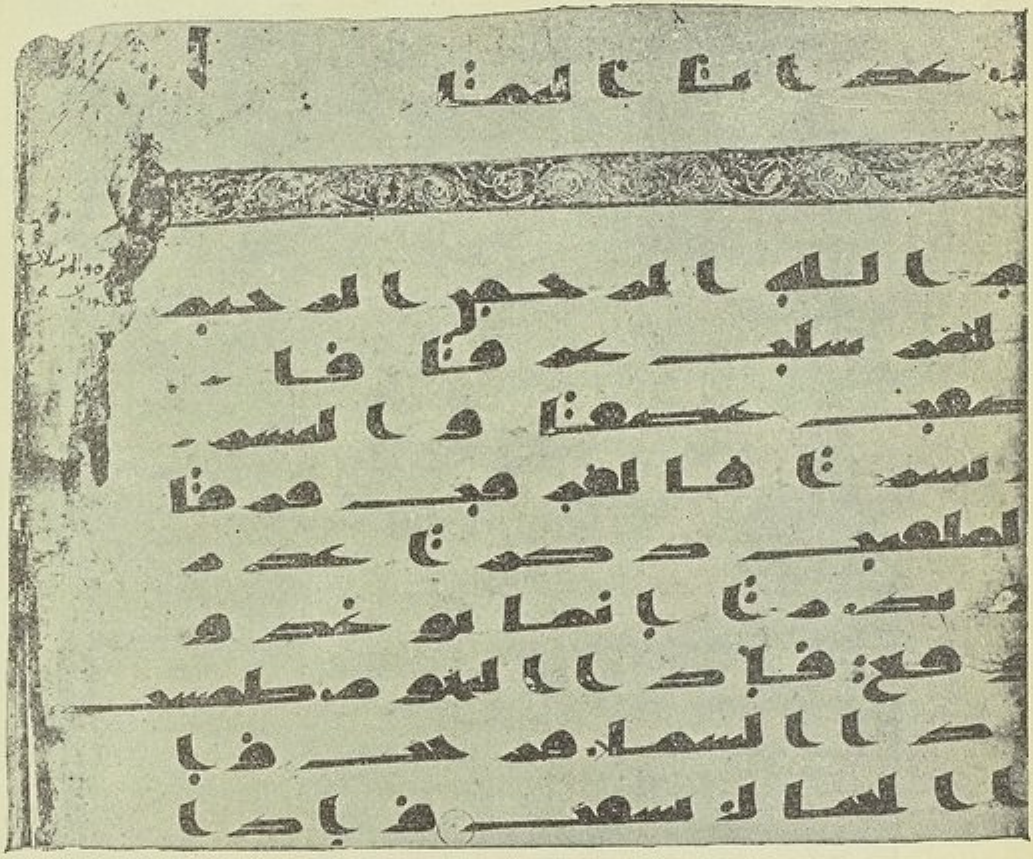
. . . . . .

أما بعد فان هشام بن عمر
كتب إلىّ يذكر
جالية له بأرضك
وقد تقدمتُ الى
العمال وكتبت إليهم
الآ يؤوا جالياً فاذا
جاءك كتابى هذا

فادفع اليه ما كان
له بأرضك من جاليته
ولا أعرفن ما رددت
رسله أو كتب الى
يشتكيك والسلام
على من اتبع الهدى وكتب
يزيد فى جمادى الآخرة
سنة احدى وتسعين

والنموذج الآتى منحرف عن الهيئة الكوفية الى الهيئة التى نكتب عليها نحن الآن وخال من النقط إلاّ قليلاً





(نموذج مضبوط بالنقط على طريقة أبي الأسود)

عَذَاباً أليماً

بسم الله الرحمن الرحيم

والْمُرْسَلٰت عُرْفاً فا
لْعٰصِفٰتِ عَصْفاً والنّٰشِرٰات
نَشْراً فالْفٰرِقٰت فَرْقاً
فالْمُلْقِيٰتِ ذِكْراً عُذْراً

أوْ نُذْراً إنَّمَا تُوعَدُونَ
لوٰقِعٌ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ
وَإذا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وإ
ذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ وإذا

الكتابة الإنشائية

وهى قسمان : كتابة رسائل ودواوين(١) وكتابة تدوين وتصنيف

كتابة الرسائل والدواوين

كان زُعماء العرب وفصحاؤهم كلهم كُتّابًا يُنْشِئُون بملكتهم ولو لم يَخُطُّوا بيمينهم؛ فكان النبى وأصحابه وخلفاؤه يُمْلُون كُتبَهم على كُتّابهم بعبارتهم، و بعضهم يكتبها بيده، وكان من ذلك أيام ظهور الإسلام وأزمان الفتوح والمغازى مئاتُ الرسائل والعهود

ولما اتسعت موارد الخلافة ووفرت الغنائم وأعطيات الجُنود منها، أصبحت الخلافة الإسلامية فى حاجة الى انشاء الدواوين لضبط ذلك، فكان عمرُ أوّل من دَوّن الدواوين فى الإسلام وكانت مقصورة على الضّروريّ منها لمكان البداوة من الأمة

وكان كُتّاب الرسائل للخلفاء وعمالهم إمّا عرَبًا و إمّا مَوالِىَ يُجيدون العربية أمّا كُتّاب الخَراج ونحوه فكانوا فى كل اقليم من أهله يكتبون بلغتهم فيكتبون فى فارس والعراق بالفارسية، وفى الشام بالرومية، وفى مصر بالقبطية. ولما نبغ من العرب من يحسن عَملهم حُوّلتْ هـذه الدواوين الى العربية زَمَنَ عبد الملك بن مرْوان والوليد ابنه، وجرى خلفاء بنى أمية فى كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين

ثم لما اتسعت رُقْعة المملكة وقرّت أمور الدولة وازدادت الأعمال وشُغِل الخلفاء عن أن يَلُو الكتابة بأنفسهم أو بخاصة عشيرتهم، عهِـدوا بها الى كبار كتّابهم فتوفّروا عليها حتى أوشكت فى أواخر دولتهم أن تصير صناعة عَتِيدة(٢) متّحِدة الأصول متشعبة الفروع بما أدخله فيها الناشئون من أبناء الكتّاب والموالى بعد نقل الدواوين إلى العربية

---

(١) الديوان الـكتاب يكتب فيه أهل العطية، وأول من وضعه عمر رضى الله عنه ثم صار يطلق على المـكان الذى يجتمع فيه الـكتاب (٢) مهيأة محكمة

وكان كثير منهم يعرف اللغة الرومية أو الفارسية أو اليونانية أو السريانية وهى لغات أمم ذات حضارة وعلوم ، ونظام ورسوم ، ومن هؤلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذُ عبد الحميد الكاتب الذى آلت اليه زَعامة الكتابة آخِر الدولة الأموية . ومع كل ذلك لم تصل درجة الكاتب العظيم فى هذا العصر الى ما وصلت اليه بعدُ من ارتقاء مرتبة الوزارة

مميزات الكتابة الإنشائية

وتمتاز الكتابة فى هذا العصر بالمِيزات الآتية :

(١) الاقتصارُ فى أغراضها على القدر الضرورى لدولة عربية : لقلة تجزئة الأعمال وضبط الأمور الصغائر : ولشمول العدالة والثقة اكثر عمّال الأمة و إنصاف الناس بعضهم بعضاً .

(٢) الاقتصارُ فى معناها على الالمام بالحقائق وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل

(٣) استعمال الألفاظ الفحلة ، والعبارات الجزلة . والأساليب البليغة ؛ إذ كان الكاتب والمكتوب اليه عربا فصحاء ، وكان البيان غاية النبيل منهم ؛ فقد كانوا يتوخون ملاءمتها لحال المكتوب اليه : فتارة تكون موجزة سهلة ، وذلك اذا كانت لغير العرب ؛ ليسهل على من له إلمام باللغة ترجمتها ، كما ترى ذلك فى كتبه صلى الله عليه وسلم الى كسرى أبرويز ملك فارس [١] أو هِرَقل قيصر الروم ، وتارة تكون عالية العبارة متينة الأسلوب اذا كان المخاطب عربياً فصيحاً كما كان ذلك

---

(١) وهو : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله وأدعوك بدعاية الله عز وجل ، فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ، لا نذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ، وأسلم تسلم ، فان توليت فان أثم المجوس عليك

فى كتبه صلى الله عليه وسلم الى بنى نَهْدٍ *، والى وائل بن حُجْر وأهل حَضْرَمَوْت

(٤) مراعاة الايجاز غالباً إلا حيث تستدعى الحال الإسهاب . وبقى الأمر على ذلك حتى جاء عبد الحميد الكاتب آخرَ الدولة الأموية ، فأسهب فى الرسائل ، وأطال التحميدات فى أوّلها ، وسلك طريقه من أتى بعده

(٥) قلةُ التفنن فى أنواع البدء والختام ، فقد كانت الجاهلية تكتب فى أول كتبها باسمك اللهمَّ ، وبعدها تكتب من فلان الى فلان ويَمضون فى الغرض . وكان صلى الله عليه وسلم يفتتح كتبه بالبسملة ، وبعدها : من محمد رسول الله الى فلان ، ويبتدئُ غالباً صدورَها بالسلام عليكم أو السلام على من اتّبع الهدى ، ويثنى بالتحميد بعد السلام فيقول : انى أحمد إليك الله الذى لا إله إلاَّ هو ؛ ويتخلص من صدر الكتاب الى المقصود تارة بأما بعد ؛ وأخرى بغيرها ؛ وكان يختمها فى الاكثر بالسلام عليكم ورحمة الله ، أو السلام على من اتبع الهدى

(٦) التعبير غالباً عن النفس بلفظ الإفراد مثل (أنا ، ولى ، وجاءنى ، ووفدَ علىّ) ، ومخاطبة المكتوبُ إليه بكاف الخطاب وتائه ، وعند التثنية بلفظها مثل (أنتما ولكما) وعند الجمع بلفظه أيضاً مثل (أنتم ولكم) . وبقى الأمر متبعاً فى خلفائه الراشدين وخلفاء بنى أمية الى أن ولى الوليد بن عبد الملك فجوّد القراطيس ، وجلل الخطوط ، وفخّم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك إلا ما كان من عمر بن

---

* قبيلة باليمن ونص الخطاب كما فى صبح الأعشى : من محمد رسول الله الى بنى نهد . السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نَهْد فى الوظيفة الفَرِيضةُ ، ولكم الفارض والفَرِيش وذو العِنان الركوب ، والفَلُوُّ الضَّبيس ، لا يُمنع سَرْحكم ، ولا يُعضد طَلْحكم ولا يُحبس دَرّكم ، مالم تُضمروا الإماق ، وتأكلوا الرِّباق . من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ، ومن أبى فعليه الرّبوة

الوظيفة النصاب فى الزكاة . الفريضة الهرمة . الفريش الفرس اذا حمل عليه بعد النتاج . ذو العنان الركوب الفرس الذلول . الفلو المهر الصغير . الضبيس ، الذى لم يذلل . السرح . المواشى . الدر اللبن والمراد ذوات الدر . الاماق — الحمق والمراد الغدر ، الرباق عروة فى الحبل تكون فى عنق البهيمة والمراد نقض العهد — الربوة — الزيادة فى الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له

عبد العزيز ويزيد بن الوليد فانهما جريا فى ذلك على طريقة السلف . ثم رجع الأمر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم وكتب له عبد الحميد بن يحيى ، وكان من اللَّسَن والبلاغة على ما اشتهر ذكره ، فأطال الكتب وأطنب فيها حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها كما تقدم

نماذج من الرسائل والأمثال والحكم

كتب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الى خالد بن الوليد :

من محمدٍ رسول الله الى خالد بن الوليد :

سلامٌ عليك ، فانى أحمدُ اليك اللهَ الذى لا إله إلاّ هو . أما بعد فانّ كتابك جاءنى مع رسولك ، يخبرنى أنَّ بنى الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلَهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم اليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ، وأنْ قد هداهم الله بهُداه ، فبشّرْهم وأنْذِرْهم ، وأقْبِلْ وليُقْبِلْ معك وفدهم . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته !

وكتب أبو بكر الى المسلمين يعهد إلى عمر بالخلافة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهِد به أبو بكر خليفةُ محمدٍ رسول الله صلى الله عليه وسلّم عند آخِرِ عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتّقى فيها الفاجر : إنى استعملتُ عليكم عمر بن الخطاب ؛ فان برَّ وعدل فذلك علمى بهِ ورأيى فيهِ ، وان جار وبدّل فلا علم لى بالغيب ، والخيرَ أردْتُ ، ولكل امرئٍ ما اكتسب . (وسيعْلَمُ الذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ ينقلبون)

وكتب سيدنا عثمان لسيدنا علىّ يستنجده :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد فقد بلغ السيل الزُّبى(١) ، وجاوز الحزام الطُّبْيين(٢) ، وطمِع فىّ من لا يدفع عن نفسه ، ولم يَغلبك مثل مُغلَّب(٣) فأقْبِلْ إلىَّ صديقًا كنت أو عدوًّا

(١) جمع زبية وهى حفيرة تحفر فى أعلى الجبل للاسد اذا أرادوا صيده
(٢) الطبي حلمة الضرع لذوات الأربع (أى اشتد الأمر) (٣) المغلوب مراراً

فإن كنتُ مأ كولاً فكن خيرَ آكلٍ وإلاَّ فأدركنى ولمّا أُمزَّقِ

وكتب بشر الى أخيه عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

لولا الهفوة لم أحتج الى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفضل ، ولو احتمل الكتاب أكثر مما ضَمِنْته لزدت فيه

وبُقيا الأكابر على الأصاغر ، من شيم الأكارم . ولقد أحسن مسكين الدارمى حين يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

وان ابن عم المرء (فاعلم) جَناحُه وهل ينهض البازى بغير جناح

وقال كَعْبُ العبسِيُّ لعُروةَ بن الزبير : قد أذنبتُ ذنباً الى الوليد بن عبد الملك وليس يزيل غضبه شيء فاكتب لى اليه فكتب اليه :

لو لم يكن لكعب من قديم حرمته ما يغفر له عظيم جَريرتِهِ ، لوجَبَ ألاّ تحرِمه التفيؤُ بظل عفوك الذى تأمله القلوب ، ولا تعلَقُ به الذنوب . وقد استشفع بى اليك ، فوَثقْتُ لهُ منك بعفو لا يخالطه سُخْط . فحقّقْ أمله ، وصدّق ثقتى بك ، تجدِ الشكر وافياً بالنّعمة

فكتب اليه الوليد :

قد شَكرتُ رغبته اليك ، وعفوتُ عنه لمعوّله عليك ، وله عندى ما يحب ، فلا تقطع كتبك عنى فى أمثاله وفى سائر أمورك

وهاكَ طرفاً من الأمثال :

إن من البيان لسِحراً (١) – إن المُنْبَتّ (٢) لا أرضاً قطع ولا ظهراً (٣) أبقى (٤) – إن مما يُنْبتُ الربيع ما يقتلُ حَبَطاً (٥) أو يُلِمّ (٦) – إن لله جنوداً منها العسَل (٧) –

---

(١) مثل قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب فى استحسان المنطق وايراد الحجة البالغة

(٢) المنقطع عن أصحابه فى السفر (٣) دابة (٤) قائله رسول الله ويضرب لمن يبالغ فى طلب الشيء ويفرط حتى ربما يفوّته على نفسه (٥) انتفاخ يعترى الابل من كثرة الاكل

(٦) يقارب : قائله رسول الله ، يضرب فى النهى عن الأفراط (٧) قائله معاوية رضى الله عنه : ويضرب عند الشماتة بما يصيب العدو

إن البلاء موكّل بالمنطق (١) – إنما أُكِلتُ يوم أُكل الثورُ الأبيض (٢) – أنا جُذَيلُها (٣) المُحكَّك (٤)، وعُذَيقُها (٥) المرجَّب (٦) – إياكم وخضراء الدِّمَن (٧) – حَرّك لها حُوارَها تحن (٨) – عند الصباح يحمَد القوم السُّرَى (٩) – وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التمسوا الرزق فى خبايا الأرض – رُبَّ مبلَّغ أوعى من سامع – وقال أبو بكر رضى الله عنه : ليستْ مع العزاء مصيبة – الموتُ أهوَن مما بعده، وأشَدُّ مما قبله . أصلحْ نفسك يَصْلُحْ لك الناسُ ، إذا فاتك خيرٌ فأدركْهُ ، وإن أدركك شر فاسبقه – وقال عمر رضى الله عنه : من كتم سره كان الخيارُ فى يده . أعقلُ الناس أعذرهم للناس . لا تؤخّرْ عمل يومك لغدك . لا ينفع تكلم بحق لا نفَاذ له – وقال عثمان رضى الله عنه : ما يَزَعُ الله بالسلطان اكثر مما يَزَعُ بالقرآن . الهدية من العامل إذا عُزِلَ مثلها منه إذا عمل . يكفيك من الحاسد أن يغتمّ وقت سرورك – وقال علىٌّ رضىَ الله عنه من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . من صارع الحقّ صرعه . العفَافُ زينة الفقر، والشكر زينةُ الغنى . الخُرقُ المعالجةُ قبلَ الامكان، والأناة بعد الفرصة . الأمانىُّ تعمى أعين البصائر . قيمة كل امرئ ما يحسنه . الولايات مضامير الرجال – ومن كلام ابن عباس رضى الله عنه : الحرمان خيرٌ من الامتنان . صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأً – وقال عمر بن عبد العزيز : من يزرع خيراً يُوشِك أن يحصُدَ غِبطة ، ومن يزرع شرًّا يوشك أن يحصُد ندامةً

---

(١) قائله أبو بكر رضى الله عنه : يضرب فى الاحتراس من عثرات اللسان

(٢) قائله على رضى الله عنه : يضرب للرجل يرزأ بأخيه (٣) تصغير الجذل وهو أصل الشجرة

(٤) الذى تتحكك به الابل الجربى من عود ينصب فى مبارك الابل أو أصل شجرة

(٥) تصغير العذق وهو النخلة (٦) الذى جعل له رجبة وهى دعامة تبنى حول النخلة الكريمة من الحجارة لئلا تقع : قائله الحباب بن المنذر الانصارى يوم السقيفة ويضرب للرجل يستشفى برأيه وعقله

(٧) خضراء الدمن البقلة الحسنة تنبت فى الدمن وهى منبت خبيث ، ويضرب فى الحسن الظاهر الخبيث الأصل وقائله الرسول الكريم (٨) الحوار ولد الناقة الرضيع قائله عمرو بن العاص ، ويضرب فى تذكير المرء بما يهيجه (٩) السرى السير ليلا ، قائله خالد بن الوليد . ويضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة

الكُتَّاب

كُتَّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كان الخلفاء والأمراء والقوادُ كلهم كتَّابًا بلغاء . وإنك لترى كثيراً من رسائلهم وعهودهم فى تاريخ الطبرى وغيره من كتب المغازى والفتوح

ولما صارت الكتابة صناعة تداولها كثير من الأعاجم وغيرهم واشتهر من بين هؤلاء عبد الحميد الكاتب ، وهاك ترجمته :

عبد الحميد بن يحيي الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامرىّ وَلاءً الشامىّ دارا ، شيخ الكتاب الأوائل ، وأوّل من أطال الرسائل

كان عبد الحميد من أهل الشام من مَوالى بنى عامر ، وتخرّج فى البلاغة والكتابة على خَتَنه[١] أبى العَلاء سالم مَولى هشام بن عبد الملك وكاتب دولته وأحد بلغاء عصره والنقلة من اليونانية . وكان عبد الحميد فى أوّل أمره معلِّمَ صبيان يَتَنَقَّل فى البلدان حتى فَطِنَ له مَرْوان بن محمد أيام تولّيه أرمينيَةَ وانتدابه لتسكين فتنتها ، فكتب له مدة ولايته حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة ، سجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلاَّ عبد الحميد . فقال له مروان لم لا تسجد ؟ فقال ولمَ أسجُد ؟ أعلى أن كنتَ معنا فطِرْت عنا ؟ قال إذاً تطير معى — قال الآن طاب لى السجود وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته . فصدر عنه من الرسائل ما صار نَمُوذَجًا يحاكيه من بعده

ولمّا دَهِمَتْ مَرْوان جيوشُ خُراسان أنصارُ الدعوة العباسية وتوالت عليه الهزائم كان عبد الحميد يلازمه فى كل هذه الشدة — فقال له مَرْوان : قد احتجت أن تصيرَ مع عدوّى وتُظهرَ الغَدْرَ بى ؛ فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم الى كتابتك

(١) الختن هنا كل من كان من قبل المرأة كالأب والأخ

تحوِجهم إلى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعنى فى حياتى ، والاَّ لم تَعجَز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى — فقال له : ان الذى أشَرْت بهِ علىَّ أنفعُ الأمرين لك وأقبحُهما بى ، وما عندى إلاَّ الصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك . وأنشد :

أُسِرّ وفاء ثم أُظهرُ غَدْرة ! فَمَنْ لى بعذْرٍ يُوسِعُ النّاس ظاهره ؟

وبقى معه حتى قتل مروان سنة ١٣٢ هـ ، ففرَّ واختبأ عند صديقه ابن المقفّع ففاجأه الطلب وهو فى بيته — فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميدُ ؟ — فقال كل منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه . وخاف عبد الحميد أن يُسْرِعوا الى ابن المقفع فقال : تَرَفقّوا بنا فان كلا منا له علامات ، فوكّلوا بنا بعضكم ويمضى بعض آخر ويذكر تلك العلامات لمن وجهكم ففعلوا ، وأُخِذَ عبد الحميد إلى السفَّاح فقتله سنة ١٣٢ هـ

آثاره فى الكتابة

منزلته فى الكتابة — اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، وذلك أنه أوّل من مهّد سُبُلها ، وميّز فصولها ، وأطالها فى بعض الشئون ، وقصّرها فى بعضها الآخر ، وأطال التحميدات فى صدرها ، وجعل لهـا صوراً خاصّة ببدئها وختمها ، على حسب الأغراض التى تكتب فيها ، بل هو الذى رقَّى هـذه الصناعة التى كانت من مِهَن الموالى ، حتى صارت بعده سُلَّماً يعرُج فيه الكاتب إلى مرتبة ليس فوقها إلاَّ الخلافة : وهى مرتبة الوزارة

بلاغة عبد الحميد

وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يَعجز عنـه السحر فى خَلْب الأفئدة وجذب النفوس ؛ فيقال إنهُ لما ظهر أبو مسلم الخُراسانى بدعوة بنى العباس كتب اليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمّنهُ ما لو قُرِئ لأدّى إلى وقوع الخلاف والفشل — وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك و إلاَّ فالهلاك .

وكان الكتاب لكبر حَجْمه يحمل على جمل . فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أبي مسلم ، أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جُذاذة[١] منه إلى مروان

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانْتحَى   عليك ليوثُ الغاب من كل جانب

طائفة من نثره

نموذج من كتابته .

ومما كتبه عبد الحميد موصياً بشخص :

حقُّ موصل كتابي عليك كحقِّهِ عليّ ؛ إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآنى أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته . فصدِّق أمله

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالمكاره والشرور . فمن ساعده الحظ فيها . سكن اليها ، ومن عضَّته بنابها ، ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٣] استحليناها ، ثم جمحت[٣] بنا نافرة ، ورمحتنا[٤] مُوليّة فمَلُحَ عذْبها ، وخَشُنَ لينها فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرّقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة[٥] والطير بارحة[٦] . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم وَجْداً ، فإن تتمّ البلية إلى أقصى مدّتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وان يلحقنا ظفُرجارح من أظفار مَن يليكم نرجع اليكم بذل الإسار ؛ والذل شرٌّ جار . نسأل الله تعالى الذى يعُز من يشاء ويذل من يشاء أن يَهَب لنا ولكم أُلفةً جامعة ؛ فى دار آمنة ، تجمع سلامة الابدان والأديان ، فانه رب العالمين ؛ وأرحم الراحمين

---

(١) قطعة (٢) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع فى الضرع بين الحلبتين والجمع فيق وفيق وأفواق وجمع الجمع أفاويق (٣) جمحت الفرس غلبت راكبها

(٤) رمحته الفرس كمنع رفسته (٥) بعيدة (٦) البارح من الطير ما مر من ميامنك الى مياسرك وهو يتشاءم منه

موازنة بين النثر الجاهلي ونثر صدر الإسلام

أسبقنا الكلام فى نثر الجاهلية أنهم كانوا لا يَحفِلون بانتقاء الألفاظ والتعمق فى المعانى وترتيبها ، ولا يُولَعون بالتأنق فى صوغ العبارات وسجع الكلام ، ولا يعدون الشقة بين طَرفى الجملة وبخاصة الحكمة والمثل : على قصد منهم إلى الإيجاز فى الألفاظ ، وتعمد إلى استيفاء المعنى من غير إخلال ، اعتماداً على سليقة المتفهم لكلامهم ودقيق كناياتهم

ويرى القارئ بعد تلاوة ما كتب فى أحوال النثر فى صدر الاسلام :

أن أهل هذا العصر لِما طرأ عليهم من الحوادث الاجتماعية والسياسية والدينية قد خالفوا طريقة سابقيهم بما يمكن اجماله فيما يأتى : —

١ — اتساع وجوه الكلام ومقاصده لاتساع الملك ودواعى السياسة وشعائر الدين

٢ — عناية أهل هذا العصر بعض العناية بتهذيب ألفاظهم ، فهجروا بعضاً وحرصوا على آخر ، وسعد من بين هذه الألفاظ بالاستعمال والرواج ما دار فى عبارات القرآن والسنة ، مع حَفْلهم بتوليد الحديث من القديم

٣ — تأنقهم فى صوغ عباراتهم ومحاكاتهم فيها لأساليب الكتاب والسنة ، واقتباسهم منهما واستشهادهم بهما ، وقلة اقتصارهم على الجمل القصيرة والمسجوعة ، وبقائهم على اتباع خطة الايجاز أول هذا العصر ، وميلهم إلى الأطناب أواخرَه ، وغلبة استعمالهم فى مبادئ الرسائل والخطب التحميداتِ والصلاة على الرسول الكريم والثناء على الله ونحو ذلك

٤ — ترتيبهم للمعانى والأفكار بدون تغلغل فيها ، ويظهر ذلك جلياً فى الخطب التى كانوا يُعِدونها قبل القول ؛ وفى الرسائل التى كانت تدور بين الخلفاء والأمراء أخريات هذا العصر

وقصارى القول أن هذه الحوادث الطارئة فى هذه المدة قد صبغت اللغة بصبغة دينية سياسية اجتماعية ، وشملت من الأغراض ما لم تكن تتسع له من قبل ، وان لم تصل هذه الدرجة الى حد الكمال إلاّ فى صدر العصر العباسى

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ولم يدوَّن فيه كتاب إلاّ ما كان من أمر كتابة المصحف . وكان مرجعَ الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتابُ الله تعالى وسنةُ رسوله ، فاذا اشتبه عليهم أمر من أمور الدين رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة أو استخاروا الله فيه واستظهروا باجتهادهم رأيًا عملوا به . وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى صلى الله عليه وسلم وفتاوى الصحابة خشيةَ أن يجرّهم ذلك إلى الاعتماد على الكتب و إهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، ولأن الكتابَ عُرْضة للضّياع والتصحيف والتحريف ، ولو عرض للكتاب عارض فات معهُ عِلْم الدين

سبب عدم التدوين

ثم لما انتشر الاسلام زمن بنى أميـة فى مشارق الأرض ومغاربها واختلطت العرب بالأمم المختلفـة من الأعاجم ، ففسدت فيهم ملكة اللسان العربى ، وفشا اللحن وأشفقوا على القرآن من التحريف وعلى اللغة من الفساد — دوّنوا النحو بعد إحجام و إقدام وأخـذ وردّ ، وكان أوّلَ من كتب فيه أبُو الأسود الدؤلى ، وقد تلقى مبادئه عن الامام علىّ ، وأخذ عنه فِتيانُ البَصرة وخصوصًا الموالى ، اذ كانوا أحوج الناس إلى النحو . واشتغل أهل الكوفة بهِ بعد أن فشا بالبصرة ، ولم ينقضِ هذا العصرُ حتى اشتغل به طبقتان من البصريين وطبقة من الكوفيين

تدوين النحو

ثم لـما حدثت الفتن وتعدّدَتِ المذاهب والنّحل وكثرت الأقوال والفتاوى والرجوع فيهـا الى الرجال والرؤساء ومات اكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله ، فأذِن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

تدوين الحديث

لأبى بكر محمد[١] بن عمر بن حَزْم فى تدوين الحديث بعد أن استخار الله أربعين يوماً ، فدوّن ما يحفظ من حديث رسول الله فى كتاب بعث به عمر الى الأمصار ولم يعرف له بعد ذلك خبر

وبقى كثير من التابعين مُحْجِماً عن التدوين والتصنيف تورعاً منهم ، وبعضهم كَتَب أو سمح لمن يكتب عنهُ فى الحديث ورواية أقوال الصحابة فى التفسير ، وانقضى هذا العصر ولم يدون فيه من علوم اللغة والدين غير النحو وبعض الحديث وبعض التفسير ، أما العلوم الأخرى فيُرْوى أنَّ خالد بن يزيد بن معاوية حُبّب اليهِ مُطالعةُ كتب الأوائل من اليونان فتُرجمت له ، ونبغ فيها ، ووضع كتباً فى الطب والكيمياء . وأن معاوية استقدم عبيد بن شَرْيَة[٢] من صَنْعاء ، فكتب له كتاب (الملوك وأخبار الماضين) . وأنّ وهب بن مُنبِّه الزُّهرى[٣] وموسى بن عقبة كتبا فى ذلك أيضاً كتباً ، وأن زياداً ابن أبيه وضع لابنه كتاباً فى مثالب قبائل العرب . وأن ماسَرْجَوَيهِ[٤] متطبّب البصرة تولى فى الدولة المرْوانية ترجمة كتاب أهرُون[٥] ابن أعيَن من السريانية الى العربية وأن يونُس[٦] الكاتب ابن سليمان ألفَ كتاباً فى الأغانى ونسبتها الى من غنَّى فيها

تدوين الطب والكيمياء

تدوين التاريخ

الترجمة الى العربية وتدوين الأغانى

ولكن ذلك لم يُقْنع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يعتبروا هذا العصر عصر تصنيف وتدوين إذ لم تتم فيهِ كتب جامعة حافلة ، وانما كان كل ذلك مجموعاتٍ تدون على حسب ورودها واتفاق روايتها

---

(١) هو نائب عمر بن عبد العزيز فى القضاء والولاية على المدينة وتوفى سنة ١٢٠ ﻫ
(٢) أدرك النبي ولم يسمع منه كان يروى عن الكيس النمرى وعاش الى أيام عبد الملك بن مروان (٣) هو أبو عبد الله صاحب القصص والأخبار وسير الملوك وأحوال الأنبياء وتوفى بصنعاء سنة ١١٦ ﻫ (٤) يهودى عاش الى صدر بنى العباس وزاد على كتاب أهرون مقالتين عند ترجمته
(٥) هو قس متطبب تبلغ كناشته فى الطب ٣٠ مقالة عاش فى مبدأ الاسلام
(٦) نشأ بالمدينة وكان من الكتاب وأخذ الغناء عن معبد وابن سريج وابن محرز والغريض واستقدمه الوليد بن يزيد فلازمه حتى قتل

الشعر والشعراء

الشعر*

أثر القرآن في الشعر

جاء النبي الكريم والشعر ديوان العرب ، ومَجمعُ مكارمهم ، ومنبعُ مَفاخرهم ، ومَعْرِض فصاحتهم ، ومظهر نَبالتهم ، وموضع الرغبة من نفوسهم ، فأتاهم بالأمر العظيم والحادثِ الخطير ، حاملاً باحدى يديْه القرآن يدعو الناس الى توحيد الله والتمسك بالفضيلة ، وشاهراً بالأخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة . وما كان أشدّ ذهولَهم لخطبهما ! وانزعاجهم من وقعهما ! فهبُّوا يَتحسَّسُون الأول ، ويتمرّسون بألفاظه ومعانيه ، ويتفرّسون فى أساليبه ومغازيه : من بين معاندٍ يتلمس مطعناً فيه ، ومؤمن يستَبينه ويستهديه ، وتأهَّبوا للثانى : من بين ضالّ يناوئه ، ومهتدٍ يعاضده ، فصار ذلك صارفاً لهم عن التشاغل بالشعر والتلهّى به والتنافس فيه ، محوِّلاً مَجْرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه وأغراضه المنحرفة عن سنن الشرف والحق : كالتشبيب والمغازلة ، والمدح الباطل ، والاستجداء والهجاء . وبغَّض اليهم تلك الفنون المرذولة إزراء القرآن على الشعر الذى يقال فيها ويقصر عليها بقوله (والشُّعراء يتَّبعهم الغاوون ألَمْ ترَ أنَّهُمْ فى كُلّ وادٍ يَهيمُون وأنَّهمْ يقُولون مالا يَفعلُون إلا الَّذِين آمنُوا وعَملوا الصَّالِحاتِ وذكروا الله كثيراً وانتَصرُوا مِنْ بَعدِ ما ظُلموا)

أغراض الشعر بعد الاسلام

ولهذا لم يكفّ شعراء المسلمين عن قوله فيما يُطابق روحَ القرآن : كالحث على العمل الصالح : والموعظة الحسنة ، ومدح الرسول وأنصاره ، والانتصاف للاسلام ممن ظلمه واعتدى عليه بهجاء أهله وذم نبيّهم ، فقابلوا هجْوهم بهجو كان أشدّ عليهم من وقع السهام فى غبَش الظلام

ولبث الحال على ذلك مدة حياة النبى الكريم حتى إذا ما ثاروا لإسكان فتن

* وتشمل هذه المقالة الموازنة بين شعر الجاهلية وشعر هذا العصر

أهل الردّة وفتح الممالك والأمصار ، أضافوا الى ما أَلِفوه من أغراض الشعر ، الاكثار من التباهى بالنصر ، ووصف المعارك وأحوال الحصار وآلات القتال ، وما استعمل فيها من الادوات العجيبة ، وما شاهدوه من الدوابّ الغريبة ، وغُنْم الغنائم ، ومقاساة أحوال الحر والبرد ، مما امتلأت به كتب الفتوح والمغازى[١] وأخبار على ومعاوية

الشعر والسياسة

ولما آل الأمر الى بنى أمية وشغَب عليهم[٢] كثير من فرق المسلمين : كالشّيعة والخوارج وأتباع عبد الله بن الزبير[٣] ، والمختار[٤] وغيرهم . أصبح الشعر لسانًا يعبّر عن مقاصد كل حزب ، والقوم عرب : الشعر أسْيَر الأقوال عندهم ، وأيسر الوسائل لإعلاء شأنهم ، واعلان أمرهم

وكان لخلفاء بنى أمية فى اجتذاب الشعراء اليهم وتحبيبهم فيهم همّةٌ لا تَنِى ، وعزيمة لا تُفلّ ، فأغدقوا عليهم جزيل العطايا ، وفرضوا لهم الأرزاق فى بيوت الأموال ، وأكرموا وِفادتهم وقبِلوا شفاعتهم ، وبثوا فيهم روح التسابق إلى أبوابهم والتنافس فى جلب مرضاتهم ، وقصر أشعارهم عليهم دون غيرهم ، بل دون ولاتهم ورؤساء شيعتهم ، وتبعهم فى ذلك عمالهم وولاتهم[٥]

ولم يقف خلفاء بنى أمية عند هذا الحد ، بل بالغوا فى إكرام بعض الشعراء دون بعض ؛ ليقع الشقاق بينهم ، ويتبعهم فى ذلك قبائلهم : فيلهوهم بذلك عن مناوأتهم ومراقبة أعمالهم ، ويستتبع ذلك شغل طبقة المتعلمين والمتأدبين بالأخذ عنهم ، والبحث فى أقوالهم ، والتعصب لشاعر دون شاعر ، ونحو ذلك مما يُبعدهم عن الخوض فى السياسة وأمور الملك . وبذلك عاد الشعر إلى ما كان عليه ، ونبغ فيه الشعراء من

---

(١) راجع تاريخ ابن جرير الطبرى

(٢) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم (٣) أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة ، وبويع له بالخلافة بمكة سنة ٦٤ بعد وفاة يزيد بن معاوية واستمر تسع سنين واجتمعت له العراق واليمن والحجاز ومصر وكاد يتم له الأمر ثم قتله الحجاج فى مكة سنة ٧٣ هـ

(٤) أحد الخوارج الذين خرجوا بالكوفة مطالبين بدم الحسين وتبعه خلق كثير فقتل كثيراً من قتلته ثم قتله مصعب بن الزبير بالكوفة سنة ٦٧ هـ (٥) راجع العمدة

كل القبائل حتى قريش التى لم يكن لها شأن فيه من قبل

الشعراء والخمر والعصبية

واستعمل فى كل أغراضه السابقة اللهمّ إلاّ ما كان من وصف الخمر والترغيب فيها فإن جمهور شعراء المسلمين نزّهوا شعرهم عنها[١] وانما أوّل من وصفها منهم وجعلها وَكْدَهُ وقصده هو أبو الهندى من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية كما صرح بذلك صاحب الأغانى؛ وإلاّ ما كان من العصبية الذميمة، فإن الشيعة ودعاة بنى العباس أثاروا عَجاجها[٢] وأشعلوا نيرانها أواخر الدولة الأموية على يد الكُميت ومتابعيه

وقصارى القول أن الشعر أصبح حرفة عتيدة، وصناعة جديدة، ومورد ثروة لكثير من البيوت والعشائر، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دَابَ العلماء والأدباء حتى الخلفاء وأولياء عهودهم، إذ لم يكونوا أقلّ من هؤلاء عناية وحرصاً على تعلمه

ويمكن وصف ما كان عليه الشعر فى هذا العصر من حيث أغراضه وفنونه، ومعانيه وأخيلته، وألفاظه واساليبه، وأوزانه وقوافيه، بما يأتى :

أغراضه وفنونه

(١) نشر عقائد الدّين وحِكمه ووصاياه والحثُّ على اتّباعه وخاصّة زمن النبى وخلفائه الراشدين

(٢) التحريض على القتال والترغيب فى نيل الشهادة إعلاء لكلمة الله وذلك فى أزمان غزوات النبى وفتوح الأمصار

(٣) الهجاء وكان أوّلاً فى سبيل الدفاع عن الإسلام بهجو مشركى العرب بما لا يخرج عن حدّ المروءة، وبما رضيه النبى من حسّان شاعره فى هجاء قريش وعشيرة النبى من بنى عبد مَنَاف . وكان يتحرج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبى

(١) أكثر شعراء النصارى كانوا يصفون الخمر فى هذا العصر وجاراهم قليل من الخلفاء والمغنين على خشية ورقبة وندرة قول (٢) غبارها

وخلفائه : ولذلك عاقب عمرُ أمير المؤمنين الحُطَيْئَةَ وهدّده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين . ثم صار يُتَساهل فى خطْبه حتى أصبح الشعراء يهجون أنفسهم[١] ويسب بعضهم قبائل بعض أمام خلفاء بنى أمية بل برضاهم و بإغرائهم للأسباب السياسية التى ذكرناها قبل ؛ حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر[٢] وإن لم يصل فى الإقذاع[٣] والفُحْش إلى الحد الذى وصل إليه فى العصر الآتى – ومن ذلك التهاجى المشهور بين جرير والفرزدق والأخطل

(٤) وصف القتال وحصار المدن وفتحها وغير ذلك مما سبق ذكره آنفاً

(٥) المدح – وقلَّما كان مبدأ الإسلام فى غير النبى من حيث الاهتداء بهديه ونشر الحق على يديه . وكان خلفاؤه يأنفون مدحَهم بما تُزْهَى به نفوسهم تورُّعاً وتواضعاً ، ثم استرسل الشعراء فيه وقبِل ذلك منهم الخلفاء إلى أن كان المدح من أهم الدعائم لتوطيد أركان الدولة ، وتفخيم مقام الخلفاء والوُلاة والإشادة[٤] بعظمتهم ؛ فكان إذ ذاك بمثابة الصحف العظمى المشايعة لأهل الدولة أو لأحد زعماء الأحزاب فى زماننا

(٦) استعماله فى النسيب والغزل العفيف بما يخالف مسلك أهل الجاهلية فيه ، وأكثر ما كان ذلك فى أهل البدو وبين العُشاق منهم

معانيه وأخيلته

لم يخرج شعراء هذا العصر فى جملة تصوّرهم وتخيلهم عما ألفوه زمن الجاهلية ، وإن فاقوهم كثيراً فى ترتيب الفكر وتقريب المعنى إلى الأذهان والوجدان، بما هذَّب نفوسَهم ، ورقّق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسوله ، وهما من المعانى

---

(١) ممن هجا نفسه الحطيئة بقوله :

(أرى لى وجهاً شوّه الله خلقه   فقبح من وجـه وقبح حامله)

(٢) قال الأصمعى انما وضع من ذى الرمة أنه لا يحسن أن يهجو ولا أن يمدح

(٣) قذعه كمنعه رماه بالفحش وسوء القول كاقذعه   (٤) أشاد بذكره شهره ومدحه

والحكمة ما هما ، وبما نوّع خيالهم وأنمى معارفهم : من مشاهد الحضارة وبدائع الصناعات ؛ غير أننا لا نجد فى شعرهم من المبالغة والتهويل والتعمق فى المعانى العقلية العسرة الإدراك ما نجده لأهل العصر التالى : لاشتغال القوم بالفتوح والمغازى وتأسيس الحَضارة والعُمران

ألفاظه وأساليبه

وكذلك لم يَخْرُجوا جملةً فى هيئة تأليف اللفظ ونسجه ومتانة أسلوبه عن نظائرهم فى الجاهلية ، وإنما آثروا جَزَالة اللفظ وفخامته وحسنَ جَرْسه ونغْمته . ومؤالفته لسابقه ولاحقه دون غرابته وحوشيّته وتنافره مع قرينه ، كما آثروا جودة الأسلوب ومتانته وروعة تأثيره ، ولا سيما أهل النسيب[١]

وربما انطبق كل هذا الوصف على القصيد دون الرجز إذ كانت الغرابة كأنها من ألزم طبائعه ، ولا شك أن جل التأثير فى ترقيق حاشية عبارة الشعر العربى يرجع إلى حفظ القرآن والحديث ودراستهما كما قدمنا

أوزانه وقوافيه

لم يطرأ على أوزان الشعر العربى حَدَثٌ غيرُ ما عُرِف عنهُ فى الجاهلية ، وإنما شاع فى هذا العصر نظم الأراجيز والتطويل فيها واستعمالها فى جميع أغراض القصيد حتى فى افتتاحها بالنسيب والتخلص منه إلى المدح والذم ونحو ذلك

نماذج من الشعر فى الأغراض الآتية

١ – الحماسة – قال قَطَرِىُّ بن الفُجاءة

أقول لهـا وقد طارت شعَاعا من الأبطال ويحكِ لن تُراعى[٢]
فإنكِ لو سألتِ بقـاء يوم على الأجل الذى لك لم تُطاعى

---

(١) مثل عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة وكثير عزة
(٢) الشعاع المتفرق — وتراعى من الروع وهو الفزع

فصبراً فى مجال الموت صبراً　　فما نَيْلُ الخلود بمُستطاع
ولا ثوبُ البقاء بثوب عزٍّ　　فيُطْوَى عن أخى الخَنَع(١) اليَرَاع(٢)
سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حَىّ　　فداعيهِ لأهل الأرض داع
ومن لا يُعْتَبَطْ(٣) يسأمْ ويهرَمْ　　وتُسْلِمْهُ المَنونُ إلى انقطاع
وما للمرءِ خيرٌ فى حياةٍ　　إذا ما عُدَّ من سَقَطِ(٤) المتاع

وقال ربيعة بن مَقروم الضّبّى :

ولقد شهدت الخيل يوم طِرادها(٥)　　بسليم أَوْظِفة(٦) القوائم هَيْكل(٧)
فدعَوْا نَزالِ ، فكنت أول نازلٍ　　وعلام أَرْكَبُه إذا لم أنزلِ ؟
وألَدَّ(٨) ذى حَنَقٍ(٩) علىَّ كأنما　　تَغْلى عَدَاوةُ صدره فى مِرْجَل(١٠)
أوجَبْتُه(١١) عنى فأبصر قصده　　وكويته فوق النواظر من علِ

٢ – المدح – قال أبو دَهْبَلٍ الجُمَحىُّ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إن البيوتَ معادِنٌ فنِجارُهُ(١٢)　　ذهبٌ وكلُّ بيوته ضخْمُ
عقِمَ النساء فما يَلِدْن شبيهه(١٣)　　إن النساء بمثله عقم
متهلّل(١٤) بنعَمْ بلا مُتباعدٌ　　سِيَّان منهُ الوَفْر والعُدْم
نزْرُ الكلام من الحياء تخاله　　ضَمِناً(١٥) وليس بجسمه سُقم

وقال الحطيئة يمدح بغيض بن لأى

تزُورُ(١٦) امرأً يُؤْتِى على الحمد مالَه　　ومن يؤتِ أثمانَ المحامدِ يُحْمَدِ
يرى البخلَ لا يُبْقِى على المرء مالَه　　ويعلم أن البخلَ غيرُ مُخلَّدِ

---

(١) الذل (٢) الجبان (٣) يمت من غير علة (٤) سقط المتاع رديئه
(٥) طراد الفرسان حمل بعضهم على بعض (٦) جمع وظيف وهو ما فوق الحافر من الفرس (٧) ضخم (٨) شديد الخصومة (٩) غيظ شديد (١٠) قدر من حجارة أو نحاس (١١) قهرته وأذللته (١٢) أصله
(١٣) منعن عن أن يأتين بمثله (١٤) أى يجيب وهو مستبشر بلفظ (نعم) عند ما يسأل ويبتعد عن لفظ (لا) كناية عن كرمه (١٥) سقيما (١٦) الضمير يعود على الناقة

كَسُوب ومِتلاف اذا ما سألته تهلَّل فاهتز اهتزازَ المهنّدِ
متى تأته تَعْشو(١) إلى ضوء ناره تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقدِ

ومن جيد مدح الأخطل فى بنى أمية :

حُشْدٌ(٢) على الحق عُيّاف الخنا أُنُف(٣) إذا ألمَّتْ بهم مكروهةٌ صبروا
شُمْسٌ(٤) العداوة حتى يُستقاد(٥) لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

٣ – الرثاء – قال عبدة بن الطبيب يرثى قيسَ بن عاصمٍ المِنْقَرىّ :

عليكَ سلامُ الله قيسَ بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحّما
تحية من غادرْتَه غَرَضٍ(٦) الرّدى اذا زار عن شَحْطٍ(٧) بلادكَ سلّما
فما كان قيْسٌ هُلكه هلك واحد ولكنّه بُنْيانُ قوم تَهدما

وقال حارثة بن بَدْر الغُدانى يرثى زياداً ابن أبيه :

صلّى الألهُ على قبْرٍ وطَهّرَهُ عِنْدَ الثّوِيّةِ يُسْفَى فَوْقَه المُور(٨)
زَفّتْ إليه قُرَيْشٌ نَعش سَيّدها فثمّ كُلُّ التُّقَى والبرّ مَقْبُورُ
أَبَا المُغيرَة (والدُّنْيا مفَجّعَةٌ) وَإنَّ مَنْ غرّتِ الدنيا لمَغْرُورُ
قد كانَ عِندكَ بالمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ وكانَ عِنْدكَ للنّكْراء تَنْكيرُ
وكُنْتَ تُغْشى وتُعْطى المال من سعةٍ إنْ كان بَيْتُك أضْحَى وهو مَهْجُورُ
ولا تلينُ إذا عوسِرْتَ معسرةً وكُل أمركَ ما يوسِرت ميْسُورُ
فالحمدُ زادُكَ لم تلْحَقْكَ بائِرة وأنتَ فى صالحِ الأقوامِ مذكورُ
لو خلّدَ الخيرُ والإسلامُ ذا قِدمٍ إذاً لخلّدك الإسلامُ والخيرُ

(١) تقصد (٢) إذا دعوا أجابوا مسرعين (٣) جمع أنوف مبالغة من أنف بمعنى استنكف (٤) جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق وشمس الفرس منع ظهره
(٥) استقدت الأمير من القاتل فاقادنى منه أى قتله (٦) تركته هدفا للهلاك ويروى عرض بالعين المهملة (٧) أى بعد ونأى (٨) الثوية مكان بالكوفة والمور التراب

لم يعرفِ الناسُ مُذْ كُفِّنْتَ سيدَهم ولم يُجَلِّ ظلاماً عنــدهم نورُ
الناسُ بعدَكَ قد خَفَّتْ حُلومُهُمُ كأنما نَفَخَتْ فيهــا الأعاصيرُ

٤ – الهجاء – قال قَعْنَبُ بن ضَمْرَة :

إن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفَنُوا
صمٌّ إذا سمِعوا خيراً ذُكرتُ به وان ذُكرتُ بشرٍّ عندهم أذِنوا
جهلاً علينــا وجبناً عن عدوِّهمُ لبئستِ الخَلَّتان : الجهل والجُبن

وقال عبد الرحمن بن الحكم :

لحا الله قيساً قيسَ عَيلان إنها أضاعت ثغورَ المسلمين وولّتِ
فشاول[١] بقيس فى الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية[٢] سُلّتِ

وقال جوَّاس بن القعْطَلِ الكلبيُّ :

صبغت أميــة بالدماء رماحنا وطوت أميــة دوننا دنْياها
أأُميَّ رُبَّ كتيبة مجهولة صِيدِ[٣] الكماة عليكُم دعواها
كنا ولاة طِعانها وضِرابهــا حتّى تجلّت عنكم غمَّاها
فالله يجزى لا أميــة سعينا وعلاً شــددنا بالرماح عراها
جئتم من الحُجُز البعيد نياطه والشام تُنكِر كهلها وفتاها
إذْ أقبلت قيس كأن عيونها حدق الكلاب وأظهرت سيماها

٥ – الاعتذار :

وقال الحطيئة يعتذر الى عمر بن الخطاب من ذمه الزبرقان بن بدر :

أتتنى لسان فكذبتها وما كنت أرهبها أن تقالا

(١) شال به وشاول رفعه أى ارفعها من عداد الطاعنين لجبنها
(٢) المشرفية السيوف تنسب الى مشارف الشام أى القرى التى تشرف عليه من بلاد العرب
(٣) أى أن كماتها صيد جمع أصيد وهو الأسد أو الرافع رأسه كبراً

بأنّ الوُشاةَ بلا حُرمةٍ أتَوك فراموا لديك المحالا
فجئتُك معتــذِراً راجياً لعفوك أرهبُ منك النَّكالا
فلا تسمَعَنْ بى مَقالَ العِدا ولا تُؤْكِلَنّى (هدِيتَ) الرّجالا
فانك خيرٌ مِن الزِّبرقانِ أشدُّ نكالا وخيرٌ نوالا

وقال الكُمَيتُ يعتذر الى هشام بن عبد الملك :

كم قال قائلكم لَعاً[1] لك عنــد عثرته لعاثرْ
وغفرتُمُ لذوى الذنو ب من الأكابر والأصاغرْ
أبنِى أميَّــة إنكم أهل الوسائل والأوامرْ
ثقتى لكل مُلِمَّــة وعشيرتى دون العشائرْ
أنتم معادن للخلا فة كابراً من بعد كابرْ
بالتسعة المتابعيـــن خلائفاً وبخير عاشرْ
وإلى القيــامة لا تزا ل[2] لشافع منكم وواترْ

٦ — الوصف — قال أبو عثمان الهذلى يصف المسلمين و بلاءهم فى فتح مكة وقد لامتْه امرأته على الهزيمة التى كانت منهم عند ما دخلها عليهم خالد بن الوليد من جبل الخندمة :

انكِ لو شهدْتِ يوم الخَندمهْ إذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عِكرِمهْ
ولحِقَتْنا بالسيوف المُسْلِمهْ يَفْلِقْن كلَّ ساعد وجُمجمهْ
ضرباً ولا تسمع إلاَّ غمغَمهْ[4] لهم نهيتٌ[5] حولنا وحَمحَمهْ[6]
لم تنطق فى اللّوم أدنى كلِمهْ

---

(١) لعا لك كلمة دعاء تقال للعاثر بمعنى أقال الله عثرتك
(٢) أى لا تزال الخلافة فيكم
(٣) الخندمة جبل بمكة (٤) الغمغمة أصوات الابطال عند القتال
(٥) النهيت الزئير والزحير (٦) الحمحمة خفاء الكلام وعدم بيانه

وقال النابغة الجعدي يصف ذئباً افترس جُؤْذَرا :

فبات يُذَكِّيه(١) بغير حديدةٍ ... أخو قَنَص يُمسى ويُصبح مفطرا
إذا ما رأى منه كُراعا تحرّكت ... أصاب مكان القلب منه وفَرفَرا(٢)

وقال أبو زبيد الطائى يصف حال الحيوان عند اشتداد الهجير :

ليت شعرى وأينَ منّى ليتٌ ... انّ ليتاً وانَّ لوّاً عناء
أىُّ ساعٍ سعى ليقطع شُربى ... حين لاحت للصابح الجوزاء(٣)
واستظل العصفور كرها مع الضب ... م وأذكت نيرانَهــا المَعزاء(٤)
ونفى الجُنْدَب الحصى بكراعيـــه ... وأوفى فى عوده الحرباء(٥)

وقال حصين بن معاوية الراعى يصف بيضة نعام حضنها ظليم بالليل وتركها عند طلوع الشمس ينتفض :

وما بيضة بات الظليمُ يحفُّها ... بوعساء أعلى تُربها قد تلبّدا(٦)
فلما علته الشمس فى يوم طلقةٍ ... وأشرف مُكّاء الضحى فتغردا(٧)
أراد قياماً فازبأرّ عِفاؤه ... وحرّك أعلى جيده فتأوّدا(٨)
وهز جناحيه فساقط جيدُه ... فَراشا وهَى عن متنه فتبدّدا
فغادر فى الأدحىّ صفراء تَرْكَة ... هِجانا اذا ما الشرق فيها توقدا(٩)
بألين مسًّا من سغاد للامس ... وأحسن منها حين تُبدى مجرّدًا

٧ — الحكم والأمثال — قال سيدنا كعب بن زهير :

لو كنت أعجَبُ من شىء لأعجبنى ... سعىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدَر

(١) يذبحه (٢) قطع ومزق (٣) تطلع الجوزاء فى الصيف
(٤) المعزاء الارض ذات الحصى والحجارة من الصوان ونحوه (٥) الجندب نوع من الجراد والحرباء دويبة من الهوام لا تزال تستقبل الشمس برأسها (٦) الوعساء الارض ذات الرمل اللين (٧) الليلة الطلقة التى لا حرّ فيها ولا برد — أى يوم ليلة طلقة — والمكاء طائر فوق العصفور كثير الصفير (٨) العفاء ما كثر من ريش النعام — وازبأر تنفش
(٩) الادحى الاخوص الذى يبيض فيه النعام — والتركة بيضة النعام — والهجان البيضاء

يسعى الفتى لأمور ليس يُدركها والنفس واجدة والهمُّ منتشر
فالمرء ما عاش ممدودٌ له أملٌ لا ينتهي العمر (١) حتى ينتهي الأثر (٢)

وقال أبو الأسود الدُّؤلى :

لا تُهِنى بعد اكرامك لى فشديدٌ عادة مُنتَزَعهْ
لا يكن برقك برقاً خُلَّباً ان خير البرق ما الغيثُ معه

وقال مسكين الدارمى :

اصحب الأخيار وارغب فيهمُ رُبَّ من صاحبتَه مثل الجربْ
واصدق الناس إذا حدثتهم ودع الكذب لمن شاء كذبْ
رب مهزول سمين عِرضه وسمين الجسم مهزولُ الحسب

٨ — الاجتماع والسياسة — قال مسكين الدارمى وقد أوعز اليه معاوية حينما عزم على البيعة ليزيد ولكنه تهيّب ذلك لكثرة المرشّحين ، وكان قد بلغ معاوية ما كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فلما اجتمعوا عنده قال مسكين قصيدة طويلة منها :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ومرْوان أم ماذا يقول سعيد
بنى خلفاء الله مهلاً فانما يبوّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربيُّ خلاّه ربه فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجدُّ صاعد لكل أُناس طائر وجدود
فلا زلتَ أعلى الناس كعباً ولا تزل وفود تساميها اليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً تُشَيَّدُ أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابى وتحتها أثاف كأمثال الرئال ركود

(١) الحياة (٢) الأثر الأجل وسمى به لأنه يأثر العمر ويتبعه

فلما انتهى منها قال معاوية ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله . فلم يتكلم أحد بغير الموافقة

وقال كعب بن جعيل شاعر أهل الشام وتمثل به معاوية فى ردّه على كتاب لعلى

أرى الشام تكره مُلْكَ العراق — وأهل العراق له كارهينا
وكلاً لصاحبه مبغضاً — يرى كلّ ما كان من ذاك دينا
اذا ما رُمينا رميناهُمُ — ودِنَّاهُمُ مثل ما يُقرضونا
فقالوا علىٌّ امام لنا — فقلنا رضينا ابنَ هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا له — فقلنا ألا لا نرى أن نَدِينا
ومن دون ذلك خرط القَتَاد — وضرب وطعن يفُضّ الشئونا

وفى رد علىّ عليه ذكر شعراً للنجاشى أحد بنى الحارث بن كعب من شعراء أهل العراق ، ومنه :

دعًا يا معاوى ما لن يكونا — فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العراق — وأهل الحجاز فما تصنعونا

الشعراء

شعراء هذا العصر ممن خَلَصت عربيتهم واستقامت ألسنتهم ، ولم يمتد اليهم اللحن . ولقد زادتهم مدارسة القرآن الكريم فصاحة وبلاغة ، وإحكامًا وإتقانًا ، حتّى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهليين ، ولذلك لم ير العلماء بدًّا من الاحتجاج بشعرهم ، بل بشعر بعض المخضرمين ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كابن هَرْمة[1] وبشار

ومن أشهر شعراء هذا العصر كعب بن زهير ، والخنساء ، والحُطَيْئة ،

(١) هو أبو اسحق ابراهيم آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم وكان مولعاً بالشراب منقطعاً للطالبين ، توفى فى خلافة الرشيد

وحسّان بن ثابت ، والنابغة الجَعْدِى ، وعمرو بن معد يكرب من المخضرمين[١] وعُمَر بن أبى ربيعة ، والأخطل والفرزدق وجرير ، والكميت ، وجميل ، وكُثيّر ونُصيْب ، والراعى ، وذو الرُّمة من الاسلاميين

تكسب الشعراء بالشعر

كانت غاية المادحين من قدماء الشعراء فى الجاهلية إما شكرَ الممدوح على حسن صنيعه ، وإما التباهى بمناقبه والافتخار بالانتماء إليه ، وإما التّذَرّع إلى الاستنجاد به ونحو ذلك لا طمعاً فى قَنْص ماله واستجداء لمعروفه ، حتى نشأ فيهم مَنْ قَبِل الثواب على المدح بلا مسألة له : كزُهَير ، ثم مَنْ قَبِله من الملوك خاصة بعد التعرُّض لهم أو التعريض بسؤالهم كالنابغة وأميَّة ، ثم مَنْ قَبِله من الملوك والسوقة والعرب والعجم بعد مسألتهم : كالأعشى ؛ ثم من ألحَفَ فى السؤال وضرع ، وتوعد بالهجاء من مَنَع : كالحطيئة ؛ فأصبح الشعرُ مِهنة كَسْبٍ يمقُتُها الأشرافُ ويُؤْثرون عليها الخطابة فى بيان مقاصدهم

وجاء الاسلامُ وقد ألفَ الناسُ المدح والاثابةَ عليه فأثاب النبى صلى الله عليه وسلم كعبَ بن زهير وغيره . ولم يعدِل الخلفاء الراشدون عن سننه فيهما . وانما كان ذلك منهم بمثابة اهداء أو تكريم أو أداء حق لابن سبيل ، لا اغراء منهم بكسل أو اذلال نفس ، أو اسقاط مروءة ، قال عمرو بن الخطاب « نعم ما تعلمته العرب : الأبياتُ من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته »

فلما قامت الدولةُ الأموية بسياسة القهر والحيلة لم تجدْ بدًّا من اشتراء ألسنة الشعراء بالمـال تتقى به هجاءهم وتستأثر بمدحهم ، وتتخذُ منهم أبواقاً تستنفرُ بها الناسَ للذود عنها ، وتحشُدُهم على دعوتها ، وتحرّشُ بعضهم ببعض ليلهو عن التعرض لسياستها والنعى على استبدادها وأثرتها ، كما تفعله أرباب الدولة والأحزاب من شراء الصحف الكبرى فى زماننا ؛ فكان من شعر جرير والفرزدق والأخطل

---

(١) من معانى المخضرم الاسود الذى أبوه أبيض ولعل تسمية الشاعر الذى أدرك الجاهلية والاسلام أخذ من هذا

والكميت وغيرهم معرِضٌ لتهارُش الشعراء ، ومظهرٌ لدَهاء الخلفاء مع ما يستتبعه ذلك من نشر اللغة ، وترفيه الأدب وهما من أقوى عُدد العرب السياسية ولذلك صار الشعر فى هـذا العصر مَتْجَراً رابحاً ، وزاحم الشعراءُ العلماء والقوادَ فى مجالس الخلفاء وأصبحوا بعطاياهم فى عداد الأغنياء ، وسارت صناعة الشعر على هذا الدرب هذا العصْرَ وعصْرَ الدولة العباسية

على أن الشعر لم يَعْدَمْ فى كلّ زمان ومكان من يَرْبأُ به عن السؤال ويقوله فى تأييد مذهب ، أو ترويح خاطر ، أو شكوى غرام ، كجميل بن عبد الله بن معمر وعمر بن أبى ربيعة من شعراء هذا العصر

١ — كعب بن زُهير

هو كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى أحد فحول المخضرمين وصاحب « بانت سعاد » فى مدح النبى الأمين

وهو ابن زهير صاحب المعلقة . قال الشعرَ فى حداثته فكان والده ينهاه عنه مخافة أن يقول ما لاخير فيه فيُروَى عنهُ فيلزمه عاره الدهرَ. فلم ينته ؛ فآذاه فلم يرتدع، فامتحنه امتحاناً شديداً فكان يقول على البديهة ما يحبُّ زهير فأجازه له فمضى ونبغ فيه حتى كان من فحول عصره

ولما ظهر الاسلام ذهب أخوه بُجَيْر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم ، فغضب كعب لإسلامه ، ونهاه عن الإسلام وهجاه وهجا رسول الله وأصحابه ، فتوعده النبى صلى الله عليه وسلم وأهدر دمه ، فحذّره أخوه العاقبة الاَّ أن يجيء إلى النبى مسْلماً تائباً ، فهام كعب يترامى على القبائل أن تُجيرَهُ فلم يُجِرْهُ أحد ، وأرْجَف الناسُ أنه مقتول لا محالة . فلما ضاقت الأرض فى وجهه جاء أبا بكر رضى الله عنه بالمدينة وتوسَّلَ به إلى الرسول فأقبل به عليه فعاذ به وآمن ، وأنشد قصيدته المشهورة يمدحه بها وهى من جيد شعره ، ومطلعها :

بانَت(١) سُعادُ فقلبى اليوم متبول(٢) متيَّمٌ(٣) إثرَها لم يُفْدَ مكبول(٤)

(١) فارقت (٢) تبله الحب أسقمه وأضناه (٣) معبد ومذلل (٤) مقيد

فخلع عليه النبى بردته فبقيت فى أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفاً

*
* *

شعره – كان كعب من الشعراء المُجيدين المشهورين بالسبق وعُلوّ الكعب فى الشعر ، وكان خلفٌ الأحمر أحدُ علماء الشعر يقول لولا قصائدُ لزهير ما فضّلته على ابنه كعب ، وكفاه فضلاً أن الحطيئة مع ذائع شهرته رجاه أن ينوّه به فى شعره فقال :

فمن للقوافى شانَها من يحُوكُها(١) إذا ما مضى كعب وفوّزَ جَرْوَلُ(٢)

وكان يكثر من غريب الألفاظ على جَودة فى الوصف وسهولة فى العبارة فى بعض المواضع وصعوبة فى بعضها الآخر

ومن شعره قوله فى قصيدته بانت سعاد :

وقال كل خليل كنت آمُلهُ لا أُلهِينَّك انى عنك مشغول
فقلت خلُّوا سبيلى « لا أبالكُمُ » فكل ما قدَّر الرَّحمنُ مفعول
كل ابن انثى وان طالت سلامته يوماً على آلةٍ حَدْباءَ(٣) محمول
أُنبِئْتُ أن رسول الله أوعدنى والعفو عنـد رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة(٤) الـ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل
لا تأخذنّى بأقوال الوشاة ولم أُذْنِب وقد كثرت فىّ الأقاويل

ومن قوله أيضاً :

ان كنت لا ترهب ذمّى لما تعرِف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى إذ أنا مُنْصِت فيك لمسْموع خنا(٥) القائل
فالسامع الذمّ شريكٌ له ومُطْعِمُ المأكول كالآكل

(١) شان ضد زان ، وحاك الثوب نسجه والقصيدة نظمها (٢) فوّزمات وجرول اسم الحطيئة الشاعر (٣) يريد النعش ، وقيل الآلة الحالة والحدباء العصبة الشديدة
(٤) كل عطية تبرع بها معطيها (٥) فحش

مقالة السوء الى أهلها أسرعُ من منحدرٍ سائل
ومن دعا النـاس إلى ذمّه ذمُّوهُ بالحق وبالباطل

٢ — عمرو بن معدِ يكرب الزُّبيدى

هو أبو ثَوْر عمرُو بن معد يكرب الزبيدىّ المَذْحِجِىّ، فارس اليمانين، وأحد الشعراء المعمَّرين. والخطباء الموفَدِين

منشؤه وصفاته — نشأ عمرُو بين قومه مُحَمَّقاً أكولاً لا يؤمَّلُ منه خير، ولا تُلْحَظُ فيه سيادة، على ضخامة فى جُثة، وجهارة فى صوتٍ، حتى بلغ زبيداً أن خَثعَمَ ستشُن الغارة عليهم، فتأهبوا، ودخل عمرو على أخته، فقال أشبعينى، ان غداً الكتيبة، فأخبرت أباه. فقال: سلى هذا المائق ما يشبعه، فأكل عنزاً بثلاثة آصع ذرة، وأتتهم خثعم فتبلَّدَ حتى رأى لواء أبيه مال وانهزمت زُبيد، فثار وكر على خثعم. وتراجع اليه قومه فهزموا الأعداء. فأصبح يسمَّى فارس زُبيد، بعد أن كان يسمى مائق زُبيد. واشتهر بالشجاعة حتى هابته أبطال العرب، وضرب به المثل فى الشجاعة، وفى ذلك يقول أبو تمام:

إقدام عمرٍ، فى سماحة حاتم، فى حلم أحنفَ فى ذكاء إياس

ومع ذلك قد يصدق عن نفسه بأنها ربما حدثته بالخوف والفِرار، فيأخذها بصدق العزيمة والأنَفَة من العار، فيثبت فيكون له الفوز والغلب، وهذا معنى قولهم (الشجاعة، صبر ساعة) وفى شجاعته يقول عن نفسه: لو سرت بظعينة وحدى على مياه معدّ كلها ما خفت أن أغلَبَ عليها ما لم يلقنى حُرَّاها أو عَبـداها، فأما الحران: فعامر بن الطُفَيْل، وعُيَيْنَة بن الحارث بن شهاب، وأما العبدان: فأسود بنى عبس (يعنى عنترة) والسُّليك بن السُّلَكة، وكلهم قد لقيت. على أنه مع طول تعميره فى الجاهلية والاسلام وحضوره الوقائع الكثيرة أخلفه الظفر فى عدة مواطن فقهره ربيعة بن مُكَدَّم فى الجاهلية وخالد بن سعيد بن العاص فى الاسلام

ولما فشا الاسلام فى قبائل العرب وفد مع بعض قومه على رسول الله مُنْصرفَه

من وقعة تبوك سنة تسع من الهجرة ، فأسلم ثم رجع إلى قومه ، فلما ارتدت العرب كان ممن ارتد فسار اليه خالد بن سعيد بن العاص فقاتله فانهزم وأخذ خالد صمصامته . ولما رأى أمداد أبي بكر تتوالى على المسلمين دخل على المهاجر (أحد قواد جيش المسلمين) بغير أمان فأوثقه وبعث به إلى أبي بكر ، فقال له أبو بكر : أما تستحى تجيء كل يوم مهزوماً أو مأسوراً . لو عززت هذا الدين لرفعك الله . قال لا جرم لأقبلنَّ ولا أعود فأطلقه وعاد إلى قومه ثم عاد إلى المدينة فبعثهُ أبو بكر إلى الشام ، فشهد يوم اليَرموك وأبلَى فيــه بلاءً حسناً وذهبت فيه احدى عينيه ، ثم بعث به عمر رضى الله عنه إلى العراق فشهد القادسية وهو الذى ضرب خرطوم الفيل بالسيف وكان ذلك من أسباب الفتح . ثم لمـا مُصِّرت الكوفة أقام بها حتى كانت وقعة نهاوند فحضرها تحت لواء النعمان بن مُقرِّن . ومات بها سنة احدى وعشرين على خلاف فى ذلك

ويُعدّ عمرو من الشعراء المخضرمين ، ويأتى شعره فى الطبقة الثانية من الجودة ويغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة ، وله ديوان شعر شرحه بعض أئمة اللغة ، وهو أحد الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى

ومن شعره قوله فى صدقه عن نفسه فى الحرب :

ولمـا رأيت الخيلَ زُوراً كأنها ... جداولِ زرع أرسِلت فاسبَطرَّت
فجاشت إلىَّ النفسُ أوّل مرة ... فرُدَّت على مكروهها فاستقرت
علامَ تقُولُ الرُّمح يثْقل عاتقى ... إذا أنا لم أطعنْ إذا الخيلُ كرَّت

ومن قوله أيضاً :

أمِن ريحانةَ الدَّاعى السَّميعُ ... يؤرِّقنى وأصحابى هُجُوعُ
أشابَ الرأس أيامٌ طوالٌ ... وهمٌّ ما تضمَّنهُ الضلوع
وسوق كتيبةٍ دَلفتْ لأخرى ... كأنّ نهـارها رأس صَليع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع
وصِله بالزَّماع (١) فكل أمر ... سَما لك أو سموت له وَلُوع

(١) المضاء فى الامر والعزوم عليه

وقوله :

كم من أخٍ لى صالحٍ بوَّأته بيدَىَّ لحْدا
ما إن جَزِعتُ ولاهَلَعْـــت ولا يَرُدبكاى رُشدا
ذهَبَ الذين أحِبُّهم وبَقيتُ مثل السيفِ فَرْدا

ومن خطبه خطبته التى قالها أمام كسرى وهى على ما فى العقد الفريد :

انما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق السداد ، ومِلاك النُّجعة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة . فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يسلَس لك قيادنا ، فانا أناس لم يُوقِس[١] صفَاتَنا قراعُ مناقيرِ من أراد لنا قضماً ؛ ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضماً

٣ — الخنساء

هى السيدة تُماضِرُ الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد السُّلَمِيَّة ، أرثى شواعر العرب وأحزن من بكى وندب

كان أبوها عمرو وأخواها : معاوية وصخر سادات بنى سُليم من مضر ، وكانت هى من أجمل نساء زمانها ، فخطبها دُرَيد بن الصِّمة فارس جُشَم ، فرغبت عنه ، وآثرت التزوجَ فى قومها فتزوَّجت منهم

وكانت تقول المقطّعات من الشعر . فلما قتل شقيقها معاوية ثم أخوها لأبيها صخر ، جزعت عليهما جَزَعاً شديداً وبكتهما بكاء مرًّا ، وكان أشدُّ وجدها على صخر ، لأنه شاطَرَها هى وزوجها أمواله مراراً ، فهاج حزنُها الشعر فى نفسها ، فقالت المراثى المطوَّلات ، وفاقت النساء والرجال فيها . وأطالت عليهما البكاء والعويلَ حتى تقرحت مآقيها ، وحتى ضرب بها المثل فى الحزن والبكاء وكثرة الرثاء . وجاء الاسلام فوفدت مع قومها على النبى صلى الله عليه وسلم وأسلمت ، وكان يُعْجِبُهُ شعرها ويستنشدها ، ويقول هيهِ يا خُناس ؛ ويُومئ بيده

(١) من أوقست الابل : أصيبت بالجرب . والصفاة الصخرة الملساء أى لم يضرنا أعداؤنا

وما فتِئَتْ تبكى صخراً قبل الاسلام و بعده حتى عَمِيت . و بقيت الى أن شهدت حربَ القادسية[١] مع أولادها الأر بعة ، فأوصتهم وصيتها المشهورة ، وحضتهم على الصبر عند الزحف فقُتِلوا جميعاً . فقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، ولم تحزن عليهم حزنها على أخويها ، وتوفيت بالبادية فى خلافة معاو ية

شعرها — أغلب علماء الشعر على أنه لم تكن امرأةٌ قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضَّل ليلى الأخيلية عليها لم ينكر أنها أرقُ النساء . وكان بشارٌ يقول لم تقل امرأة شعراً ألاّ ظهر الضعف فيــه ، فقيل له وكذلك الخنساء ، فقال تلك غلبت الفحول

ولم يكن شأنُها عند شعراء الجاهلية أقل منه عند شعراء الاسلام فذلك النابغة الذبيانى يقول لها وقد أنشدته بسوق عُـكاظ قصيدتها التى مطلعها :

قذًى بعينيك أم بالعين عُوّارُ[٢] أم ذَرَّفت[٣] إذ خلت من أهلها الدار

لولا أن أبا بصير (يعنى الأعشى) أنشدنى قبلكِ لقلتُ إنكِ أشعر من بالسوق

ولشعر الخنساء رَنين فى السمع ، وهِزَّة فى القلب ، ووقع فى النفس : لأنه صادر من فؤاد محزون ، وما خرج من القلب حل فى القلب ، وكان فوق ذلك ليِّن اللفظ ، سهلَ الأسلوب ، حسن الديباجة

وسئل جرير مَن أشعر الناس قال أنا لولا الخنساء ، قيل فبمَ فضلتك قال بقولهــا :

إنّ الزمان (وما يفنى له عَجَبٌ) أبقى لنا ذنَباً واستؤصِل الراس
إن الجَدِيدين[٤] فى طول اختلافهما لاَ يَفْسُدان ولكن يفسُد الناس

---

(١) وقعة عظيمة كانت بين العرب والفرس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أبى وقاص انتصاراً باهراً

(٢) مرض (٣) قطرت دمعاً (٤) الليل والنهار

ومن جيد شعرها ترثى أخاها صخراً :

يذكِّرُنى طلوعُ الشمس صخراً — وأذكره لكل غروب شمس (١)
فلولا كثرة الباكين حَوْلى — على إخوانهم لقتلت نفسى
ولكن لا أزال أرى عَجُولاً (٢) — ونائحةً تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكى أخاها — عشيةَ رُزْئه أو غبَّ أمس
وما يبْكين مثل أخى ولكن — أُسَلِّى النفس عنه بالتأسى (٣)
فقد ودَّعتُ يوم فِراق صخر — أبى حسانَ (٤) لذَّاتى وأنسى
فيا لهفى عليه ولهفَ أُمى — أيصبح فى الضريح وفيه يُمسى

ومن قصيدتها التى تقدم مطلعها :

وإنَّ صخراً لَكافينا وسيدُنا — وان صخراً إذا نَشْتُو لنحَّار
أغرُّ (٥) أبلجُ (٦) تأتم الهداة به — كأنه عَلم (٧) فى رأسه نار
حمَّال ألْوية ، هَبَّاطُ أودية — شهَّادُ أندية ، للجيش جرَّار

ومن قولها ترثيه أيضاً :

ألا يا صخر إن أبكيت عينى — فقد أضحكتنى زمناً طويلا
دفعتُ بك الخطوب وأنت حىٌّ — فمن ذا يدفع الخطب (٨) الجليلا
إذا قبح البكاء على قتيل — رأيت بكاءك الحَسَنَ الجميلا

٤ — حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصارى شاعرُ رسول الله وأشعر أهل المدَر وفحل شعراء المخضرمين ، وهو من بنى النجار من أهل المدينة

نشأ فى الجاهلية ونَبهُ شأنه فيها إذ أدرك فحولها فلم يقصِّر عن اللحاق بهم .

---

(١) يعنى أنها تذكره أول النهار للغارة وآخره للاضياف (٢) العجول المرأة الثكلى
(٣) والاقتداء (٤) كنية صخر (٥) مشهور (٦) واضح (٧) جبل
(٨) الأمر الشديد ينزل

بل بذَّ[١] الكثير منهم . وكان يمدح الملوك والمناذرة والغساسنة فى الجاهلية ، ويرحل إليهم فينال منهم جزيل العطايا . وأكثر من كان يمدحهم ويكثِر إنتجاعهم آل جَفنة من ملوك غسّان لما بين أهل يثرب[٢] والغساسنة من صلة النسب وقرْب الجوار فكان لهم من جوائزهم مدد لا ينقطع ، حتى ناله منهم شىء بعد أن أسلم وتنصروا

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأسلم الأنصار ، أسلم معهم ودافع عنه بلسانه كما دافع عنه قومه الأنصار بسيوفهم ، فكان لقوله من النِكاية فى قريش وأعداء النبى أحسن بلاء وأحمد أثر

وعاش حسان بعد رسول الله مُحبَّباً الى خلفائه مرضياً عنه ، يفُرض له العطاء الكافى من بيت المال وعُمِّر قريباً من ١٢٠ سنة وبقى أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، ووهن فى أواخر عمره وكفَّ بصره . ومات فى خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ

*

* *

شعره — كان حسان شاعر أهلْ المدر فى الجاهلية ، وشاعر اليمانية فى الاسلام ، ولم يكن فى أصحاب رسول الله ولا فى أعدائه عند دعوته الى الله أشعر منه ، ولذلك رمى مشركى قريش من لسانه بالداهية التى لم يكن لهم قِبَلٌ بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فُحش ولا هُجر . ولما أذن له النبى فى هجائهم ، قال له : كيف تهجوهم وأنا منهم قال : أسلُّكَ منهم كما تُسلُّ الشعرة من العجين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينصِب له منبراً بالمسجد ويسمعُ هجاءه فى أعدائه ويقول (أجبْ عنى اللهمَّ أيده بروح القدُس) وكان فى شعر حسان زمن الجاهلية شدّةٌ وغرابةُ لفظ ووُعورة مسلَك ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه وكثُرَ ارتجاله الشعر لكثرة الحوادث التى تستدعى ذلك لاَنَ شعره وسهل أسلوبه ، ودَمِثَتُ معانيه حتى ظن بعض أئمة الشّعر أن شعره فى الاسلام أضعفُ منه فى الجاهلية ، محتجًا بأن الشعر لا يقوى إلاّ فى باب الشر الذى يحظُره الاسلام ، وربما كان لتعليله هذا وكبر سنّ حسان وكثرة ارتجاله أثرٌ فى بعض شعره

---

(١) فاق وغلب (٢) المدينة المنورة

ويغلب على شعره بعد المدح والهجاء (١) الفخر بنفسه وبقومه

ومن شعره فى الجاهلية

ولقد تُقَلِّدُنا العشيرة أمرها ونسود يوم النائبات ونعتلى
ويسودُ سيدُنا جحاجح (٢) سادة ويصيب قائلُنا سواء (٣) المَفصِلِ
ونحاول الأمرَ المهمَّ خَطَابةً فيهم ونفصِل كل أمرٍ مُعضلِ
وتزور أبواب الملوك ركابُنا ومتى نُحَكمْ فى البرية نعدلِ

ومن شعره فى الاسلام يفاخر وفد تميم بقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن الذوائب (٤) من فِهرٍ (٥) واخوتهم قد بينوا سُنَنًا للناس تُتَّبَعُ
يرضى بها كل من كانت سريرته تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوّهمُ أو حاولوا النفع فى أشياعهم (٦) نفعوا
سجية تلك فيهمْ غيرُ مُحْدَثَةٍ إن الخلائق (٧) (فاعلم) شرُّها البِدَعُ (٨)
لا يَرْفَعُ الناسُ ما أوهت أكفهمُ (٩) عندَ الدِّفاع ولا يُوهون ما رَقَعُوا
إن كان فى الناس سبّاقون بعدهمُ فكل سبْق لأدْنى سَبْقهم تبعُ

وقال يهجو :

أبوكَ أبٌ حرّ وأمك حرّة وقد يلد الحُرّان غيرَ نجيب
فلا يعجبَنَّ الناس منك ومنهما فما خبَثٌ من فضة بعجيب

---

(١) طلب الحارث بن عوف من النبي أن يبعث معه من يدعوهم للدين على أن يكون جاراً له فكان ذلك ، ثم غدر بالحارث عشيرته فقدم الى الرسول فقال عليه السلام اين حسان فما رأى الحارث حتى قال :

يا حار من يغدر بذمة جاره منكم فان محمداً لم يغدر
وأمانة المرىء حيث لقيته مثل الزجاجة صدعها لم يجبر
إن تغدروا فا لغدر منكم شيمة والغدر ينبت فى أصول السخبر

فقال الحارث أنا عائذ بك يا محمد من شره ، اكففه عنى على أن أؤدى لك دية الخفارة ، فأداها وكانت سبعين ناقة عشراء

(٢) سيد جحجاح مسارع فى المكارم (٣) سواء وسط ، والمفصل كمسجد كل ملتقى عظمين من الجسد ، أى يصيب شاكلة الصواب (٤) السادة (٥) قبيلة من قريش

(٦) اتباعهم وأنصارهم (٧) جمع خليقة وهى الطبيعة (٨) المستحدث من الاخلاق لا ما هو متأصل فى النفوس (٩) يرقع يصلح . أوهت : أفسدت وأضعفت

ومن أبياته السائرة قوله :

وإنَّ امرأً يُمسِى ويُصبح سالمًا من الناس الاَّ ما جنى لسعيد(١)

رُبَّ حلمٍ أضاعه عدم المـا ل وجهلٍ غطى عليـه النعيم

فلو كان مجد يُخلِد الدهرَ واحداً من الناس أبقى مجدُه الدهرَ مُطعِمًا(٢)

٥ ــ الحُطَيْئة

هو أبو مُلَيكة جَرْولُ الحطيئة العبسىُّ الشاعر المشهور ، أحـد كبار الهجائين المدّاحين المجيدين . وكانت أمه فى بيت رجل من عبس فجاءت منه بالحطيئة ، ولكن نسبه لم يثبت صريحًا منه . ولذلك نشأ معلول النسب ، وضيع الشرف ، حاقداً على أمه وأبيه ، متبرمًا بالناس(٣) فلم يشف غلته من الجميع إلاّ بتعلمه الشعر وهجائهم جميعًا ؛ فهجا أمه(٤) وأباه وذوى قرابته وقومه(٥) وزوجته(٦) ، بل هجا نفسه(٧) ؛ ونشأ كما قال الأصمعى جَشِعًا . سئولاً ، مُلحِفًا ، دنىء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً ، قبيح المنظر ، رثَّ الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين . وعاش الحطيئة مدة فى الجاهلية وجاء الإسلام فأسلم ، ولم يكن له صحبة برسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم عاش متنقلاً فى القبائل يمدح هذه تارة ويذم تلك أخرى ، وينتسب الى عبس طوراً وطوراً الى ذُهْل ، ويهجو اليوم من يمدحه بالأمس ، وكل قبيلة تخطب وُدَّه وتتقى شر لسانه

وقد هجا الزبرقانَ بن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب على الصدقات ، وكان قد أنزل الحطيئة بجواره وأحسن اليه ؛ فاستماله بَغِيض أحد بنى أنف

---

(١) أى أن السعيد من الناس من سلم من ألسنتهم وتقولاتهم ولم يذكروه الا بما فيه

(٢) مطعم بن عدى أحد من قام فى نقض الصحيفة ، مات ولم يسلم وكان قد أجار النبي حين قدم من الطائف الى مكة بعد أن دعا ثقيفاً الى الاسلام (٣) أى لتحديدهم الشرف بحدود وضعوها

(٤) كقوله : جزاك الله شراً من عجوز ولقاك العقوق من البنينا

(٥) كقوله : لحاك الله ثم لحاك حقـا أبا ولحاك من عم وخال

(٦) كقوله : أطوف ما أطوف ثم آوى الى بيت قعيـدته لـكاع

(٧) كقوله : أرى لى وجها شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

الناقة وأنزله عنده ، فمدحه وقومه بالشعر الكثير ، ورفع عنهم عارَ اسمهم ببيته المشهور وهو

قوم همُ الأنف والأذنابُ غيرهمُ ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا

وحمله بغيض على ذم الزبرقان فذمه . فاستعدى عليه الزبرقانُ أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ، فحبس الحطيئة . فما زال يستشفع اليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه ، وهدده بقطع لسانه ان هجا أحداً ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكنه نكث وأوغل فى الهجاء بعد موت عمر . وبقى كذلك حتى مات سنة ٥٩

☆
☆ ☆

شعره

شعره – لولا ما وصم به الحطيئة من خسة النفس ، ودناءة الخلق ، وجهالة النسب ، ورقة الدين والغدر والبخل الشديد ، والاساءة الى من أحسن اليه وسؤاله الرّعاع والسُّوقة طمعاً فى جمع المال من أيّ سبيل – لكان باجادته فى كل ضرب من ضروب الشعر شاعر المخضرمين على الاطلاق ، إلاّ أنهُ لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله ولا للشرف ، ولا للفتوّة والمروءة . ومن الغريب أنه تخرج على زهَير فى الفصاحة والإجادة فى المدح ، وتعلم الشعر والمبالغة فى تجويده وإحكامه بملازمته إياه وروايته عنه ؛ ولم يقتبس عنه حكمته وعفته وحسن خلقه . وقلّما يُوجَد فى كلام الحطيئة مَظِنة ضعف أو مغمَزٌ لغامز : من ركاكة لفظ ، أو غَضاضة معنى ، أو اضطراب قافية .

طائفة من شعره

ومن مدحه الذى لا يلْحق له فيه غبار قوله

يسوسُون أحلاماً[1] بعيداً أناتُها[2] وإن غضبوا جاء الحفيظة[3] والجدُّ

أقِلُّو عليهم (لا أبا لأبيكُم) من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أولئك قوم إن بنَوْا أحسنوا البنا وان عاهدوا أوْفَوْا وان عقدوا شدُّوا[4]

وان كانت النعماء فيهم جزَوْا بهـا وان أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا[5]

مَطاعينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدُّجى بنى لهُمُ آباؤهم وبنى الجد

ويعْذُلنى أبنـاء سعد عليهمُ وما قلتُ الاّ بالذى علمتْ سـعد

---

(١) عقولا (٢) حلمها أى بعيدة عن الغضب (٣) الغضب (٤) وثقوا
(٥) أتعبوا من أعطوهم بالمن والأذى

ومن أبياته التي استعطف بها أمير المؤمنين عمر، وهو في سجنه قوله :

ماذا تقول لأفراخ بذى مرَخ[١] زُغبِ[٢] الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيتَ كاسبَهم فى قعر مُظْلِمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر !
أنت الأمين الذى من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليد النُّهى البشر
لم يُؤْثروك بهـا إذْ قدَّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الخِيَرَ

ومن أبياتهِ التي يعرِّض فيها بهجو الزبرقان قوله :

أزمعتُ يأساً مُبيناً من نوالكمُ ولا يُرى طارداً للحر كالياس
دعِ المكارم لا ترْحَل لِبغْيَتِها واقْعُدْ فانك أنت الطاعم الكاسى
من يفعل الخير لا يعْدَمْ جَوازِيَه[٣] لا يَذْهبُ العرْف بين الله والناس

٦ — النابغة الجَعْدى

هو أبو ليلى حسانُ بن قيس بن عبـد الله الجعدىّ العامرىّ، أحد القدماء المعمَّرين، والشعراء المُخَضْرَمين ووصّاف الخيل المشهورين

منشؤه وحياته

هو أحد بنى جَعْدة بن كعب بن ربيعة . عاش زمناً فى الجاهلية وحضر كثيراً من أيامها ووقائعها . وقال الشعر فى الجاهلية ثم أجْبَل[٤] دهراً، ثم نبغ فى الشعر عند ظهور الاسلام وبعده : ولذلك سُمِّىَ النابغة . وهو ممن فكّر فى الجاهلية، وأنكر الخمر لمـا تفعل بالعقل، وهجر الأزلام والأوثان، وذكر دين ابراهيم، وصام واستغفر . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنشد قصيدته المشهورة التى يمدحه بها ويقول فى أولها :

خليلىّ عُوجا ساعةً وتهجّرا ونوحا على ما أحدث الدهر أوذَرا

---

(١) واد بالحجاز (٢) الزغب أول ما يبـدو من الشعر والريش (٣) جمع جازية أو جزاء (٤) أجبل الشاعر صعب عليه القول

فأعجب بها رسول الله ودعا له . وعاش طويلاً فى الاسلام ، فأقام زمناً مهاجراً حتى أيام عثمان رضى الله عنه فأحس بضعف فى نفسه ، فاستأذن عثمانَ فى الرجوع الى البادية فأذن لهُ . ثم لما كانت خلافة علىّ (رضى الله عنه) شهد معهُ وقائع صفّين ، وظاهرَه بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبنى أمية

وعند ما آلت الخلافة الى معاوية كتب الى مروان أن يأخذ أهل النابغة وما له ؛ فدخل النابغة على معاوية وعنده مروان فأنشدهما أبياتاً منها :

فإن تأخذوا أهلى ومالى بظِنَّةٍ فانى لَحَرّاب الرجال محَرَّب
صبور على ما يكره المرء كلّه سوى الظلم إنى ان ظُلمت سأغْضب

فالتفت معاوية الى مروان ، فقال ما ترى ؟ — قال أرى ألاّ تردّ عليه شيئاً — قال ما أهونَ والله عليك أن ينْجَحر هـذا فى غار ثم يقْطع عرضى علىّ ثم تأخذه العرب فتَرويه ، أما والله ان كنتَ لَمِمّنْ يرويه . ارددْ عليه كل شيء أخذته . ثمّ كان فى شيعة عبد الله بن الزبير حين خروجه على يزيد ومروان وعبد الملك ، وجاء ابن الزبير ومدحه فأجزل لهُ العطاء على بخل فيه . وبعد سكون الفتن خرج مهاجراً الى الأمصار المفتتحة فمات بإصبهان بعد أن عمّر على ما قيل مائة وثمانين سنة

*
* *

شعره — كان النابغة الجعدى شاعراً مطبوعاً فى الجاهلية والإسلام . وهو أوّل من سبق الى الكناية فى الشعر عن اسم من يعْنى الى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال شعره

أ كْنى بغير اسمها وقد عَلِمَ الله خَفيات كلّ مُكتَتَم

وكان ممن يصفون الخيل فلا يُلحق له فى ذلك غُبار ، حتى ضُرب به المثل ، قال الأصمعى : ثلاثة يصفون الخيل فلا يقاربهم أحد : طُفَيْل الغنوى ، وأبو دواد الإيادى ، والنابغة الجعدى . وما كان ينتحى طريقة زهير والحطيئة وأشباههما ممن يبالغون فى تهذيب الألفاظ وتنقيح المعانى ، بل كان يلقى القول على عَواهنه وكما تهديه اليه بديهته ؛ فتارة يأتى جيداً متيناً . وتارة يجيء ضعيفاً رديئاً ، وأحياناً يسلك

بين ذلك سبيلاً ، حتى قال عنه الأصمعى : عنده مُطْرَف[١] بآلاف ، وخِمار[٢] بواف[٣]

ومع ذلك كله كان مغلَّباً ، ما هاجى أحداً إلا غلبه : هاجى أوس بن مَغْراء ، ولم يكن أوس مثله ولا قريباً منه فى الشعر فغلبه ، وهاجى كعب بن جُعيل فغلبه أيضاً ، وهاجى ليلى الأخيلية فغلبته . وله فى الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير . ومن أشرفه قصيدته التى مدح بها الرسول الكريم وهى :

شىء من شعره

خليلىّ عوجا[٤] ساعةً وتهجَّرا[٥] ونوحا على ما أحدث الدهر أوذرا
ولا تجزَعا ، إن الحياة ذميمة فخِفاً لروعات الحوادث أو قِرا[٦]
وإن جاء أمر لا تُطيقان دفَعه فلا تجزَعا مما قضى الله واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعُها قليلٌ ، إذا ما الشىء ولّى وأدبرا
تهيج البكاء والندامـة ثم لا تغيّر شيئاً غير ما كان قدّرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمَجَرّة[٧] نيّرا
أُقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها وكنت من النار المخوفة أحذرا

ومنها فى الفخر :

وانا لقوم ما تعوّد خيلنـا إذا ما التقينا أن تحيد وتَنْفِرا
وننكر يوم الروع[٨] ألوان خيلنا من الطعن حتى نَحْسَب الجَون أشقرا[٩]
بلغنا السماء مجـدُنا وجدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء البيت) قال لهُ فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ قال الجنة ! قال لهُ ان شاء الله ! ولما أتمّ قصيدته ، قال لهُ الرسول أجدت لا يفضض الله فاك ، فأتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفضّت من فيه سنٌّ

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) ثوب تغطى به المرأة رأسها
(٣) الواف درهم وأربعة دوانق (٤) قفا (٥) سيرا فى الهاجرة (شدة حرارة الشمس)
(٦) وقر كوعد رزن أو جلس بوقار (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وانما ينتشر ضوءها فيرى كأنه جدة بيضاء (٨) الفزع والمراد الحرب (٩) الجون من الخيل الأدهم ، والأشقر منها الأحمر

ومن قوله يرثى ابنه محارباً وأخاه وَحْوحا :

بَدَتْ فعلَ ذى ودٍّ فلما تبعتها تولّت وأبقتْ حاجتى فى فؤاديا
وحلَّتْ سواد القلب لا أنا باغيا سواها ولا عن حبها متقاليا
أتيحت لهُ والهم يختضر[1] الفتى ومن حاجة الإنسان ما ليس لاقيا

ومنها :

ألم تعلمى أنى رُزِئتُ محاربا فما لك منهُ اليوم شىء ولا ليا
ومن قبله ما قد رُزِئت بوحوح وكان ابن أمى والخليلَ المصافيا
فتى كان فيه ما يسرُّ صديقَه على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا
فتى كملتْ خيراته غير أنهُ جَواد فما يُبقى من المال باقيا

٦ — عمر بن أبى ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة القرشى المخزومى ، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء

ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب رضوان الله عليه . وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجراً موسراً ، وعاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الثلاثة من بعده ؛ فشب فى نعيم وترف . وقال الشعر صغيراً ، وسلك فيه طريق الغزل ، ووَصف أحوال النساء وتزاوُرهُن ومُداعَبة بعضهن لبعض ، وما يمتَدْن قوله من الكلام ، مما يتوقَّر الشعراء الفحول عن الخوض فيه ، ولذلك لم يحفِلوا بشعره وعدّوه من هذَيان خُلعاء المدينة ، فما زال يعالج الشعر والشعر ينقاد له ، حتى ملك ناصيته ، وقبض على زمامه ، وبز الشعراء ، وقال رائيته المشهورة على طريقته المبتكرة ، وهى التى أولها :

أمن آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمبْكِرُ غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهَجّرُ

والتى قال فيها جرير حين سمعها : ما زال يهذى هذا القرشى حتى قال الشعر . ثم استطار شره فى التشبيب بالنساء : من يعرفها ومن لا يعرفها ، وتعرض للمحصنَات

---

(١) اختضر النبات أخذ طريا غضا ، والشاب مات فتيا

المتعففات من نساء قومه ومن غيرهن . فوقعن منهُ فى بلاء عظيم ، وصرن يَخَفْن الخروج الى الحج لأنه كان يتلقاهن بمكة ، ويترقب خروجهن للطواف والسعى ويصفهن وهن محرمات . وحَلُمَت عليه رجالات قريش ؛ لمكانة نسبه منهم ولترقب توبتهِ وإقلاعهِ . فلما تمادى فى أمره وشبَّب ببنات السادات والخلفاء ، غضب عمر ابن عبد العزيز ونفاه الى دَهْلَك[1] . ثم رأى بن أبى ربيعة أن يكفر عن سيئاته بالتوبة والجهاد فغزا فى البحر فاحترقت السفينة التى كان فيها واحترق هو أيضاً سنة ٩٣هـ

☆
☆ ☆

شعره — كانت العرب تُقرُّ لقريش بالتقدّم عليها فى كل شىء إلاَّ فى الشعر ، حتى كان عمر بن أبى ربيعة فأقرت لها الشعراء به أيضاً . وكان أكثر الشعراء الاسلاميين يُحجِمُون عن التشبيب بالنساء امتثالاً لأمر الدين ومحافظة على الآداب العربية الاسلامية . وكان أكثر تشبيبهم فى بكاء الأطلال ومنازل الأحباب ، فلما ظهر عمر سلك فى الغزل طريقاً لم يسلكوه : فوصف أحوال النساء فى منازلهن وتزاورهن ومحادثتهن ، ومداعبة بعضهنّ لبعض ، وتلاومهن ، وما يعتَدْن قوله من الكلام والعبارات ، فى أسلوب يغلب عليه القَصص ، وحكاية ما شاهده فى شعر رقيق ، ولفظ رشيق . ومعنى أنيق ؛ وبهر الشعراء بهذه الطريقة حتى قال فيه جرير وهو من شعراء الغزل : هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعللت بوصف الديار ، وكذلك قال الفرزدق . ولسهولة شعر عمر وقرب فهمه من جميع الطبقات وشدة تأثيره فى قلوب الخلعاء وأهل اللهو ، أولع به المغنون والمغنيات من القيان والموالى إنشاداً وتلحيناً ، ولذلك قال فيهِ بعض متورعى الأنصار : ما عُصِى الله بشىء كما عُصِى بشعر ابن أبى ربيعة[2] ومن قوله :

شعره

التغنى بشعره

---

(١) جزيرة أمام مدينة مصوع (٢) قالت ظبية لمولاتها فاطمة بنت عمر بن مصعب : مررت بجدك عبد الله وأنا داخلة منزله وهو بفنائه ومعى دفتر فقال ما هذا معك ، ودعانى بجنثه وقلت شعر عمر بن أبى ربيعة فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ، ان لشعره لموقعا من القلوب ، ومدخلا لطيفا ، لو كان شعر يسحر لكان هو ، فارجعى به ، ففعلت

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدّت مرة واحدة   انما العاجز من لم يستبد
ولقد قالت لجارات لها   ذات يوم وتعرت تبترد :
أكما ينعتنى تبصرننى   (عمركن الله) أم لايقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن لها :   حسن فى كل عين من تود !
حسداً حمّلنه من أجلها   وقديمًا كان فى الناس الحسد

ومن قوله وقد كتب به إلى الثريا :

كتبت اليكِ من بلدى   كتاب مولَّهٍ كمدِ
كئيب واكف العينيـــن   بالحَسرات منفرد
يؤرقه[١] لهيب الشو   ق بين السَّحر والكبد
فيُمسك قلبـهُ بيدٍ   ويَمسح عينـهُ بيد

وقال يصف أثر السفر فى شخصه :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت   فيضحَى[٢] وأما بالعشى فيخْصَر[٣]
أخا سفرٍ جوَّابَ أرْض تقاذفتْ   به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبر
قليلاً على ظهر المَطّية ظـله   سوى ما نفى عنــه الرداء المحبّر

٨ — الأخطل

هو أبو مالك غياثٌ الأخطلُ بن غوْث التَّغْلَبى النصرانى ، شاعر الأمويين وأمدح ثلاثةِ شعرائهم المتقدّمين ، والمنفرد بالتعمق فى وصف الخمر دون الاسلاميين

نشأ بين قومهِ بنى تغلب النازلين بسق الفرات من أرض الجزيرة . وقال الشعر وهو صبىّ . وما لبثَ أن زاحَمَ شاعرَ تغلب وقتئذٍ كعب بن جُعَيْل ، وهاجاه وظهر عليه وأخْمله . ولما طلب يزيدُ بن معاوية قبل أن يَلى الخلافةَ من كعبٍ هجاء

(١) أرقه أسهره والسحر الرئة (٢) تصيبه الشمس (٣) يبرد

الأنصار لتعرُّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصارى لأخته فى شعره ، أبَى عليه ذلك كعب ، وقال : أرادِّى أنت فى الشرك ؟ أأهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووْه ؟ ولكنى أدُلُّك على غلام منا نَصْرانىّ كأنَّ لسانه لسانُ ثور ، لا يبالى أن يهجوَهم . فدلَّه على الأخطل . وكأنه كان يريد به الشر لتوقُّعِه أن يفتِكَ به الأنصار ، فكان ذلك سببَ جدِّه ، وظهور شأنه ، فإن يزيد بعث اليه وأمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها : —

سبب ظهوره

ذهبت قريش بالسَّماحة والنَّدى واللؤمُ تحت عَمائم الأنصارِ
فذَرُوا المكارمَ لستمُ من أهلها وخذوا مَساحِيَكم[1] بنى النَّجَّارِ

وبلغ الشعرُ كبارَ الأنصار فغضبوا وشكَوْه إلى معاوية . فوعدهم بقطع لسانِه ، فاستجار بيزيد . فما زال يزيد بأبيه حتى عفا عنه . ولما وَلِى يزيدُ الخلافة قرَّبه اليه ، وتابعه فى ذلك خلفاء بنى أمية ، وبخاصةٍ عبد الملك إذ كان يستعين به على مضر وشعرائها ؛ لانحيازهم الى أعدائه فى السِّياسة من آل الزبير وغيرهم ، فمدحه بمدائح جليلة قلّما قال نظيرها فيه شاعرٌ من شعراء زمانه ، فقرَّبه اليه وأدناه ، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن وأجزل له العطايا ، وسمَّاه شاعرَ الخليفة

سبب دخوله فى المهاجاة بين جرير والفرزدق

ولما حدثت المهاجاةُ بين جرير والفرزدق ، وحُكِّم فيهما أيُّهما أشعر ، عرَّض بتفضيل الفرزدق ، فهجاه جرير ، فردَّ عليه الأخطل ، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه فلم يلحق جريراً . وكان الأخطل يقيم أزماناً بدمشق ، وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة . ومات فى أول خلافة الوليد وقد نيَّف على السبعين

☆
☆ ☆

شعره

شعره — كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فُحول الاسلاميين ، وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمُّق فيه ، وامتاز

---

(١) سحا الطين قشره والمسحاة أداة السحى

باجادة المديح والابداع فى معانيه والتنويع فى ضروبه والتَّريُّثِ فيه ، حتى ربما لبث فى بعض مدحاته سنة كاملة ، وربما نظمها تسعين ثم يَكُرُّ عليها بالتمحيص والاختبار حتى يحذف منها ستين ويُبْقِى الثلاثين ؛ كما امتاز لنصرانيته بوصف الخمر والترغيب فيها . ولم يقصِّر فى الهجاء عن صاحبيه كثيراً . وفَضَلهما بقلة التعرض للفحش والبَذَاءة ، ولكنه كان دونهما فى بقية فنون الشعر ؛ فكان بكيئاً فى الرثاء[١] : مات يزيد وهو سبب نعمته ، فلم يستطع رثاءه بأكثر من أربعة أبيات

وليس للأخطل سوى سبع مطوَّلاتٍ فاقهما بها . ولذلك لم ير قدماء أهل العلم والرواة تسويته بهما لتقصيره عنهما فى التصرف فى سائر أبواب الشعر

قال يمدح بنى أمية ويخص بشر بن مروان : طائفة من شعره

إن يحلُموا عنك فالأحلام[٢] شِيمتهمْ ... والموتُ ساعةَ يحمَى منهمُ الغضبُ
كأنهمْ عنــد ذاكمْ ليس بينهم ... وبين من حاربوا قُربَى ولا نَسب
كانوا مَوالىَ حقّ يطلبون به ... فأدركوه وما ملُّوا ولا لغبوا[٣]
ان يك للحق أسباب[٤] يُمَدُّ بها ... ففى أكفهمُ الأرسان[٥] والسبب
همُ سعوْا بابن عفَّان الامام وهمْ ... بعد الشِّمَاس مَرَوْها ثُمَّتَ احتلَبُوا[٦]

ومنها :

إذا أتيْتَ أبا مروان تسْأله ... وجدتَه حَاضِراهُ الجُودُ والحَسبُ
ترى اليــه رِفاقَ[٧] الناس سائلةً ... من كل أوْبٍ[٨] على أبوابه عُصَب
يَحْتَضِرون سِجالاً[٩] من فواضله ... والخير مُحْتَضَرُ الأبواب مُنْتَهَب[١٠]

---

(١) ناقة بكىء وبكيئة قليلة اللبن والمراد قليل الرثاء (٢) جمع حلم وهو الاناة (٣) اللغب أشد الاعياء (٤) حبال (٥) جمع رسن وهو الحبل وما كان من زمام على أنف
(٦) الشماس الحران — مرى الناقة مسح على ضرعها لتدر أى هم سعوا للخلافة بسبب الأخذ بثأر عثمان وبعــد أن امتنعت عليهم انقادت لهم وذلت (٧) جمع رفقة (٨) فج
(٩) السجل الدلو العظيمة المملوءة والجمع سجال (١٠) يتهافت الناس على أبواب الكرام ليصيبوا من كرمهم وعطاياهم

والمطْعِمُ الكُومَ(١) لا ينفَكُّ يعقِرُها ... إذ تلاَقى رِوَاقُ البَيْتِ واللهبُ(٢)
كأن حِيرانَها في كل منزلةٍ ... قتلى مجردة الأوصال تُسْتَلَبُ(٣)

وقال يرثى يزيد بن معاوية :

لعمرى لقد دلّى الى اللحد خالد(٤) ... جِنازةَ لا كابى الزّناد ولا غُمْرِ
مقيم بحُوّارينَ(٥) ليس يَريمها ... سقَته الغوادى من ثَوِيّ ومن قبر
تَصيح الموالى أن رأت أمَّ خالد ... مُسلَّبةً(٦) تبكى على الماجد الغَمْرْ
إذا جاء سِرب من نساء يَعُدْنها ... تَعرَّيْنَ إلاّ من جلابيبَ أو خُمُرْ

وقال يهجو :

وكنتَ إذا لقيتَ عبيدَ تَيْم ... وتيما قلت : أيُّهم العبيد ؟
لئيم العالمين يسود تيما ... وسيدهم -وان كرهوا- مسود

وقال يصف سكران :

صريع مدام يرفع الشَّرب رأسه ... لتحيا ، وقد ماتت عظام ومَفصِل
تهاديه أحيانا ، وحينًا تجره ، ... وما كان إلاّ بالحُشاشة يعقل
إذا رفعوا عظمًا تحامل صدره ... وآخر مما نال منها مخبَّل

ومن أمثاله السائرة قوله :

وان امرأ لا يَنثنى عن غَواية(٧) ... إذا ما اشتهتها نفسه لجهول

٩ — الفرزدق

هو أبو فِراس هَمَّامُ بن غالب التميمى الدارمى أخُرُ ثلاثة الشعراء الأمويين ، وأجزل المقدَّمين فى الفخر والمدح والهجاء

(١) جمع كوماء وهى الناقة الضخمة السنام (٢) أى علت نيران القرى حتى اتصلت بالرواق وهو ما بين يدى البيت وذلك كناية عن كرمهم فى وقت الشتاء وقت اشتداد المحل والأزل
(٣) الحيران جمع حوار والأوصال المفاصل والمعنى أن مفاصلها وعظامها خالية من اللحم كأنها قتلى قد سلب ما عليها (٤) هو ابن يزيد وكان يكنى به (٥) مات يزيد ودفن بحوارين من بلاد حمص (٦) لابسة ثياب الحداد (٧) الغواية الضلالة والافساد

ولد سنة ١٩ هـ ونشأ بالبصرة بين فصحاء آبائه وقومه منذ أوّلِ تمصيرها ، وهي يومئذٍ حاضرةُ العرب ؛ فلم تشُب لهجته عجمةٌ ولا لحن . فأخذه أبوه برواية الشعر ونظمه، فرواه ونظمه ونبغ فيه . وأتى به أبوه يوماً إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرّم اللهُ وجهه فسأله عنهُ — فقال هذا ابنى يُوشِك أن يكون شاعراً مُجيداً — فقال أقرِئْه القرآن فهو خيرٌ له . فما زالت كلمته فى نفس الفرزدق حتى قيَّد نفسه بقيد آلى أن لا يفُكَّهُ حتى يحفظ القرآن ، فما فكَّهُ حتى حفظه بالرغم من كونه أمّياً لا يقرأ ولا يكتب . ولنشأة الفرزدق بالمصر والبوادى القريبة منه كان قريب التَّعرُّف بولاة البصرة والكوفة وعمالهم ، يمدَحهم تارة ويهجُوهم أخرى ، ويحبسه هذا حيناً ، ويفر من وجه ذلك طوراً ، وفى أثناء ذلك يرحَل الى خلفاء بنى أُميَّة بالشام يمدحهم وينال جوائزهم ، وأخص من كان يمدحه منهم عبد الملك بن مروان ثم أولادُهُ من بعده . وامتُحِنَ بمُنافَسة جرير له فى الشعر ومهاجاته

التهاجى بين جرير والفرزدق

والسبب فى تهاجيهما أن جريراً كان يهاجى شاعراً اسمه البَعِيث ؛ لأنه ظاهَر عليه شاعراً آخر يسمى غسَّان ، فنصر الفرزدق البَعِيث على جرير لمنافسته له فى الصناعة ، تلك المنافسة التى أفضت بهما الى التَّهاجى والتسابُ طول عمرهما ، وسهَّل على الفرزدق هجاء جرير الترفع عليه فى شرف حسبه وكرم مَحْتده ، وسيادة آبائه فى الجاهلية والاسلام ، وضعة آباء جرير وخُمول ذكرهم ، مما جعل الفرزدق يغرى بجرير اكثر من ثمانين شاعراً يهجونه

وكان الفرزدق فوق إقذاعه فى الهجو وفُحْشه فى السِّباب وقذف المحصنات ، يرمَى بالفُجُور وقلة التمسك بشعائر الدين، ثم تاب فى أواخر شيخوخته على يد الحسن البصرى ، ورجع عن قذف المحصنات ونهش الأعراض ، ونسُك وحسنت خاتمته . وكان فيه تشيعٌ يستره أيام اختلافه الى بنى أمية ، ثم كاشف به آخرَ حياته حتى أمام هشامٍ ولى عهد الخلافة ، عند ما رأى الناس تفسح طريق الطواف بالكعبة مهابة واجلالاً لعلى بن الحسين ، فسألَ عنهُ كالمتجاهل لأمره ، فشق ذلك على الفرزدق وأنشد

قصيدته الميمية الآتية يُعرِّفُ بعليّ ويُنْكر على هشام تجاهله . فحَبَسه هشامٌ ثم أطلقه . وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ، ومات بالبصرة سنة ١١٠ هـ

☆
☆ ☆

شعره

شعره — يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته ، وجزالة لفظه ، وكثرة غريبه ، ومُدَاخلة بعض ألفاظه فى بعض[١] : من حيثُ التقديمُ والتأخيرُ ، والفصل والوصل ، وكثرةُ تنوع التراكيب والأساليب ، والاشتمالُ على المعانى الدقيقة ؛ وكان يجرى فيه على أسلوب الجاهلية فى شعرهم ، ولذلك يُعْجَب به أهل اللغة والنحوِ ، ويفسحُ لهم مجالُ القول فيه وقياسُ مسائله عليه ؛ فكان يقال لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة

ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب وأشدِّهم وَلوعاً بتَعداد مآثر آبائه وأجداده ، وتحدّى منافسيه بمكارمهم حتى فى مدْحِهِ للخلفاء ، وحتى كان ذلك سبباً فى حرمان بعضهم له العطاء واحالته على آبائه[٢] ، فكان بذلك شعره مشتملاً على كثير من أيام العرب ومفاخرها ومثالبها وفروع أنسابها ، مما استخرج منه العلم الجمّ من أنساب العرب وأحوالها

نموذج من شعره

ومن كلامه قوله يصف ذئباً صادفه فى أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلسَ[٣] عسّال[٤] وما كان صاحباً دعوتُ لنارى مَوْهِناً[٥] فأتانى
فلما أتى قلت : ادنُ ، دونك ، إننى وإياك فى زادى لَمُشتركان
فبتُّ أقدُّ[٦] الزادَ بينى وبينه على ضوء نار مرّةً ودخان
وقلت له لما تكشّرَ ضاحكاً وقائمُ سيفى من يدى بمكان

---

(١) كقوله : وما مثله فى الناس الا مملكا أبو أمه حى أبوه يقاربه
وكقوله : وكل رفيق كل رحل ، وان هما تعاطى القنا قوما هما ، اخوان
(٢) استنشد سليمان بن عبد الملك الفرزدق فأنشد مفتخراً عليه قطعة منها :
اذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم نار غالب
يريد أباه فغضب . ثم أنشده نصيب فقال سليمان يا غلام أعط نصيبا خمسمائة دينار وألحق الفرزدق بنار أبيه (٣) أغبر اللون (٤) مضطرب فى مشيه (٥) نحواً من نصف الليل (٦) أقطع

تَعشَّ ، فان عاهــدْتنى لا تخوننى نكن مثل مَن (ياذئب) يصطحبان
وأنت آمرؤ (ياذئب) والغدرُ كنتما أُخَيَّين كانا أُرْضِعا بلبان
ولو غيرَنا نبَّهتَ تلتمسُ القِرى رماكَ بسهم أو شَباة[١] سِنان
وكل رفيق كلِّ رحل ، وإن هما تعــاطى القنا قوماهما ، أخوان

ومن أبياتِهِ السائرة :

فيا عجبا حتى كليبٌ تسُبُّنى كأن أباها نَهْشَلٌ ومجاشع[٢]
وكنا إذا الجبار صَعَّر خدَّه[٣] ضربناه حتى تَستقيم الأخادع[٤]
قوارِصُ[٥] تأتينى وتحتقرونها وقد يملأُ القطرُ الإناء فيُفعِم[٦]
إذا ما وُزِنَّا بالجبال رأيتنَا نميل بأطواد الجبال الأضاخم
أحلامنا تزِن الجبالَ رزانة وتخالنا جِنًّا إذا ما نجهَلُ
ترى الناس ما سرنا يسيرون حولنا وان نحن أوْمأنا الى الناس وقَّفوا

وقال يهجو :

ولو تُرمَى بلؤمِ بنى كُليب نجومُ الليل ما وضَحت لسار
ولو يرمَى بلؤمِهمُ نهــارٌ لدنَّس لؤمُهم وَضَحَ النهار
وما يغــدو عزيز بنى كليب ليطلب حاجةً إلاَّ بجار

ومن جيد شعره قوله يمدح على بن الحسين (وتروى أبيات منها لغيره)

هذا الذى تعرِفُ البطحاء[٧] وطأته والبيتُ يعرفهِ والحلُّ والحرمُ
هــذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقىُّ النقىُّ الطاهر العــلم
وليس قولك : من هذا ؟ بضائره العُرب تعرف من أنكرت والعجَم
إذا رأته قريشٌ قال قائلها : الى مكارم هــذا ينتهى الكرم

---

(١) طرف (٢) ابنا دارم التميمى ، من أجداده
(٣) أماله عن الناس اعراضا وتكبراً (٤) جمع أخدع وهو شعبة من الوريد
(٥) القارصة الكلمة المؤلمة (٦) فعم الاناء ملأه كما فعمه (٧) مسيل واسع فيه دقاق الحصى

يُغْضى حياءً ويُغْضى من مهابتِهِ (١) ... فلا يُكلَّمُ إلاَّ حين يَبْتَسِم
بِكفهِ خَيْزُران ريحُها عَبِقٌ ... من كفِّ أروع (٢) فى عرنينه شمم (٣)
يكاد يُمسكه عرفانَ راحتهِ ... ركنُ الحطيم (٤) اذا ما جاء يستلم
يَنْشَقُّ ثوبُ الدُّجى عن نور غرَّته ... كالشَّمس تنجاب عن إشراقها الظُّلَم
من معشرٍ حبُّهم دينٌ وبغضهمُ ... كفرٌ وقربهمُ مَنْجًى ومعتصَم
إن عُدَّ أهل التُّقى كانوا أئمتهم ... أو قيل: من خير أهل الأرض؟ قيل: هم

١٠ — جرير

هو أبو حَزْرَة جرير بن عطية بن الخَطَفَى التميمى اليَرْبوعى : أحدُ فحول الشُّعراء الاسلاميين ، و بُلغاء المدَّاحين الهجَّائين ، وأنسب ثلاثتهم المُفلقين . وهو من بنى يربوع أحد أحياء تميم . وُلِدَ باليمامة من بيت اشتهر بالشعر ، ونشأ بالبادية وفيها قال الشعر ونبغ فيه . وكان يَختلِف الى البصرة فى طلب المِيرَةِ ومدْح الكبراء ، وينزل على من يسكن البصرة من قومه ، فرأى الفرزدقَ وما كسبه الشعرُ من المنزلةِ عند الأمراء والوُلاةِ وهو تميمى مثلُه ، وودَّ لو يسبقهُ إلى ما ناله ، وأغراه قومه به للتنويه بشأنهم وتفخيم أمرهم ؛ إذ كان الشعر فى ذلك العصر هو وسيلةَ الاعلان عن الشرف وكريم الخصال ، فوقعت بينهما المُهاجاةُ والمُلاحاة عشرَ سنين ، كان أكثرُ اقامة جرير فى أثنائها فى البادية ، وكان الفرزدقُ مقيماً بالبصرة ، مصر العرب يملأ عليه الدنيا هجاء وسباً . فما زال به بنو يربوع حتى أقدموه البصرة ؛ فكان يُقيم بها كثيراً . واتصل بالحجاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده ، فعظُم أمره وشرَّق شعرُه وغرَّب ، حتى بلغَ الخليفة عبدَ الملك ، فحَسد الحجاجَ عليه ، فأوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى الخليفة بدمشق ليصل بذلك إلى مدحه . فلما دخل عليه مع الوفد استأذنه

---

(١) لأجل مهابته (٢) الأروع من يعجبك لحسنه وجهارة منظره أو لشجاعته كالرائع
(٣) العرنين الأنف والشمم الارتفاع أى سيد شريف (٤) الحطيم حجر الكعبة ، أو جدارها ، أو ما بين الركن وزمزم والمقام

فى إنشاده فأبى . وقال لهُ انما أنت للحجاج . فما برح يتوسل اليه حتى قبل مدحه وأجازه عليه جائزة سنية . ومن ذلك الحين عُدَّ من مداح خلفاء بنى أمية ودخل فى غِمار المتزاحمين على أبوابهم والمتنافسين فى نيل جوائزهم . وجره ذلك الى مُعاداة منافسيه ومهاجاتهم . وحرَّش الفرزدق بينهُ وبينهم وأغراهم عليه بالمال ، ونصب له منهم نحو ثمانين شاعراً . فغلبهم كلهم وأخرسهم . وثبت له من دونهم الفرزدق والأخطل فبقيت حرب المهاجاة بينهم سجالاً ، حتى مات الأخطل . وغبر الفرزدق وجرير يتسابان بقية حياتهما إلاَّ مدَّة قليلة تنسَّك فيها الفرزدق وتاب . ثم مات ولم يطل عمر جرير بعده إلاَّ نحو ستة أشهر ومات باليمامة سنة ١١٠ هـ

*
* *

وكان فى جرير على هجائه للناس وخوضه فى أعراضهم عفَّةٌ ودين وحُسن خلق ورقَّة طبع ظهر أثرها فى شعره

شعره — اتفق علماء الأدب وأئمة نَقْد الشعر على أنه لم يوجد فى الشعراء الذين نشئوا فى ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل ، وانما اختلفوا فى أيُّهم أشعر . ولكلّ هوًى وميْل فى تقديم صاحبه ؛ فمن كان هواه فى رقة النسيب ، وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الأسلوب والتصرف فى أغراض شتَّى — فضل جريراً . ومن مال إلى إجادة الفخر ، وفخامة اللفظ ، ودقة المسلك ، وصلابة الشعر وقوة أسْره — فضل الفرزدق . ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ ، إلى اجادة المدح والامعان فى الهجاء ، واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمان عليها — حكم للأخطل . وهناك فريق يُدْخِل فى الموازنة بينهم ما ليس من موضوع الأدب ، فأهل الحسب والنسب يقدّمون الفرزدق ، وأهل الدِّين والعفة يقدّمون جريراً ، وأدباء المَسيحيين يقدّمون الأخطل ، ولا عبرة بذلك فى باب صناعة الشعر ؛ على أن طائفة من أهل النقد المعتدّ بهم يرون جريراً أشعر الثلاثة ؛ لأنه طرق جميع أبواب الشعر ولم يُقصِّر فى باب ، وان الفرزدق امتاز بالفخر ، والأخطل بالمدح والهجاء

ووَصْف الخمر ، ويحتجُّون بأنه لما ماتت امرأة الفرزدق لم يندُبها النوادب إلاّ بشعر جرير فى رثاء امرأته ، وأن الفرزدق كان يحسُده على رقة شعره ويقول : ما أحوجَ جريراً مع عَفافه الى صَلابة شعرى ! وأحوجنى مع شهواتى إلى رقة شعره ، وأن له فى كل باب من الشعر أبياتاً سائرة هى الغاية التى يُضرب بها المثل ؛ فيقال إن أغزل شعر قالته العرب هو قوله :

إنّ العيون التى فى طرْفها حوَرٌ(١) قتلننــا ثمَّ لم يُحْيين قَتلانا
يَصْرَعن ذا اللب حتى لا حَراك به وهن أضعفُ خلق الله انسانا

وانّ أمدح بيت قوله :

ألستُم خيرَ من ركِب المطايا وأندَى العالَمين بطونَ راح

وان أفخر بيت قوله :

إذا غضِبت عليك بنو تميم حسِبتَ الناس كلهمُ غضابا

وان أهجى بيت مع التصوُّن عن الفحش قوله :

فغُض(٢) الطرف إنك من نُمَيْر فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وان أصدق بيت قوله :

إنى لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مُولَعة بحب العاجل

وان أشد بيت تهكماً قوله :

زعم الفرزدقُ أن سيقتُل مربعاً(٣) أبْشرْ بطول سلامة يا مِربَعُ

ونحو ذلك كثير فى شعره . قيل وقد لَعِب جرير وَجَدّ فى قصيدة يهجو بها الأخطل التغلبى بما لو أراده غيره لامتنع عليه ، ففى لعبه يقول :

إن الذين غدَوْا بلُبك غادروا وَشَلاً(٤) بعينك لا يزال مَعينا(٥)

---

(١) الحور شدة سواد العين مع شدة بياضها (٢) اخفض (٣) هو راوية جرير
(٤) الوشل الماء القليل (٥) جاريا

غَيَّضْنَ[١] من عَبَرَاتهن[٢] وقلن لى : ماذا لقِيت من الهوى ولقينا

وفى جدِّه يقول :

إن الذى حَرَم المكارم تغلباً جعل الخلافةَ والنبوّة فينا
مضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خُزْرُ[٣] تغلب من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دِمشْقَ خليفةً لو شئتُ ساقكم إلىّ قطينا[٤]

فلما بلغ عبدَ الملك هذا الشعر قال ما زاد ابن المَرَاغة[٥] أن جعلنى شُرْطياً[٦] أما لو أنه قال : لو شاء ساقكم إلىّ قطيناً لسقتهم اليه كما قال

ومن جيـد شعره قوله من قصيدة يرثى بها امرأته وهى التى نُدِبت بها نَوَار امرأة الفرزدق :

لولا الحياء لهاجنى استعبارُ[٧] ولزرتُ قبرَكِ والحبيب يزارُ
ولّهتِ قلبى إذ علتنىَ كَبرة[٨] وذوو التمائم من بَنِيك صِغارُ
لا يُلبِثُ القرناء أن يتفرّقوا ليلٌ يكُرّ عليهمُ ونهار
صلّى الملائكة الذين تُخُيِّروا والطيبون عليكِ والأبرار
فلقد أراكِ كُسِيتِ أحسن مَنظَرٍ ومعَ الجمـال سكينة ووَقار

وقال يهجو تغلب قبيلة الأخطل :

فلو آن تغلب جُمِّعت أحلامها يوم التفاضل لم تزن مثقالا
تلقاهمُ حلماء عن أعدائهم وعلى الصديق تراهمُ جهالا
لا تطلبنّ خؤولة فى تغلبٍ فالزنج أكرم منهمُ أخوالا

١١ — الكُمَيْت

هو الشاعر الخطيب الراوية النسّابة أبو المستهِلّ الكُميتُ بن زَيدٍ الأسـدى الكوفى ؛ أشعرُ شعراء الشِّيعة الهاشمية ، ومُثِير عصبية العدنانية على القحطانية

(١) غاض الماء ذهب وغيضن أذهبن (٢) جمع عبرة وهى الدمعة قبل أن تفيض
(٣) الخزر ضيق العيون وصغرها (٤) خدما (٥) كلمة لقب بها الفرزدق أم جرير والمراغة الاتان (٦) كتركى وجهنى أعوان الملك (٧) استعبرت عبرته جرت دموعه (٨) الكبر والضعف

ولد سنة ٦٠ هـ ونشأ بالكوفة بين قومه بنى أسد إحدى قبائل العرب الفصحاء من مضر، فلقِن العربية، وعرف الأدب والرواية، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمدارسة العلم والأخذ عن الأعراب. وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقصّان عليه أخبارها وأشعار أهلها، فخرج أعلم أهل زمانه فى ذلك، وأقر له حمادُ الراوية بالسبق عليه. وقال الكميت الشعرَ وهو صغير، وكان لا يُذِيعه ولا يتكسب به، ويكتفى بحرفة تعليم صبيان الكوفة بالمسجد. ولما حَصُفَ شعرُه وقوى أَسْره. ولا سيما قصائده التى أعلن فيهـا تَشَيعه لبنى هاشم وآل علىّ أنشد الفرزدقَ مستنصحاً له فى أمر إذاعتـه اذا أعجبه، فأمره باذاعته(١)، فأذاع قصائدَه البليغة المطوّلة المسماة بالهاشميات، ثم تكسب بالشعر ومدح الأمراء والولاة وساداتِ أهل البيت من أبناء على رضى الله عنه، واحتجّ لهم بشعره ودافع عنهم، وعرّض نفسه من أجلهم

(١) كان أول ما قال الكميت من الشعر الهاشميات فسترها ثم أتى الفرزدق فقال له يا أبا فراس انك شيخ مضر وشاعرها وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد الأسدى قال له صدقت أنت ابن أخى فما حاجتك قال نفث على لسانى فقلت شعراً فاحببت أن أعرضه عليك فان كان حسناً أمرتنى باذاعته وان كان قبيحاً أمرتنى بستره وكنت أولى من ستره على قال الفرزدق أما عقلك فحسن وانى لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فانشدنى ما قلت قال: (طربت وما شوقا الى البيض أطرب). قال الفرزدق فيم تطرب يا بن أخى فقال: (ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب). قال العب يا بن أخى فانك فى أوان اللعب. فقال:

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب

قال ما يطربك يا بن أخى فقال:

ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب

قال أجل لا تتطير فقال:

ولكن الى أهل الفضائل والتقى ... وخير بنى حواء والخير يطلب

قال ومن هؤلاء ويحك قال:

الى النفر البيض الذين بحبهم ... الى الله فيما نابنى أتقرب

قال أرحنى ويحك من هؤلاء. قال:

بنى هاشم رهط النبى فاننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى الجناح مودة ... الى كنف عطفاه أهل ومرحب
وكنت لهم من هؤلاء وهؤلا ... مجناً على انى أذم وأقصب
وأرمى وأرمى بالعداوة أهلها ... وانى لأوذى فيهم وأؤنب

فقال له الفرزدق يا بن أخى أذع ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى

سبب هجائه اليمانية

إلى الموت مراراً ، وبقىَ هذا شأنه حتى هجا حكيمٌ الكلبىُّ من اليمانية وأهل الشام آل علىٍّ وشيعته وسائر مضر ، فردّ عليــه شعراء المضرية فلم يُفْلِحوا فأغرَوْا به الكميتَ فاعتذر ، فأسمعوه هجاءه فى بنات عمِّهِ وخالهِ ، فحمىَ الكميت لعشيرته وهجا الكلبىَّ واليمانية جمعاء . وكان خالد بن عبد الله القَسْرى والى العراق بالكوفة يمانيًا فغضِب وسعى بهِ الى هشام بن عبد الملك ، واحتال حتى أبلغــهُ شعره فى ذم بنى أمية ومدح بنى هاشم ، فأمره بقتله ، فقبض عليه وسجنه ، فاحتال الكميت وفر من سجنه ؛ ورحل الى الشام ، واستجار بقبر معاوية بن هشام فآمنه ، وخطب بحضرته خطبة بليغة : وارتجل قصيدته التى يعتذر فيها ويتوب من تشيعه ؛ ويمدح بنى أمية ويقول :

اليوم صرت الى أميــــــةَ والأمور لها مصاير

فعفا عنهُ وأجازه ، وكتب لخالد ألاَّ يتعرض له . وبقى الكميت على شأنهِ فى هجاء اليمانية ، حتى كان شعره من أشدّ الأمور التى أثارت العداوة بين الأمتين وبقيت نارها تتأجج حتى أواسط الدولة العباسية . وإذ ذاك استولى الأعاجم على الملك وأخفتوا صوت العرب جَمْعاء عدنانيّها وقحطانيها . ومات الكميت سنة ١٢٦ هـ

شعره — كان الكميت من فحول شعراء الأمصار ، كثير الشعر والارتجال ، على إجادة واحسان ، وكان لكثرة حفظه لأشعار العرب يأتى فى شعره ببعض جمل أو أبيات من كلامهم ، فيتذرّع بذلك متعصبو اليمانية الى اتّهامه بسرقة الشعر ؛ ومن هؤلاء خلَفٌ الأحمر أحد رواة الشعر[١] . وكان لشعره من التأثير السياسى والمذهبى أثر سيىء بين تلك الآثار التى شتّتت شمل الوَحدة العربية وعادت عليها بالنكال بما أحياه من العصبية الذميمة وأغرى الشيعة بمناظرة خصومهم إذ يقول الجاحظ : ما فتح للشيعة الحِجاج بالشعر إلاَّ الكميت بقوله :

فان هى[٢] لم تصلح لحى سواهُمُ   فانّ ذوى القربى أحقُّ وأوجبُ

---

(١) هو الراوية المشهور توفى سنة ١٨٠ هـ   (٢) يريد الخلافة

يقولون لم يُورَثْ[١] ولولا تُراثه ... لقد شَرِكت فيه بَكيلٌ وأرحَب[٢]

ومن هاشمياته :

ألاَ هل عمٍ فى رأيه متأملُ ... وهل مدبرٌ بعد الإساءة مقبل[٣]
وهل أمَّـة مستيقظون لرشدهم ... فيكشفَ عنهُ النَّعسةَ المتزمّل[٤]
فقد طال هذا النومُ واستخرج الكرَى ... مساويَهم لو كان ذا الميلُ يُعْدَل
وعُطّلت الأيام حتى كأننا ... على ملةٍ غير التى تتنحّل
كلامُ النبيين الهداة كلامُنا ... وأفعالَ أهل الجاهليـة نفعل
رضينا بدنيـا لا نُريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونُقتل
ونحن بها مُستمسكون كأنها ... لنا جُنة[٥] مما نخاف ومَعقِل[٦]
أرانا على حبّ الحياة وطولها ... يُجَدّ بنا فى كل يوم ونهزِل

وقال الكميت يمدح خالد بن عبد الله القَسرى[٧] :

لو قيل للجود من حليفك[٨] ما ... إن كان إلاّ اليك ينتسب
أنت أخوه وأنت صورته ... والرأس منه وغيرك الذنب
أحرزت فضل النّضال[٩] فى مهَل ... فكلّ يوم بكفّك القصب[١٠]
لو أن كعباً[١١] وحاتماً[١٢] نُشرا ... كانا جميعاً من بعض ما تهب
لا تُخْلِف الوعد إن وعدت ولا ... أنت عن المعتفين[١٣] تحتجب
ما دونك اليوم من نوالٍ ولا ... خلفك للراغبين منقلب

(١) نائب الفاعل الرسول (٢) حيان من همدان (٣) اما آن للغافل أن ينتبه وللنائم أن يستيقظ (٤) الملتف (٥) وقاية (٦) ملجأ

(٧) هو أمير العراق المقتول سنة ١٢٦ هـ (٨) حليفك هو الذى يعاهدك على أن يكون أمركما واحداً فى النصرة والحماية (٩) المباراة فى الرمى (١٠) القصب كل نبات ذى أنابيب الواحدة قصبة واحرز القصب أو قصب السبق غلب (١١) هو كعب بن مامة من اياد احد أجواد العرب المضروب بهم المثل فى الكرم (١٢) هو حاتم بن عبد الله الطائى الجواد الطائر الصيت والشاعر المجيد ، مات قبيل الاسلام (١٣) طلاب المعروف والرزق

وقال يهجو :

فقل لبنى أميـة حيث حلّوا —وان جفت المنهد والقطيعا—
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركمُ أجيعا
بمرضِىّ السياسة هاشمىّ يكون حياً لامته ربيعا

الرواية والرواة

ظهر الإسلام وعمدة العرب فى ضبط علومهم وآدابهم الحفظ والرواية ، فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير ، والعلم الكثير ، فكانت عنايتهم بحفظهما فى الصدور أكثر من كتابتهما فى السطور . ولما اتسع علم المسلمين بما أضيف اليهما من تفسير الصحابة والتابعين ومن أقوالهم فى الدين ، تعددت طوائف الرواية للقرآن والحديث وفنون الأدب

وإذ كان الانسان عرضة للنسيان ، وأحوال الناس تختلف فى الصدق والكذب تشدّد الصحابة والمتألهون[1] من التابعين وتابعيهم فى تصحيح الرواية وشدة التوثق من صدق الرواة تحرّجاً منهم أن يدخل فى الدين ما ليس منه

ولما خاف عمر بن عبد العزيز أن تموت السنة الصحيحة بموت رواتها وبما وضعه الزنادقة والشيعة والخوارج ودسوه فيها ، أمر العلماء بتدوين الحديث

وبقى الأمر فى الشعر والأدب كما كان فى الجاهلية : لكل شاعر راوٍ أو عدة رواة . ومن أشهر هؤلاء هُدْبة[2] بن خَشْرم راوية الحطيئة ، وجميل[3] راوية هدبة ، وكثيّر[4] راوية جميل . وأبو شَفقل وعبيد أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق ، ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وصالح بن سليمان راوية ذى الرُّمّة[5] وذو الرمة راوية الراعى[6]

---

(١) المتنسكون المتعبدون (٢) قتل قوداً بالمدينة وعليها سعيد بن العاص من قبل معاوية
(٣) هو ابن عبد الله بن معمر العذرى الشاعر الغزل المتوفى سنه ٨٢ هـ (٤) هو تلميذ جميل وراويته وأحد شعراء النسيب المشهورين المتوفى سنة ١٠٥ هـ (٥) هو غيلان بن عقبة صاحب مية المتوفى سنة ١١٧ هـ
(٦) هو حصين بن معاوية وسمى بالراعى لانه كان يكثر وصف الرعاء فى شعره

وبقى الأمر كذلك حتى أواخر هـذا العصر فاشتغل العلماء بالرواية ، وصار الراوى منهم يروى لمئات من الشعراء والشواعر وان لم يكن هو شاعراً وأكثر هؤلاء العلماء من الرواة أدرك عصر بنى العباس فيذكر فيه

ومع تشدد الناس فى تصحيح الرواية سنةً وأدباً حدث فى الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزيادة ونحو ذلك

العصر الثالث

عصر الدولة العباسية[1] من ١٣٢ — ٦٥٦ هـ

أثر الحضارة العباسية فى أحوال اللغة وآدابها

نقصد بأحوال اللغة العربية فى ذلك العصر أحوالها بين أهل البلاد الإسلامية فى آسيا وأفريقية والأندلس وجزائر بحر الروم من أوربة ، ولو لم يكونوا تابعين للدولة العباسية فى الملك والسياسة

تأثير الحوادث

كان بنو أمية شديدى التعصب للعرب والعربية . فكان كلُّ شىء فى دولتهم عربىَّ الصّبغة . وكانت جَمهرة العرب[2] منتشرةً فى كل مكان امتدَّ اليه سلطانُها فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها لم تجـد لها من العرب أنصاراً وأعواناً مثل من وجدت من الفرس وأمم الأعاجم ، فاكتسحت بهم دولةَ بنى أمية ، وأسست دولة

(١) خلفاء بنى العباس الى سنة ٣٣٣ :

أبو العباس عبد الله السفاح	(١٣٢ — ١٣٦)	محمد المنتصر	(٢٤٧ — ٢٤٨)
أبو جعفر المنصور	(١٣٦ — ١٥٨)	ابو العباس أحمد المستعين	(٢٤٨ — ٢٥٢)
محمد المهدى	(١٥٨ — ١٦٩)	ابو عبد الله المعتز	(٢٥٢ — ٢٥٥)
موسى الهادى	(١٦٩ — ١٧٠)	محمد المهتدى بالله	(٢٥٥ — ٢٥٦)
هارون الرشيد	(١٧٠ — ١٩٣)	احمد المعتمد على الله	(٢٥٦ — ٢٧٩)
محمد الأمين	(١٩٣ — ١٩٨)	احمد المعتضد بالله	(٢٧٩ — ٢٨٩)
عبد الله المأمون	(١٩٨ — ٢١٨)	على المكتفى بالله	(٢٨٩ — ٢٩٥)
ابو اسحاق محمد المعتصم	(٢١٨ — ٢٢٧)	جعفر المقتدر بالله	(٢٩٥ — ٣٢٠)
ابو جعفر هارون الواثق	(٢٢٧ — ٢٣٢)	ابو منصور محمد القاهر	(٣٢٠ — ٣٢٢)
جعفر المتوكل على الله	(٢٣٢ — ٢٤٧)	ابو العباس احمد الراضى	(٣٢٢ — ٣٢٩)
		ابراهيم المتقى لله	(٣٢٩ — ٣٣٣)

(٢) جمهرة الناس والاشياء جلها ومعظمها كالجمهور . والجمهرة أصلها مصدر استعمل اسم ذات

قوية كان أكثرُ النفوذ فيها للموالى ؛ فاستخدمهم الخلفاء والأمراء فى كل شىء من سِقاية الماء الى قيادة الجيوش والوزارة . وأخذ شأنُ العرب السياسىّ يتضاءلُ[١] من ذلك الحين شيئاً فشيئاً حتى ضعفت النُّعَرَةُ العربيةُ[٢] فيهم ، وخمدت جَذْوةُ[٣] التباهى بكرم الأصل والنِّجار[٤] بينهم ؛ بحيث لم يمض قريبٌ من قرن على تكوين الدولة العباسية حتى لم يكن لعرب المشرق فى السياسة شأنٌ يُذكر ، وقُطِعت أرزاقهم من ديوان الجُند[٥] ، واندمجوا فى غُمار العامة ، واشتغلوا بالصناعة والفلاحة والحِرَف المختلفة واختلطوا بالأعاجم بالتصاهُر والتجاور ، وانغمروا فى مدنية الفرس وحضارتها أيما انغمار ؛ فكان من المجموع شعبٌ ممتزجٌ لغةً وعادةً وخلقاً واعتقاداً وفكراً وخيالاً ؛ فأثر ذلك كله تأثيراً بيّناً فى اللغة لفظاً ومعنى ، وشعراً ونثراً ، وكتابةً وتأليفاً . ولم يظهر ذلك بالطبع فى جميع الممالك بنسبة واحدة ؛ بل كان فى أواسط آسيا أظهر منه فى مصر والشام . أما حال ممالك الغرب والأندلس صدرَ هذا العصر فلم تَبْعُدْ كثيراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ؛ ثم سرت إليها عدوى تقليدها للمشارقة فى أكثر الأمور . ويمكن تقريبُ ذلك بان كلَّ تغيّرٍ فى لغة أو اختراع لفن أو علم فى المشرق كان أثره يظهر فى الأندلس بعد نصف قرن أو يزيد قليلاً ، إلاّ أن الصّبغة العربية كانت مرعيّةً بالأندلس فى الجملة وكذلك كانت فى إفريقية[٦] من ممالك البربر مُعظَمَ هذا العصر

ويمكن ارجاعُ جميع هذه التغيرات إلى ثلاثة أمور : الأول — ما يتعلق بالأغراض التى تؤديها اللغة . الثانى – ما يتعلق بالمعانى والأفكار . الثالث – ما يتعلق بالألفاظ والأساليب

أغراض اللغة

كانت أحوالُ الدولة العربية فى العصر السابق تقرُب من الغَضاضة والبداوة

---

(١) تضاءل الشىء خفى وتصاغر شخصه (٢) النعرة الخيلاء والكبر (٣) الجذوة مثلثة الجمرة من النار (٤) الاصل (٥) فعل ذلك المعتصم بن الرشيد ومن بعده
(٦) أفريقية هنا هى المسماة الآن بلاد تونس

لاستقلالها بالآداب العربية الاسلامية ؛ فلم تكن اللغة تتناول من المقاصد والأغراض غيرَ ما يتعلق بالدين ومعيشة الجِدِّ القليلةِ الترف. فلما قامت الدولة العباسية بما علمت، وتشبَّه الخلفاء والأمراء والولاة والرؤساء بملوك الفرس ودهاقينهم[1] فى أكثر أمور السياسة والمعيشة ، وحاكَتْهم العامة فى ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم ، تناولت اللغة فى المشرق أغراضاً لم تُعْهَد فيها من قبلُ بِنَقْل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها . ثم تناولت هذه الأغراضَ فى المغرب بعدئذ بفرق يسير على أن المسلمين من العرب وغيرهم كانوا قد ارتاحت عقولهم ونضِج استعدادهم لوضع الأنظمة والقوانين ، واستنباط أحكام الشريعة من أصولها . وتدوين العربية لحفظ اللسان والدين ، فكان من تلك الأغراض ما يأتى :

(١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية ولم يكن دُوِّنَ من ذلك فى صدر الإسلام إلاَّ نَزْرٌ يسيرٌ لا يذكر بجانب ما دوّن فى هذا العصر

(٢) الترجمةُ من اللغات الأجنبية الى العربية ولم يُترَجم فى العصر الماضى الى العربية بعد حساب الدفاتر الديوانية إلاَّ بعضٌ من الرسائل العلمية قلَّما يُعْرَف له خَبرٌ . واختص المشارقة بالترجمة دون المغاربة لعَرَاقة دولهم فى الملك وعَتاده ، ولأنهم ورِثُوا ممالك ذات علوم وحَضارة عظيمة

(٣) تأديةُ مقاصد الصناعات المختلفة وخاصَّة بعدَ دخول العرب فى غُمار[2] الصُّنَّاع وبعد تعرُّب الأعاجم

(٤) تأديةُ مقاصد أنواع الخلاعة والسُّخْرِيَة والمجَانة[3] مما قلَّ نظيرُه فى صدر الإسلام

(٥) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدَل وتدريس العلوم

(٦) تأديةُ المقاصد التى استدعاها الانغماسُ فى الترف والتنعمُ بلذائذ الحضارة التى

---

(١) جمع دهقان (بكسر الدال) وهو من العجم تاجرهم أو زعيم فلاحيهم أو رئيس اقليمهم
(٢) غمار الناس جماعتهم ولفيفهم (٣) مجن (من باب قعد) مجونا ومجانة لم يبال قولا وفعلا

جرتْ فيها الأمم الاسلاميةُ عصْرَ الدولة العباسية إلى أمد[١] بعيد ، أو اقتضتها أساليبُ نظام الملك والدفاع عنهُ : كالإمعان فى وصف الأشياء النفيسة من القصور وما فيها من الفراش والرياش والآنية والحلى والجوَارى والقِيان[٢] ، والبساتين وما فيها من أنواع الرياحين والأزهار والثمار والخُضَر ، وما يتبع ذلك من مجالس الشرب والمنادمة ومصايد الطير والسمك وأشكال الملاعب مما لم يُعرف للعرب فى صدر الإسلام أو عُرِف وكان قليلاً ممقوتاً ، وكوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية ، وامتاز بأكثر ذلك المغرب والأندلس ، كما امتازت الأندلسُ بالاجادة فى وصف مناظر الطبيعة ومحاسن الوجود لملاءمة بِيئتها لذلك ، وكادت تلحق بها فى الوصف صِقِلّيَة وإفريقية إبَّان ازدهائهما

المعانى والأفكار

إنَّ ما حدثَ فى مشارق الممالك الاسلامية ومغاربها فى أثناء العصر العباسى من الانقلابات السياسية والاجتماعية كان له نتيجةٌ ظاهرة فى الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية ، ظهر ذلك فى نثرهم وشعرهم بصور مختلفة ؛ فمنها :

١ — شُيوعُ المعانى الدقيقة والأفكار الجميلة ؛ والأخيلة البديعة فوق ما كان عليهِ الأمرُ فى صدر الإسلام

٢ — التهويلُ والغلوّ فى التفخيم المقتبَس فى المشرق من اللغة الفارسية ، والسارى بعضه بالعدوَى إلى أهل المغرب والأندلس فى أُخريات زمانهم

٣ — كثرةُ التعويل على القياس والتعليل فى الأحكام الفكرية : بالأكثار من الحجج والبراهين العقلية ، وانتحاء[٣] مذاهب الفلاسفة فى الشعر والكتابة والتدريس ولا سيما بعد عصر الترجمة ، وأكثرُ ما كان ذلك بالمشرق . وقلَّما عُنى بهِ أهل المغرب

---

(١) الأمد الغاية (٢) جمع قينة (بالفتح) وهى الأمة المغنية
(٣) مصدر انتحى بمعنى قصد

الألفاظ والأساليب

غلب على عبارة اللغة العربية فى هذه المدة أمران عظيمان : السهولة ، والمحسنات البديعية . ويشمل ذلك ما يأتى :

(١) انتقاء الألفاظ الرشيقة السهلة[١] والتأنق فى صوغ العبارات وتوثق الربط بينها ، والاكثار من استعمال ألفاظ القرآن الكريم وعبارته[٢] والاقتباس منه والاستشهاد به : لاستعمال الرويّة ، وقلة الحاجة الى الارتجال ، وضيق نِطاق المحفوظ على المتكلم بالعربية بالدرس والصناعة لا على المتكلم بالطبيعة والفطرة كما كان الأمر فى العصرين الماضيين وزاد فى ذلك المشارقة على المغاربة

(٢) تفاقُمَ الخَطْب فى استعمال الكلمات الأعجمية فى كثير من الأشياء ، ولا سيما ألوان الأطعمة وأنواع الآنية والفُرُش وأدوات الصناعات والعقاقير[٣] الطبية وأسماء الأمراض

(٣) التوسع والاكثار من ألفاظ المجاز والتشبيه والتمثيل والكناية والمحسنات البديعية كالجناس والطباق والتورية ونحو ذلك ، وخاصة أواخر هذا العصر . وكانت عناية المغاربة بالمجاز والتشبيه أكثر من عنايتهم بالتورية والجناس

(٤) التوسعَ فى ادخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء وأرباب المناصب العالية . وكان ذلك فى الأندلس آخر حياتهم

(٥) الميلَ الى استعمال السجع ، وازداد أمره فى النصف الثانى من هذا العصر

(٦) التطرف الى غاية حَدَّى الاطناب والإيجاز ولكل منهما مقام . وكان الأندلسيون إلى الأطناب أميل

---

(١) نقصد بالسهل هنا ما كان خفيفاً فى النطق وعلى السمع ، مألوف المعنى والاستعمال عند أوساط البلغاء فى عصره فقد يكون السهل فى زمان صعبا فى آخر

(٢) واطرد ذلك فى كل شىء حتى شارات الدولة من البنود (الاعلام) والطراز (علم الثوب أى ما يكون فى حاشيته من النقش والكتابة) والسكة أى الاداة التى يضرب عليها

(٧) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وادارة الدولة وأسماء آلات الحرب وغيرها ؛ واحداث لغة تأليفية لتعليم العلوم تقاسُ بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة

واذ كانت اللغة إما نثراً و إما شعراً ، والنثر محادثة ، وخطابة وكتابة ، ناسب أن نُلمَّ بمجْمَلِ كلٍّ منهما فنقول :

النثر

المحادثة (أو لغة التخاطب)

قدمنا لك أن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب فى أواخر العصر الماضى كانت العربيةَ الفصيحةَ الخاليةَ من اللحن إلاّ من آحاد استُهْجِن منهم ، وعيبوا بهِ ، وأن لغةَ العامة والسُّوقة من العرب المختلطين بالعجم هى العربية المَشوبة بشىء من اللحن ، ولغة المتعربين من العجم تقِلّ عن هذه فى الفصاحة ، وتزيد عليها فى اللحن بمراتب مختلفة

فلما تمّ امتزاجُ العرب بالعجم عصرَ الدولة العباسية ، تكونت بين العامة فى البلاد التى تكثر فيها جمهرة العرب لغاتُ تخاطبٍ عاميةٌ مؤلفةٌ من العربية المحرَّفة وشىء من الدخيل الأعجمى إلاّ بين أهل جزيرة العرب ، فلم يزل تخاطبهم باللسان العربى الفصيح الى أواسط القرن الرابع . و بقيت لغات التخاطب فى البلاد التى تقل فيها جاليتهم هى اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التى أدخلها عليها الإسلام

وخاف الخلفاء والخاصة من هَوْل تغلُّب العامية على أبنائهم ، وأشفقوا أن تستطيل على الفصيحة ، فيستغلق على المسلمين فهم الكتابِ والسُّنة وهما كلُّ الدين ؛ فحرَّضوا العلماء على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة وعلوم الدين وكافئوهم ببِدر[1] الأموال ، وحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدّبون أولادهم وخاصتهم ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة

(١) جمع بدرة (بالفتح فالسكون) كيس المال ، قيل : الف ، وقيل عشرة آلاف من الدراهم . وقيل سبعة آلاف من الدنانير

الدولة . ولكنَّ ذلك كلّه لم يوقف تيار العامية الزاخر ، واستمر فى طغيانه الى أن غلب فى النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب حتى لغةِ الخلفاء وعلماء العربية أنفسهم ، وأصبح لكل بلاد عربية لغة تخاطب عاميةٌ خاصةٌ بها

ولم يدون أسلافنا اللغاتِ العامية خشيةَ أن تزاحِمَ العربية الفصيحة وهى اللسان العامُّ بين جميع ممالك الإسلام فتنسخها ، فيرتجَ باب الدين ، وتتقاطع الأمم الاسلامية ؛ فتقتصرَ كل أمة على كتبها ولغتها ، وفى ذلك من انحلال الروابط السياسية والعلمية والدينية ما لا يخفى . ونعم إن الأندلسيين والمغاربة فى أواسط هذا العصر وأواخره قد رَقَّوا العامية قليلاً بما نظموا بها كثيراً من الموشّح ، وأنواع الزجل . والشعر العامىّ ، وعروض البلد[1] ، وما دوّنوه منها الاّ أن ذلك والحمد لله لم يكن طويل الأمد ؛ ولم تعمّ به البلوى ، فلم تصبح العامية به لغة علم وأدب

الخطـــابة

لما كان قيام الدولة العباسية فى المشرق والأدريسية[2] فى المغرب الأقصى ، والأموية الثانية فى الأندلس[3] ، من الأمور التى ينشأ منها كثيرٌ من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعى تأليفَ العصابات ودعوة الناس الى التشيُّع لزعماء الأحزاب ، وكان التفاهُمُ بالعربية الفصيحة والانجذاب بالبلاغة لا يزال مستحكماً صدر هذا العصر - بقيت دواعى الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها ؛ فكان بين قوّاد هذه الدول ودعاتها وخلفائها وولاتها ورؤساء وفودها خطباء مصاقع ، وبلغاء فطاحل[4] ثم لما فتَرَت هذه الدواعى باستقرار الدول ، واشتد اختلاط العرب بالأعاجم وتولى كثير من الموالى قيادةَ الجيوش وعِمالة الولايات والمواسم - ضعفَ شأن الخطابة لضعف قدرتهم عليها ، وقلة المستجيبين لها لتناقص العناصر العربية فى الجند

(١) ذكرنا أمثلة ذلك فى العصر التالى لكثرة شيوعه فيه (٢) أسسها ادريس بن عبد الله حفيد الحسن بن على بن أبى طالب بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢ هـ وبقيت الى سنة ٣١٩

(٣) أسسها عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١٣٩ هـ — وبقيت الى سنة ٤٢٧ هـ (٤) جمع فطحل كهزبر وهو فى الأصل الضخم من الابل

وأهل النجدة . فلم يمض قرن ونصف من قيام تلك الدول حتى بطل شأنُ الخطابة السياسية والمذهبية ، إلاّ قليلاً فى المغرب أيام الحفْل وقدوم الوفود ، و بقيت الخطابة مقصورة على خطب الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزّواج ونحو ذلك ، وقلّ فيها الارتجال أو عدِمَ جُملةً ، وحل محلّ الخطابة فى الأمور السياسية نشرُ المنشورات ، وفى الأمور الدينية مجالس الوعظ والتزهيد ، والتدريس فى المساجد والمدارس

نماذج من الخطب

حج المنصور بعد بناء بغداد فقام خطيباً بمكة فكان مما حفظ من كلامه (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُون) أمر مبرم وقول عَدل ، وقضاء فصل ، والحمد لله الذى أفلج حجتَه[١] ، و بُعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضاً ، والفىء إرثاً ، وجعلوا القرآن عِضِين[٢] لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، فكم ترى من بئر معَطلةٍ وقصر مَشيد ، أمْهلهم الله حتى بَدَّلوا السنة ، واضطهدوا العِترة ، وعَنَدوا واعتدوا واستكبروا ، وخاب كل جبار عنيد ، ثم أخذهم فهل تُحِسّ منهم من أحد أو تسمع لهم رِكْزاً[٣]

وخطب المأمون بمَرْو[٤] وقد ورد عليه كتاب الأمين يُعزّيه بالرشيد ويحثه على أخذ البَيْعة فقال : ان ثمرة الصبر الأجر ، وثمرة الجزع الوِزْر ، والتسليمُ لأمر الله عزّ وجل فائدة جليلة ، وتجارة مُربحة ، فالموت حوض مورود ، وكأس مشروب . وقد أتى على خليفتكم ما أتى على نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإنا لله و إنا اليه راجعون فما كان إلاّ عبداً دُعى فأجابَ ، وأمر فأطاعَ . وقد سدّ أمير المؤمنين ثَلْمه ، وقام مقامَه ، وفى أعناقكم من العهد ما قد عرفتم . فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى ، واغتبطوا بالنعماء والوفاء فى خليفتكم الباقى . يأهل الدنيا الموتُ نازلٌ . والأجل طالبٌ . وأمس واعظ . واليوم مغتَنم وغداً منتظر . ثم نزل

---

(١) أفلج حجته أظهرها (٢) العضة القطعة وجمعها عضون وجعلوا القرآن عضين أى فرقا فجعلوه كذباً وسحراً وكهانة وشعراً (٣) صوتاً خفياً (٤) بلدة بفارس وهى قاعدة بلاد خراسان

وخطب عبد الله بن طاهر الناس وقد تهيأ لقتال الخوارج فقال — انكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، الذَّابون عن دينه الذائدون(١) عن محارمه ، الداعون الى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة أمره ، الذين جعلهم رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فاستنجزوا مَوْعودَ الله ونصره بمجاهدة عدوّه وأهل معصيته الذين أشِروا(٢) ، وتمردوا ، وشقوا العصا ، وفارقوا الجماعة ، ومَرقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فساداً ؛ فانه يقول تبارك وتعالى ، ان تنصروا الله يَنصُرْكم ويثبِّتْ أقدامكم ، فليكن الصبر مَعقِلَكم(٣) الذى اليه تلْجَئون ، وعُدّتكم التى بها تَسْتَظْهرون ؛ فانه الوزَر(٤) المَنيع الذى دلكم الله عليه ، والجُنّة(٥) الحصينة التى أمركم الله بلباسها ، غضُوا أبصارَكم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافّكم وامضوا قدُماً على بصائركم ، فارغين الى ذكر الله والاستعانة به كما أمركم الله ؛ فانه يقول (إذا لَقيتم فِئَةً فاثبُتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) أيدكم الله بعز الصبر ووَليكم بالحياطة والنصر

الخطبـــاء

اشتهر فى صدر الدولة العباسية جملة من الخطباء جلُّهم من بنى هاشم عباسيين وعلويين ثم من الخوارج ، ومن بعض خطباء الأمصار من بنى مِنقر وآل الرّقاشى وآل خاقان بالبصرة وبعض زعماء بنى أمية وفقهائهم بالأندلس(٦) وآل الأغلب فى إفريقية . ومن أشهرهم داود بن على ، وشبيب بن شيبة ، وهاك ترجمتهما

داود بن علىّ

هو داودُ بن علىّ بن عبد الله بن عباس خطيب بنى العباس ، وأحد مؤسسى دولتهم ، نشأ هو واخوته وكانوا اثنين وعشرين رجلاً فى قرية الحُمَيْمَة من أعمال

---

(١) الذود المنع والطرد (٢) بطروا (٣) ملجأكم (٤) الوزر بفتحتين الملجأ
(٥) الجنة بالضم كل ما وقى (٦) وأشهرهم المنذر بن سعيد البلوطى

عَمَّان [١] وكان الوليد بن عبد الملك أجلى عليَّ بن عَبد الله بن عباس وأهل بيته اليها غضباً عليه

وأخذ هو وأخوته علمهم وأدبهم عن أبيهم عليّ حبر قريش وابن حبرها و بليغها ووارث علم أبيه عبـد الله بن عباس وعابد أهل زمانه ، كما أخذوا الفصاحة من البدو النازلين فيهم من قبائل لَخْم وجُذام وتَنُوخ وغسّان وقيس ، فانطبعت فيهم صفات البدو من الشجاعة والبصر بالقتال و إباء الضيم والاستقلال وفصاحة اللسان والبطش وحبّ الانتقام ، وجانَبْتهم صفات الحضر من الانغماس فى الترف واللّذات والعكوف على الملاهى

وكان داود أحد النابغين من اخوته فى هذه الصفات و يزيد عليهم أنه كان بليغهم ولسانهم وأخطبهم فى وقته . وعاجلته منيته قبل أن يستطير سلطانه فى الدولة . ولاه أبو العباس — عِقب بيعْته بالكوفة — ولاية الكوفة وسَوَادَها ، ثم ولاه إمارة الحاج فى هذه السنة ، وولاه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بنى أمية فى مكة والمدينة فى هذا العام أى سنة ١٣٢ ﻫ وهو أول موسم ملكه بنو العباس ، وخطبهم الخطبة الآتية بعد . ثم ذهب عقب الموسم الى المدينة فتوفى بها بعد شهرين من قدومه اليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ ﻫ

ولداود خطبة عظيمة [٢] خطبها يوم بيعة أبى العباس على منبر الكوفة ، أما خطبته فى موسم مكة فهى مختصرة من خطبة الكوفة وهى « شُكْراً شُكْراً إنَّا والله ما خرجنا لنَحْفِرَ فيكم نهراً ، ولا لنبنى فيكم قصراً ، أظنَّ عدوُّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوخِيَ له من خِطامه حتى عَثَرَ فى فضل زمامه ؟ فالآن [٣] حيث أخذ القوس باريها ، وعادت القوسُ الى النَزَعة [٤] ، ورجع الملك فى نصابه فى أهل بيت النبوّة والرحمة ، (والله لقد كنا نتوجع لكم ونحن فى فرُشنا) ، أمِنَ الأسودُ

(١) بلدة على خط سكة الحديد الحجازية هى الآن مقرّ امارة شرق الاردن
(٢) راجع تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى (٣) ظرف لامن الاسود
(٤) جمع نازع وهو الرامى يشد الوتر اليه ليضع فيه السهم

والأحمرُ ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكم ذمة العباس ؛ لا وربِّ هذه البَنِية – وأومأ بيده الى الكعبة – لا نهيج منكم أحداً »

شبيب بن شيبة

هو شبيبُ بن شَيْبَةَ بن عبد الله المِنْقَرِيّ[١] التميمي خطيبُ البصرة فى زمانه . نشأ فى البصرة وامتاز بنَبالة نفس ، وسخاء كفٍّ ، وحسن تواضع ، ونزاهة لسان ، كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة القريبة من حدّ الاعجاز . وهو ابن عم خالد بن صفوان[٢] الخطيب المشهور . وسمعه خالد هذا يتكلم فى رَهْطه ، فقال يا بُنيّ لقد نَعى الىّ نفسى إحسانُك فى كلامك ؛ فإنا أهلُ بيت ما نشأ فينا خطيبٌ إلاَّ مات مَن قبْله . فقال له شبيبٌ بل يبقيك الله ، ويجعلنى فداءك

وقال الجاحظ : يقال إنهم لم يروا خطيباً بَلَدِيّاً[٣] الاَّ وهو فى أوَّل تكلّفه بتلك المقامات كان مستثقلاً مستصلفاً[٤] أيامَ رياضته كلها الى أن يتوقح[٥] وتستجيب له المعانى ويتمكن من الألفاظ الاّ شبيب بن شيبة ؛ فانهُ ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار فى كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره ، وقد يطول حتى يقول فيه الراجز :

إذا غدت سعد على شبيبها   على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس الى مغيبها   عجبتَ من كثرتها وطيبها

وعرف شبيب أبا جعفر المنصور[٦] قبل خلافته ثم اتصل به بعدها . فجعله فى حاشية ولىّ عهده المهدى[٧] وبقى كذلك حتى وُلّيَ المهدى الخلافةَ فصار من

(١) بنو منقر بطن من تميم (٢) كان خطيب بنى تميم فى زمنه واشتهر فى بنى أمية وأدرك عصر بنى العباس وسمر للسفاح (٣) أى من أهل الأمصار لا من البادية
(٤) من الصلف وهو تجاوز الحد فى اظهار الظرف مع العجب والـكبر (٥) يقل حياؤه ويجرؤ
(٦) هو أمير المؤمنين أبو جعفر عبد الله المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس
(٧) هو أمير المؤمنين محمد المهدى بن المنصور

خِيرة سُمّاره وجلسائه الى أن مات فى حدود سنة ١٧٠

ومن خطبه القِصار ما عزّى به المهدىّ يوم ماتت ابنته البانوقة وجزع عليها جزعاً شديداً . ويقال إنها كانت أبلَغ تعزية قيلت فى هذا اليوم وهى :

أعطاكَ اللهُ يا أميرَ المؤمنين على ما رُزِئتَ(١) أجراً . وأعقبك صبراً . ولا أجهدَ اللهُ بلاءك بنقمة . ولا نزع منك نِعمة . ثواب الله خيرٌ لك منها . ورحمةُ الله خير لها منك . وأحقُّ ما صُبِر عليه ما لا سبيل الى ردّه !

الكتابة

الكتابة خطية و إنشائية

الكتابة الخطية

تنوّع فى هـذا العصر الخط الكوفى الى أنواع أربت على خمسين نوعاً . من أشهرها المحرّر والمشجّر والمربّع والمدور والمتدخل . وبقى مستعملاً فى المبانى والسكة الى حدود الألف ، ثم نسى جملة . وقد جدّدت منه أنواعٌ فى عصرنا

أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث فى آخر الدولة الأموية أن استنبط قطبة المحرّر من الخط الكوفى والحجازى خطاً هو أساس الخط الذى يكتب بِهِ الآنَ ، واخترع القلم الجليل الذى يكتب به على المبانى ونحوها ، وقلم الطومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل ، وعرض قطته ٢٤ شعرة من شعر ذنب البِرْذون ، وحسّن عمله غيرُه من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهر ابراهيم الشِّجرى وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثانى ؛ فولّد ابراهيم من الجليل قلم الثلثين (أى ثلثى الطومار) وعرض قطته ١٦ شعرة ، وقلم الثلث وعرض قطته ٨ شعرات . وولّد يوسف من

---

(١) أى أصبت

الجليل القلم الرّياسيّ[١] وهو قلم التوقيع

وعن ابراهيم أخذ الأحول المحرر (من صنائع البرامكة) ، واخترع قلم النصف وعرضه ١٢ شعرة ، وخفيف الثلث والمُسلسل (هو المشتبك الحروف) وغبار الحَلْبة[٢] والرقاع وغيرها . هذه هى أشهر الخطوط . وقد تولّد منها نحو من ٢٠ خطاً يختص كل منها بغرض خاص . واتفقوا على أن طول الألف يُعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف ، وأن يكون طول الألف مربع مقدار قطة القلم

وعن الأحول أخذ مهندس الخط الأعظم الوزير أبو على محمد بن مُقْلة وأخوه أبو عبد الله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ ﻫ وهما اللذان تم على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التى نعرفها الآن ، وأمّا العمل الذى بدأ به قطبة ، فهندسا الحروف وقدّرا مقاييسها وأبعادها ، وضبطاها ضبطاً محكماً، واخترعا له القواعد . وعن الوزير ابن مقلة أخذ أبو عبد الله بن أسد القارئ المتوفى سنة ٤١٠ ﻫ وعنه أخذ أبو الحسن علىّ ابن هلال البَغدادى المعروف بابن البواب المتوفى سنة ٤١٣ وهو الذى أكمل قواعد الخط واخترع عدّة أقلام ، واليه انتهت الغاية . وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقته . كأمين الدين ياقوت الملكى المتوفى سنة ٦١٨ ﻫ كاتب السلطان ملكشاه السلجوقى

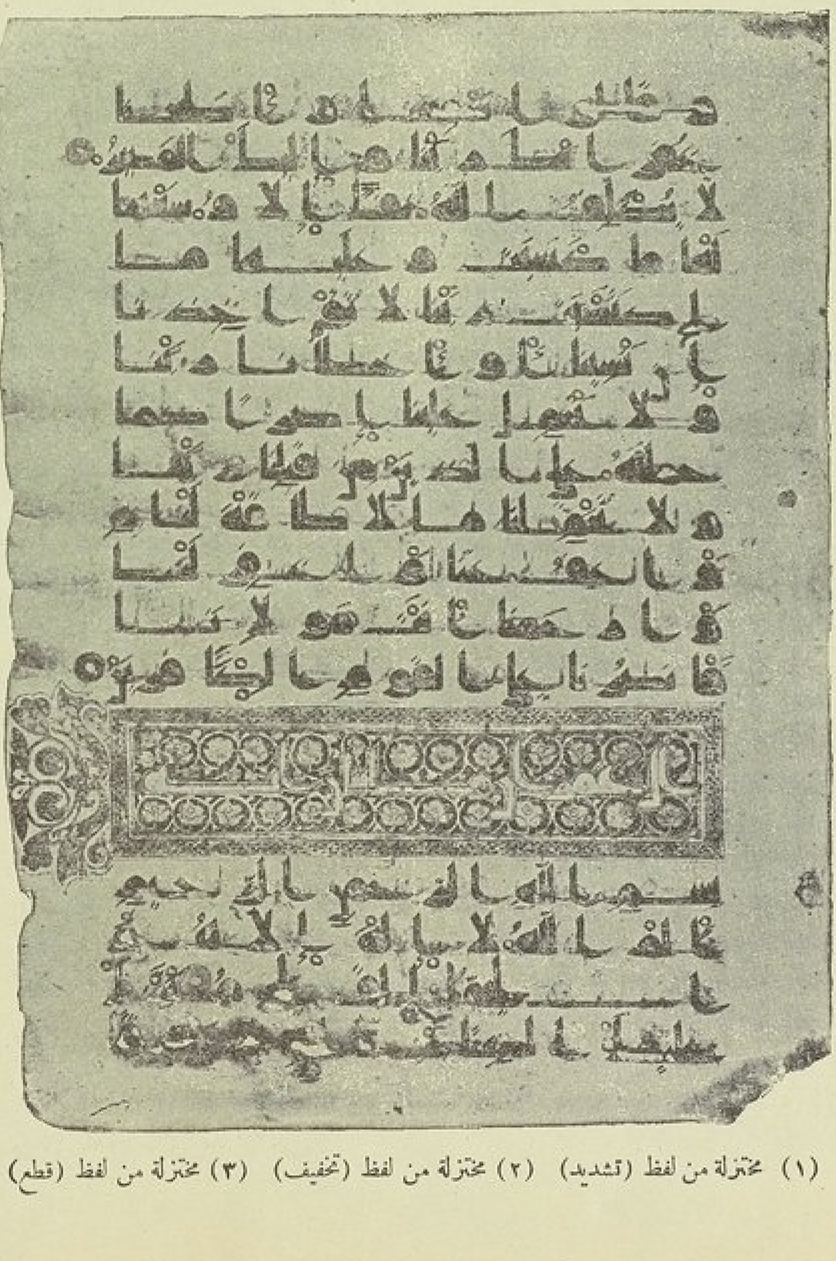
أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبئوا بهذا الاصلاح وبقُوا يكتبون على طريقة الخط الحجازى الى الآن بنوع من التعديل

ضبط الحروف بالشكل — قد ذكرنا فيما تقدَّم طريقة أبى الأسود التى اتبعت فى زمن بنى أمية وصدر بنى العباس ، وبقيت مستعملة فى الأندلس الى أواسط القرن الرابع . ولما استكثر الناس من إعجام الحروف لتسهيل التعليم ، اشتبهت نقط الإعجام بنقط الشكل ، مع أن هذه كانت تُلوَّن بمداد مخالف ، فكان من الصعب وضياع الزمن كتابتُها بمدادين . فاخترع الخليل الشكل المستعمل

(١) نسبة الى الفضل ذى الرياستين وزير المأمون ويكتب به فى بطائق حمام الزاجل

(٢) شبه لدقته بغبار حلبة الخيل

الآن بأن كتب الضمة واواً صغيرة تكتب فوق الحرف والفتحة ألفاً، والكسرة ياء، والشدَّة رأس شين[١]، والسكون رأس خاء[٢]، وهمزة القطع رأس عين[٣]. ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن. وهاك نموذجاً من الخط الكوفى المصحفى مضبوطاً بضبط الخليل وأبى الأسود معاً مرسوماً فيه نقطة الشكل دائرة مفرغة



(١) مختزلة من لفظ (تشديد) (٢) مختزلة من لفظ (تخفيف) (٣) مختزلة من لفظ (قطع)

وقالوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَالَيْكَ ٱلْمَصِيرُ
لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَها
لها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما
اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تؤاخِذْنا
إنْ نَسِينَا أو أخطأْنا رَبَّنا
وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كما
حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِن قَبلنا رَبَّنَا
وَلاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ
واعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا
وَارْحَمْنَا أَنْتَ مولاَنَا
فَانْصُرْنَا على الْقَوْمِ الكافِرِين
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الٓم اللهُ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُو
ٱلْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ
عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً .

ابن مُقلة

هو الوزير أبو علىّ محمد بن على بن الحسن بن مقلة ، أمام الخطاطين : وأحد كبار الكتاب البارعين . أخذ الخط عن الأحول المحرّر صنيعة البرامكة ، وتم على يده ويد أخيه الحسن نَقلُ الخط من الكوفىّ الى الشكل المعروف فى زماننا

وكان ابن مقلة يتولَّى فى أول أمره بعضَ أعمال فارس ويَجْبى خراجها ، وتنقَّلَتْ بِهِ الأحوال الى أن استوزَره الامام المقتدر بالله سنة ٣١٦ . ثم كاد له أعداؤه عنده فقَبَض عليه سنة ٣١٨ هـ وصادر أمواله ونفاه الى فارس — ثم وزر للراضى فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعُزل و بقى مُعتزلاً الوزارة . ثم أطمعهُ نحسُهُ أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة المُسْتَضْعَف . فلم يستطع الخليفة كتمان سره وأفشاه الى ابن رائق ، فقبض عليه وقطع يده اليمنى . ثم ندِم الراضى على ذلك وأمر الأطباء بملازمته الى أن برأ . وكان يشُدُّ القلم على ساعده ويكتب به . ثم كاد له ابن رائق لما أحس منه مطالبته للوزارة ، وكان عاقبة ذلك أن قطع لسانه أيضاً ، وأقام فى الحبس مدّة طويلة قاسى فيها عناء شديداً ولم يزل به حتى مات سنة ٣٢٨ هـ

ومن قوله فى تلك الحوادث :

اذا ما مات بعضُك فابك بعضاً   فان البعض من بعض قريب

وقوله :

ما سئمت الحياة لكن توثَّقـــتُ   بأيمـانهم فبانت يمينى
بعت دينى لهم بدنياى حتى   حرمونى دنياهمو بعد دينى
ولقد حُطت ما استطعت بجهدى   حفظ أرواحهم فما حفِظونى
ليس بعد اليمين لذةُ عيش   يا حياتى بانت يمينى فبينى

الـكتابة الانشائية

كتابة الرسائل الدّيوانية والإِخوانية(١)

كانت كتابة الرسائل فى أوائل حكم بنى العباس جاريةً على نظام كتابتها فى أواخر عهد بنى أميةَ سالكةً الطريق التى سلكها عبد الحميد وابن المقفَّع والقاسم ابن صبيح(٢) وعِمارة بن حمزة(٣) ونظراؤهم : من العناية بجمل عباراتها جزلةً بليغة متناسقة الوضع والأسلوب ، لا يقصد بهـا إلا إفهام المعْنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوَّة حجة ، غير منظور فيها الى زُخرف اللفظ ومحسّناته . وبقيت كذلك بل زادت حسناً وجمالاً ومراعاةً لمقتضى الحال الى أوائل القرن الرابع . ثم أخذت الصّناعات اللفظية تغلبُ عليها تدريجاً بتضاؤُل مَلكة البلاغة فى الكتّاب وتقاصُر هممهم عن استيفاء أداتها : لتغلب الأعاجم من الديلم البويهيين(٤) والترك

---

(١) نسبت الى الجمع من قديم وان كان القياس نسبتها الى المفرد وباب النسب واسع

(٢) أصله من القبط أسلم أبوه صبيح زمن بنى أمية وكتب ابنه القاسم لامرائهم ثم كتب للمنصور ، وهو جد احمد بن يوسف وزير المأمون المشهور (٣) من موالى العباسيين ويضرب به المثل فى البلاغة والـكبر . كتب وعمل للمنصور والمهدى

(٤) الدولة الديلمية البويهية من ٣٢٢ — ٤٨٨

أصل أبيهم بويه صياد ورزق السعادة فى أبنائه الثلاثة الذين اقتسموا ملك العراقين العجمى والعربى وفارس والجزيرة (واكبرهم) عماد الدولة أبو الحسن على (صاحب بلاد فارس) توفى سنة ٣٣٨ بغير عقب ، ونزل عن ملكه لعضد الدولة ابن أخيه ركن الدولة — (وأوسطهم)

السُّلجُوقيين[١] على سلطان الخلفاء فى الشرق وتغلب البربر على شمالىّ إفريقية والأندلس فى الغرب ، فلم يعُدْ فى الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها . وما زالت كذلك حتى سقطت الدّولة العباسية على أيدى الأعاجم من التتار[٢] ، فكان ذلك عصرَ ابتداء اضمحلال الكتابة واضمحلال اللغة فى الجملة

ويمكن التنويهُ ببعض التغيرات التى طرأت على كتابة الرسائل أو غلبت عليها فى عصر الدولة العباسية بذكر الأمور الآتية :

(١) تعــدّد أغراض الكتابة وموضوعاتها بتعدد أعمال الدواوين الكثيرة والرسوم الوفيرة التى اسْتُحْدِثَتْ فى الدولة وتضاعفت مراراً عما كانت عليه فى العصر الماضى ، وبما زاد على الرسائل الإخوانية : من استعمالها أواسط هذا العصر فى بعض أغراض الشعر : من الهجاء والمفاخرة كما حدث بين البديع والخُوارزمى وغيرهما

(٢) دقة المعانى واستقصاء جميع جزئياتها وترتيب الأفكار ترتيباً منطقياً أو نسْبيا[٣]

(٣) الغلو فى طرفى الإطناب والإيجاز بحسب مقتضيات الأحوال ؛ فقد كانت الكتب التى تُقْرَأُ على العامة من بيعة أو منشور ، أو أخذ بسياسة ، أو احتجاج

ركن الدولة أبو على الحسن (صاحب عراق العجم) توفى سنة ٣٦٦ وقسم أملاكه على أولاده الثلاثة عضد الدولة فناخسرو ، ومؤيد الدولة بويه ، وفخر الدولة على ، فمات مؤيد الدولة قبل فخر الدولة فانضمت الى هذا مملكة أخيه ، ثم مات فخر الدولة وخلفه ابنه مجد الدولة — (وأصغرهم) معز الدولة أبو الحسين احمد (صاحب العراق والأهواز المستولى على بغداد) توفى سنة ٣٥٦ تولى بعده عز الدولة بختيار فاغتصب ملكه منه ابن عمه عضد الدولة وضم اليه اكثر أملاك آل بويه والجزيرة فأصبح اكبر ملك فيهم وتوفى سنة ٣٧٢ وملك بعده ابناه صمصام الدولة ثم شرف الدولة ، ثم ابن الأخير بهاء الدولة ، ثم ابن هذا سلطان الدولة ، ثم أخوه مشرف الدولة ، ثم جلال الدولة بن بهاء الدولة ، ثم اضطرب أمرهم وزالت دولتهم

(١) ينسبون الى جدهم سلجوق وأصلهم من الترك خرجوا على العباسيين فى أواخر دولتهم واستولوا على ممالكهم واستقلوا بها استقلالا داخليا

(٢) هم الغزاة الجبابرة الذين خرجوا من صحراء المغول وأغاروا على اكثر ممالك آسيا من الصين وما وراء النهر وخراسان وبلاد العراق وفارس والشام وأزالوا الدولة العباسية سنة ٦٥٦ بقيادة زعيمهم الأكبر هولاكوخان

(٣) كالترتيب بين الأهم والمهم والكل والجزء والمجمل والمفصل

لمذهب ؛ أو تفصيل انتصار جيش ، أو نحو ذلك تكتب بغاية الاسهاب والتبيين والايضاح تقريراً لها فى أذهان العامة وتفخيماً لشأن السلطان وتعظيماً لِنعم الله عليه وعلى أهل بيته

وعلى عكس ذلك كانت الكتبُ التى تصدرُ عن الخليفة أو الوزير أو الرئيس الى الوُلاة والمرءوسين فى أمر أو نهى أو سؤال عن حدث ؛ فقد كان غُلوهم فى الايجاز فيها يصل الى درجة الاشارة والرمز ، بل قد يخل بشروط الفصاحة . ومن ذلك التوقيعات [1] التى كان يوقّعها الخلفاء والوزراء والرّؤساء على الكتب التى تُقدَّم بقصة حال . ومن أمثلة الايجاز كتاب عمرو بن مَسْعدة [2] فى توصية (كتابى اليك كتابُ مَعنِيّ بمن كَتَبَ له ، واثقٍ بمن كُتِبَ اليه ، ولن يَضيعَ حاملهُ بين الثقة والعناية)

(٤) سهولةُ العبارة وانتقاء ألفاظها وجودةُ رصفها ، فوق ما اتبعه المتأخرون من كتاب العصر الماضى

(٥) شيوع السجع القصير الفقرات غالباً . والوَلوع بالمحسنات البديعية كالجناس والطباق والتوجيه وحل الأبيات السائرة وضرب المثل ، والتلميح اليه ، وتضمين الأحاديث النبوية ، والحكم المأثورة أو الاشارة اليها ، والاقتباس من كلام البلغاء وتضمين الأفذاذ من أبيات الشعر ، الاَّ أن كل ذلك لم يكن ملتزماً فى القرنين الأوّلين من عمر الدولة ، وانما كاد يُلتزم بقيةَ أزمانها وخاصة وقت هَرَمِها ، فغلب السجع على كل الرسائل حتى كتب الفنون . ثم طالت فقراته ، وتنوّعت أقسامه ، وأصبحت التورية محك البراعة بين الأدباء والكتاب . ولم يغل أهل الأندلس وشمالىّ إفريقية فى ذلك غلوّ أهل المشرق

(٦) زيادة أنواع البدء والختام فى الرسائل ، فزاد العباسيون فى الصورة العامة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه صيغة الصلاة والسلام عليه بعد التحميد وتَلَقّبَ خليفتهم فيها بالإمام ، وتكنى بأبى فلان . واتبعوا أيضاً صورة ابتداء عبد الحميد . وهى بعد البسملة :

---

(١) جمع توقيع وهو أن يعلق ذو الأمر أسفل كتاب رفع اليه بما يراه ، بعبارة موجزة تؤثر عنه (٢) هو أحد وزراء المأمون ومن أبلغ كتاب الايجاز

(أما بعد فالحمد لله) ويكرر الحمد أو يفرد ، وقد يحذفون (أما بعد) ويبتدئون بصيغة (الحمد لله الخ)

ومن الصّيغ التى يُعْزَى اختراعُها أو مبدأ شُيوعها للعصر العباسى البُدَاءةُ بالدعاء إما بتقديم (أما بعد) أو بغيرها ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى الرسائل الاخوانية

ومن أمثلة الدُعاء (أدام الله نعمته عليك . وأيدَك بروح من عنده ، وأطال الله بقاء المولى أو الشيخ[1] أو الأستاذ الخ)

ومن الصور التى كانت تستعمل أيضًا :

(كتابى اليك) ويردفونه بما يناسب من دعاء أو ثناء أو وصف . ثم صاروا يخاطبون الخلفاء والسلاطينَ بالدّعاء لهم أو لديوانهم[2] أو لحضرتهم أو لمجلسهم أو لمقرِّهم

وكانت صور الاختتام لا تقل عن صور الافتتاح ، فقد كان بلفظ (والسلام) أو (والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته) ثم استعمل فى الختام (ان شاء الله) بعد الدعاء أو غيره . وقد يكون بحمدلة وصلاة وسلام . وذلك فى الكتب السلطانية ، وقد يزاد عليها الحسبلة

(٧) زيادة الرسوم فى الألقاب والدّعاء وتخصيص كل ذى مرتبة بلقب أو دعاء بما يشعر بتعظيم الملوك والأمراء وتفخيمهم والتهويل بشأنهم . وذاع ذلك أواخر هذا العصر

(٨) اختراع المقدّمات فى أوائل الرسائل المطولة والعهود والمنشورات

وجملة القول أن الكتابة فى هذا العصر عامةً ، وفى صدره خاصةً كانت أرقى ما وصل اليه الانشاء العربى

---

(١) شاع استعمال لفظ « الشيخ » أو « الأستاذ » أو « الرئيس » فى النصف الثانى من حياة الدولة لرؤساء الكتاب والوزراء فى الدولتين السامانية والبويهية

(٢) شاع الدعاء للديوان العزيز (أى ديوان الانشاء) وللحضرة وللمقر والمجلس أواخر الدولة

نماذج من الرسائل والتوقيعات والمقامات(١)

كتب أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئ بمولود :

أما بعدُ فليس من أمرٍ يجعلُ اللهُ لك فيه سروراً إلاَّ كنتُ به بَهجاً ، اعتدّ فيه بالنعمة من الله الذى أوجب علىّ من حقك ، وعرّفنى من جميل رأيك ، فزادَكَ اللهُ خيراً ، وأدام إحسانه اليك . وقد بلغنى أن الله وهب لك غلاماً سَرِيًا ، أجملَ صورته ، وأتمَّ خَلْقه ، وأحسن فيه البلاء عندك ، فاشْتدّ سرورى بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ؛ فبارك الله فيه ، وجعله بارًا تقِيًا ، يشُدّ عَضُدَك ، ويكثر عددَك ، ويُقرّ عينك

وكتب عَمرو بن مَسعَدَة إلى المأمون فى رجل يستشفع له بالزيادة فى منزلته عنده وجعل كتابه تعريضاً لنفسه :

أما بعدُ فقد استشفع بى فلان (يا أمير المؤمنين) لِتطوُّلك علىّ فى إلحاقه بنُظرائه من الخاصّة فيما يرتزقون ، وأعلمتْه أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفعين ، وفى ابتدائه بذلك تعدّى طاعته والسلام – فوقع المأمون :

قد عرفنا تصريحك له وتعريضك لنفسك وأجَبْناك اليهما ، ووقفْناك عليهما . ووقع أيضاً إلى رجل من أوليائه فى أمر تظلم فيه : من علامات الشريف أن يظلم من فوقه ، ويظلمه من دونه ، فأى الرجلين أنت

ومن توقيعات جعفر بن يحيى البرمكى فى قصة مُتنصح : بعض الصدق قبيح (أى فى الوشاية) . ووقع أيضاً فى قصة مُستمْنِح قد كان وصله مِراراً : دَعِ الضَّرع يدُرّ لغيرك كما درّ لك

ومن مقامات بديع الزمان الهمذانى المقامة العلمية وهى :

حدثنا عيسى بن هشام قال كنت فى بعض مطارح الغربة مجتازاً ، فاذا أنا برجل يقول لآخر : بم أدركت العلم ؟ – وهو يجيبه – قال : طلبته فوجدته بعيد المرام ،

(١) جمع مقامة وهى قصة خيالية ذات مغزى أدبى تكتب بعبارة يكثر فيها الغريب والسجع والمحسنات البديعية لقصد حفظ اللغة وأساليبها

لا يُصاد بالسهام ، ولا يُقسَمُ بالأزلام[١] ، ولا يرى فى المنام ، ولا يُضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يُستعار من الكرام ، فتوسلت اليه بافتراش المدَر[٢] ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، و إدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، و إعمال الفكر ، فوجدته شيئاً لا يصلح إلاّ للغرس ، ولا يُغرس إلاّ فى النفس ، وصيداً لا يقع إلاّ فى الندْر[٣] ، ولا ينَشب إلاّ فى الصدر ، وطائراً لا يخدعه إلاّ قنص اللفظ ، ولا يَعلَقه الاّ شرك الحفظ ، فحملته على الروح ؛ وحبسته على العين وأنفقت من العيش ، وخزنت فى القلب ، وحرّرْت بالدرس واسترحت من النظر الى التحقيق ، ومن التحقيق إلى التعليق ، واستعنت فى ذلك بالتوفيق . فسمعت من الكلام ما فتق السمع ، ووصل إلى القلب ، وتغلغل فى الصدر . فقلت يا فتى ومن أين مطلع هذه الشمس ؟ فجعل يقول :

اسكندرية داري ... لو قرّ فيها قرارى
لكنّ بالشام ليلى ... وبالعراق نهـارى

وكتب أبو محمد القاسم بن على الحريرىّ فصلاً من المقامة البغدادية على لسان عجوز تستمنح :

اعلموا يا مآل الآمل ؛ و ثِمال[٤] الأرامل[٥] ، أنى من سَروات[٦] القبائل ، وسَريّات[٧] العقائل[٨] . لم يزل أهلى و بعلى يحُلون الصّدْر ، و يسيرون القلب ، و يُمْطون الظهر ، و يُولُون اليد . فلما أرْدَى الدهر الأعْضاد[٩] وفَجَعَ بالجوارح[١٠] الأكباد ، وانقلب ظهراً لِبطن ، نبا الناظر ، وجفا الحاجب ، وذَهبتِ العيْن ، وفقدت الراحة ، وصَلَد[١١] الزّند وَوهَنت اليمين ، وضاع اليسار ، و بانت المرافق ، ولم يبق لنا ثَنيّة[١٢] ولا ناب[١٣] فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازورّ[١٤] المحبوب الأصفر[١٥]

---

(١) جمع زلم كجبل : سهام كانوا يستقسمون بها فى الجاهلية (٢) الطين اليابس
(٣) النادر (٤) من يعول عليه (٥) المساكين من رجال ونساء (٦) سادات
(٧) رفيعات القدر (٨) الكرائم (٩) يريد الاعوان (١٠) الأعضاء والمراد الأولاد والخدم (١١) لم يور ناراً (١٢) فتية من النوق (١٣) الجمل المسن
(١٤) مال وانقبض (١٥) أى الدينار

اسودّ يومى الأبيض ، وابيضّ فَوْدى[1] الأسود ، حتى رنى لى العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر

الكتّاب

كان أكثر كتاب المشرق فى هـذا العصر من سَلائل فارسيّة أو سوادية[2] وقد بلغوا بحذقهم سياسةَ الملك ونبوغهم فى البلاغة أن ارتقَوْا عند خلفاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة التى لم تكن معروفة قبلهم فى الإسلام ، وأوّل كاتب منهم ارتقى اليها هو أبو سلمةَ الخَلاَّلُ . وأشهرُ من بلغ نفوذُه وسلطانهُ مبلغًا زاحم فيه الخليفةَ وأصبح المُلْكُ فى قبضة يحيى بن خالد بن برمك[3] وابناه جعفرٌ والفضلُ ، ثم محمد ابن الزيات فى زمن المعتصم والواثق . وكان كتابُ الأندلس والمغرب أكثرهم من سلائل عربية . وكانت الحجابة فى الأندلس أرقى من رتبة الوزارة . والوزير عندهم يطلق على قرين الخليفة ومستشاره الخاص ؛ فاذا تولى مرتبة الكتابة والادارة للدولة سمّى ذا الوزارتين

ومن أشهر كُتاب هذا العصر فى الشرق ابن المقفَّع ، ويحيى بن خالد بن برمك وابناه : جعفر والفضل ، واسماعيل بن صبيح[4] ، وعمرو بن مسعدة ، واحمد بن يوسف وابن الزيات[5] ، والحسن بن وهب[6] ، وعلى بن الفرات[7] ، وابن مقلة ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وأبو بكر الخوارزمى ، والبديع ، والصابى[8] والعماد الكاتب[9] والقاضى الفاضل

---

(١) الفود جانب الرأس (٢) أهل السواد عندهم سكان الفرات من سلائل البابليين والأشوريين وربما سموهم نبطا

(٣) كان من اكبر بطانة المهدى ومربياً لولده الرشيد ثم صار وزيراً ومديراً لدولة الرشيد ثم وزر للرشيد أبناه الفضل فجعفر فأما جعفر فقتله الرشيد سنة ١٨٧ وأما يحيى وابنه الفضل فماتا فى سجن الرشيد (٤) كان وزيراً للرشيد بعد جعفر (٥) هو محمد بن عبد الملك الزيات كان كاتباً شاعراً داهياً جباراً وزر للمعتصم والواثق والمتوكل وقتله المتوكل سنة ٢٣٣

(٦) كان صاحب ديوان الرسائل للمتوكل (٧) كان وزيراً للمقتدر (٨) كان صاحب ديوان الرسائل ببغداد زمن عز الدولة بن بويه وهو من كتاب الأطناب (٩) كان كاتباً لنور الدين بن زنكى صاحب الجزيرة وحلب ثم صار من رؤساء الكتاب عند صلاح الدين الأيوبى

ومن أشهر كتابه فى الأندلس ابنُ شُهَيْد[١] ، وأبو المُطَرِّف بن عميرة[٢] ، وابن زيدون ، ولسان الدين بن الخطيب

ابن المقفع

هو أبو محمد بن عبد الله بن المُقَفَّع أحد فحول البلاغة وثانى اثنين مَهّدا للناس طريق الترسُّل ، ورفعا لهم معالمَ صناعة الانشاء ، أولهما عبد الحميد

منشؤه وعمله — كان ابن المقفّع من أبناء الفرس الناشئين بين أحياء العرب . فكان أبوه داذَوَيْهِ المقفّع يَعملُ فى جباية الخراج لوُلاة العراق من قِبل بنى أمية ، وهو على دين المجوسية وَوُلد له ابنهُ هذا حوالىْ سنة ١٠٦ ﻫ وسماه (رَوْزَبَة) فنشأ بالبَصرة ، وهى يومئذٍ حَلْبة العرب[٣] ومجمع الفقهاء والرواة والمُحدثين وأصحاب اللغة ، وحاضرة البر والبحر ، وقَرارةُ المِربد[٤] مُنتَدَى البلغاء والخطباء والشعراء ، فكان لكل ذلك فوق ذكائه المُفرِط وتأديب أبيه وأخذه له بتعليم الفارسية وصِناعة الكتابة أعظمُ أثرٍ فى تربيته وتهيئته لأن يصيرَ من أكبر كتاب العربية وعُلمائها وأدبائها والمترجمين اليها

ولما ذاع فضله استكتبه فى عصر بنى أمية داود[٥] بن يوسفَ بن عُمَرَ بن هُبَيْرة . ثم كتب فى عصر بنى العباس لعيسى بن على عمِّ الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أيام ولايته على كِرْمانَ . وعلى يديه أسلم بمحضر من الناس وتسمَّى (عبدَ الله) وتكنى بأبى محمد بدل أبى عمرو . ثم ألزمه أخوه اسماعيل بن على بعضَ بنيه ليؤدبه ثم كان آخر أمره فى خدمة أخيهما سليمان بن على أيام ولايته على البصرة . ويظهر أنه اتصل فى أثناء ذلك بأبى جعفر المنصور اتصالَ معرفة لا اتصال خدمة . فترجم له كثيراً من الكتب الفارسية واليونانية المنقولةِ قديمًا الى الفارسية . وبقِى فى خدمة

(١) كان وزيراً للخليفة الناصر الأموى الأندلسى (٢) كان من كتاب ملوك الطوائف والبربر بالأندلس (٣) الحلبة جماعة الخيل للسباق ، وتستعمل مجازاً فى الطائفة من عظماء الرجال

(٤) مكان كان بطرف البصرة عن طريق القادم من البادية يجتمع فيه فصحاء عرب البصرة ويخطبون ويتناشدون وهو الذى خلف عكاظ فى الجاهلية (٥) أحد ولاة بنى أمية على العراق

أعمام الخليفة بقية عمره حتى قُتل بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيدِ للاسلام بترجمة كتب الزنادقة الى العربية . وكانت هذه التهمة مما جعل الخليفة يُهمل تحقيق مقتله عند ما شكا عماه عيسى وسليمان الوالىَ القاتلَ اليهِ ، لا كما يقال من أن الخليفة أمر الوالى بقتله انتقاماً منه لكتابته صورةَ أمان يؤخذ على الخليفة لأحد أعمامه الخارجين (١) وإحراجه فيهِ بالأيمان المغلظة إذ أن ذلك مما يجلُّ عنهُ مقامُ أبي جعفر

أخلاقه و بلاغته — كان نادرة فى الذكاء غاية فى جمع علوم اللغة والحكمة وتاريخ الفرس ، متأدباً متعففاً قليل الاختلاط إلاّ بمن على شاكلته ، كثير الوفاء لأصحابه

وكان أمةً فى البلاغة ورَصانة القول وشَرف المعانى الى بيانِ غرضٍ ، وسُهولة لفظٍ ، ورَشَاقةِ أسلوبٍ . ولا توصَفُ بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغةَ حيث يقول « البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنهُ يحسنُ مثلَها » وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العِيُّ الأكبر . وينصح للكتّاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفلة . وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد فى توخى السهولة وسلامة التعبير مع العناية باجادة المعنى بين الكتّاب من أهل زمانهما ومن بعدهما ، وانما صعبت عبارة ابن المقفع فى الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنهُ ساقها مساقَ الفلسفة و يغلب على أساليبه فيهما القياسُ المنطقىُّ وأفكار الفلاسفة الدقيقة التى قلما تظهر للقارئ إلاّ بعد الكد . و يمتاز عبد الحميد — وان لم يكن ابن المقفع دونهُ فى البلاغة — بما تسنى له من وضع الأنظمة للرسائل الديوانية

---

(١) هو عبد الله بن على خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله الى البصرة محتمياً بأخويه اسماعيل وسليمان فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله يمليان شروطه فقبل ذلك المنصور فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أمانا يتصعب فى شروطه فكان مما كتب (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس وعبيده أحرار والمسلمون فى حل من بيعته) فاشتد ذلك عليه وخاصة أمر البيعة ، وحقدها على ابن المقفع فيقال إنه أوعز الى سفيان والى البصرة بقتله خفية . فزاره ابن المقفع يوما لأمر فقتله وأحرقه وذرى رماده

وتنسيق صور لها ، لأنهُ أتيح لعبد الحميد ما لم يُتح لابن المقفع من رياسة الكتابة في دواوين الخلافة ويمتاز ابن المقفع بعلمهِ وترجمتهِ لكثير من الكتب الفلسفية والأدبيـــة

فقد ترجم ابنُ المقفع كتباً عدةً من الفارسية الى العربية من أشهرها كتاب كليلةَ ودِمْنة(١) . وله في الأدب كتاب الأدب الصغير والأدب الكبير وكتاب الدرة اليتيمة وهي لا تزال مكنونة في طيّ الخلفاء ، وانما طبع الأدب الكبير معنوناً باسمها خطأ ثم طبع في مصر مسمى باسمه الحقيق . وهاك نموذجاً من قصار رسائله

قال في السلامة — (أما بعد) فقد أتاني كتابُك فيما أخبرتنا عنهُ من صلاحك وصلاح من قِبلك . وفي الذي ذكرت من ذلك نعمةٌ مُجلَّلةٌ عظيمة ، يُحْمد عليها وليها المنعم المتفضّل المحمود . ونسأله أن يلهِمَنا وإياك من شكره وذكره ما بهِ مزيدها وتأدية حقها

وسألت أن اكتبَ اليك بخبرنا . ونحن من عافية الله وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبتُ في ذكرها لم يكن في ذلك إحصاءٌ للنعمة ولا اعترافٌ بِكُنهِ الحق . فنرغب للذي تزدادُ نِعَمهُ علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً(٢) ، وأن يرزقَنا من كل نعمة كِفاءها(٣) من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حقِّها انهُ ولى قدير

---

(١) المشهور أن ابن المقفع ترجم هذا الكتاب من الترجمة الفارسية الفهلوية عن الهندية ويرى بعض أهل الأدب من المتقدمين وكثير من أدباء الأفرنج المستعربين أنه من وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب قراء زمانه في مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التي لم يكونوا يأبهون لها إلا اذا أسندت الى القدماء ونحن نتابع أصحاب هذا الرأى ولنا ولهم في ذلك أدلة كثيرة يضيق المقام عن ذكرها

(٢) أى دخله شيء من الرياء ونحوه (٣) أى جزاؤها

ابراهيم الصُّولى

هو أبو اسحاق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صُول[١] كاتب العراق وأشهر أصحاب المقطعات . نشأ ببغداد فى بيت كتابة و بلاغة ، فتلقى العلم والأدب عن أهله وأئمة زمانه ، واشتغل بالشعر فى حداثته فبرع فيهِ ، وتكسَّبَ بهِ . ورحل الى العُمال والأمراء يمدحُهمْ و يستميح جَدْواهم . ثم قصد الفَضلَ بن سهل وزير المأمون أيام مُقامه معهُ بخراسان[٢] ومدحه ومدح على بن موسى الرضا العلَوى الذى جعله المأمون بمساعى الفضل ولى عهده ، فوهب له علىّ عشرة آلاف درهم . وجعله الفضل كاتباً لأحد قواده . و بعد أن قتل الفضل وُشىَ بهِ الى المأمون فوجد عليهِ ثم عفا عنه

و بقى يتنقل فى أعمال النواحى والدواوين حتى كان زَمن الواثق عاملاً على الأهواز[٣] فتحامل عليهِ وزيره ابن الزيات (وكان قبل صديقاً له) فعزله وسجنهُ بها فكتب اليهِ كتباً بليغةً وقصائد كثيرة يستعطفهُ بها ، فلم يزدد بذلك إلاَّ جفاء وغلظة . ثم اطَّلع الواثق على ذلك فأطلقه . وتولى ديوان الضِّياع والنفقات فى خلافة المتوكل . وكانت بلاغتهُ وظَرفه يستران ضعفه فى عمله لقلة بضاعته فى الحساب . ولم يعقْهُ عن تقلد الوزارة إلا اشتهارُه بالخلاعة ومات بِسُرَّ مَنْ رأى سنة ٢٤٣ ﻫ وعمره سبعون سنة

وكان ابراهيم أحد كتاب الدنيا فى زمانهِ و يُلقَّبُ بكاتب العراق

وكانت معانيه التى يستخدمها فى كتابتهِ كلها مبتكرة . و باعتماده على نفسهِ واختراعه للمعانى صار كلامه قدوة لغيره ، حتى ضارع الأمثال فى الشهرة نثراً ونظماً . وهو أحد الذين رَاعوْا الازدواج فى فقرات الكتابة ، فاقتدى بهم غيرُهم : وأحد الذين اشتهروا فى التعازى

---

(١) كان صول هذا وأخوه فيروز ملكى جرجان وهما من الترك تمجسا وتشبها بالفرس ثم أسلما على يد يزيد بن المهلب بن أبى صفرة فاتح جرجن زمن بنى أمية ، فلما قتل يزيد دخل ابنا صول محمد وسعيد فى الدعوة العباسية وتعلم أولاد سعيد الكتابة (٢) أقام المأمون بخراسان مدة ولايته عليها زمن الأمين كله ومدة محاربته له ثم بعد قتله وأول الخلافة اليه بقى بها حتى خلعه أهل بغداد وولوا ابراهيم المهدى خليفة فرجع الى بغداد وفر ابراهيم (٣) أقليم شرقى البصرة

ومن رسائله تعزية على لسان المنتصر بالله الى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين

(أما بعد) تولى الله توفيقَك وحياطَتَك . وما يرتضيه منك ويرضاه عنك . إن أفضل النعم نعمة تُلُقّيتْ بحق الله فيها من الشكر . وأوفر حادثة ثوابًا حادثةٌ أُدّى حقُّ الله فيها من الرضا والتسليم والصبر . ومثلُك من قدّم ما يجب لله عليه فى نِعْمةٍ فشكرها ، وفى مصيبةٍ فأطاعه فيها . وقد قضى الله سبحانه وتعالى فى محمد ابن اسحاق مولى أمير المؤمنين (عفا الله عنه) قضاءهُ السابقَ والموقعَ . وفى ثواب الله ورضا أمير المؤمنين (أدام الله عزه) وتقديم ما يقَدِّمُ مثلَه أهلُ الحجا والفهم ما اعتاضه معتاضٌ وقدَّمه موفق . فليكن اللهُ (عزّ وجل) وما أطعته به وقدمت حقَّه فيه أولَى بك فى الأمور كلها ؛ فانك إن تتقربْ اليه فى المكروه بطاعته يحْسن ولايتك فى توفيقك لشكر نعمه عندك

ومن رسائله القصار على لسان المتوكل لأهل حمص الخارجين عليه . وهى من الرسائل التى أغنت عن الجيوش :

أما بعد فان أمير المؤمنين يرَى من حق الله عليه مماً قوَّم به من أوَدٍ ؛ وعدل به من زَيغ ، ولمّ به من مُنتَشِر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقدّمُ بعضهن على بعض : أولاهن ما يتقدَّم به من تنبيهٍ وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التى لا يقع بحسم الداء غيرُها

أناة فان لم تُغن عقّب بعدها وعيداً فان لم يُغنِ أغنتْ عزائمُه

ابن العميد

هو الأستاذ الرئيس الوزيرُ أبو الفضل محمدُ بنُ الحسينِ العميد كاتبُ المشرق ، وعمادُ ملك آل بُوَيْهِ وصدر وزرائهم

وهو فارسى الأصل من أهل مدينة (قُمّ)[1] كان أبوه كاتبًا مترسلاً بليغًا

---

(١) بلد فارس

من كبار كُتَّاب الدولة السامانية(١) فنشأ ابنهُ مُولَعاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية ؛ فبرَع فى علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ فى الأدب والكتابة حتى قيل فيه : (بُدِئت الكتابة بعبد الحميد وخُتِمتْ بابن العميد) ثم رحل عن أبيه الى آل بويهْ ، وتقلد شريف الأعمال فى دولتهم إلى أن تولى وزارة ركن الدولة(٢) سنة ٣٢٨ ، فساس دولتَه ووطد أركانها ، وتشبه بالبرامكة ففتح بابَه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء ، وكان يشاركُهم فى كل ما يعلمون إلا الفقه . وما زال فى وزارته محَطَّ الرِّحال وكعبة الآمال ، حتى توفاه الله سنة ٣٦٠ هـ

كتابته

وكان ابن العميد أوَّل من فتح باب الوَلوع بالرسائل البديعية ، متوخياً فيها السجع القصير الفقرات ؛ مقتبساً من القرآن الكريم بعض الآيات ، ومن السُّنة بعض الأحاديث المأثورة ، مشيراً الى الحوادث المشهورة ، ناثراً فيها الأبيات الحكيمة ، مؤثراً بعض الحلية البديعية : كالجناس والمطابقة ، مضمناً الأمثال السائرة . وحاكاهُ فى طريقته هذه فحولُ معاصريه ، فأصبح عميد رُفقتهم وضَليع حَلبتهم ؛ وكلهم كارع

(١) هى من الدول التى استقلت فى أواسط الدولة العباسية استقلالا داخلياً وكانت تملك أواسط آسيا ، ومقرها بخارى وما وراء النهر ، وهم من سلالة الاكاسرة

أمراء الدولة السامانية

نصر بن احمد السامانى	(٢٦١ - ٢٧٩)	عبد الملك بن نوح	(٣٤٣ — ٣٥٠)
اسمعيل بن احمد السامانى	(٢٧٩ — ٢٩٥)	منصور بن نوح	(٣٥٠ — ٣٦٦)
احمد بن اسمعيل	(٢٩٥ - ٣٠١)	نوح بن منصور	(٣٦٦ — ٣٨٧)
نصر بن احمد	(٣٠١ - ٣٣١)	منصور بن نوح	(٣٨٧ - ٣٨٩)
نوح بن نصر	(٣٣١ - ٣٤٣)	عبد الملك بن نوح	ثمانية أشهر

بقية خلفاء العباسيين

عبد الله المستكفى بالله	(٣٣٣ — ٣٣٤)	المنصور الراشد بالله	(٥٢٩ — ٥٣٠)
القاسم المطيع لله	(٣٣٤ - ٣٦٣)	محمد المقتفى لأمر الله	(٥٣٠ — ٥٥٥)
أبو بكر الطائع لله	(٣٦٣ - ٣٨١)	يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥ — ٥٦٦)
أحمد القادر بالله	(٣٨١ — ٤٢٢)	حسن المستضىء بأمر الله	(٥٦٦ — ٥٧٥)
عبد الله القائم بأمر الله	(٤٢٢ — ٤٦٧)	احمد الناصر لدين الله	(٥٧٥ — ٦٢٢)
عبد الله المقتدى بأمر الله	(٤٦٧ — ٤٨٧)	محمد الظاهر بأمر الله	(٦٢٢ — ٦٢٣)
احمد المستظهر بالله	(٤٨٧ — ٥١٢)	منصور المستنصر بالله	(٦٢٣ - ٦٤٠)
فضل المسترشد بالله	(٥١٢ — ٥٢٩)	عبد الله المستعصم بالله	(٦٤٠ - ٦٥٦)

(٢) ركن الدولة هو أبو على بن بويه والد عضد الدولة المشهور

من حياضه ، قاطف من رياضه ، إن لم يكن بالاقتباس منه فبالتشبه به ، وان كان هو أقلهم التزاماً للمسجوع ، وأقربهم الى المطبوع

ومن رسائله إلى عبد الله الطبرى :

كتابى إليك وأنا بحال لو لم ينغّصها الشوقُ اليك ، ولم يُرَنّق[1] صفوها النزوع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة . وأعددت حظى منها فى النعم الجليلة . فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها فى جسمى بصلاح ، وفى سعيى بنجاح لكن ما بقى أن يصفو لى عيش مع بعدى عنك ، ويخلوَ ذرعى[2] مع خلوّى منك ، ويسوغَ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونك ، وكيف أطمع فى ذلك وأنت جزء من نفسى ، وناظم لشمل أنسى . وقد حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام[3] ، وينفع أنس بيت بلا نظام[4] ، وقد قرأت كتابك جعلنى الله فداءك فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمل تصرفك فى لفظِك ، وما أقرظهما ؛ فكل خصالك مقرظ عندى ، وما أمدحهما ؛ فكل أمرك ممدوح فى ضميرى وعَقْدى[5] . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فان كان كذلك[6] ، وإلاّ فقد (غطى هواك وما ألقى على بصرى)

الصاحب بن عَبّاد

هو كافى الكفاة أبو القاسم اسمعيل الصاحب بن عباد وزير آل بُوَيه وكاتبهم وأحدُ المُذيعين للسجع والجناس

ولد سنة ٣٢٦ هـ بطالقَان قزْوين . وكان أبوه من خيرة كُتّاب دولة بنى بُوَيه ووزرائهم . تعلَّمَ العلمَ والأدبَ والكتابةَ من أبيه ، ثم اتصل بابن العَميد ، فلزم صُحْبتهُ وأخذ عنه الأدب ، وتولّى له كتابة خاصته . ثم تنقلت به الأحوال فى خدمة

---

(١) يكدر (٢) الذرع : الخلق — أى لا يتسع خلق وصدرى مع خلوى منك (٣) أى شطرها عندى وشطرها عندك (٤) أى أنك أنت نظامه وقد غبت عنه ففاته النظام
(٥) أى اعتقادى (٦) أى فهو ما أرجوه — وكثيراً ما يحذفون الجواب فى مثل هذا المقام

ملوك بني بُوَيه ، فكان وزيراً لمؤيّد الدولة ، ثم لأخيه فخر الدولة ، وله فى ملكهما اليدُ المطلقةُ ، والأمر النافذ، حتى مات سنة ٣٨٥ هـ . وكان مجلسه على تِيهه وعُجْبه بنفسه آخرَ مجلس لوزير جمع بين العُلماء والقرّاء والكتّاب والمصنِّفين والمتكلمين والشيعة ، ولهم منه حظ موفور ، وله منهم لسان شكور

ويُعَد ابن عباد فى الكتابة ثانى ابن العميد فى حَلْبَتِه ، وأبلغ من سلك طريقته ، غَير أنه أُولع بالسجع والجناس ، ولا يُعرَف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ، ولا حلّ من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما

وهو فى العلم من كبار المصنِّفين . ومن أعظم مصنّفاته الكثيرة كتابه (المحيط) فى اللغة فى سبع مجلدات أو عشر

ومن رسائله ما كتب به الى بعض السادة وقد أهدى الى ابن عَباد مُصْحَفاً : البِرّ « أدام الله الشيخ » أنواع ، تَطُولُ به أبواعٌ(١) وتقصر عنـه أبواعٌ ، فإن يكنْ فيها ما هوا كرمُ منصِباً ، وأشرف منسِباً ، فتحفة الشيخ إذ أهدى ما لا تشا كله النعمُ ، ولا تعادِله القيمُ : كتابَ الله و بيانَه ، وكلامَهُ وفرقانَه ، ووحيَهُ وتنزيلَهُ ، وهداه وسبيلَه ، ومعجِزَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليلَهُ ، طبَعَ(٢) دون معارضته على الشفاه . وختم على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثَّقلان ، و بقِى ما بقِيَ المَلَوان . لائحٌ سراجه ، واضح مِنْهاجهُ ، منيرٌ دليلهُ ، عميقٌ تأويلهُ ، يقصِمُ كلَّ شيطان مَريد ، و يُذِلُّ كل جبار عنيد . وفضائلُ القرءانِ ، لا تحصى فى ألف قرآن(٣) ، فأصِفُ الخط الذى بهر الطرْفَ ، وفاق الوصفَ ، وجمع صحةَ الأقسام(٤) ، وزاد فى نَخْوة الأقلام ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره آثاره ، وعينُه فُراره(٥) ، وحقّاً أقولُ : إنى لا أحسَبُ أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت ، وابتدع

---

(١) جمع باع (٢) ختم بالطابع أى لا يعارض (٣) القرءان الثانية بمعنى الجمع أى أن فضائله لا تحصى فى الف كتاب جامع (٤) أى الأجزاء أى نسبة اجزاء الحروف

(٥) مصدر فر عن الامر بحث عنه و (عينه فراره) مثل يضرب لمن يدل ظاهره على باطنه

فى استكتابها ما ابتدعت ، وان هذا المصحف لزائد عن جميعها زيادةَ الفَرْع على الغُرَّة . بل زيادةَ الحج على العُمرة

أبو بكر الخُوَارَزْمى

هو أبو بكر محمدُ بنُ العباس الخُوارَزْمِىّ الكاتب الشاعر اللغوى الأديب الرحّالة فخرُ خُوارَزْم وصاحب الرسائل المشهورة

وُلد بخوارزم[1] ونشأ بها ، وكان ضليعاً فى كل فن من فنون العربية وخاصةً الكتابة والشعر . جاب الأقطار ، ودخل الأمصار ، من الشام الى أقصى خراسان ، فى استفادة العلم والأدب وافادتهما . وكان كثيرَ الحفظ للشعر غزير مادة اللغة . قيل إنهُ قصد حضرة الصاحب بن عبَّاد وهو بأَرّجان فلما وصل الى بابه قال لأحد حجابه: قل للصاحب على الباب أحد الأدباء وهو يستأذن فى الدخول. فدخل الحاجب وأعلمه ، فقال الصاحب : قل له قد ألزمت نفسى ألاّ يدخل علىّ من الأدباء الاّ من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج اليه الحاجب وأعلمه بذلك . فقال له أبو بكر ارجع اليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم شعر النساء ؟ فدخل الحاجب فأعاد عليه ما قال ، فقال الصاحب هذا يكون أبا بكر الخوارزمى ، فأذن له فى الدخول فدخل عليه فعرفه وانبسط له

(١) أقليم على بحر خوارزم المسمى الآن بحيرة أرال . وما رواه ياقوت عن بعض متأخرى أدبائها وعن مستعجمى أهلها من أنهم ينطقونها بضم الخاء ضمة مختلسة الى الفتحة وأنه لا تحقيق للواو ولا للالف أى أنه ينطق بهما كحرف (O) الفرنسى عــدول عن التعريب الصحيح المطابق لقواعد النطق العربى ، ولذلك لم يقع فى شعر فصحاء الادباء ، من أمثال الصاحب ابن عباد فى قوله :

أقول لركب من خراسان قافل   أمات خوارزميكم قيل لى نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره   ألا لعن الرحمن من كفر النعم

فلو نطقت فى هذا الشعر كما ينطقها مستعجمو أهلها لاختل الوزن . والذى يدل على أن تحقيق الواو والالف هو أصل العربية ما رواه ياقوت نفسه عن شاعر عربى من بنى أسد فى أبيات :

وخافت من جبال السغد نفسى   وخافت من جبال خوارزم

لجرى الشاعر على أنها مركبة من كلمتين خوار بمعنى (لحم) ورزم بمعنى (حطب) فى قصة مروية عن قدماء أهلها ، فافهم ذلك وارفض كل تعريب لا يطابق الهجاء العربى

وتقلب الخوارزمى فى خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء ، فى الدول المتفرعة عن الخلافة ، وجُلهم يومئذٍ من الشِّيعة ؛ فاصطبغ بصبغة التشيُّع أيضًا ، حتى ألقى عصا التسيار بمدينة نَيْسابور[١] وطاب عيشه بها الى أن مُنِى فى آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهَمَذَانى ومناظرته ومناضلته ، وأعانه عليه قوم من أعيان البَلْدَة ووجوهها ، فانخذل انخذالاً شديداً ، وكسفَ بالُه . ولم يَحُلْ عليه الحولُ حتى مات سنة ٣٨٣ هـ

وكان الخوارزميُّ ممن يجرى على طريقة ابن العميد فى الكتابة متوخّيًا جزالة الألفاظ محتفلاً بصحة المعانى مع مَيل فيه الى الغريب كتابته

ومن قصار رسائله ما كتبه الى تلميذٍ له

ان كنت (أعزّكَ الله) لا ترانا موضِعًا للزيارة ، فنحن فى موضع الاستزارة ، وان كنتَ تعتقدُ أنك قد استوفيتَ ما كان لدينا ؛ فسقط حقنا عنك وَبقِيَ حقُّك علينا ، فقد يزورُ الصحيحُ الطبيبَ بعد خروجه من دائه ، واستغنائه عن دوائه ، وقد تجتازُ الرعيةُ على باب الأمير المعزول ، فتتجمّلُ له ولا تعيّرُه عزلَهُ ، ولو لم تزرنا إلاّ لتُرينا رُجحانك ، كما طالما رأينا نقصانك ، لكان ذلك فعلاً صائبًا ، وفى القياس واجبًا

بديع الزمان الهمذانى

هو أبو الفضل أحمدُ بن الحسين الكاتب المترسل والشاعر المبدع ؛ حافظ عصره وأذكى دهره ، وقدوة الحريرى فى انشاء المقامات ، وقريعُ الخوارزمى فى المبادَهات والمكاتبات

نشأ بهمذَان[٢] ، ودَرَس العربيةَ والأدبَ ونبغ فيهما ، وضرب فى الأرض يتكسَّب بأدَبه ، ثم أقام بنيسابور مدّة أملى بها أربعمائة مَقامةٍ[٣] بلفظٍ رشيق ، وسجع

(١) كانت مدينة شهيرة من مدن خراسان دمرها التتار عند اجتياحهم الممالك الاسلامية فخربت ولم تعمر بعد (٢) مدينة شمالىّ فارس (٣) اطلقت المقامة فى ذلك العصر على كل قصة خيالية أنشئت بعبارة مسجوعة غالبا ، محلاة بأنواع البديع ، مشتملة على كثير من الغريب

رقيق ؛ وعلى مِنوالها نسَجَ الحريريُّ . ثم شَجَر بينه و بين الخوارزمى ما كان سبباً فى هبوب ريحه و بُعد صيته ، إذ لم يكن فى الحُسْبان أن أحداً يجترئُ على الخوارزمى

و بموت الخوارزمى خلا له الجوُّ عند الملوك والأمراء ، فجوَّل فى حواضرهم ، ثم استوطن هَراةَ[1] وصاهر أحد أعيانها العلماء فحسنت حالُه ، ونعِم باله ، ولكن المَنيَّة عاجلته وهو فى سن الأربعين سنة ٣٩٨ هـ

كتابته

وكان البديع أسرع أهل زمانه بديهةً . وأ كثر كتابتــه وشعرِه مرتجل . وكانت عبارته لينةً سهلةً قصيرة السجع ، تشهد بأن صاحبها لم يكدحْ فيها خاطره . ولم يتعمَّلْ فى صنعتها . وكان لِحدَّةِ ذِهنه وغزارةِ مادَّته ، وتمكنه من صناعته تُلْقى عليه القصيدة الفارسية فيترجمها فى الحال إلى العربية شعراً ، ويُقْترح عليه الكِتابُ فيبتدئ بآخر سطوره وينتهى بأوله ويُخرجه كأحسن ما يكون

(ومن كتابته : ما كتبه موصياً وارث مال) :

وصلت رُقعتك يا سيدى والمصابُ لعَمْر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزة رشد كأنه الغَىّ ، وقد مات الميت فليحى الحىّ ، فاشدُد على مالك بالخمس ، فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ (رحمه الله) وكيلك ، تضحك ويبكى لك ، وقد موّلك بما ألف بين سُرَاه وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجُم الشيطانُ عُودكَ ، فإن استلانه رماك بقوم يقولون : خير المال ما أُتلِف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحبَاب والأحباب ، والعيش بين الأقداح ، والقِداح ، ولولا الاستعمال ، لما أريد المال ، فان أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطربا للكاس ، وغداً واحربا من الافلاس . يا مولاى ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً والجاهل نَقْراً ، وذلك المسموع من الناى هو اليوم فى الآذان زَمْرٌ ، وغداً فى الأبواب سَمر ، والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة ؛ وان لم يجد

(١) هى مدينة عظيمة ببلاد الافغان قيل إن الاسكندر المقدونى هو الذى بناها

الشيطان مَغمزاً فى عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يمثلون لك الفقر حِذاء عينك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرسَك ، وتمنع نفسك ، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غيرك ، لا ! ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين ، لا منع ولا إسراف ؛ والبخل فقر حاضر ، وضير عاجل ، وانما يبخل المرء خيفةَ ما هو فيه ، فليكن لله فى مالك قسط ، وللمروءة قسم ، فصل الرحم ما استطعت ، وقدر إذا قطعت ، فَلأن تكون فى جانب التقدير ، خيرٌ لك من أن تكون فى جانب التبذير

ابنُ زيدون

هو الكاتبُ الشاعرُ ذو الوزارتينِ أبو الوليد أحمدُ بنُ عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومى الأندلسى . ولد سنة ٣٩٤ هـ ، ونشأ فى مدينة قُرطُبة[١] حيث كان أبوه من أعيان فقهائها ، وتأدَّب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده ، وحفظ من مشهور شعر القدماء والمُحْدَثين ما جرى مَجْرَى الأمثال ، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحِكَمها شيئاً كثيراً ، ولما نبُه شأنهُ بين شعراء قُرطُبة وكُتَّابها وأدبائها ، اتصل بأبى الحزم بن جَهْوَر أحدِ ملوك الطوائف ثم بابنه أبى الوليد بعده ، فحظِىَ عنده : ومدحه بالقصائد الطنَّانة ، وصدرت عنه فى دولته الرسائلُ البديعة ، حتى أصبحَ لسانَ دولته الناطقَ ؛ وحُسامَها المسلول . فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين مليكه ، وأحسَّ منه أبو الوليد بن جهور دالَّة عليه ظنَّها ممالأةً لأعدائه فاعتقله . ومكث فى مَحْبِسه مدةً استشفع فيها اليه بقصائدَ أبدعها ، ورسائلَ استنفدَ فيها جُهدَه ، فما ألانتْ له قلباً ، ولا ثنتْ له عِطفاً ، فأعملَ الحيلةَ فى فِراره من سجنه وخلص إلى المُعْتَضد بن عَبَّادٍ ملك إشْبيلِيَةَ[٢] إذ كان أشدَّ ملوك الطوائف رغبة

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير بالاندلس . وكانت قاعدة الدولة الاموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم (٢) مدينة عظيمة على نهر الوادى الكبير أيضاً بالغرب الجنوبى من الاندلس ولا تزال الى الآن من أعمر مدنها

فيه وأ كثرهم تمسكاً بالأدب كما كان أبسطهم رُقعة مُلْكٍ، فألقى اليه مقاليد وزارته، وأصبح صاحبَ أمره ونَهْيه، وشريكه فى مجلس جِدّه وأنسه

ولما مات المعتضدُ وخَلَفَه ابنهُ المعتمِدُ كان له كما كان أبوه وأغدق عليه بره ونعمه،

ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بأشبيلية سنة ٤٦٣ ﻫ

كتابته

ولما كان ابنُ زيدون منذ نشأته مطبوعاً على الشعر غلبت ملكتهُ عليه فى كثير من كتابته إذ كانت مجموعةَ أبياتٍ منثورة، وتلميحات الى حوادث مشهورة، وأمثال وحِكمٍ فى فقارٍ غير مسجوعة غالباً، سالكاً فيها طريقَ التهويل والمُبالغة فى فُروضه وأقيسته وتشبيهاته، وجرى على ذلك فى رسالتَيْه الهَزْلية التى كتبها على لسان وَلَّادةَ بنت المستكفى يتهكم فيها بالوزير أبى عامر بن عَبْدوس، والجِدّية التى استعطفَ بها ابن جَهْوَر

وقد شرحهما الأدباء وعُنُوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نُباته للهزلية والصفدى للجِدّية. ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسختْ شهرتهُ بالكتابة عند المتأخرين شهرتَه بالشعر عند المتقدمين، حتى كان يلقب عندهم بُبحْتُرِيّ المغرب. ولا يقدح ذلك فى بلاغته، وفصاحة عبارته، فمقام الرجل فى سعَةِ اطلاعه وسرعة خاطره أشهر من أن ينَوّه به، فقد قيل انه دفن بنتاً له، ووقف ليشكر الناس لتشييع جنازتها فما أعاد فى ذلك الوقت عبارة قالها لأحد، وتلك غاية لا تدرك فى القدرة على صناعة الكلام

ومن فصوله فى الرسالة الجدّية.

هـذا العَتْبُ محمودٌ عواقبهُ، وهذه النَّبْوَةُ (١) غَمْرةٌ (٢) ثم تنجلى، وسحابة

(١) الجفوة (٢) أصلها من غمرة الماء تستعمل فى كل كربة تعترى المرء

صيفٍ عن قليل تقشع[١]، ولن يَرِيبنى[٢] من سيدى أن أبطأ سَيْبُهُ[٣]، أو تأخر – غيرَ ضنين – غَناؤه[٤]، فأبطأ الدِّلاء[٥] فَيْضًا أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلُها[٦]، وأنفعُ الحيا[٧] ما صادف جَدْباً، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً[٨]؛ ومع اليوم غدٌ، ولكل أجل كتابٌ، له الحمد على اهتباله[٩]، ولا عَتْبَ عليه فى اغتفاله[١٠]

فان يكن الفعل الذى ساء واحداً فأفعالُه اللائى سَرَرْنَ ألوف[١١]

القاضى الفاضل

هو أبو على عبد الرحيم البَيْسانى[١٢] اللخمى[١٣]، كاتب الديار المصرية، وصاحبُ الطريقة الفاضلية، والكتابة البديعية. ولد بمدينة عَسْقلان[١٤] سنة ٥٢٩ وتعلم على أبيه[١٥] وغيره، ولما شدا من العربية شيئًا قَدِم مصرَ وهو شابٌّ أواخرَ الدولةِ الفاطمية لتعلُّم الكتابة والخدمة فى الديوان وتوجَّه الى ثغر الاسكندرية. وتعلم فى ديوان ابن حديد قاضيها وكاتبها. وظهر فضله فيما كان يرسله الى القاهرة من الرسائل فاستُقْدِم أيام الظافر اليها، وكان من كتاب ديوانه. ولازم خدمة أكابر القضاة والكتاب فى الديوان وأخذ عنهم وحاكاهم

ولما سقطت الدولةُ الفاطمية تولى وزارة صلاح الدين بن أيوب، وكان يتردّد بين مصر والشام فى الحروب الصليبية، ودبّر المملكة أحسن تدبير. وبقى فى الوزارة حتى مات صلاح الدين فوزر لابنه العزيز على مصر، ثم وزر من بعده لأخيه الأفضل ومات سنة ٥٩٦ هـ

(١) تزول (٢) يوقعنى فى الريب وسوء الظن (٣) عطاؤه وعرفه والمراد به هنا الرضا والعفو (٤) نفعه ومعروفه (٥) جمع دلو (٦) املؤها (٧) المطر
(٨) شدة عطش (٩) الاهتبال الاغتنام — أى على اغتنامى منه نعمته السابقة
(١٠) أى اهماله لى (١١) البيت للمتنبى وواحداً خبر يكن (٢) نسبة الى بلدة بفلسطين (١٣) نسبة الى قبيلة لخم اليمانية (١٤) بلدة على ساحل فلسطين شمالى غزة وهى خربة الآن (١٥) هو قاضى عسقلان بهاء الدين على البيسانى

وكان خيّراً ، ديّناً مُحسناً ، وفيّاً ، مغرَماً بجمع الكتب . وبلغ عدد ما جمعه من أقطار الأرض منها نحو مائة ألف مجلد . ومهر القاضى الفاضل فى الكتابة ، وطوّح به استقلالُه فيها الى توليد طريقة غريبة ، أخذ أصولها عن بعض كُتاب الشام والعراق ومصر ، فجعل أصولها السجعَ الطويل غالباً ، والاستعارة والطّباق ومراعاة النظير والتوجيه . وغالى جدًّا فى التورية والجناس ، فأصبحت الكتابة بهذه الطريقة صناعيةً محضة ، تجرى مع مناسبات الألفاظ اكثرمن جريانها مع اصابة الغرض والبلاغة . وكانت كتابة القاضى الفاضل مع كل هذه القيود بليغةً فى ذاتها لسعة اطلاعه وغزارة مادته ، وسرعة بديهته ، وصفاء خاطره ؛ إلاَّ أن طريقته خدعت بعده كُتَّابَ مصرَ والشام وغَرَّبَتْ الى الأندلس ، فتكلف الجرىَ عليها كلٌّ قليل البضاعة من الأدب مُعتمِداً على تعمّل البديع الذى لا يكلّف صاحبَه اكثر من معرفة خمسين أو ستين نوعاً منه . فظهرت سيئات هذه الطريقة فى العصور التى تلت عصره

وكتب من رسالة يصف قَلْعة فتحت : هى نجم فى سحاب ، وعُقاب فى عِقاب[١] وهامة ، لها الغَمامة عِمامة ، وأنملة إذا خَضَبَها الأصيلُ كان الهلال لها قُلامة[٢] عاقدة حُبْوة[٣] صالَحها الدهر ألاّ يحُلَّها بقَرعه[٤] ، بادية عِصمة صافحها الزمن على أن يروعها بخُلْعِه[٥] فاكتنفت بها عقاربُ منجنيقات لم تطبع طبعَ حمص فى العقارب ، وضربتها بحجارة أظهرت فيها العداوة المعلومة فى الأقارب[٦] ؛ فلم يكن غيرُ ثلاث الاّ وقد أثّرت فيها الحجارة جُدَريّاً بضربها ، ولم تصل الى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها ؛ فاتسع الخَرْق على الراقع ، وسقط سعده عن الطالع ، الى مولد من هو اليها طالع ، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً ، وسيرت الجبال فكانت سراباً

---

(١) جمع عقبة (٢) ما يقص من الظفر (٣) الحبوة : أن يجمع الاعرابى بين ظهره وساقيه فى جلوسه بثوب أو عمامة وهى جلسة مريحة (٤) بحادثه (٥) الخلع نوع من الطلاق (٦) أى أن حجارة المنجنيقات تضرب حجارة القلعة

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة الى التدوين قد اشتدَّت فى مبدإ الدولة العباسية لاتساع ممالك الاسلام . ولدخول كثير من الأمم المُتَحَضِّرة فيـه ولتعدُّد الوقائع والحوادث التى لم يكن لها نظير فيما سبق من السنة . فهبَّ العلماء إلى تهذيب ما كُتِبَ فى الصحف المتفرّقة ، وما حفِظوه فى الصدور . ورتبوه وبَوَّبوهُ وصنفوه كُتُباً . وكان من أقوى الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف حثُّ الخليفة أبي جعفر المنصورِ عليه ، وحملُه الأئمةَ والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، وبذله فى سبيل ذلك الأموالَ الجزيلة . ولم يقتصر على معاضدة العلوم الإسلامية ، بل أوْعزَ الى العلماء والمترجمين من السُّريان والفُرس أن ينقلُوا الى العربية من الفارسية واليونانية فنونَ الطب والسياسةِ والحِكمة والفلك والتنجيم والآداب . وتابعَه فى ذلك أولاده وأحفاده، حتى زَخرت بحور العلم واختُرِعَتِ الفنون وتفرَّعَت المسائل ودوّنت الكتب فى كلّ فنّ

وانقسمت بذلك العلوم قسمين عظيمين :

(ا) العلوم الإسلامية من شرعية ولسانية (ب) العلوم الكَوْنية المنقولة

ولكل من هذين فى نشأته طريقٌ محدودةٌ ، ورجالٌ معدودة . ويعتبرون أن سنة ١٤٣ هى مبدأ النهضة العلمية العربية[١]

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين فى القرن الأول وبعض الثانى من النهضة عبارةً عن سلسلةٍ من الروايات المسندة الى رُواتها : من أحاديث نبوية ، أو أقاويل صحابة ، أو فتاوى فقهاء ، أو أشعارِ أعرابٍ ، أو أخبار فتُوح ، أو نوادر أو غير ذلك . وبعضُها يُروى بلفظ أصحابها غالباً كما فى الشعر والخطب والرسائل ، وبعضها

(١) وهى السنة التى حج فيها المنصور والتقى فى المدينة بمالك بن أنس وأمره بتأليف كتاب الموطأ فى الفقه والحديث ، وعند رجوعه الى الامصار أوعز بنفسه وبولاته الى العلماء بتدوين الكتب فى كل فن ، وكان أكثرهم يحجم عن التأليف تورعا وخوفا من الزلل ومن أن عملهم قد يفضى على طول الزمان الى تحريف الدين وخلطه بآراء الناس

بلفظ الراوى ، كما فى أخبار الفتوح والتاريخ والقصص . ثم ظهرت بعد ذلك فى العلوم الشرعية واللسانية طبقاتُ الاستنباطِ والتعليل والتفريع والشرح والاختصار وجمع الفروع تحت كليَّات عامة ؛ فلم يكن للمؤلفين بدٌّ من حذفِ أسانيد الروايات وتركِ المحافظةِ على نقلها بلفظها إلا فى الحديث ونحوه

أما كتب العلوم المترجمة فكانت عبارتها هى تفسير ألفاظها الأعجمية بالعربية . ولم تكن ترجمتُها جيدة فى عهد المنصور . ثم صُحِّحت ترجمتها فى زمن الرشيد والمأمون . ثم لما أتقَن كثيرٌ من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعبارتهم . وكانت أول أمرها بليغةً مفهومةً ، ثم عمَّوْها على بعض الفقهاء المُكفِّرين لهم والمغرين الأمراء والسلاطين بقتلهم ، حتى أصبحتْ عبارة كتب الفلسفة والتوحيدِ أصعبَ ما يقرْأ باللسان العربى

العلوم اللسانية ونشأتها

العلوم اللسانية هى الأدبُ ، والتاريخ ، والعروض ، والنحو ، واللغة ، والبلاغة

الأدب

علم الأدب بالمعنى الذى ذكرناه فى أوّل الكتاب يمتاز من بقيّة العلوم الصناعيةِ ذوات القواعد كالنحو والبلاغة ، ومن التاريخ وفروعه ، وان كان يتوقف على الإلمام بها . وكانت كتبه أوّل هذا العصر رسائل يَبحث كلٌّ منها فى ضرب خاصٍّ من ضروبه ، كرسائل ابن المقفّع ورسائلِ سهل بن هرون [١] فى الأخلاق ، وكتاب النوادر وكتاب الأراجيز ، وكتاب الشعر للأصمعى ، وكتاب الشعر والشعراء لأبى عُبيدة [٢] واذا تابعنا من يقول إن ابن المقفّع هو الذى ابتدع كتاب كليلة ودمنة ونحله الهند والفرس كان هذا الكتابُ أوّل كتاب ظهر فى الأدب العربىّ الخاصّ بموضوع واحد

(١) هو أحد الكتاب والمؤلفين من أبناء الفرس وكان شعوبيا يتفلسف ويفضل البخل على الجود ، وخدم فى دولة المأمون بالترجمة والتأليف والقيامة على الكتب (٢) هو معمر بن المثنى أحد أئمة العربية وقرين الاصمعى فى المنزلة والتلمذة للخليل . وكان شعوبياً أيضاً توفى سنة ٢٠٩

وأول كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة منه كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، واقتفى أثره أحمد بن طيفور[١] فى كتابه العظيم المنظوم والمنثور فى أربعة عشر جزءا ، ثم أبو العباس محمد المبرّد[٢] فى الكامل والروضة ، ثم أبو حنيفة الدِّينوَرى[٣] ، وأبو بكر محمد الصُّولى[٤] وابن قتيْبة[٥] صاحب أدب الكاتب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبو على القالى[٦] صاحب الأمالى ، وأبو الفرج الأصبهانى[٧] صاحب الأغانى وغيرهم

ومن أشهر المؤلفين فى الأدب الجاحظ واحمد بن عبد ربه والحريرى . وهاهى ذى تراجمهم :

الجاحظ[٨]

هو إمام الأدب أبو عثمان عَمرُو الجاحظ بن بَحْرِ بن محبوب الكِنانى البصرىّ صاحب التصانيف الممْتعة والرسائل المبدَعة

ولد حوالىّ سنة ١٦٠ بمدينة البصرة ، ونشأ بها ، فتناول كلّ فن ، ومارس كلّ علم عرف فى زمانه ، مما وضع فى الإسلام ، أو نقل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركةٌ فى علم كل ما يقع عليــه الحسُّ أو يخطر بالبال ؛ فهو راويةٌ ، متكلمٌ ، فيلسوفٌ ، كاتبٌ ، مصنفٌ ، مترسّلٌ ، شاعرٌ ، مؤرخ عالمٌ بالحيوان والنبات

(١) هو من تلاميذ الجاحظ توفى سنة ٢٨٠ ويوجد من كتابه هــذا ثلاثة اجزاء فى دار الـكتب المصرية (٢) أخذ العلم من تلاميذ الاصمعي وكان أمام البصريين فى زمنه وكتابه الـكامل من خيرة كتب الأدب المطبوعة وتوفى سنة ٢٨٥ (٣) هو أعلم علماء النبات وكتاب النبات له من أمهات كتب هذا الفن وله غيره تأليفات كثيرة فى الأدب وتوفى سنة ٢٨٢

(٤) من كبار مؤلفى الادب وظرفاء الندمان وألعب أهل زمانه بالشطرنج وتوفى سنة ٣٣٥

(٥) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم من كبار كتاب الادب وائمة اللغة والنحو توفى سنة ٢٧٦

(٦) كان من كبار أدباء المشرق رحل الى خلفاء بنى أمية بالاندلس وحظى عندهم وأصله من قالى قلا بأرمينية توفى سنة ٣٥٦ (٧) هو على بن الحسين من سلالة بنى أمية وكتابه الاغانى أشهر من أن يذكر توفى سنة ٣٥٦ (٨) يسمى الجاحظ والحدق أيضاً لجحوظ حدقتى عينيه وكان دميم الوجه

والموات ، وصّافٌ لأحوال الناس ووجوه معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيلهم إلاّ أنهُ غلب عليـه أمران : الكلام على طريقة المعتزلة ، فهو بذلك أمام الطائفة الجاحظيّة من المعتزلة ، والأدبُ الممزوج بالفلسفة والفُـكاهة ؛ فهو أوّل من ألّف الكتب الجامعة لفنونه ككتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وغيرهما

وكان غايةً فى الذّكاء ودقة الحسّ وحسْن الفراسة ؛ الى دُعابةٍ فاشيةٍ . وقلة اعتدادٍ بما يأخذ به الناس أنفسهم وينتحلونه من الرسوم والعادات وأنواع العصبيّة المذهبية ، وعدم مبالاةٍ بوقوع المتورّعين فيه . وكان سمْحًا جواداً كثير المواساة لاخوانه . وكان على دَمامة خَلْقه وتناقض خُلقه خفيف الروح ، فَكِهَ المجلس ، غايةً فى الظَّرف وطيب الفُـكاهة وحلاوة الكلام . وهو على الجملة أحد أفْذاذ العالم ، وإحدى حجج اللسان العربىّ

فصاحته وكتابته

قرأ الجاحظ أكثر الكتب المعروفة فى زمنه اسلاميةً ومنقولةً ، فاستخلص بذكائه العجيب من كلّ ذلك علوماً جمّةً فألّف أشتاتَها على تنافرِها ونسّقَ ضُرُوبها مع تضارُبها ، فتطامَن له بلطفه شامخُها وانقاد له بحسن رياضته حَرونها ، فتهيأ لمكنته منها جملةٌ مطاوعة لارادتهِ يستنبط منها ما شاء ويُصَرّفها أنّى شاء ، وانتحل لنفسه من طُرق البلغاء والمصنّفين طريقةً كان أبا عُذرتها وابنَ بَجْدتها(١) وهى طريقته التى تحبب القرّاء فى القراءة : بتوخّى التصنيف فى الموضوعات الشهية اللذيذة ، أو التى لم يسْبق اليها كاتب ، أو الأمور الحقيرة التى لا يخطر على البال أن يؤلّف فيها كلامٌ ، مع سهولةِ عبارةٍ وجزالةِ لفظٍ وإطنابٍ غير مملّ باستعمال كثير من مترادِفِ الألفاظ والجمل العذْبة واستطرادٍ مروّح على النفس : بايراد طريف الأخبار والنوادر ومزج للجد بالهزل واستقصاء وتغلغلٍ فى وصف ما يعنى بشرحه أو الاحتياج له . وتلطفٍ لتعظيم الصغيرِ حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر

(١) يقال فلان أبو عذرة هذا الأمر أى أول من سبق اليه ، والبجدة العلم وباطن الأمر وداخله وابن بجدة هذا الأمر أى العالم به

وأقام الجاحظ أكثر عمره بالبصرة يعيش معيشةَ الأدباء والعلماء محبوباً لولاتها وأعيانها محبوًّا منهم بالعطايا والمِنح بما يصنّفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة، وتكسب قليلاً بالكتابة فى ديوان السلطان زمن وزارة ابن الزيات، وكان كثير الانتجاع للخلفاء والوزراء ورجال الدولة ببغداد وسرَّ من رأى حتى فلج بالبصرة و بقى مفلوجاً بها مدَّةً الى أن انتقل الى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران[1] سنة ٢٥٥ هـ، وله أكثر من مائتى كتاب طبع منها فى مصر كتاب البيان والتبيين وكتاب الحيوان وكتاب البخلاء وكتاب التـاج (فى أخلاق الملوك) ومجموع لبعض رسائله

أحمد بن عبد ربه

هو أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرَ أحمد بن محمد بن عبدِ ربّه القرطبى صاحب العقد الفريد

ولد رحمه الله تعالى سنة ٢٤٦ هـ، ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس علوم العربية من الشعر والأخبار والملح والنوادر والتاريخ واللغة والنحو، فنبغ فى جميعها، وحفظ منها ما لم يحفَظْه أحدٌ من علماء زمانه، وقرأ رسائل المحدثين من المَشارقة وما ترجم من كتب الأوائل فى أكثر العلوم، وأودعَ زُبْدَةَ ذلك كتابه العقد الفريد

وكان رحمه الله يشتغل فى حداثته بالشعر ويجرى فى مضمار اللهو والطرب، ونظم فى ذلك من القصائد والمقطّعات الرقيقة الجميلة ما جعل المتنبى — على صَلَفه وكبره — حين سمع شعره يسميه (مليحَ الأندلس) . ثم أقلع فى كبره عن صبوته، وأخلص لله فى توْبته، فاعتدَّ أشعاره التى قالها فى الغزل واللهو عملاً باطلاً، وعمل على أعاريضها وقوافيها قصائد فى الزُّهد يعارضها بها وسماها الممحصات . ونال من خلفاء بنى أمية بالأندلس دنيا عريضةً وحلَّ عندهم فى المكان الأسمى

وبقى بقرطبة رئيساً مسوّداً حتى فلج . وعاش كذلك عدَّة سنين ثم مات بها سنة ٣٢٨ هـ

---

(١) الخيزران هى أم الرشيد

كتاب العقد الفريد

لا يختلف اثنان فى أن كتاب العقد الفريد من أجمل كتب الأدب العربى وأرباها فائدة وأصدقها خبراً وأحسنها تبويباً وتفصيلاً

اقتصر مؤلفه فى اكثره على جمع أخبار المشرق، وأخبار كتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه؛ إلاّ أن اشتهاره وجزالة فائدته لم يقفا به عند هذا الحد، بل رجع الى أهل المشرق وعُدَّ من أركان الأدب بين كتبهم، فأقبلوا على دراسته والاقتباس منه ولا سيما متأخريهم. وأما منزلة الكتاب بيننا الآن فهو أستاذ كل متأدب فى عصرنا هذا، ولبث الناس فى نصف القرن الماضى وقلما كانت لهم فى الأدب والكتابة مادَّةٌ سِواه وسوى مقدِّمةِ ابن خلدون؛ لسبقهما فى الطبع والنشر اكثر الكتب، ولولا أنهما وَقَعا مُحرَّفَيْن فى جميع مرار طبعهما لقلّ أن يفضُلَهما كتابُ أدب طُبِع إلى الآن

وللعقد الفريد فوق هذا مزيةٌ لا يعدِله فيها سواه، وهى جمعه لكثير من الرسائل والخُطب والقصص والفوائد التاريخية التى بادتِ الأصول المأخوذةُ هى عنها، وبقيت مخلدةً فيه: مثل مشاورة المهدى لأهل بيته، وخُطبِ الوفود وغير ذلك، ويؤخذ عليه بعضُ هفوات صغيرة فى نقله بعض أخبار المشرق بلا تحقيق، وعذره فى ذلك مقبول

الحريرىّ

هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى الكاتب الشاعر اللغوى النحوى، صاحب البدائع المأثورة، فى مقاماته المشهورة

وهو عربى الأصل ينتسب فى ربيعة الفَرَس. ولد سنة ٤٤٦ بَمشانِ البصرة، وسكن مَحَلةَ بنى حَرامٍ بمدينة البصرة فنُسب اليها، وانقطع لتعلُّم اللغة والنحو والأدب حتى صار نادرة زمانه فيها، وامتاز بصناعة الانشاء البديعى. فحاكى بديع الزمان الهمذانىّ فى عمل المقامات، وأنشأ خمسين مقامةً، أتى فيها على كثير

من موادّ اللغة وفنون الأدب ، وأمثال العرب وحِكَمِها ، و بعض مسائل العلوم الدقيقـة ، بعبارة مُسجَّعة مزيّنة بأنواع البديع ، ولا سيما الجناس ترغيباً للطلاب فى حفظ اللغة وأدبها وتفكيهاً لهم بقراءتها . ونَحَل وقائعها أبا زيدٍ السَّرُوجيّ ، وهو أعرابىٌ فصيحٌ من سَرُوج [١] كان قد قدِم البصرة وأُعْجِب بهِ علماؤها ، وسمى راويها عنه الحارث بن همام (يُرِيدُ نفسه) وأهداها الى الوزير جمال الدين بن صَدَقة وزير المسترشد العباسى ، فأصبحت هذه المقاماتُ أمثل مثالٍ يحتْذى فى الكتابة البديعية التى غلبت على الكتابِ أواخر العصر العباسى ، وتوارثها من بعدهم إلى قُبيلِ عصرنا الحاضر وان لم يستطيعوا الإجادة فيها . وقد شُرِحت المقامات عِدّةَ شُروح ، وتُرْجِمتْ إلى عدة لغات . وغاية ما أخذه كتاب الإفرنج عليها وحدة مغزاها، وأن اكثرها لايخرج عن اكتساب المال بطرق خسيسة : كالشحاذة والاستجداء

وللحريرى العذر فى ذلك لأن فرْض روايتها عن الاعراب (وهم كانوا لا يقدمون المدن إلاّ منتجعين مستجدين) يجعل خياله مقبولاً

وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة وكتب فى النحو واللغة ، منها كتابه درّة الغوّاص فى أوهام الخواص ، ومُلحة الإعراب فى النحو ، وتوفى بالبصرة سنة ٥١٥ هـ

فن التاريخ

قدمنا أن أوّل ما وضع فى التاريخ باللغة العربية هو الكتاب الذى وضعهُ عبيد ابن شَرْية لمعاوية رضوانُ الله عليهِ ، وفى صدر الدولة العباسية وضع كثيرٌ من العلماء كتباً فى التاريخ بأقسامه التى من أشهرها :

(١) فن السير والمغازى - وأشهر من ألف فيه من الأوائل محمد بن اسحاق [٢]

(٢) فن الفتوح - وأشهر من ألف فيه منهم الواقدى [٣] والمدائنى [٤] وأبو مخنَف [٥]

---

(١) بلدة كانت بالجزيرة الفراتية (٢) توفى سنة ١٥١ هـ (٣) هو أبو عبد الله محمد ابن عمر بن واقد مولى بنى هاشم توفى وهو قاض ببغداد سنة ٢٠٧ هـ (٤) هو المؤرخ الثقة أبو الحسن على بن عبد الله المدائنى توفى سنة ٢٢٥ هـ (٥) هو لوط بن يحيي المؤرخ الاخبارى توفى سنة ٢٥٧ هـ

(٣) فن طبقات الرجال – وأشهر علمائه القدماء ابن سعد[١] كاتب الواقدى والبخارى

(٤) فن النسب – وأشهر كبار علمائه الكلبى[٢] وابنه

(٥) فن أخبار العرب وأيامها – وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصْمَعى

(٦) قصص الأنبياء وكتب فيه كثيرون

(٧) تاريخ الملوك ومن أقدم من كتب فيه ابن قتيبة والهيثم بن عدى[٣] وابن واضح اليعقوبى[٤] ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبرى[٥] الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مرتباً على حسب السنين الهجرية وحاكاه بعده ابن الأثير[٦] علىّ فى تاريخه الكامل

العروض والقافية

أوّل من اخترع علم العروض الخليلُ بن أحمد من غير سابقة تعلُّم على أستاذ أو تدرُّجٍ فى وضْع، بل ابتدعه جملةً واحدة وحصَرَ فيه أوزان العرب فى خمسة عشر بحراً وزاد عليه تلميذُ تلميذِهِ الأخفش بحراً آخرَ ثم لم يزد عليهما أحد ممن تأخر عنهما شيئًا يُعْتَدُّ به

أما القافية فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها ولكن الخليل هو أوَّل من فصَّل الكلام فيها وجعلها علمًا مدونًا

النحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علم يدْرَس فى المساجد بالبصرة والكوفة ولكن البصريين سبقوا الكوفيين فى الاشتغال به كما سبقهم الكوفيون فى الاشتغال بالشعر وعلم الصرف

---

(١) هو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهرى توفى سنة ٢٣٠هـ (٢) هو أبو نصر محمد بن السائب النسابة المفسر توفى سنة ١٤٦ هـ. وابنه هو النسابة أبو المنذر هشام بن محمد توفى سنة ٢٠٤هـ (٣) هو أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدى الراوية المؤرخ توفى سنة ٢٠٦هـ

(٤) هو أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الرحالة توفى سنة ٢٧٨ هـ

(٥) توفى سنة ٣١٠ هـ (٦) توفى سنة ٦٣٠هـ

ومن أكبر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذّبوه وفصلوه من البصريين أبو عمرو ابن العلاء[1] وتلميذه الخليل وتلميذ الخليل سيبَوَيه صاحب أول كتاب عظيم جامع وضع فى النحو، ثم بعده الأخفش[2] تلميذ سيبَوَيه وشارح كتابه. ومن الكوفيين مُعاذ الهَرّاء[3] والرُّؤاسى[4] وتلميذهما الكسائىُّ وتلميذه الفراء[5]

ثم لما زخرت بغداد بالعلوم وكثرت الفتن بالبصرة والكوفة، هاجر منهما اليها كثير من العلماء امتزجت مذاهبهم وتكوّن منها مذهب بغدادى جديد. وكذلك اختار الأندلسيون لأنفسهم مذهباً رابعاً[6]. وكل هذه المذاهب مقتبسة إما من مشافهة الأعراب الفصحاء، أو من مدارسة دواوين شعرهم، أو من مدارسة القرآن الكريم. فى النحو والصرف ما لا يحصى من الكتب: مطولات ومختصرات. وهو من العلوم التى نضِجت وأينعت

علم اللغة

ويسمى متن اللغة، ونعنى به معرفةَ معانى ألفاظها المفردة، وأول ما وضع الأئمة فيه رسائلُ وكتبٌ صغيرةٌ فى موضوعات خاصّة: كالالفاظ المتعلقة بخَلْق الانسان أو الجمل أو الفرس أو النخلة أو السيف. فلما ظهر الخليلُ أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية فى كتاب، ورتبه على حروف المعجم، مقدِّماً حروفَ الحلق ومبتدئاً منها بالعين،

(١) هو الحجة الثبت اللغوى النحوى الراوية واسمه كنيته. توفى سنة ١٥٤ هـ

(٢) هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الاوسط توفى سنة ٢١٥ هـ

(٣) هو أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء، واضع علم الصرف وأقدم نحاة الكوفة، توفى سنة ١٨٧ هـ

(٤) هو أبو جعفر محمد بن الحسن الرؤاسى شيخ الكسائى والفراء، وأول من ألف فى نحو الكوفيين

(٥) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء امام النحاة الكوفيين والبغداديين توفى سنة ٢٠٧ هـ

(٦) لم يتكون مذهب الاندلسيين الا بعد ان قلت رحلاتهم الى المشرق فى القرن الرابع وما بعده لكثرة الفتن فيه ولكساد سوق العلم عند ملوكه من الاعاجم وفساد السليقة فى الجزيرة. وكان الاندلسيون قد نقلوا من السنة وكلام العرب الكثير الجم فعكفوا عليه واستدركوا على المشارقة مافاتهم من قواعده، وعدلوا عن بعض آرائهم فيه. وحفظوا تراثه لاهل العربية زمناً كاد يصفر الشرق من أهله أواخر العصر العباسى والعصر الذى بعده. ومن أشهرهم فى هذا العصر ابن سيده وابن خروف وابن عصفور والاعلم الشنتمرى وابن الضائع

ولذلك سمّى مُعْجمه « كتاب العين » . ثم ألف أبو بكر بن دُرَيد[١] معجَمه العظيم الذى سماه الجَمْهَرَة مرتبًا له على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن . وأدرك عصره الأزهرىُّ[٢] فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهرىُّ[٣] كتابه المسمى بالصحاح على ترتيب الجمهرة ، وابن سيده[٤] الاندلسى كتابه المُحْكم على ترتيب الخليل . وابن فارس[٥] كتابه المجْمل ، والصاحب بن عباد كتابه المحيط . وهذه هى أُصُولُ كُتب اللغة ، وما بعدها : من العُباب والتكملة ومجمع البحرين للصاغانى[٦] والنهاية لابن الأثير[٧] ، ولسان العرب لابن مُكرَّم[٨] ، والمصباح للفيومى[٩] والقاموس للفيروزابادى[١٠] فهو جمع لها أو اختصار منها

علوم البلاغة

المعانى والبيان والبديع

لم يصنف العلماء فى هذه العلوم الاّ بعد أن فرَغُوا من تدوين العلوم التى تحفظ الكلامَ العرَبى من حيث اعرابُه وتصريفُه ومادتُه . فلما أتموا ذلك بحثوا فى بلاغة الكلام

ويظهر أن أوَّل كتاب دُوِّن فى هذه العلوم كان فى علم البيان وهو كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة تلميذ الخليل ، ثم تبعه العلماء . ولا يعلم أوَّل من ألف فى المعانى بالضبط وانما أُثِر فيها كلامٌ عن البلغاء ، وأشهرهم الجاحظ فى إعجاز القرآن وغيره . وأوَّل

(١) هو ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدى توفى سنة ٣٢١ هـ (٢) هو ابو منصور محمد بن احمد بن الازهر المتوفى سنة ٣٧٠ هـ (٣) هو ابو نصر اسماعيل بن حماد الجوهرى المتوفى فى حدود سنة ٤٠٠ هـ

(٤) هو أبو الحسن على بن اسمعيل الاندلسى الضرير المتوفى سنة ٤٥٨ هـ

(٥) هو ابو الحسين احمد بن فارس الرازى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

(٦) هو ابو الفضائل رضى الدين الحسن بن محمد الصاغانى الرحالة المتوفى سنة ٦٥٠ هـ

(٧) هو ابو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ

(٨) هو ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المشهور بابن منظور أيضاً توفى سنة ٧١١ هـ وهو من أهل العصر التالى

(٩) هو احمد بن محمد بن على المقرى الفيومى المتوفى سنة ٧٧٠ هـ من أهل العصر التالى

(١٠) هو ابو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٦ هـ من أهل العصر التالى

من دوّن كتباً فى علم البديع ابنُ المُعتز وقُدامة بن جعفر[١] . وقبل ذلك كان البديع يُستعمل فى الشعر عملاً . و بقيت هذه العلوم تتكامل و يزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبدُ القاهر الجُرجانى[٢] فألف فى المعانى كتابَه دلائل الإعجاز . وفى البيان كتابَه أسرارَ البلاغة . وجاء بعده السكاكى[٣] فألف كتابه العظيمَ مفتاحَ العلوم : فبسط مسائل البلاغة بما لم يزد عليه غيرُه فيها شيئاً كبيراً من أصول الفن

الخليل بن احمد

هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمدَ بن عمرو بن تميم الفراهيدى الأزدى البصرى نابغة العرب ، وسيد أهل الأدب ، ومخترع العروضِ ومبتكر المعجمات وصاحب الشكل العربى المستعمل الآن

ولد سنة ١٠٠ بالبصرة ونشأ بها ، وأخذ العربيةَ والحديث والقراءة عن أئمة زمانه واكثرَ الخروج الى البوادى ، وسمع الأعراب الفصحاء ، فنبغ فى العربية نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه ، وكان غاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله ، فبسطه وفرَّع على أصوله وجعله علماً مضبوطاً ولقن ذلك تلميذه سيبويه ، فكان كتابه الذى يعتبَر أصلَ كلِّ كتاب فى النحو معقوداً اكثره بلفظ الخليل . والخليلُ هو الواضع للشكلِ المستعملَ الآن فى ضبط الحروف

ومما يشهدُ له بحِدَّة الفكر و بعد النظر اختراعه العروض علماً كاملاً لم يحتج الى تهذيب بعده ، وابتكارُه طريقةَ تدوين المعجمات بتأليف كتاب العين ، وتدوينه كتاباً دقيقاً فى الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهو . وزاد فى الشِّطرَنج قطعةً سماها جَملاً لَعِبَ بها الناسُ زمناً . و بقىَ الخليل مقيماً بالبصرة طول حياته زاهداً متعففاً متقشِّفاً مكباً على العلم والتعليم حتى مات سنة ١٧٠ ه ويقال فى سبب موته أنه قال أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضى به الجاريةُ الى البقال فلا يظلمها ، فدخل المسجدَ وهو يُعمل فكرَه فاصطدم فى سارية صدمة شديدة ارتج منها دماغه واعتل من ذلك ومات رحمه الله تعالى

---

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣١٠ ه
(٢) هو ابو بكر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ه
(٣) هو ابو يعقوب سراج الدين يوسف السكاكى الخوارزمى المتوفى سنة ٦٢٦ ه

سيبويهِ

هو أبو بشر عمرو بن عثمان قُنْبَرَ امامُ البصريين وحجة النحويين وصاحب الكتابِ شيخ الكتب[(١)]

ولد بالبيضاء من سُلالة فارسية ونشأ بالبصرة ، وكان يطلب أوَّل أمره الحديث والفقه . فعِيبَتْ عليه لَحْنةٌ لحنها فى مجلس شيخه فخَجِل وطلَب النحو ولازم الخليل ، وأخذ عن غيره أيضاً . وكان الخليل يُؤْثِره على أصحابه ، فدوَّن جميعَ ما أخذه عنه ونقله عن غيره فى كتابِهِ الذى لم يُجْمَع قبله مثله . ولولا هـذا الكتابُ الذى رواه عنهُ وشَرحه تلميذُه الأخفشُ ما كان لسيبويهِ خبرٌ يشهر : لوفاتهِ كهلاً ولقلة مَن أخذ عنهُ هذا الكتابَ ؛ ولأنهُ لاَ يُعرف له كتابٌ غيرُه ، وبحسبك هو . ولما أحس فضل معرفته فى النحو وأنه أصبحَ شيخَ البصريين ، خرج الى بغداد وافداً على البرامكة ، فجمعه يحيي بنُ خالد بالكسائى شيخ الكوفيين . فتناظرا فى مجلس أعِدَّ لذلك ، فكان من مسائل المناظرة أن سأله الكسائيُّ : ما تقول فى قول العرب : (كنت أظن أن العقربَ أشدُّ لسعةً من الزُّنْبُور فاذا هو هى ، أو فاذا هو اياها) فقال سيبويهِ : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب . فقال الكسائيُّ . العربُ ترفع ذلك وتنصبهُ . واشتد بينهما الخلافُ ، وتحاكما الى رُواة الأعراب بباب يحيي فقضَوْا للكسائى ، فاستكان سيبويهِ ، فقال الكسائى ليحيي (أصلح الله الوزير) وفدَ عليك مؤملاً فان رأيت أن لا تردَّه خائباً . فأمر له بعشرة آلاف درهم

وما يُرْوَى فى هذه الحكاية من غير هذا الوجه فمن زيادة مُتَعصّبى البصريين وليس فى العلم كبيرٌ . وخرج سيبويهِ بعد هذه المناظرة الى ناحية بلدتهِ البيضاء بفارس ومات بها سنة ١٨٠ ﻫ بعد نحو عشر سنين من المناظرة . وسنه نيف وأربعون سنة

(١) كان اذا ذكر الكتاب عند النحويين والادباء فانما ينصرف الى كتاب سيبويه فهو علم عليه بالغلبة ، وهو اصل كل كتاب فى النحو ولهذا ولقدم وضعه اطلقنا عليه (شيخ الكتب)

الكسائى

هو أبو الحسن على بن حمزة أحد القراء السبعة و إمام الكوفيين فى النحو واللغة نشأ بالكوفة وتعلم على الكبر بعد لحنة لحنها أمامَ جمعٍ من طلبة العلم ؛ فلازم أئمة الكوفة حتى أنفدَ ما عندهم ، ثم خرج الى الخليل بالبصرة وجلس فى حلقته ، وأعجبه علمهُ فقال له : من أين علمك هـذا ؟ قال : من بوادِى الحِجاز ونجد وتِهامة ، فخرج اليها وأنفدَ خمس عشرةَ قنّينة حِبر فى الكتابة عن العرب سوى ما حفِظَ عنهم . ولما رجع من البادية وجّه اليهِ المهدىُّ فخرج الى بغداد فحَظِىَ عنده وضمّه الى حاشية ابنهِ الرشيد ، ثم جعله الرشيد مؤدّب ولدِهِ الأمين ، و بقى وجيهاً عنده فكان يُجلسُهُ هو والقاضى محمدَ بنَ الحسن (١) صاحبَ أبى حنيفة على كرسيّين متميزين بحضرته ، و يأمرهما أن لا ينزعجا لقيامهِ ومجيئه . وما زالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيدُ الى الرَّىّ (٢) وهما فى صحبتهِ ، فماتا فى يوم واحد فبكاهما وقال : دفنتُ الفقه والعربية بالرىّ وذلك سنة ١٨٩ هـ . وقد انتهت اليهِ إمامة القراءة والعربيةِ بالكوفة و بغداد ، واختار لنفسهِ قراءةً أقرأ بها الناس . وكان يروى الشعر وليس له فيه جيدُ نظر

العـلوم الشرعية

التفسير

لم يدوّن علم التفسير فى كتب جامعة تجمع سوَر القرآن الكريم كلّها إلا فى عصر الدولة العباسية . وكان التفسير عبارةً عن نقل روايات عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبين المرادَ من آياته ، وأوّلُ طبقة من المفسرين أدركتِ الدولة العباسية أو نشأت فى صدرها طبقة سفيان بن عُيينة (٣) ووكيع بن الجرّاح (٤)

(١) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى وأحد صاحبي أبى حنيفة (٢) كانت من حواضر بلاد فارس وبالقرب من اطلالها انشئت مدينة طهران الحالية (٣) هو ابو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون مولى بنى هلال المحدث الفقيه المفسر توفى سنة ١٩٨ هـ بمكة

(٤) هو ابو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح صاحب ابى حنيفة واحد المحدثين المفسرين العباد توفى سنة ١٩٨ هـ

وشعبة بن الحجاج واسحق بن راهُوَيْه[١] ومُقاتِل بن سليمان[٢] والفراء

ومن أشهر التفاسير التى رُوِيت من طريقهم تفسيرُ ابن عباس[٣] ، وقد رُوى من طرق مختلفة صحةً وضعفاً ، وطبع بعض طرقه الضعيفة فى مصر ، فهو بذلك أقدمُ تفسير نعرفه . ثم جاءت بعد هذه الطبقة طبقة أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى[٤] وتفسيره أوّل كتاب عظيم صحيح وضع فى التفسير على مذهب السلف ، وتابعه فى ذلك الثعلبى[٥] وتلميذه الواحدى[٦] . ومنهم استمدّ كل ذى تفسير بعدهم . ثم نشأت طائفة أدخلت فى التفسير بعض مباحثِ العلوم الأخرى كالنحو ، والفقه ، والأصول ، والكلام ، والبلاغة ، والقصص ، ثم تجردت طائفة الى التفسير بالرأى والقياس ؛ فانقسم التفسير قسمين ، سلفياً وفنياً . واستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا

الحديث

أوّلُ كتابٍ جمعَ فى الحديث الكتابُ الذى أمرَ الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز بتدوينهِ ، ولم يعرف له خبرٌ بعدُ . ثم أخذ العلماء يدوّنون فيهِ بحض الخليفة العباسى أبى جعفر وأولاده . فدوّن الإمامُ مالكٌ موطأه فى الحديث والفقه . ولما اشتدّتْ رغبة النـاس فى طلب الحديث ، وضع كثيرٌ من الزنادقة واليهود المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث فتجرد لها الأئمةُ الأعلام وبيّنوا صحيحهاَ من فاسدها ، وكان من أفضل القائمين بذلك اسحق بن راهُوَيْه وتلميذه محمدُ بن اسمٰعيلَ البخارى الذى دَوّن كتابه فى الأحاديث الصِّحاح فقط ، وتبعهُ تلميذُه

(١) هو ابو يعقوب اسحق بن ابراهيم الملقب براهويه التميمى الحنظلى نسبا المفسر المحدث توفى سنة ٢٣٨ هـ (٢) هو مقاتل بن سليمان البلخى المفسر متهم بضعف الرواية توفى سنة ١٥٠ هـ (٣) هو عبد الله بن العباس عم النبى (صلى الله عليه وسلم) بن عبد المطلب بن هاشم حبر قريش وعالمها توفى بالطائف سنة ٦٨ هـ (٤) هو ابو جعفر محمد بن جرير الفقية المجتهد المفسر المؤرخ توفى سنة ٣١٠ هـ (٥) هو ابو عبد الله احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبى النيسابورى المفسر المشهور توفى سنة ٤٢٧ (٦) هو ابو الحسن على بن احمد بن محمد الواحدى المصنف المفسر توفى سنة ٤٦٨

مسلمُ بن الحجَّاج[١] والإمام احمدُ بن حنبل وأصحاب كتبِ السنة الصحاح وهم الترْمذِي[٢] – وأبو داود[٣] – والنسائى[٤] – وابن ماجة[٥] . هـذه هى أصول الكتب فى الحديث و بعضهم جمعها كلَّها ، و بعضهم اختصرها

الإمام البخارى

هو أبو عبد الله محمدُ بن اسمٰعيلَ بن ابراهيم بن المغيرة ؛ إمام المسلمين ، وسيد المحدِّثين ، وصاحب الجامع الصحيح أجلّ كتبِ الإسلام وأفضلِها بعد كتاب الله العزيز

ولد ببُخَارى ، من سلالة فارسية سنة ١٩٤ هـ ونشأ بهـا يتيماً فحفِظَ القرآن وألم بالعربية وهو صبى ، وحُبِّبَ اليهِ سماعُ الحديث ، فكان أوَّل سماعه من علماء بخارى ، وهو لم يناهزِ البلوغَ حتى حفِظ عشرات الألوفِ من الأحاديث ؛ وكان أهل الرغبة فى الحديث يتعادَوْن خلفَه ويجلسونه فى بعض الطريق ويكتبون عنهُ وهو بعدُ شابٌ لم يَطُرَّ شاربه[٦] وخرج مع أمهِ وأخيهِ الى مكة فحجوا وتخلَّف هو لطلب الحديث ، ودخل من أجله أكثرَ ممالك المشرق : من خراسان والجبل والعراق والشام ومصر ، وأخذ عنهُ علماؤها وأئمتها ومنهم احمد بن حنبل ، وتفقه على مذهب الشافعى ، ثم صار له مذهب خاص . ولما نضِج علمه واجتمع له يقينه ، شرع فى تمييز الأحاديث الصحيحة من غيرها بعد أن عَرَفَ عِللها ووجوهها معرفةً لم تتم لأحدٍ قبله ، فكان بذلك المقدَّمَ على علماء الأرض . واستخرج كتابه (الجامع الصحيح) من ستمائةِ ألفِ حديث فى ستَّ عشْرَة سنة جمع فيهِ تسعَة آلاف

---

(١) هو ابو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى احد الشيخين وصاحب ثانى الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ وتوفى سنة ٢٦١ هـ (٢) هو ابو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ (وترمذ مدينة على جيحون) (٣) هو ابو داود سليمن بن الاشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ « وسجستان الاقليم الشمالى من بلوجستان »

(٤) هو ابو عبد الرحمن احمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ ونساء بفتح النون وفتح السين وبعدها همزة مدينة بخراسان (٥) هو ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه المتوفى ٣١٣ هـ

(٦) اى لم ينبت شاربه

حديثٍ مكرّرٍ بعضُها بتكرُّرِ وجوهها . وقال انى جعلته حجةً بينى و بين الله . فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها أصحُّ منهُ

وبقى طولَ حياتهِ يتردّد بين الأمصار حتى اشتاق الى بلاده فرجع اليها وابتُلى فيها بفتنة خَلْقِ القرءان ، فأثار عليهِ والى بُخَارَى العامةَ فأخرجوه منها ، ومات فى (خَرْتَنْك) قرية من قرى سَمرْقَند سنة ٢٥٦ ﻫ

علم الفقه

لما كان المروىُّ عن رسول الله وظاهرُ نص القرءان لا يستوعبان كلَّ أحكامِ الوقائع المختلفة المتجدّدة بتجدّد الزمان والمكان . كان الاجتهاد ضروريًّا فى الدين وجاءت الدولة العباسية وأهل الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رواتهِ بينهم ، وأمامُهم فى مذهبهم مالكُ بن أنس ، وأهل العراق يرجحون الأخذ بالقياس ، وأمامهم فى مذهبهم أبو حنيفة لكثرة ما وضعه متزندقة العراق فى الحديث . ثم لما دخل أهل الحجاز العراقَ وتساوى الفريقان فى معرفة الأحاديث عملوا بهما ، ونشأ من ذلك عدة مذاهب أشهرُها مذهب الشافعى ومذهب احمد بن حنبل ، وهذه المذاهبُ الأربعة هى التى ارتضاها معظَم الأمة فى أمر دينها ودنياها

ثم كان لكل مذهب أئمةٌ مجتهدون فيه

الإمام أبو حنيفة النُّعمان

هو الامامُ الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابتٍ فقيه العراق وقدوة أهل الرأى وصاحب المذهب المَقْضِىّ به الآن فى أكثر الممالك الاسلامية

ولد سنة ٨٠ هجرية ، من سلالة فارسية ونشأ بالكوفة وعاصَر بعض الصحابة ، واشتغل بالفقه ؛ وأخذ كلَّ علمه عمَّنْ شافه الصحابة ونقلَ عنهم ، واستنبط فقهه من القرءان الكريم وما صح عنده من الحديث على قلته مع استعمال الرأى والقياس وتابعه فى ذلك أكثر أئمةِ العراق : لقلة رواة الحديث الصحيح بينهم ، وكثرتهم فى الحجاز وكان من أعبد الناس وأكثرهم تهجداً وقراءة للقرءان الكريم ، وأكثرهم

ورعاً وتوخّياً للكسب من وجه حلّ . رضىَ أن يعيش تاجرَ خزّ ورغِبَ عن وظائف الملوك والخلفاء ، وعُرض عليه القضاء من قِبَل أمراء بنى أُمية ثم المنصور فأبى ، فسجنهُ وآذاه ، حتى قيل : إنهُ مات فى سجنه ، وكان يعتذر بأنهُ لا يأمَن نفسهُ أن تزلّ . وقرأ عليه علماء الكوفة و بغداد ، وتخرج عليه منها الأئمة من أصحابه كمحمد ابن الحسن وأبى يوسف[١] وزُفَر[٢] ومات رحمهُ الله ببغداد سنة ١٥٠ ه

الإمام مالك

هو أبو عبدالله مالك بن أنس امام دار الهجرة وسيد فقهاء الحجاز . وهو عربى من سلالة أقيال حِمْيَر

ولد سنة ٩٥ بالمدينة المنوَّرة ونشأ بها ، وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعبَّاد ورحَل اليهم ، وأخذ عنهم ، وما زال يدأب فى التحصيل وجَمْع السنَّة حتى صار حجةً من حُجَج الله فى أرضه وضُربَ به المثل فقيلَ (لا يفتى ومالكٌ بالمدينة) وعرَف الخلفاء قدرَه فأجلُّوه ، وحملوا اليه بِدَرَهم . وسُعى به الى عامل المنصور بالمدينة فجرّده وضربهُ سبعين سوطاً . ولما بلغ ذلك المنصور غضب على عامله وعزله وأقدمه إلى بغداد على قَتَب ، ولقى المنصور مالكاً من قابلٍ فى موسم الحج فاعتذر اليه ، واستسمحهُ وفاتحه فى كثير من مسائل الدين ، وطلب منهُ أن يجمع ما ثبت لديه ويدوّنه فى كتاب ويُوَطِّئهُ للناس ، فاعتذر . فلم يقبل منهُ عذراً فألّف كتابَه الموطأ فى الحديث والفقه . فجاء ولىُّ عهده المهدى من قابل حاجًا فسمعه منه وأمر له بخمسة آلاف دينار وألف لتلاميذه . ولم يلبث أن مات المنصور ، وزاحم فقهُ أهل العراق فقهه ، ولكن ذلك لم يمنع الرشيد أن يرحلَ هو وأولادُه اليه بالحجاز ليسمع موطأه فسمعه وأغدق عليه . وكان مالكٌ أول أمره فقيراً ، فلما كثرت منحُ الخلفاء له حسُن حاله فأظهر نعمة الله عليه ، ووصل أهل العلم وأشركهم فى ماله ومنهم

---

(١) هو ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى نسبا صاحب ابى حنيفة وناصر مذهبه واول من تسمى بقاضى القضاة بمدينة السلام (بغداد) توفى سنة ١٨٢ ه

(٢) هو ابو الهذيل زفر بن الهذيل التميمى العنبرى صاحب أبى حنيفة توفى سنة ١٥٨ه

الشافعي . أما أخلاقه : من الكرم والطلاقة والوقار والنُبل والتواضع والحب لرسول الله عليه الصلاة والسلام فانها تجلّ عن الوصف ، حتى انه كان لا يركب دابة فى المدينة اجلالاً لأرض ضمّت جسد رسول الله . وتوفى سنة ١٧٩ بالمدينة ودفن بالبقيع(١)

الامام الشافعي

هو أبو عبد الله محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع عالم قريش وفخرها ، وأمام الشريعة وحبْرها . وهو من ولد المطلب بن عبد مناف ، ولد بمدينة غزة(٢) سنة ١٥٠ وحمل الى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها فقيراً تربيه أمه ويواسيه ذوو قرابته من قريش ، وما ميّزحتى صار نادرة الدنيا ذكاء وحفظاً : حفِظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولع بالنحو والشعر واللغة ورحل الى البادية فى تطلبها ولم يناهز سنّ البلوغ حتى حفِظ منها شيئاً كثيراً . ثم تفقّه وحفِظ موطأ مالكٍ وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، ثم رحل فى هذه السن الى مالك وقرأ عليه الموطأ من حِفْظه ، فقال مالك : ان يكن أحد يُفْلِح فهذا الغلام ؛ وأضافه وخدمه بنفسه . ثم رجع الى مكة ، وعلم بها العربية والفقه ، وصحح عليه الأصمعيّ شعر الهذليين ، ثم أن الرشيد ولّى أحد أصدقاء الشافعي عملاً باليمن فخرج معه وولِىَ بعض الأعمال فأحسن التصرُّف ، ثم وشى به الى الرشيد ، وقبض عليه ، فلم يتبين شيئاً فى أمره ، فأطلقه . ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ فاجتمع عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وأملى بها مذهبه القديم وفى سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠ خرج الى مصر وألقى فيها عصاه وسكن الفُسطاط فكانت دار هجرته ، وبها أملى مذهبه الجديد(٣) بجامع عمرو . واستنبط الشافعي مذهبه من القرآن والحديث والقياس وبعض الرأى فكان مذهبه وسطاً بين أهل الرأى من أصحاب أبي حنيفة وبين أهل الحديث من أمثال مالك وأحمد ، وتوفى سنة ٢٠٤

---

(١) هي مقبرة المدينة المنورة (٢) من مرافئ الشام قريبة من حدود البلاد المصرية

(٣) لأنه فى أثناء اقامته بالعراق وفى أثناء مروره بالجزيرة والشام فى رحلته الى مصر لقى كثيراً من ثقات المحدثين وعلم منهم ما لم يعلم ورأى من عرف الناس فى الحجاز واليمن والعراق والجزيرة والشام ما جعله يعدل عن بعض آرائه فى جلب المصلحة ودرء المفسدة

وقبره بمصر معروفٌ مشهور . وكان الشافعيُّ أفضل من رأى الناسُ ذكاءً وعقلاً وحفظاً وفصاحة لسانٍ وقوة حجة ، ولم يناظر أحد الاّ ظهر عليه

واجمال القول انه كان إماماً فى كل شىء حتى الرمى بالسهام فكان يصيب منه تسعة من عشرة

الامام أحمد بن حنبل

هو الامام الصابر المحتسِب أبو عبد الله أحمد بن حنبلٍ الشَّيْبانى نسباً ، حافظ السنة وقدوة أهل الحديث وأعبدُ أهل زمانه . ولد ببغداد من سلالة عربية سنة ١٦٤ فتعلم العلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، وكان الحديث وقتئذٍ قد أينع وكثرت رجاله وصنِّفت كُتبه وتميَّز صحيحه من موضوعه ، فلقى مَنْ لا يحصى من رجاله ، فجاب البلاد وطوّف الأمصار حتى حفِظَ مئاتِ الالوف من الأحاديث، واختار منها نيفاً وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه المسند ، واستنبط مذهبه من السنة مشوباً بشىء من القياس والرأى ، وظهرت فى مدّته فتنة خَلْق القرآن (١) فامْتُحِنَ بها فى مجلس المعتصم ليجيبهم إلى القول بخلق القرآن فلم يفعل فَضُرِبَ سبعةً وعشرين سوطاً ضرْباً موجعاً فسال منه الدم وأغمى عليه ، ولما خيف عليه التلف أطلِقَ فبقى فى منزله مدّةً مريضاً ثم عُوفِيَ واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد حتى مات سنة ٢٤١ هـ

علم الكلام

كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسُّنَّة . وما وقع فيهما من التشابه أو أوهم التشبيه المنافى لتنزيه المعبود توقّفوا فيه خوف أن يحيد بهم تغلغُلُهم فى التأويل عن القصد فيقعوا فيما وقع فيه مَن قبلهم فيتفرّق أمرهم ويكونوا شيعاً ، ومن لم يتوقف منهم لم يبعد عنهم كثيراً ، غير أن

---

(١) كان الخليفة المأمون ينكر على من يقول ان القرءان قديم لان ذلك يقتضى تعدد القدماء المفضى الى تعدد الآلهة بل يقول انه حادث مخلوق

ذلك لم يقنعْ من دخل الاسلام من الطوائف التى امتلأت دياناتها بالتشبه والأوهام فكثر جدلهم فى شبههم بالأقيسة الصناعيـــة والعقلية ، فاضطرّ العلماء أن يجاروهم ويعارضوهم بمثل ذلك ، وساعدهم الخلفاء وأوّلهم المهدى الذى حرضهم على تدوين علم الكلام (التوحيد) ، فافترق المرضىّ عن مذهبهم من علماء الكلام فرقتين : فرقة اعتقدت ما يقرب من مذهب السلف وسُمُّوا الجماعة وأصحاب الحديث ، وفرقة اعتزلتها وخالفتها فى بعض المسائل ومقــدّمها واصل بن عطاء[١] وسمّوا المعتزلة أو أصحاب العدل . وجرى رجال الحكومة العباسية على هذا المذهب ونصروه حتى ظهر أبو الحسن الأشعرى فألف من مذهب المعتزلة ومذهب غيرهم مذهبَه الكلامىّ الذى سمى بعدُ بمذهب الأشاعرة وغلب على كل مذهب سواه إلا بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة (وبقى كثير منها الى الآن) ومذاهب الخوارج والإباضية وبقى منهم الى عصرنا بقية فى الجبل الأخضر من برقة وفى جزيرة جربة على ساحل تونس وفى جنوبى الجزائر وبلاد البحرين وعُمَان

أبو الحسن الأشعرى

هو أبو الحسن على ابن اسماعيل شيخ طريقة أهل السنة والجماعة ، وامام المتكلمين وصاحب المذهب الكلامى المنتشر الآن فى أكثر بقاع العالم الاسلامى

ولد بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ ونشأ بها وأخذ علم الكلام عن أبى علىّ الجُبَّائى شيخ المعتزلة ، وتبعه فى الاعتزال واحتجّ له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً . ثم هداه البحث فى السُّنة ومذاهب المتكلمين من الصّفاتية والفقهاء وأصحاب الحديث ، فرأى أن كلا الفريقين من هؤلاء ومن المعتزلة غالٍ فى نظره ، فتوسط ، وتغيّب عن الناس مدّة ألّف فيها كتبه فى نصرة أهل السُّنة والردّ على أكثر عقائد

(١) هو أبو حــذيفة واصل بن عطاء الخطيب المتكلم كان يجلس الى الحسن البصرى يأخذ عنه العلم فلما قالت الخوارج بتكفير مرتكب الــكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وان فسقوا بالــكبائر خرج واصل عن الفريقين وقال إن الفاسق من هذه الامة لا مؤمن ولا كافر ومنزلة بين المنزلتين فغضب منه الحسن فاعتزل مجالسه وانضم اليه عمرو بن عبيد بن باب وتبعهما أقوام سموا المعتزلة ومات سنة ١٨١

المعتزلة ، ثم خرج الى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة ورقِىَ المنبر وعرَّف الناس بنفسهِ وبمذهبهِ القديم والجديد ودفع الكتب التى ألّفها على مذهب أهل السُّنَّة للناس فنصب له المعتزلة بالردّ والتزييف . فما زال يُدحض حججهم حتى انقطعوا عن مناظرته ، وتبعه كثير منهم ومن غيرهم

وكان أبو الحسن من أورع الناس وأزهدهم مع دُعابة ومزاح ، وكان يعيش من غلة قرية وقفها جده بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله على ذريته، وكان شافعىّ المذهب . توفى سنة ٣٢٤ وممّن نصر مذهبه الفخر الرازى والغزالى ، وقام به فى مذهبهِ القاضى أبو منصور الماتُرِيدىّ

الغزّالى

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزّالى الطوسى الشافعى حجة الاسلام وصاحب كتاب احياء علوم الدين

ولد سنة ٤٥٠ ونشأ بطوس(٢) وتعلم بها مبادئ العلوم ثم رحل الى نيسابور ولازم امام الحرمين الجُوَيْنى(٣) وهو يومئذٍ عالم الشافعية فى الشرق ، فما زال يتلقى عنهُ العلم حتى صار من اكابر متكلمى الأشاعرة وفقهاء الشافعية . وحتى أصبح استاذه يفاخر بهِ العلماء ويتباهى بتعليمه وتخريجه . ولما مات الجوينى ذهب الى بغداد ولقى الوزير نظام الملك(٤) صاحب المدرسة النظامية الشهيرة . وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم وأقر له فحول العراق بالفضل فتولى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات . ثم طرأت عليهِ حال زهادة فى الدنيا فسلك طريق الصوفية باعتدال . ورغب عن

---

(١) الغزالى بتشديد الزاى نسبة الى الغزال قال ابن خلكان وذلك هو المشهور وقيل إنها مخففة نسبة الى غزالة قرية من قرى طوس (٢) طوس مدينة عظيمة بخراسان دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا (٣) هو أبو المعالى ضياء الدين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينى الفقيه الشافعى توفى سنة ٤٧٨ و (الجوين) ناحية كبيرة من خراسان (٤) هو الوزير أبو على الحسن بن اسحق بن العباس الملقب نظام الملك ، قوام الدين العالم الصالح المتصوف محب العلم والعلماء ، وزر للسلطان ألب أرسلان وولده السلطان ملك شاه السلجوقيين المتغلبين على خلفاء بغداد ، وبنى مدرسته النظامية ببغداد وهى أول مدرسة بنيت خاصة بالتدريس ، وكان قبل فى المساجد الجامعة ، وجعـــل الرواتب للمدرسين وللطلبة ، وأجرى عليهم الجرايات ، وقتل سنة ٤٨٥ هـ

الاختلاط بالناس . ثم حج وذهب الى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها ، ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ، ثم عاد الى وطنه طوس واشتغل بتأليف الكتب الجليلة ، ثم لزم التدريس بنيسابور ، ثم عاد الى وطنه حيث قضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر حتى مات بالطابَران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ

ويعتبر الغزّالى من مؤيدى مذهب الأشاعرة المسَمَّينَ بأهل السنة ومن أكبر أئمة الشافعية . وهو يعد خير من تكلم فى التصوف بحال لم تشبها نحلُ غلاة الصوفية الخارجين بها عن مألوف العقل البشرى المعتاد . ويعتبر كتابه (إحياء علوم الدين) من أفضل كتب التصوف والأخلاق واظهار حكمة القرآن والشريعة . وأصبحت كتابته فيه أبلغ كتابة توخى أسلوبها علماء هذه المقاصد وغيرهم من المصلحين حتى عصرنا هذا

نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها
وأشهر المترجمين والمشتغلين بها من المسلمين وموَاليهم

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة . وتشمل أربعة علوم — المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والالهيات

وتشمل الطبيعيات : علم الطبيعة ، والكيمياء ، وفن المواليد الثلاثة ، والطب ، والصيدلة ، والفلاحة

وتشمل الرياضيات علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات والحيل (الميكانيكا[1]) وعلم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم؛ ومن متعلقاته علم الجغرافيا الرياضية

ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق والموسيقى

وتشمل الالهيات علم ما وراء الطبيعة من الروحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقوى النفسية والجن والملائكة ونحو ذلك

---

(١) يرى بعض مهندسى عصرنا تسمية هذا العلم بعلم القوى

وهذه العلوم فطرية فى الإنسان من حيث إنه مفكر متمدين لا تختص بها أمة دون أخرى ، فكان الاشتغال بها ضرورياً لكل أمة أصبحت ذات حضارة ، ولذلك ترجم المسلمون بعضها فى عصر بنى أمية ، واستقدم المنصور العباسىُّ كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود فى الطب والفلك والسياسة . ومن أشهر هؤلاء جُرْجيسُ الكبير(١) ابن بَخْتَيشوع ونوبختُ(٢) وابنه أبو سهل وابن المقفع . ولما مات المنصور فَتَرَ أمر الترجمة الى زمن الرشيد والبرامكة فحثُّوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ، وصححوا بعض ما تُرْجِم زمنَ المنصور

ثم جاء عصر المأمون فزخرتْ بحورُ الترجمة ، وبعث الى بلاد الروم جماعةً من المترجمين كابن البطريق(٣) وسَلْمٍ صاحبِ بيت الحكمة ، والحجاج بن مطر ، وحُنَيْنَ(٤) ابن اسحق ، فاختاروا كتباً حملوها الى بغداد ، وترجمت وتعلّمها الناس وصححوا أغلاطها واستدركوا عليهــا . ولم يمض قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى برع المسلمون فى هذه العلوم كلها وظهر منهم من الحكماء والفلاسفة من كاد يلحق فلاسفة اليونان . ومن هؤلاء فيلسوفُ الاسلام والعرب أبو يوسفَ يعقوبُ بن اسحق بن الصبَّاح الكِندىّ(٥) وتلميذُه أحمد بن الطيب السرَخْسى(٦) . وبنو موسى(٧)

---

(١) كان رئيس البيمارستان بجند يسابور زمن المنصور فاستدعاه اليه واتخذه طبيبه الخاص حتى سنة ١٥٢ هـ فاستأذنه فى العودة الى بلده فمات به (٢) آل نوبخت كثيرون كلهم اشتغل بالفلك والنجوم والحكمة ، وكانوا ينقلون من الفارسية . وكان نوبخت ينقل هو وأولاده من الفارسية واليونانية ، وكان منجماً للمنصور فلما ضعف عن الخدمة أحضر ولده أبا سهل الى المنصور ليقوم مقامه فقبله وهو الذى كناه أبا سهل (٣) هو يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون كان أمينا على الترجمة تولى ترجمة كتب ارسطو وبعض كتب بقراط (٤) هو حنين بن اسحق العبادى عربى الاصل من العباديين نصارى الحيرة برع فى الترجمة من اليونانية توفى سنة ٢٦٠ هـ

(٥) من سلالة الاشعث بن قيس ، كان مترجما وعالماً بالطب والفلسفة والحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الاعداد والهيئة ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ، وله اكثر من ٢٣٠ مؤلف (٦) هو العالم المتفنن فى كل علم والمؤلف فى كل فن ، كان نديما للمعتضد الخليفة العباسى فانكر عليه بعض أمور فقتله سنة ٢٨٦ هـ (٧) كان بنو موسى بن شاكر وذريتهم من أفاضل علماء الرياضة والفلك ، وكان أبوهم موسى من أتباع المأمون فمات وترك أولاده الثلاثة صغاراً فرباهم المأمون وعنى بتعليمهم الحكمة وعلوم الأوائل فبرعوا فيها للغاية ولا سيما الرياضيات

ابن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضى هذا العصر وأول المخترعين من المسلمين فى الحيل والهندسة ، ومحمد بن موسى الخوارزمى[1] مخترع علم الجبر والمقابلة . ومذيع الحساب الهندى بين العرب

ثم ذهب طَوْرُ الترجمة والتصحيح وتلاه طورُ التأليف والتكيل والاختراع . فأتى فيـهِ بالعجب العجاب أبو نصر محمد بن طَرْخان الفارابى[2] الحكيم الكبير . مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون والتى استنبط الافرنج بمحاكاتها آلة المِعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ هـ وأبو بكر محمد بن زكريا الرازى[3] الطبيب الكيميائى الشهير المتوفى سنة ٣١١ هـ والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو على الحسين بن سينا[4] المتوفى سنة ٣٢٨ هـ وأبو الريحان أحمد بن محمد البيرُونى[5] الفلكى الرياضى المقوِّم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ - وكان لدولة الفواطم فى مصر اشتغال بهذه العلوم فاشتهر فى دولتهم فى الفلك والرياضيات ابن يونس[6] وفى الطب ابن رضوان[7] وغيرهما . ولم يُعْنَ أهل الاندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق ، وأشهر من نبغ منهم فيها

والحيل والآلات ، وأنفقوا على نقل كتب اليونان وترجمتها أموالا طائلة وهم الذين حققوا للمأمون مقدار الدرجة الأرضية وصححوه وكان أجلهم أبو جعفر محمد توفى سنة ٢٥٩ هـ

(١) ليس من أولاد موسى وكان منقطعاً لخزانة كتب الحكمة للمأمون ، وبرع فى الفلك والعدد

(٢) هو حكيم المسلمين بلا مدافع والذى تخرج بكتبه الرئيس ابن سينا . والفارابى من أصل تركى من مدينة فاراب احدى مدن الترك فيما وراء النهر ، دخل بغداد فتعلم العربية ومهر بها ثم قرأ المنطق والفلسفة على أبى بشر متا بن يونس ، ثم ذهب الى حران بالجزيرة فقرأ على يوحنا بن خيلان الحكيم ، ثم رجع الى بغداد ودرس وألف ، ثم رحل الى الشام ومصر ، ثم أقام بدمشق زمن سيف الدولة بن حمدان فأجرى عليه أربعة دراهم كل يوم حتى مات بدمشق سنة ٣٣٩هـ (٣) هو من أهل الرى كان فى أول أمره ضاربا بالعود ثم اكب على كتب الحكمة والطب وعانى بنفسه صناعة الحل (التحليل) والكيمياء فاستنبط كثيراً من المركبات الكيميائية مثل زيت الزاج (الحامض الكبريتى) والغول (الاسبرتو) وكان يقيم بالرى وبغداد ويتنقل بالبلدان ، وله اكثر من ٢٠٠ مؤلف

(٤) كان أبوه من بلخ عمل ببخارى للدولة السامانية فنشأ ابنه بها ، وتعلم من صغره الحكمة فبذ الأوائل والأواخر ، ولم يجئ فى الملة بعده من فاقه فيها عدا ما اهتدى اليه المحدثون فى الطب الحديث ، وتنقل فى أواسط آسيا ، وخدم فى الدولة السامانية والبويهية ووزر لأحد ملوكهم

(٥) بيرون من بلاد السند (٦) هو أبو الحسن على الشهير بابن يونس صاحب الزيج الحاكمى فى أربع مجلدات كبار وكان آية فى الفلك والتنجيم والرياضيات مات سنة ٣٩٩هـ

(٧) هو الطبيب المنجم على بن رضوان مات سنة ٤٦٠ هـ

أبو الوليد القاضى أحمد بن رشد وأبو القاسم الزهراوى ؛ ومن كتب هؤلاء الأئمة اقتبس أهل (أوربة) كثيراً من أصول مدنيتهم

الشعر

كان الشعر فى عصر صدر الإسلام ينبع من المعين الذى تنبع منه أئمة العربية وفحول الفصاحة أعنى جزيرة العرب والعراق والجزيرة الفراتية . فلما قرت دولة العرب فى العراق والأندلس أصبحت بغدادُ وقرطبة قبلةَ الشعراء ووجهة الأدباء ، ومن لم يقصِدهما للاقامة فى ظلال الخلفاء والملوك قصدهما للنُّجعة والامتياح . ولم يمض على بغداد وقرطبةَ قرن من تأسيس دولتيْهما حتى صارتا عشين للأدب وميدانين لتسابق جِياد الفحول فى كل فن ولا سيما الشعرِ ؛ فقد كان له عند الخلفاء والوزراء والقواد سوقٌ نافقةٌ حتى عند رؤساء الأعاجم من الدَّيْلم والترك . وحتى تكلف بعضهم أن يعانيه وينظِمَه بل ينبغ فيه . ودام كذلك الى انتهاء الدولة العباسية ، وبهذه العناية العظيمة به وكثرة قائليه ومُنتحِليه تفنَّن الناسُ فأدخلوا عليه فنوناً لم تُعهد فيه . واستعملوه فى كل غرض حتى التعبُّدِ به ، وتشكّلَ أسلوبُه وتنوعت معانيه بما يطابق أغراض استعماله ولكنهم لم يخرجوا بها فى الجملة عن أسلوب العرب فى ابتدائهم بالنسيب بالديار والأطلال : تذكاراً لوطنهم القديم، وتظرُّفاً بالتشبه بالأعراب . على أن النسيب بمثل هذه الأمور لم يعدْ ملتزَماً فى مطالع القصائد منذ صدر الدولة العباسية ، بل كثيراً ما كان يحُل محلَّه ذكرُ القصور [١] ونعيم العيش وصُحبة اخوان الطرب [٢] وغِناء القِيان والرحلة الى الممدوح على السفن [٣] ونحو ذلك ، أو يستبدل به ذكر الخمر [٤]

---

(١) كقول أشجع : قصر عليه تحية وسلام نشرت عليه جمالها الأيام

(٢) كقول ابن هانئ : بسم الصباح لا عين الندماء وانشق جيب غلالة الظلماء

(٣) كقول بشار فى وصف سفينة :

تلاعب تيار البحور وربما رأيت نفوس القوم من جريها تجرى
الى ملك من هاشم فى نبوة ومن حمير فى الملك والعدد الدثر

(٤) كقول أبى نواس : الا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهر

وأوصافِها والحثُّ على اصطباحها واغتباقها ، بل لم يقف الأمر عند هذا الحد حتى تعدَّاه الى التنديد بالنسيب بالأطلال وتهجين من يلهج بذكرها[١]

أما التغييرات التى طرأت على الشعر إبّان الدولة العباسية فهى :

أولاً — ما يتعلق بفنون الشعر وأغراضه . ثانيًا — ما يتعلق بلفظه وأسلوبه .

ثالثًا — ما يتعلق بمعانيه وأخيلته . رابعًا — ما يتعلق بأوزانه وقافيته

الأمور التى حدثت فى فنون الشعر وأغراضه

(١) زيادةُ استعماله فى إثارة العصبية والمفاخرة فى النسب[٢] والمذهب السياسى[٣] والدينى والعلمى[٤] . وفى الأغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض وُلاة الأمور وتهديدِهم وانتقادِ أعمالهم فى شعر كثير من شعراء الدولة

(٢) الإغراقُ فى التملق المَشين فى شعر كثير من شعراء الدولة ، وذلك لكثرة المشتغلين بالشعر من الأدباء وقلة موارد الكسب الشريف فلم يجد الشاعر سوقًا رائجة لبضاعته إلا أبوابَ الخلفاء ، ولم يرَ لنفسه شعراً أسْيَر ولا جائزةَ أربى إلَّا بمديح أغرق فيه وخرج به عن الذوق[٥] بل العقل[٦] بل الشرع[٧]

(٣) ازدياد المُجُون والتهتُّك وحكاية المخازى والفسوق ونحو ذلك . والإقذاع

---

(١) يظن أن أول من خلع هذا التقليد أبو نواس فى جملة قصائد له . ومن قوله فى ذلك :

يا ربع شغلك انى عنك فى شغل لا ناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وكقوله : صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

(٢) أما بين العرب والعجم كما فى شعر بشار وعبد الله بن طاهر وسعيد بن حميد وغيرهم من طوائف الشعوبية ، وأما بين اليمانية والمضرية كما فى شعر مسلم بن الوليد والحكم بن قنبر وأبى نواس وخلف الأحمر (٣) كالمفاخرة بين شيعة آل أبى طالب وآل العباس كما فى شعر مروان بن أبى حفصة والسيد الحميرى وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعى (٤) كما فى شعر أبى محمد اليزيدى وغيره

(٥) كقول أبى نواس فى ممدوحه :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

(٦) كقول المتنبى :

ونالوا ما اشتهوا بالحزم هونا وصاد الوحش نملهمو دبيبا

وقول على بن جبلة : انما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره

فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

(٧) كقول ابن هانئ الأندلسى : ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فى الهجاء والتصريح المعيبُ بأسماء العوْرات والتعرُّض للحُرَم لتناقص الوازع الدينى وازدياد الزنادقة وفجّار المَوالى والكتّاب بعَدْوَى تمازج الأخلاق والعادات

(٤) اغراق شعراء (المسلمين) فى وصف الخمرة وتشبيهها والدعوة اليها والنشوة بها وذكر سُقاتها وندمائها[١] والغزَل بالمذكر والاستقصاء فيه حتى غلبَ على ماسواه[٢]

(٥) ازديادُ وصف الرياض[٣] والبساتين والقصور ومجالس الأنس وأحوال الطبيعة ومصايد الوحوش والطير والسمك والأمور الدقيقة

(٦) ازدياد الوعظ والتزهيد فى الدنيا[٤] والحكمة وضرب المثل وتأديب النفس والقصص والحكايات[٥] وأوّل من نظم ذلك أبانُ بن عبد الحميد اللاحق[٦] ناظم كليلةَ ودِمنة للبرامكة

(٧) ضبط قواعد العلوم من فقه وغيره[٧]

الأمور التى حدثت فى المعانى والأخيلة الشعرية

(١) ترتيبُ الأفكار وأخذ بعضها بحُجَز بعض بحيث قلَّ الاقتضابُ وشذُوذ الانتقال من معنى الى مباين له كما كان يقع كثيراً فى الشعر القديم

(٢) استعمالُ الخيال الفرضى الوهمى الذى لا يتصوَّر تحققه فى الخارج أو فى الذهن مما يستدعيه الغلوُّ والتغلغُل فى المدح أو الهجو أو التشبيه

(٣) اختراعُ الأخيلة الجميلة التصور فى التشبيه والاستعارة والأوصاف وحسن التعليل

(٤) استعمال طُرق الحكمة وقواعد الفلسفة وشعائر الدين ونحو ذلك[٨] فى محاولة الاقناع

---

(١) كما فى شعر أبى نواس ومن تابعه (٢) كما فى شعر والبة بن الحباب وأبى نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وغيرهم (٣) راجع نماذج الوصف وترجمتى ابن المعتز وابن خفاجة

(٤) كما فى شعر أبى العتاهية وبقية الصوفية (٥) انظر ترجمة الطغرائى (٦) هو مولى الرقاشيين بصرى ذهب الى بغداد واتصل بالبرامكة ومنحوه على نظم كليلة ودمنة خمسة عشر ألف دينار

(٧) واكثر من ذلك بعد أبان بن عبد الحميد اللاحق أبو العتاهية ومن بعده

(٨) كما فى شعر صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم

الأمور التى حدثت فى لفظ الشعر وأسلوبه

(١) هجرُ الألفاظ الغريبة بالتدريج

(٢) زيادةُ دخول الكلمات الأعجمية فيهِ تظرُّفاً كما فى شعر أبى نواس وغيره

(٣) رقةُ الأسلوب مع بقاء الجزالة ووضوح المعنى

(٤) اختراعُ البديع والاستكثارُ من أنواعهِ

الأمور التى حدثت فى الأوزان الشعرية والقافية

(١) الاكثار من النظم فى البحور التى لم تنظم منها العرب إلا قليلاً كالمضارع والمقتضب .

(٢) اختراع أوزان ولدها الخليل من بحور الشعر ونظم منها كثير من المولدين

(٣) اختراع أوزان أخرى كبعض أوزان اخترعها مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو العتاهية ونظموا منها وكالمواليا[١] وزاد هذا الأمر تفاقما اختراع الموشحات[٢] والزجل[٣] فى أواخر الدولة العباسية

ومن الأمور التى حدثت فى القافية

(١) المخمس[٤] : وهو أن يؤتى بخمسة أقسمة من وزن وقافية ثم بخمسة أخرى من الوزن وقافية أخرى الى آخر القصيدة

(٢) المزدوج[٥] : وهو أن يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية أخرى وأكثروا منه جدًّا فى نظم كتب الأدب والعلوم كما فى نظم الألفية

---

(١) وأول من اخترعه مولاة للبرامكة كانت ترثيهم به وتصيح بعد كل قطعة منه (واموالياه) فحملت الى الرشيد ، وكان قد تقدم بمعاقبة من يرثيهم بشعر فقالت الجارية ليس هذا شعراً لأنه عامى ملحون (وان جاء على وزن البسيط) فسمى نظمها المواليا لصياحها (٢) اخترعها مقدم ابن معافر الفريرى من الأندلسيين وأخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب العقد (٣) اخترع بعد التوشيح فى الأندلس أيضا ، وبرع فيه أمام الزجالين أبو بكر بن قزمان وستأتى أمثلة هذه الفنون فى العصر التالى لكثرة شيوعها فيه

(٤) كقول خالد القناص :

وما نطقت واستعجمت حين كلمت ... وما رجعت قولا وما إن ترمرمت
وكان شفائى عنـدها لو تكلمت ... الىّ ولو كانت أشارت وسلمت
ولـكنها ضنت علىّ ببنان

(٥) يقال إن أول من نظمه بشار ثم تبعه أبان وأبو العتاهية

نماذج من الشعر فى الأغراض الآتية

الحماسة — قال بشّار بن برد :

وجيشٍ كجُنْح الليل يزحَفُ بالحصى ... و بالشوك ، والخطىّ حُمرٌ ثعَالبُهْ[١]
غدونا له والشمسُ فى خِدْر أمّها ... تطالِعنــا والطَلّ لم يجر ذائبه
بِضَرْبٍ يذوق الموتَ من ذاق طعمَه ... وتُدْرِك من نجّى الفِرارُ مثالبُهْ[٢]
كأنّ مُثارَ النقع فوق رءوسنا ... وأسيافَنا ليــلٌ تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موتَ الفُجاءة إننا ... بنو الموت خفّاق علينا سبائبُهْ[٣]
فراحوا فريقٌ فى الإسار ومثلُه ... قتيلٌ ومثلٌ لاذ بالبحر هاربه

وقال اسحق بن ابراهيم الموصلى يفتخر بولائه لخزيمة بن خازم النهشلى من سروات أمراء العرب فى الدولة العباسية :

إذا مضرُ الحمراء كانت أُرومتى ... وقام بنصرى خازمٌ وابنُ خازمٌ
عطستُ بأنف شامخ وتناولت ... يداى الثريّا قاعـداً غير قائم

وقال أبو الطيب المتنبى :

وانى لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظْما
فلا عبرَتْ بى ساعة لا تُعِزُّنى ... ولا صحِبتْنى مُهجةٌ تقبل الظلمــا

المدح — وقال مروان بن أبى حفصة يمدح معن بن زائدة الشيبانى :

بنو مطرٍ[٤] يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها فى غِيل خفّانَ[٥] أشْبُل
همُ يمنعونَ الجار حتى كأنما ... لجــارهمُ بين السّما كيْنِ منزِل
بهاليل[٦] فى الاسلام سادوا ولم يكن ... كأولهمْ فى الجاهليــة أول

---

(١) الثعالب جمع ثعلب وهو هنا طرف الرمح الداخل فى جبة السنان : أى والرماح حمر أطرافها من دماء الأعداء (٢) أى مثالب الفرار من الخزى والعار (٣) جمع سبيبة وهى الشقة من الثياب (٤) بطن من شيبان منهـا معن (٥) مأسدة قرب الكوفة (٦) جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير

هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دُعوا أجابوا وإن أعْطَوْا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعالهم وإن أحسنوا فى النائبات وأجْمَلُوا

وقال أبو تمام :

تعوّد بسط الكف حتى لو انّه تناها لقبض لم تجبه أناملهْ
ولو لم يكن فى كفه غيرُ روحه لجاد بها ، فليتّقِ الله سائلُه

وقال أبو عبادة البحترى :

كلما قلتُ أطلقَ الشكرُ رِقى رَجَعتْنى له أياديه عبدا
أين عمرُ الزمان حتى أؤدى شكر إنعامك الذى لا يؤدى

وقال أبو الفيَاض الطيرى :

يد تراها أبدا فوق يدٍ وتحت فَمْ
ما خلقت بنانها إلاَّ لسيفٍ أو قلَمْ

الرثاء — قال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألِمَّا على مَعْن فقولاً لقبره : سقتَك الغَوادى مَرْبعاً ثمَّ مَرْبعا[1]
فيا قبر معن أنت أوَّلُ حُفرةٍ من الأرض خُطَّت للسماحة مضجَعا
ويا قبر معن كيف واريتَ جودَه وقد كان منه البر والبحر مُترَعا[2]
بلى قد وسِعْتَ الجود والجودُ ميتٌ ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعا[3]
فتًى عِيش فى معروفه بعدَ موته كما كان بعد السيل مجْراه مُرْتعَى[4]
ولما مضى مَعنٌ مضى الجُود وانقضى وأصبح عِرْنينُ المكارم أجْدَعا[5]

وقال أشجع السُّلمى :

مضى ابْنُ سعيد حين لم يَبْق مَشْرِقٌ ولا مَغْرِبٌ إلاَّ له فيه مادح
وما كُنْتُ أدرِى ما فواضِل كفِّه على الناس حتى غَيَّبَتْهُ الصفائح

(١) الغادية السحابة تنشأ غدوة (٢) المترع الملآن (٣) تصدع . تتصدع أى تتشقق
(٤) مرعى ترعى فيه الابل (٥) العرنين الأنف أو أوله مما يلى الحاجبين وهو موضع الشمم

فأصْبَحَ فى لَحْد من الأرض مَيتاً وكانت به حَيّاً تَضيق الصَّحاصح(١)
وما أنا من رُزْء وإن جَلَّ جازعٌ ولا بسرورٍ بعد موتك فارح
كأن لم يمُت حىٌّ سواك ولم يقمْ على أحَد إلاّ عليك النَّوائح
لئِنْ حَسُنَتْ فيكَ المراثى وذِ كْرُها لقد حَسُنَتْ من قبلُ فيكَ المدائحُ

الهجاء — وقال حمّاد عَجْرد :

حُريث أبو الصلت ذو خبرة بما يُصْلح المعدة الفاسدة
تخوّف تخمة أضيافه فعوّدهم أكلة واحدة

وقال خلفٌ الأحمر :

لنا صاحِبٌ مولَع بالخلاف كثيرُ الخَطاء قليلُ الصواب
ألجُّ لَجَاجًا من الخُنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

وقال أبو علىّ البصير :

لعمر أبيك ما نُسب المُعَلّى إلى كرَم وفى الدنيا كريمُ
ولكن البلادَ إذا اقشعرَّتْ وصَوَّح نبتُها رُعِىَ الهشيم(٢)

وقال العتّابى :

لئنْ كانت الدنيا أنالتك ثروة فأصبحت ذا يُسْر وقد كنت ذا عُسْر
لقد كشف الاثراء منك مخازيًا من اللؤم كانت تحت ستر من الفقر

وقال الأبِيوَردى :

وقصائد مثل الرياض أضعتها فى باخل ضاعت به الاحساب
فاذا تناشدها الرواة وأبصروا الـــممدوح قالوا : ساحر كذاب

الاعتذار — وقال على بن الجهم للمتوكل :

عفا الله عنك ألاَ حرمةٌ تجود بعفوك أن أبعدا

---

(١) الصحاصح جمع صحصح وهو ما استوى من الارض (٢) صوح يبس — والهشيم الجاف من النبات

لئن جلّ ذنب ولم أعتمدْ لأنت أجل وأعلى يدا
ألم ترَ عبداً عدا طوره ومَوْلًى عفا ورشيداً هدى
ومفسِـد أمرٍ تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلنى أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

وقال ابراهيم بن المهدى فى أبيات يعتذر بها للمأمون :

الله يعـلم ما أقول فانها جهد الأليَّةِ من مُقِرّ خاضع
ما إن عصيتك والغواة تمدنى أسبابهـا إلاّ بنية طائع

وقال أيضاً :

ذنبى اليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك . أولا فاصفح بفضلك عنه
ان لم اكن فى فعالى من الكرام فكنْه

وقال الحسن بن وهب :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذى ناصر
ان كان لى ذنب (ولا ذنب لى) فما له غيرُكَ من غافر
أعوذ بالود الذى بيننا أن يفسُد الأول بالآخر

الوصف — وقال ابن المعتز يصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل :

ما ترى نعمة السماء على الأر ض وشكرَ الرياض للأمطار ؟
قد تولت زُهر النجوم وقد بـ ـشَّر بالصبح طائر الأسحار
وغناء الطيور كل صباح وانفتاق الأشجـار بالأنوار
وكأن السحاب يجلو عروساً وكأنّا من قَطْره فى نِثار

وقال ابن طَباطَبا يصف الليل والنجوم :

ربَّ ليـل صحِبته كاسف البا ل كئيباً حليف همّ شتيت
مؤنساً ربعـه بطول أنين وهو لى موحش بطول السكوت
تحت سقْف من الزمرد قد رصـ ـع حسناً بالدرّ والياقوت

وقال أبو بكر الصنوبرى يصف ديكاً :

مغرِّد الليل ما يألوك تغريداً ... ملَّ الكرى فهو يدعو الصبح مجهودا
لمَّا تطرَّب هز العِطف من طرب ... ومدَّ للصوت لمـَّا مدَّه الجيدا
كلابس مُطرَفاً مُرْخىً ذوائبه ... تضاحِكُ البيض من أطرافه السودا
حالى المقلّد لو قيست قلائده ... بالورد قصّر عنه الورد توريدا

الاجتماع والسياسة – قال شبل بن عبد الله مولى بنى هاشم لعبد الله عم السفاح يغريه بالأمويين وقد حضروا لديهِ ووضعت لهم الكراسى والنمارق :

أصبح الملك ثابتَ الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وِتْرَ هاشم فشفوْها ... بعد ميْلٍ من الزمان وياس
لا تُقيلنّ عبدَ شمس عِثاراً ... واقطعنْ كل رَقْلةٍ[١] وغراس
ذلُّها أظهر التودّد منهـا ... وبها منكم كحدّ المواسى
ولقـد ساءنى وساء سِوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها الله ... بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرَع الحسين وزيد[٢] ... وشهيد بجانب المِهْراس[٣]
والقتيل الذى بحرّان[٤] أضحى ... ثاويًا بين غربة وتناسى

وقال يزيد المهلبى من قصيدة يرثى بها المتوكل ويبكت بها بنى العباس فى نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك :

لما اعتقدتم أُناسًا لا حلومَ لهم ... ضِعتم وضيّعتمُ من كان يُعتقدُ
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم ... حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم همُ الجِذمُ والأنساب تجمعهم ... والمجد والدين والأرحام والبلد
إذا قريش أرادوا شدّ ملكهمُ ... بغير قحطانَ لم يبرح بهِ أوَدُ[٥]

(١) نخلة (٢) هو ابن زين العابدين على بن الحسين (٣) ماء بأحـد قتل عنده حمزة عم النبي (٤) بلد بالشام قتل فيهـا ابراهيم الامام بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس – وابراهيم هذا أخو السفاح (٥) عوج

الحكمة والمثل — قال صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدّبتــه فى الصبا　　كالعود يُسْقى الماء فى غرْسِهِ
حتّى تراهُ مُورِقاً ناضِراً　　بعْدَ الّذِى أبصرْتَ مِنْ يُبْسِهِ
والشّيْخُ لا يتْرُكُ أخْلاقه　　حتّى يُوارى فى ثرَى رَمْسِهِ
إذا ارْعوى عاد الى جهْلِهِ　　كذِى الضنى عاد إلى نُكسِهِ

وقال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتباً　　صديقك لم تلق الذى لا تعاتبُهْ
فعش واحداً أو صِلْ أخاك فانهُ　　مقارِف ذنبٍ مرّةً ومجانبهْ
إذا أنت لم تشربْ مِراراً على القذى　　ظمِئتَ وأىُّ الناس تصفو مشاربهْ

وقال أبو تمام :

واذا أراد الله نشر فضيلة　　طُويتْ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت　　ما كان يعرف طيب عَرْف العود

قال أبو الطيب المتنبى :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله　　وأخو الجهالةِ فى الشقاوة ينعَم
لا يخدعنَّك من عدوّ دمعه　　وارحمْ شبابك من عدوٍّ ترحَم
لا يسلَمُ الشرف الرفيع من الأذى　　حتى يراق على جوانبه الدَّم
والظلم من شيَمِ النفوس فان تجد　　ذا عِفــةٍ فلِعلةٍ لا يظلِم
ومن البليّة عذل من لا يَرعوِى　　عن غيّه وخِطاب من لا يفهَم
ومن العداوة ما ينالك نفعه　　ومن الصداقة ما يضرُّ ويُؤلِم

الشعراء

لم يقْصر الشعر على الموالى فى صدر الدّولة العباسية كالكتابة بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ومن سلائل العرب بالأمصار أخرى ، غير أن

بضعة من فحول صدر الدولة كانوا موالى مثل بشار وأبى نواس ومسلم وأبى العتاهية وابن الرومى

ومن أشعر شعراء الأمصار من العرب أبو تمّام والبحترى وابن المعتز والمتنبى وأبو فِراس وأبو العلاء المعرّى وابن هانئ الأندلسىّ والشريف الرضى . ثم فتر أمر الشعر فى البادية إلاّ قليلاً ، وأصبح الشعراء المجوّدون لا ينجمون إلا من الحواضر عرباً كانوا أو موالى

التكسب بالشعر

أتى عصر الدولة العباسية والتكسب بالشعر ضاربٌ بجرانه ، والرحلة به الى الخلفاء والولاة خَلّةٌ مألوفةٌ ، فلم يتركها بنو هاشم وولاتهم من العرب ومستعربى الأعاجم حرفةً تمشى على رِسلها حتى ساقوها قدُماً الى غاياتها بوفير عطاياهم ، وجزيل جوائزهم ، وجعل لهم المهدى والرشيد والمأمون أياماً لملاقاتهم ، واستماع ما تنتجه قرائحهم ، ترفيهاً للغة واعلاء لشأن الأدب ، و بالغوا فى إكرام الشعراء إلى حدٍّ أوجب الشكّ فى صحة الأخبار المروية عنهم فى ذلك ؛ فبعد أن كانت جوائز الصدر الأول حقائب الحنطة والزبيب والتمر أو الأذواد من الأبل و بعض التخوت من الثياب ، صارت بدر الدنانير وعشرات الألوف من الدراهم ، عدا الجوارى المولدة ، والعبيد الفارهة ، والخيول المطهمة بل الضياع العامرة ، ذات الغلات الوافرة . ولقد ارتقى كثير من الشعراء بشعرهم الى رتبة الوزارة ، وولاية النواحى ، كمسلم بن الوليد ، وأبى تمام ، ومحمد بن عبد الملك الزيات[1] ، وابن زيدون ، وابراهيم الصولى حتى طمع بعضهم أن ينال به الملك ، كالمتنبى ، وابن عمار الأندلسى[2] ، غير أنه دهى هذه الصناعة ما دهى العرب عامةً أخرياتِ هذا العصر باستعجام السلاطين

(١) هو الوزير العظيم الشاعر الكاتب السياسى الجبار محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق والمتوكل ، نكبه المتوكل لحقد قديم وعذبه حتى مات سنة ٢٣٣ هـ (٢) هو الشاعر البليغ ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار المهرى الأندلسى الشلبى وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية من ملوك الطوائف خرج عليه واستقل بناحية تدمير فقتله المعتمد سنة ٤٧٧ هـ

والقواد فتكسب كثير من الشعراء بالكتابة فى الدواوين ، وقصروا مدحهم على ملوكهم وقلت الرحلة بالشعر الى الأقاليم ، واستبدل الشعراء بالمدح الأوصافَ والألغازَ والأحاجيّ والسخرية والمزاح مما بلغ أشُدَّه فى العصر التالى

١ — بشّار بنُ بُرْد

هو أبو مُعاذ بشارُ المُرعَّث[(١)] بن بُرْد أشعر مُخَضْرَمى الدولتين ورأس الشعراء المحدثين ، ومُمَهّد طريق الاختراع والبديع للمتفننين ، وأحد البلغاء المكفوفين

وأصله من فُرس طُخارستان[(٢)] من سَبْى المُهَلَّب بن أبى صُفْرَةَ ، ووقع مِلْكُ أبوَيه لبنى عُقَيْل بن كعب فنشأ بشارٌ فيهم وتربى فى منازلهم ، واختلف الى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر . وكان أكمه مجدور الوجه ، قبيح المنظَر ، مفرطَ الطول ، ضخمَ الجثة ، متوقّد الذكاء ، صادقَ الحس ، لطيفَ الهداية ، شديد المجون والاستخفاف بالناس ، كثير الاستهتار بمجافاة الدين ، قليل المبالاة بالوقوع فيه متهماً بالزندقة ، شُعوبياً متعصّباً على العرب ، شديدَ التبرم[(٣)] بالناس ، نهاشاً لأعراضهم ، لا يسلم من لسانه خليفةٌ ولا سوقة ؛ وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشّاراً ولا بشارٌ يعرفه : فانه إن لم يصِبْه فى عرضه أصابه فى ماله منشؤه

وقال بشار الشعرَ ولم يبلغ عشرَ سنين . وما بلغ الحلمَ إلا وهو مَخْشىٌّ مَعرَّة لسانه . وقد أجمع رواة الشعر ونقَدته على أن بشاراً هو رأس المحدثين وأسبقهم الى معاطاة البديع وطَرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع ، وانه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتَق عن المعانى الدقيقة والأخيلة اللطيفة حتى عدَّ شعره برزخاً بين الشعر القديم والحديث ومجازاً يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة الى مقاصير الحضارة شعره

---

(١) لانه كان فى أذنه (رعثة) أى قرط (٢) اقليم بناحية ما وراء النهر على نهر جيحون (٣) التضايق بالناس

وقد طرق كلَّ باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله وأربى عليها . وغلب عليه الهجاء والتَّشَبُّب بالنساء والخروج به عن الحد المألوف عند أهل زمنه حتى أنكره عليه العلماء والمُتورّعون لما رأوْا من سوء أثره فى شبان البصرة ، وقد نهاه المهدىُّ عن التشبيب ، فكان إذا مالت له نفسه يذكر منهُ ما يشاء ، ويقول إن الخليفة منعه من كذا وكذا وانهُ له مطيع . وضمّن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة فلم يزد على أن حرمه الجائزةَ ، وشجّعه على ذلك وزيره يعقوب بن داود وكان متورعاً ، فهجاهما فكان ذلك إلى زندقتهِ سببَ قتله سنة ١٦٧هـ وقد نيف على التسعين . وهاجى بشارٌ الشعراء المفلقِين ، ونصَبَ له منهم حمَّادُ عَجْرَدٍ واحتدم بينهما اللَّجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ، وظهر حمادٌ عليه فى بعض أهاجيه وآلمهُ وان لم يسقط منزلته

طائفة من شعره

ومن شعره فى المشورة والحكم والنصائح :

إذا بلغ الرأىُ المشورةَ فاستعن — برأى نَصيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً[1] — فان الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغُلُّ[2] اختها — وما خير سيفٍ لم يؤيّدْ بقائم
وخل الهُوَينى[3] للضعيف ولا تكن — نَئوماً فان الحرّ ليس بنائم

وقال يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضِبنا غَضْبَةً مضَرية — هتكنا حجاب الشمس أو أمطرت دما[4]
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة — ذُرا منبر صلّى علينا وسلما[5]

وقال يهجو عبيد الله بن قَزْعة :

خليلىّ من كعب أعينا أخاكما — على دهره ان الكريم معين
ولا تبخَلا بخلَ ابن قَزْعة إنه — مخافة أن يُرجى نداه حزين

---

(١) مذلة ونقيصة (٢) حديد أو حبل تشد به اليد الى العنق (٣) تصغير الهونى مؤنث الاهون ، ومعناه التباطؤ والتمهل (٤) أى شققنا النقع الذى يحجب الشمس كالسحب ببروق سيوفنا حتى تمطر السماء (المفهومة من المقام) دما ، ويدل على ذلك رواية (هتكنا سماء الله أو تقطر الدما)

(٥) يريد أن كل خطيب يفتتح خطبته بالصلاة والسلام على محمد وآله وهم من مضر

كأن عُبيدَ الله لم يلق ماجداً ولم يدر أن المكرُماتِ تكون
فقل لأبي يحيى متى تُدركُ العُلا وفي كل معروف عليك يمين
إذا جئته في حاجة سدّ بابه فلم تَلقه إلاَّ وأنت كَمين

ومن أبياته السائرة :

الحر يلحَى والعصا للعبد وليس للمُلحِف مثل الرد

تسقط الطير حيث ينتثر الحَـــب وتغشى منازل الكرماء

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يُواسيك أو يسليك أو يتوجع

٢ — أبو نُواس

هو أبو عليّ الحسنُ بن هانئ ، الشاعر المتفننُ ، الجادُّ الماجن ، صاحب الصِّيت الطائر ، والشعر السائر . ورأس المحدَثين بعد بشار

وهو فارسي الأصل ولد بقريةٍ من كُورة خوزستان[١] سنة ١٤٥ ﻫ ونشأ يتيماً ، فقدمت به أمه البصرةَ بعد سنتين من مولده فتعلم العربيةَ ورغب في الأدب ، فلم تعبأْ أمه بحاله ، وأسلمتْه الى عطار بالبصرة ، فمكث عنده لا يفترُ عن مُعاناةِ الشعر والاختلاف الى الأدباء والمجّان إلى أن صادفه عند العطار والبة بن الحُباب الشاعر الماجنُ الكوفيُّ في إحدى قدَماته الى البصرة ، فأُعجِبَ كلٌّ منهما بالآخر ، فأخرجه والبة إلى الكوفة ، فبقي معه ومع ندمائه من خلعائها ، وتخرّج عليهم في الشعر وفاقَهم جميعًا . وقدِم بغدادَ وقد أربتْ سنه على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء ومدحهم ، وبلغَ خبرُه الرشيدَ فأذن له في مدحه ، فمدحه بقصائد طنانة ، وحبسه مرة على هجوه مُضَر منشؤه

وكان يقصد بعض عمال الولايات ويمدحُهم ، ومنهم الخصيب عاملُ مصر ، ثم انقطع الى مدح محمد الأمين . وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ، ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد سنة ١٩٩[٢]

---

(١) شرقي البصرة (٢) هذا رأي جامع ديوانه حمزة الاصبهاني ، وفي ابن خلكان روايات اخرى

وكان أبو نواس جميلَ الصورة ، فكِهَ المَحْضَر ، كثير الدُّعابة ، حاضرَ البديهة متيناً فى الشعر واللغة والأدب ، متعصِّباً لليمانيةِ على المضَرِية . وأكثر علماء الشعر ونَقَدتهِ وفحول الشعراء على أن أبا نواس أشعرُ المحدَثين بعد بشار وأكثرهم تفنناً ، وأرصنهم قولاً ، وأبدعُهم خيالاً مع دقة لفظ وبديع معنى ، وأنهُ شاعرٌ مطبوع برَّز فى كل فن من فنون الشعر ، وامتاز بقصائده الخمريات ومقطعاته المُجونيات وأراجيزه الطرديات[١] وكان شعره لِقاحَ الفسادِ ، والقُدوةَ السيئة لنَقْله الغزل من أوصاف المؤنث الى المذكر ، والخروج بذلك عن مألوف العرب وآدابهم ، إذ لم يكن ذلك معروفاً قبله وقبل شيطانه والبة . وزاد على ذلك انفراده (بالابداع) فى وصف الخمر فكان نَموذَج سوء لمن تأخر ؛ فافتتن بشعره الشبان فى زمانه وبعده وحاكَوْه وغلب عليهم هذا المذهب حتى صار الشاعر لا يُعدُّ ظريفاً إلاَّ إذا مزج شعره بشىء من ذلك وان لم يقع فى محظوراته

ومن جيد شعره قوله فى التشبيب والمدح :

تقولُ غداة البين إحدى نسائهم	لىَ الكبِد الحرَّى فسِرْ ولك الصبر
وقد خضَبتهـا عَبْرةٌ فلدمعهـا	على خدّها خد[٢] وفى نحرها نحر[٣]
وقالت : الى العباس ؟ قلتُ : فمن إذاً	ومالى عن العباس مَعْدًى[٤] ولا قصْر!
فهل يُكفَلَنْ إلاَّ براحته الندى ؟	وهل يزْهَونْ إلاّ بأوصافه الشكر

وقوله فى الحماسة :

ومستعبِـدٍ إخوانه بثُرائه	لبست له كبراً أبرَّ على الكبر
إذا ضمنى يوماً وإياه محفِل	رأى جانبى وعْرا يزيد على الوعر
أخالفه فى شكله وأجرُّه	على المنطق المنزور والنظر الشزْر
لقد زادنى تِيهاً على الناس أننى	أرانىَ أغناهم وان كنت ذا فقر
فوالله لا يبـدى لسانىَ حاجـة	الى أحد حتى أغيَّب فى القبر

(١) هى أقواله فى مطاردة الصيد وفيها يصف تبكيره الى الصيد وكلابه واوابد الوحش وكان من أبرع خلق الله وصفا لكلاب حتى نحله الرواة طرديات غيره (٢) شق (٣) شق أيضاً
(٤) أى تجاوز لأنه مصدر ميمى من عدا بمعنى تجاوز

فلا تطمعن فى ذاك منىَ سُوقة ولا مَلِك الدنيا المحجَّب فى القصر
فلو لم أرِث فخراً لكان صيانتى فمى عن سؤال الناس حسبى من الفخر

وقوله ينعت كلباً :

أنعت كلبـاً أهله من كدِّه قد سعِدت جدودهم بجَـدِّه
وكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كعبـده
يبيت أدنى صاحب من مهده وان عَرى جـلله ببرده
ذا غرة محجلاً بزَنده تلذ منه العين حسن قده
تأخير شدقيه وطول خده تلقى الظباء عنتًا من طرده
يشرب كأساً شدها بشده يصيدنا عشرين فى مُرْقَدِه(١)
يا لك من كلب نسيج وحده

ومن أبياته السائر قوله :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديق

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم فى واحد

٣ — مسلم بن الوليد

هو صريع الغَوانى أبو الوليد مسلمُ بن الوليد الأنصارى أحد الشعراء المفلقين والبلغاء المبدعين

قال الشعر فى صِباه ولم يتجاوزْ به الأمراء والرؤساء ، مكتفياً بما ينالُه من قليل العطاء ، وينفقهُ على مَلذّاتِهِ مع اخوانه من خلعاء الشعراء ، ثم انقطع الى يزيد بن مَزْيد الشَّيبانى قائد الرشيد ، ثم اتصل بالخليفة هرون الرشيد وعُدّ من شعرائه ، ومدحه ومدح البرامكةَ وحسُن رأيُهم فيه . ولما أصبح الحل والعقد بيد ذِى الرياستين : الفضل بن سهل وزير المأمون فى أوّل خلافته ، قرَّبه وأدناه : لأنه كان من خاصته

(١) اسراعه

قبل وزارته وولّاه أعمالاً بجُرْجان اكتسب منها ألفَ ألفِ دِرهم ، ثم لزِم منزله الى أن أنفقها فى اللذات وعاد الى الفضل فقلده الضياع بإصبهان فاكتسب منها ألف ألف أيضاً . ولما مات الفضل لزم منزله ونسك ولم يمدح أحداً حتى مات بجُرجان[1] سنة ٢٠٨ ﻫ

شعره

ومسلم أوّل من تكلّف البديعَ فى شعره واستكثر منهُ فى قوله ، وسبقه بشارٌ إلى استعمال البديع إلاّ أنه لم يبلغ شأوَ مسلم فيهِ ، وقد عدّ العلماء هذا التصنع والتكلف إفساداً للشعر إذ قد تبعهُ فى ذلك الشعراء مثل أبى تمام والبُحترى وابن المعتز وغيرهم

وقد مزَج مسلمٌ كلامَ البدويين بكلام الحضَريين فضمنّه المعانى اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالةُ البدويّين ورقة الحضريين

طائفة من شعره

ومن كلامه فى المدح :

وَرَدْنَ رِواق الفضلِ فضلِ بن خالد ... فحط الثناء الجزلَ نائله الجزلُ
بكفِ أبى العباس يُستمطَر الغنى ... وتُستنزَلُ النُّعمَى ويُسترعَف[2] النَّصْل
ويُستعطف الأمر الأبيُّ بحزمه ... إذا الأمر لم يعطِفْه نقضٌ ولا فتلُ

وقوله :

قالوا أبو الفضل محموم فقلت لهم ... نفسى الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بى غير أن له ... أجرَ العليل وأنى غير مأجور

ومن قوله فى الرثاء :

أما القبور فانهن أوانس ... بجوار قبرك والديار قبور
عمت مصيبته وعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
ردت صنائعه اليـه حياته ... فكأنهُ من نشرها منشور

ومن هجائه لدعبل الخزاعى :

أما الهجاء فدَقَّ عرضُك دونه ... والمدح عنك كما علمتَ جليل

---

(١) بلدة عظيمة كانت بالقرب من بحر قزوين الى الجنوب الشرقى منه (٢) رعف سال بالدم أى يستدمى السيف

فاذهب فأنت طليق عِرْضِك إنه عِرْضٌ عززْتَ به وأنت ذليل

ومن جيد قوله :

أرادوا ليُخْفوا قبرَه عن عدوّه فطيبُ تُراب القبر دلّ على القبر

يجودُ بالنفس إن ضنّ الجوادُ بها والجود بالنفس أقصى غايةِ الجود

دلّت على عيبها الدنيا وصدّقها ما استرجع الدهر مما كان أعطانى

٤ — أبو العتاهية

هو أبو اسحق اسماعيلُ بن القاسم بن سُوَيْد ، أطبع أهل زمانه شعراً وأكثرهم قولاً وأسهلهم لفظاً وأسرعهم بديهة وارتجالاً ، وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد فى الدنيا والنهى عن الاغترار بها وأكثر من الحكمة

ولد بعين التمر[١] سنة ١٣٠هـ ونشأ بالكوفة فى عمل أهله وكانوا باعة جِرار إلاّ أنه رَبَأ بنفسه عن عملهم . وقال الشعر فى صباه وامتزج بلحمه ودمه حتى صار كما قال هو عن نفسه : (لو شئتُ أن أجعل كلامى كلّهُ شعراً لفعلتُ) فذاع صيتهُ وسلك طريق خُلعاء الكوفة – ثم قدِم بغداد ومدح المهدىَّ وتعرفَ ببعض خدم قصر الخلافة وجواريه ، فتعشّقَ منهن فتاةً تدعى عُتْبة . ولما يئس منها لها عنها ببعض الشىء ، ودرس كثيراً من مذاهب المتكلمين والشيعة والجَبْريةِ والزهاد ، فكان يسلُك كل مذهب منها عدة أيام ، ثم ينتقل عنه الى الآخر حتى اختار له من كل ذلك عقيدة مختلطةً ، أفضت به الى العبادة والزهد فى الدنيا قولاً ومعيشةً على إفراط منه فى حب المال والجمع له والبُخْل به على الأهل والولد والخدم شعره

ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغَزَل وقصر قولَه على الزهد فى الدنيا والتذكير بالموت وأهواله ؛ وهو فى خلال ذلك يمدح الخليفة وملوكَ الدولة ويأخذ جوائزهم . ثم عرضت له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر البتةَ ، حتى حبسه الرشيدُ لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه . ثم أطلقه بعد أن أجاب طَلِبته وعاد إلى

---

(١) قرية قرب الانبار

قول الشعر على عادته فيه وترك الغزلَ والهجاء، وبقى على ذلك مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ هـ ببغداد

ويمتاز شعره بالسهولة المتناهية بالاضافة الى أهل عصره وانطباعه ورقته وقرب معانيه مما يجول بخواطر الخاصة والعامة ولا سيما الزهاد منهم فكان بذلك شاعر الملوك والسوقة

ومن شعره يمدح المهدى :

أتتْه الخلافة مُنقادة ... اليـه تجرِّر أذيالَها
فلم تك تصلحُ إلاَّ له ... ولم يكُ يصلح إلاَّ لها
ولو رامها أحدٌ غيره ... لزُلزِلت الأرض زِلزَالها
ولو لم تُطِعهْ بناتُ القلوب ... لمـا قبِلَ الله أعمالَها
وإن الخليفة من بغض لا ... اليه ليُبغض من قالها

وكتب على البديهة فى ظهر كتاب :

ألا إننـا كلنا بائدُ ... وأى بنى آدم خالد
وبدؤهمُ كان من ربهمْ ... وكلٌ إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الالـــه أم كيف يجحَدُه الجاحد
ولله فى كل تحريكةٍ ... وفى كل تسكينةٍ شاهد
وفى كلّ شىء له آية ... تدلُّ على أنه واحد

ومن حكمه وأمثاله مزْدوجته التى ضمنها أربعة آلاف مثل، ومنها :

حسبك ممـا تبتغيه القوت ... ما أكثر القوتَ لمن يموت
هى المقاديرُ فلمْنى أو فَذَر ... إن كنت أخطأتُ فما أخطا القدرْ

ومنها :

إن الشباب والفراغ والجِده ... مَفْسدةٌ للمرء أىُّ مَفْسده

ومن قوله :

ما الناسُ إلا للكثير المالِ أو لمسلَّط ما دام في سلطانه
فاذا الزمان رماهما ببلية كان الثقات هناك من أعوانه (١)

ومن قوله أيضاً :

عَذيري من الانسان لا أن جفوته صفا لى ولا أن صرت طوع يديه
وانى لمشتاق الى ظل صاحب يروق ويصفو ان كدرت عليه

٥ — أبو تمَّام

منشؤه

هو أبو تمامٍ حبيب بن أوْسٍ الطائىُّ أسبق ثلاثةِ الشعراء الذين سارتْ بذكرهم الرُّكبان وخلَّد شعرَهم الزمان ، ثانيهم البحترى ، وثالثهم المتنبئ . والمشهور فى نسبه أنه عربى طائى (٢) ولد سنة ١٩٠ هـ بقرية جاسِم على ثمانية فراسخ من دمشقَ ، وكان أبواه فقيرين ، ونقِل صغيراً الى مصر فنشأ بها فقيراً ، وكان يسقى الماء بالجَرَّة فى جامع عمرو . ولعل طولَ مُقامه بالمسجد (وهو يومئذٍ عش العلماء) حبب اليه العلم والأدب ؛ فتعلم العربيةَ وحفِظَ ما لا يحصى من شعر العرب ، ونبغ فى قوله . ثم خرج الى مقرّ الخلافة فمدح المعتصمَ وحَظِىَ عنده ومدح وزيره محمدَ ابن الزيات والحسنَ بنَ وهْب (٣) صاحب ديوان رسائله وغيرَهم ، ورحل الى كبار العُمال بممالكهم ومدحهم بالقصائد الخالدة ، وقربوه منهم الى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر ؛ فولاه الحسن بن وهب بريد الموصل ، فأقام بها الى أن مات سنة ٢٣١ هـ (٤)

وكان أسمر طويلاً فصيحاً حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة ، حاضر الذهن ، سريع

(١) أى من أعوان الزمان

(٢) اختلف فى صحة نسبه الى طى فكثير يقول ان أباه كان نصرانياً من أعاجم الشام وكان اسمه (تدوس) فغير الى (أوس) ونحن نرجح رأى من يقول بعربيته ومنهم صاحب الاغانى الذى يقول فيه إنه (من نفس طى صلبية)

(٣) أجداد آل وهب وذريتهم أهل كتابة وبلاغة كتبوا للامراء والخلفاء منذ صدر الاسلام الى أواسط الدولة العباسية (٤) فى مولد أبى تمام ووفاته روايات عدة اخترنا منها هذه

الجواب ، قلّما عُرِف من أهل زمانه مثله فى حِدّة الخاطر ولطافة الحِس [١]

ويُعَدُّ أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدَثين ، انتهت اليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهرَ والدنيا قد مُلِئَتْ بترجمة علوم الأوائل وحِكَمِها : من اليونان والفرس والهند فحصُف عقلُه ولطُف خيالُه بالاطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويدَ المعنى على تسهيل العبارة . وكان أوّل من استكثر من الحِكَم والأمثال فى القصائد والاستدلال على الأمور بالأدلة العقلية ، والكنايات الخفية ، ولو أفضى به ذلك الى التعقيد أحيانًا ، وحاول ستر ذلك بالجناس والطباق والاستعارة فسلِم له بعضُها واعتلّ عليه بعضُها [٢] ، فأتى من الجناس بما التاثَ به شعرُه ، وصار كالكلَف فى صفحة البدر ، ومع هذا قد سلِمَ له من كلامه جملة لم يحُمْ حولها سابق ، وعجز عن محاكاتها كلُّ لاحق   شعره

وهو الذى مهّد طريق الحِكَم والأمثال للمتنبى وأبى العلاء وغيرهما ؛ ولذلك كان يقال : إن أبا تمام والمتنبى حكيمان والشاعر هو البحترى

ولم يُرزَق أحدٌ السعادةَ فى شعره وتناوُل الناس له نقداً وشرحاً واشتهاراً به مثل هؤلاء الثلاثة

وأجاد أبو تمام فى كل فن من فنون الشعر . أما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر

وأشهرها القصيدة التى رثى بها محمد بن [٣] حُمَيْد الطائى ومنها :

(١) حكى أنه لما مدح احمد بن المعتصم بقصيدته السينية وانتهى فيها الى قوله :

اقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء اياس

قال له أبو يوسف يعقوب الكندى الفيلسوف وكان حاضرا « الأمير فوق من وصفت » فاطرق مليا وقال ارتجالا :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

(٢) كقوله : خان الصفاء اخ خان الزمان أخا   عنه فلم يتخون جسمه الكمد

وكقوله : يوم أفاض جوى أغاض تعزيا   خاض الهوى بحرى حجاه المزبد

(٣) هو أبو نصر محمد بن حميد وهو واخوته من شيعة الدولة العباسية وأنصارها وقوادها قتل فى احدى وقائع الخرّمية أصحاب بابك الخرّمى

نموذج من شعره

كذا فليجلَّ الخطبُ وليَفْدَحِ الأمر فليس لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذر
تُوفيتِ الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السَّفَرِ السَّفْر
وما كان إلاَّ مالَ من قلَّ ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذُخرُ
وما كان يَدرى مجتدِى جود كفّه إذا ما استهلَّتْ أنهُ خلِقَ العُسْرُ
ألاَ فى سبيل الله من عُطّلت له فجاج سبيل الله واثغرَ الثَّغْرُ
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً ضحكت عنهُ الأحاديث والذكرُ
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففى بأسه شطر وفى جوده شطرُ
فتى مات بين الطعن والضرب مِيتة تقوم مقامَ النصر إن فاته النصرُ
وما مات حتى مات مَضْرِبُ سيفه من الضرب واعتلتْ عليه القنا السُّمر
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فرده اليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تعاف العارَ حتى كأنما هو الكفر يوم الرَّوْع أو دُونَهُ الكفر
فأثبتَ فى مُسْتنقع الموت رجلَه وقال لها من تحت أخْمَصِك الحشر
غدا غُدْوة والحمد نسج ردائه فلم ينصرف إلاَّ وأكفانُه الأجر

وله من قصيدة يمدح بها الحسنَ بن رجاء[1] :

لا تنكرى عَطَل الكريم من الغنى فالسيل حرب[2] للمكان العالى
وتنظَّرى[3] خَبَب[4] الركاب[5] ينصّها[6] محيي القريض[7] الى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملك النائى بغرّته وجوده لمرجِّى جوده كَثَب[8]
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لى أملا ان السماء تُرجّى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صوّرت نفسك لم تزدْها على ما فيك من كرم الطباع

---

(١) من رؤساء الكتاب فى دولة المأمون والمعتصم (٢) أى محارب (٣) انتظرى
(٤) سرعة سير (٥) ابل السفر (٦) يسوقها (٧) يريد نفسه (٨) قريب

وقال :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويُكدِى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا هلكن إذاً من جهلهن البهائم

وقال فى وصف سحابة :

سحابة صادقة الأنواء تجرُّ أهدابًا على البَطحاء
تجمع بين الضِحْك والبكاء بدت بنار وثنت بماء

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمُّورية ويسخر فيها بالمنجمين وأوّلها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حدّه الحدّ بين الجِد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى متونهن جِلاء الشك والريب

٦ — البُحترِى(١)

منشؤه هو أبو عُبادة الوليد بن عُبيْد الطائىُّ الشاعر المطبوع ، أشهر من استحق لقب (شاعر) على الاطلاق بعد أبى نواس

ولد سنة ٢٠٦ ﻫ بناحية مَنْبِج(٢) فى قبائل طىّ وغيرها من البدو الضار بين فى شواطئ الفرات ، ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحة العرب . ولازم وهو فتى أبا تمام وعليه تخرج واقتبس طريقته فى البديع بغير إفراط ، وخرج إلى العراق وأقام فى خدمة المتوكل والفتح بن خاقان محترمًا عندهما مرْعىّ الجانب الى أن قُتلا فى مجلس كان هو حاضره ، فرجع إلى منبج . و بقى يختلف أحيانًا إلى رؤساء بغداد وسُرّ منْ رأى حتى مات سنة ٢٨٤ ﻫ

وكان على فضله وفصاحته ورقة كلامه و بديع خياله من أبخل خلق الله وأوسخهم ثو بًا وأبغضهم انشاداً ، واكثرهم فخراً بشعره ؛ حتى كان يقول إذا أعجبه شعره : أحسنتُ والله ، و يقول للمستمعين : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله

(١) نسبة الى بحتر بطن من طى (٢) بين الفرات وحلب

شعره

والكثير على أنه لم يأت بعد أبي نواس من هو أشعر من البحترى ولا بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر ولا أبدع منه فى الخيال الشعرى . ولنشأته البدوية ابتعد فى شعره عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم ؛ فكان شعره كله بديع المعنى حسن الديباجة ، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب كأنه سيل ينحدر الى الأسماع ، مجوّداً فى كل غرض سوى الهجاء ، ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب الشاعر الحقيق ، واعتبروا أمثال أبي تمام والمتنبى والمعرى حكماء ، ولسهولة شعره ورقته كان اكثر الأصوات التى يتغنى بها فى زمنه من شعره . وله ديوان كبير طبع فى جزأين فى الاستانة وغيرها . ومن أحسن قوله

دنوت تواضعاً وعلوت مجداً — فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تُسامى — ويدنو الضوء منها والشعاع

نبذة من شعره

ومن قوله فى سُرى الليل وطلوع الفجر :

ولقد سريت مع الكواكب راكباً — أعجازها[1] بعزيمة كالكوكب
والليل فى لون الغراب كأنه — هو فى حلوكته[2] وان لم ينعَب[3]
والعيس[4] تنصُل[5] من دجاه كما انجلى — صبغ الخِضاب عن القَذَال[6] الأشيب
حتى تبدى الفجر من جنَباته — كالماء يلمع من خِلال الطُّحْلب[7]

ومن قوله فى الحكمة :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها — بنات زمان أُرصدتْ لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل — فلا ترتقبْ إلا خمول نبيه

وقال يمدح أمير المؤمنين المتوكل :

بسُرَّ من رَا لنا امام — تغرِف من بحره البحار
خليفةٌ يرتجى ويُخشى — كأنه جنة ونار
كلتا يديه تفيض سحًّا — كأنها ضَرة تغار

(١) مآخيرها (٢) فى شدة سواده وظلامه (٣) نعيب الغراب صياحه (٤) الابل البيض
(٥) تخرج (٦) شعر مؤخر الرأس (٧) ما يطفو على وجه الماء الآسن من الخضرة

فليس تأتى اليمينُ شيئًا ... الا أتت مثله اليسار
فالملك فيه وفى بنيه ... ما اختلف الليل والنهار

وقال يصف الربيع :

أتاك الربيعُ الطلق يختال ضاحكا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروزُ فى غَسق الدجى ... أوائلَ وَرْدٍ كنّ بالأمس نُوَّما
يُفَتِّقها بَرْدُ الندى فكأنهُ ... يَبثُّ حديثًا كان قبلُ مُكتّما
فمن شجر ردَّ الربيعُ لباسَه ... عليه كما نشّرْت وشيًا مَنَمْنَما
أحلَّ فأبدى للعيون بشاشةً ... وكان قَذًى للعين إذْ كان مُحرْما
ورقَّ نسيم الريح حتى حسبتُه ... يجىء بأنفاس الأحبة نُعَّمَا

٧ — ابن الرُّومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُريج الرُّومى مولى بنى العباس ، الشاعر المكثر المطبوع صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، والمعانى المخترعة ، والأهاجى المقذعة

ولد ببغداد سنة ٢٢١هـ ونشأ بها وأقام كل حياته ، وكان كثير التطير جداً ، وله فيهِ أخبار غريبة ، حتى كان أصحابُه اذا أرادوا أن يعبثوا بهِ أرسلوا اليه من يتطيّر من اسمه فلا يخرج من بيته ، ويمتنع من التصرف سائر يومه . وكان القاسم ابن عُبَيد الله وزير المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه ، فيقال انهُ دسّ عليهِ مَن أطعمه خُشْكَنانه(١) مسمومة فأكلها ، ثم أتى منزله وأقام به أيامًا ومات سنة ٢٨٣هـ ببغداد . وقيل بل مرض ووصف له الطبيب دواء فيــه سُمٌ فغلِطَ فى مقداره واكثر منه فمات

شعره — وقال ابن الرُّومى الشعر فى كل غرض ولا سيما الوصف والهجاء ونبغ فى الشعر نبوغًا لم يقصّر به كثيراً عن درجة البحترى ، وربما فاقه فى اختراع المعانى النادرة

(١) ترادف ما يسمى الآن (بسكويتا)

أو توليدها من معانى من سبقه بشكل جديد ، ووضعها فى أحسن قالب ؛ وكان إذا اخترع المعنى أو ولده من كلام غيره لا يزال يستقصى فيه وينظمه بوجوه مختلفة حتى لا يدع فيه بقية ؛ وهو ممن جمع صِقال اللفظ وإجادة المعنى . ويكفيه فضلاً أن يكون المتنبى أحد رواة ديوانه والآخذين عنه . وكان يكثر القول فى مطوّلاته . فيرذل منها الكثير . وله ديوان كبير طبع بعضه ، ومن معانيه البديعة قوله :

واذا امرؤ مدح امرأ لنواله　　وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يقدّر فيه بُعْدَ المستقى　　عند الورود لما أطال رِشاءه[1]

وقال يمدح :

كأن مواهبه فى المُحو　　ل آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيثاً لعم البلاد　　ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره　　لأغنى النفوس وأغنى الأمل

وقال :

كم من يد بيضاء قد أسديتها　　تثنى اليك عِنانَ كل وِداد
شكَرَ الإلهُ صنائعًا أوليتها　　سلكت مع الأرواح فى الأجساد

وقوله فى صانع رُقاق :

ما أنس[2] لا أنس خبازاً مررت به　　يدحو[3] الرُّقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرةً　　وبين رؤيتها قوْراء[4] كالقمر[5]
إلّا بمقدار ما تنداح[6] دائرة　　فى لُجَّة الماء يلقى فيه بالحجر

وقال فى بغداد وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلد صحبت به الشَّبيبة والصِّبا　　ولبستُ ثوبَ اللهو وهو جديد
فاذا تمثل فى الضمير رأيتهُ　　وعليه أغصانُ الشباب تميد

---

(١) حبله (٢) (ما) شرطية و (انس) فعل الشرط و (لا أنس) جوابه – والمعنى أن نسيت شيئاً لا أنس كذا (٣) يبسط (٤) واسعة (٥) فى حسن الاستدارة والبياض (٦) تعظم وتنبسط

وقال وهو يجود بنفْسه :

غلِطَ الطبيب عليّ غلطة مُوردٍ عَجزت موارده عن الإصدار
والناس يلْحَوْن الطبيب وانما غلطُ الطبيب إصابةُ الأقدار

٨ — ابن المعتز

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله ابن أمير المؤمنين محمد المعتز بالله ، أشعر بنى هاشم ، وأبرع الناس فى الأوصاف والتشبيهات

ولدَ سنة ٢٤٧ هجرية فى بيت الخلافة ، وتربى تربية الملوك ؛ وأخذ عن المبرّد[١] وثعلب[٢] ومؤدّبه احمد بن سعيد الدمشقى[٣] وغيرهم ، ومهر فى العربية والأدب وكل علم يعرفه أئمة عصره وفلاسفة دهره ، حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتّابها ، وعملوا على أن لا يقلدوه الخلافةَ خشيةَ أن يكف أيديهم عن الاستبداد بالملك ، ووَلّوُا المقتدر صبياً . ثم حدثت فتنٌ عظيمة فتسرع محمد بن داود بن الجراح[٤] (وكان من أفاضل الكتّاب والأدباء) وجمع العلمـاء والكتاب والقضاة وخلعوا المقتدر ، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة على غير طلب منه ، فلما رأى غِلمان المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم حملوا على اتباع ابن المعتز فاختفى فى دار بعض التجار[٥] ، فقبض عليه وخنق من ليلته ودفن بخربة بجوار داره سنة ٢٩٦ هجرية

وكان ابن المعتز سهلَ العبارة ، كثير مراعاة البديع فى قوله مع رشاقة وقلة تكلف وتصنع . ولما كان مقامه يجلّ عن الاكتساب بالشعر قل المدح فى كلامه إلاّ فى أهل بيته من الخلفاء وبعض وزراء الدولة ، وزاد فى التشبيهات البديعة ، شعره

---

(١) هو النحوى البصرى العظيم والاديب الكبير أبو العباس محمد بن يزيد المبرد الازدى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ صاحب الكامل والروضه والمقتضب (٢) هو النحوى العظيم الكوفى أبو العباس احمد بن يحيي المشهور بثعلب ، توفى سنة ٢٩١ هـ (٣) كان أديباً متفلسفا أدب عبد الله وروى عنه أخباره وشعره (٤) كان كاتباً عارفاً بأخبار الناس ودول الملوك ، له جملة مصنفات ، قتل فى فتنة ابن المعتز سنة ٢٩٦ هـ (٥) هو أبو عبد الله الحسين المعروف بابن الجصاص التاجر الجوهرى أخذ منه المقتدر فى حادثة ابن المعتز الفى الف دينار وسلم له بعد ذلك سبعمائة الف دينار ، وكان فيه غفلة وبله على غنى مفرط ، توفى سنة ٣١٥ هـ

وأوصاف محاسن الطبيعة ، ومجالس الأنس ، ومراسلة الاخوان فى الدعوة اليها ، ووصف الصيد وكلابه و بواشقه وفهوده ، والقلم والقرطاس ، ونحو ذلك

والمتأمل فى شعره يعرف فيه نَضْرة النعيم ، وتَرَف الملك ورقة الخيال ، ولطف الوجْدان

ومن ابتداءاته الجميلة قوله :

أخذتْ من شبابىَ الأيام ... وتولى الصبا عليه السلامُ
وارعوى باطلى فبان حديث النفس منى وعفَّت الأحلام

وقوله :

ما المَغانى من بعدهم بالمغانى ... فليكن شأنَك البكاء وشانى
امتحَى ربعهم وكان جديداً ... ونأى منهمُ الذى كان دانى
مامررْنا على لِوَى فيه نُعْمٌ (١) ... مذ مررنا على لِوَى نعمان (٢)

ومن شعره قوله يصف فصل الربيع :

حبذا آذار شهراً ... فيه للنَّوْر انتشار
ينقص الليل اذا حل م ويمتد النهار
وعلى الأرض اصفرار ... واخضرار واحمرار
فكأن الروض وشىٌ ... بالغت فيه التجار
نقشُه آس ونَسْرين وورد وبَهَار

ومن تشبيهاته قوله فى الهلال :

وانظر اليه كزَوْرَق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله :

انظر الى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحِندِسا (٣)
كمِنجل قد صيغ من فضة ... يحصد من زهر الدجى نَرجِسا

---

(١) من أسماء نسائهم (٢) مكان وجبلان ببلاد العرب (٣) الظلام

وقال يصف :

كأن سماءنا لما تجلّت ... خِلال نجومها عند الصباح
رياضُ بنفسج خَضِلٍ نداه ... تفتّح بينه نَور الأقاحى

وقال :

قد اغتدى والليل فى جلبابه ... كالحَبشى فرّ من أصحابه
والصبح قد كشّر عن أنيابه ... كأنما يضحك من ذهابه

وقال :

وفتيان غدوا والليل داج ... وضوء الصبح متهم الورود
كأن بزاتَهم أمراء جيش ... على أكتافهم صدأ الحديد

٩ — أبو الطيّب المتنبي

هو أبو الطيبِ أحمد بن الحسين الجُعفى الكِندى الكوفىّ المتنبى ، الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة ، وخاتم ثلاثة الشعراء ، وآخر من شارف شعره غاية الارتقاء

وهو من سلالة عربية من قبيلة جُعْفِىّ بن سعد العشيرة : احدى قبائل اليمانية

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ ﻫ فى محلة كِندَةَ ونسِبَ اليها ، وليس بكندى ، ونشأ بها وأولع بتعلم العربية من صباه . وكان نادرة فى الحفظ لا يسأل عن شىء إلّا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر : وكان أبوه فيما يقال سقّاء فخرج به الى الشام ، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة بالبادية ، فخرج الى بادية بنى كلب ، وهو بعدُ فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة ، فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية حتى أحاط بغريبها وحوشيها ؛ فعظم شأنه بينهم . وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام

شديدى الشغب على ولاتها فوَشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الاخشيدية[١] بأن أبا الطيب ادّعى النبوة فى بنى كلب[٢] وتبعهُ منهم خلق كثير ويخشى على ملك الشام منه . فخرج لؤلؤ الى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلاً ثم استتابه واطلقه[٣]

فخرج من السجن وقد لصِق بهِ اسم المتنبى مع كراهته له . ثم تكسب بالشعر مدة انتهت بلَحاقه بسيف الدولة بن حَمْدان[٤] فمدحه بما خلَّد اسمه أبد الدهر ، وتعلم منه الفروسية ، وحضر معه وقائعهُ العظيمة مع الروم حتى عدَّ من أبطال القتال طمعاً منه أن يكون صاحبَ دولة . و بقى أثيراً عنده مقدَّماً على جميع حاشيته و بطانته مع صلَفه وتيهه . فوشَوْا بهِ إلى سيف الدولة . وكان أشدَّهم حسداً لهُ ابن خالويه النحوى[٥] مؤدّب سيف الدولة . فجرت مناظرة بينهُ و بين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة ، فضرب به ابن خالويهِ بمفتاح حديد فى وجهه فشجّه ولم ينْصفه سيف الدولة منه . فقصد أبو الطيب كافوراً الاخشيدى أمير مصر رجاء أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة ، ومدحهُ بقصائد سنية . ووعده كافور أن يقلده امارة أو ولاية . ولكنهُ لما رأى تغاليَه فى شعره وفَخرَه بنفسه عدل أن يوليه ، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال :

---

(١) الدولة الأخشيدية هى دولة استقلت بمصر والشام والحجاز استقلالا داخلياً من سنة (٣٢٤ — ٣٥٨ هـ) ورأسها (محمد بن طغج الاخشيد) مات سنة ٣٣٤ هـ وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور وكان صغيراً فجعل الاستاذ أبو المسك كافور الخصى الاسود قيما عليـه فمات أنوجور سنة ٣٤٩ هـ وخلفه أخوه على ولم يكن له مع كافور من الأمر شيء ومات سنة ٣٥٥ هـ فتولى كافور ملك مصر وجاءه تقليد الخليفة ومات سنة ٣٥٧ هـ فتولى احمد بن على بن الأخشيد فأقام شهوراً حتى جاءت الدولة الفاطمية وفتحت مصر (٢) راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الـكتاب (٣) راجع تاريخ أدب اللغة فى العصر العباسى

(٤) هو أبو الحسن على أشهر أمراء الدولة الحمدانية من قبيلة تغلب ، وكان سيف الدولة يملك حلب والعواصم، ثم أخذ دمشق من الأخشيدية ومات سنة ٣٥٦ هـ وكان أخوه الحسن ناصر الدولة يملك الموصل والجزيرة وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، وخلف ناصر الدولة ابنه أبو تغلب ثم أخوه الغضنفر (٥) هو أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه كان اماماً فى اللغة والنحو توفى سنة ٣٧٠ هـ

يا قوم : من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليهِ وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور ! فحسبكم . فعاتبه أبو الطيب عتاباً أمضّه وآلمه ، واستأذن فى الخروج من مصر فأبى ، فتغفّله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ ﻫ وخرج منها يريد الكوفة ؛ ومنها قصد عضد الدولة بن بويه بفارس مارًّا ببغداد . فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد الى بغداد ؛ وخرج الى الكوفة . فخرج عليهِ أعراب بنى ضبّة وفيهم فاتك ابن أبى جهل وكان المتنبى قد هجاه هجاء مقذعاً ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنهُ وغلامه سنة ٣٥٤ ﻫ

منزلته فى الشعر — لا خلاف عند أهل الأدب فى أنه لم ينبغ بعد المتنبى فى الشعر من بلغ شأوه أو داناه ، والمعرى على بعد غوْره وفرط ذكائهِ وتوقد خاطره وشدة تعمقهِ فى المعانى والتصورات الفلسفية يعترف بأبى الطيب ويقدّمه على نفسهِ وغيره

موازنة بين المتنبي والطائيين

على أنهم مجمعون أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى ، ويختلفون فى المفاضلة بين الأخيرين من حيث الحِكَمُ والمعنى ، ولعل المتنبى ارجحهما . وقد قال المتنبي الشعر فى كل غرض من أغراضه ، وأجاد فى وصف

شعره

المعارك والعتاب والمراثى ، أما مدائحه فهى أكثر بضاعتهِ : وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه . ولثقتهِ بنفسه فى اللغة وعلوم العربيـة جعل غايته فى شعره ابراز معانيهِ الشريفة وأفكاره الدقيقة على أى لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له ، ولو لم يجْرِ على مشهور القياس(١) أو ينطبق على وجوه البلاغة والأساليب الشعرية(٢) السهلة ، ولذلك تجد فى كلامهِ كثيراً من الغرَابة(٣) والتعقيد اللفظى(٤) . وله من الحكم والأمثال ما يربو بهِ على كل شاعر تقدّمهُ . وقد أصبح للغة العربية وآدابها من كلامهِ

---

(١) كقوله ولا يبرم الأمر الذى هو حالل ... ولا يحلل الأمر الذى هو مبرم
(٢) « لو لم تكن من ذا الورى اللذ منك هو ... عقمت بمولد نسلها حواء
(٣) « مبارك الاسم أغرّ اللقب ... كريم الجرشى شريف النسب
(٤) « أنى يكون أبا البرية آدم ... وأبوك والثقلان أنت محمد

ثروة لم تكن لها لولاه ، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرّس إلاّ وله من حكم المتنبى مَدَد أيُّما مدد

ومن قوله :

شىء من شعره

إذا رأيت نيوب اللّيث بارزةً ... فلا تظنّنّ أن الليث يبتسمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً ... أن تحسب الشحْمَ فيمن شحمُهُ ورم
وما انتفاع أخى الدنيا بناظِرِهِ ... اذا استوت عنده الأنوار والظلَم
يا من يعزُّ علينا أن نفارقهمْ ... وجداننا كل شىء بعدكم عدم
ان كان سرَّكمُ ما قال حاسدُنا ... فما لجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألَم
وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفة ... إن المعارف فى أهل النهى ذِمم
كم تطلبون لنا عيبًا فيُعجزكمْ ... ويكره الله ما تأتون والكرم
إذ ترحلتَ عن قوم وقد قدروا ... ألاّ تفارقهمْ فالراحلون همُ

ومن قوله يمدح سيف الدولة ويصف معركة :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروْا بجياد مالهن قوائم[١]
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذُن الجوزاء منه زمازم[٢]
تجمّع فيهِ كل لِسْن[٣] وأمة ... فما يُفهم الحُدّاثَ إلاّ التراجم
وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلْمى[٤] هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم أنت بالغيب عالم
ضممت جناحيهمْ على القلب ضمةً ... تموت الخوافى تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب ... وصار إلى اللبات[٥] والنصر قادم
حقرت الردينيات[٦] حتى طرحتها ... وحتى كأن السيف للرمح شاتم
ومن طلب الفتح الجليل فانما ... مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم
نثرتهمُ فوق الأحيدب[٧] كله ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

---

(١) كناية عن أنهم مسربلون هم والخيل بالحديد الى الأرض (٢) أصوات الرعد وأراد بها الأصوات الشديدة (٣) لغة (٤) مجروحة (٥) أعالى الصدور (٦) الرماح (٧) جبل الحدث

ومن قوله يرثى :

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى … أن الكواكب فى التراب تغورُ
ما كنت آمل قبل نعشِك أن أرى … رَضْوى[1] على أيدى الرجال يسير
خرجوا بهِ ولكلّ باكٍ حوله … صعقات موسى يوم دُكّ الطور
حتى أتوا جدثًا كأن ضريحه … فى كل قلبِ مُوحِّدٍ محفور
كفلَ الثناءُ له بردّ حياتهِ … لمّا انطوى فكأنه منشور

وديوان شعره مشهور شرح وانتقد وكتب فيهِ أكثر من أربعين تأليفًا ومن شروحه المطبوعة شرح العُكْبَرى وشرح الواحدى

١٠ — ابن هانئ الأندلسى

هو أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدىُّ الأندلسىُّ ، شاعرُ الغرب ومُتنبِّيه ، والمؤثِرُ فخامة ألفاظه على رقة معانيــهِ ، وأحد المفرطين فى غلو المدح واستعمال الاستعارة والتشبيه

ولد بإِشْبيلية سنة ٣٢٦هـ ولما نبُه شأنه اتصل بعامل اشبيليــة زمن المستنصر الأموى[2] ومدحهُ بغرر القصائد فأحله منه منزلة سنية وأغدق عليهِ العطايا فأكب على اللهو والطرب والاستهتار ، واتهم بالزندقة والكفر لاشتغاله بمذاهب الفلاسفة وظهور أثرها فى شعره باستعمال الغلو المفرط فى وصف ممدوحه بصفات المعبود وغير ذلك

ولما شاع ذلك عنهُ نَقَمه منه أهلُ اشبيلية وأشركوا عاملها فى التهمة وكادوا يهمون بهِ ، فأشار عليهِ بالهجرة من إِشبيلية فاجتاز البحرَ إلى عُدْوة المغرب ، ومدح ولاتَه من قبل المعز الفاطمىّ . ثم نمى خبره إلى المعز[3] فوجه فى طلبه فوفد عليهِ

---

(١) جبل بالحجاز راجع مصور جزيرة العرب الملحق بهذا الكتاب

(٢) هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر توفى سنة ٣٦٦هـ (٣) هو أبو تميم معد بن اسماعيل رابع خلفاء الدولة الفاطمية وباعث القائد جوهر لفتح مصر ففتحها وأسس القاهرة وانتقل اليها المعزومات بها سنة ٣٦٥هـ وأوائل خلفاء هذه الدولة كانوا بالمغرب ورأسهم عبيد الله المهدى توفى سنة ٣٢٢هـ ثم خلفه ابنه القائم بأمر الله أبو القاسم محمد نزار وتوفى سنة ٣٣٣هـ ثم خلف هذا ابنه المنصور اسماعيل توفى سنة ٣٤١هـ ثم ابنه المعز المذكور آنفا وحكم مصر أولاده وأحفاده وأشهرهم ابنه العزيز ثم ابن العزيز الحاكم بأمر الله ثم ابنه الظاهر ثم عدة منهم وانقرضت دولتهم سنة ٥٦٧هـ

بأفريقية ومدحه فبالغ فى الانعام عليه ، ودخل فى دعوة الفاطميين وأغرق فيها ، فاصطفاه المعز واتخذه شاعر دولته

ولما فتح جوهر مصر وبنى القاهرة ، ورحل اليها المعز ليتخذها دار ملكه شيّعه ابن هانئ ورجع لأخذ عياله والالتحاق به فتجهز وتبعه ؛ ولما وصل إلى برْقة نزل على بعض أهلها فأقام عنده أياماً فى مجلس أنس ، فيقال إنهم عربدوا عليهِ وقتلوه سنة ٣٦٢ هـ وعمره ٣٦ سنة ، وقيل فى سبب موته غير ذلك

شعره

ولم ينبغ فى شعراء جزيرة الأندلس ولا بر المغرب جميعه من متقدميهم أو متأخريهم من يفوق ابن هانئ فى صناعة الشعر أو يساويهِ ؛ فقد كان عندهم فى الشهرة والاجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة لا فى الطريقة والمعانى ، وكانا فى عصر واحد . ويسميه كثير من الأدباء بمتنبي المغرب

ولما بلغ المعز الفاطمى خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليهِ كثيراً وقال (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر بهِ شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك) ويمتاز شعره بكثرة غريبه ، وفخامة لفظهِ وطنطنة تراكيبه ، وجَلَبه عبارتهِ وهَوْل وقعها فى نفس سامعها وان لم تكن كل معانيهِ مشاكلةً للفظهِ فى العظم والرّوْعة ، كما امتاز بحسن تصوير الخيال ، وإجادة التّشبيهِ والاستعارة المتلائمة العلائق والقرائن ، وكثرة الغلوّ الذى يقرب من الكفر فى المديح ونحوه ، مع شدة تحامى الأندلسيين ذلك فى شعرهم وانشائهم . وابن هانئ ممن يجيد المطوّلات من القصائد ولو كانت صعبة القوافى

ومن قوله فى وصف الخيل :

وصواهلٍ لا الهضْبُ [1] يوم مُغارها [2] هَضْبٌ ولا البِيد الحزون [3] حُزون
عُرفت بساعة سَبقها لا أنها عَلِقتْ بها يومَ الرهان عيون
وأجلُّ عِلْم البَرْق فيها أنها مرّت بجانحَتَيْهِ وهى ظُنون

ومن قوله الموهم الكفر فى مطلع قصيدة يمدح بها المعزّ :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحد القهار

(١) الهضب والهضبة الجبل المنبسط على الأرض (٢) أى يوم اغارتها (٣) جمع حزن ضد السهل

وقوله من قصيدة فى مدح المعز ويخاطب حامل مِظَلّته :

أمُدِيرَها من حيث دار لَشَدّ ما ... زاحمتَ تحت رِكابه جبريلا

ومن قوله فى مبدإ قصيدة رثاء :

صدَق الفَناء وكُذّب العمر ... وجلا العظات[1] وبالغ النُّذُر

إنا وفى آمال أنفُسِنا ... طولٌ وفى أعمارنا قِصرُ

لنَرى بأعيننا مَصارعَنا ... لو كانت الألباب تعتبرُ

ممَّا دهانا أن حاضرنا ... أجفانُنا والغائب الفِكَرُ

واذا تدبّرنا جوارحَنا ... فأكَلُّهُنَّ العينُ والنظرُ

أىّ الحياةِ ألذ عيشتَها ... من بعد على أننى بَشَرُ

خَرِسَتْ (لَعَمْرُ الله) ألسنُنا ... لمَّا تكلَّمَ فوقنا القدَرُ

١١ — أبو العلاء المعرّى

هو أبو العلاء أحمدُ بن عبد الله بن سليمان المَعرّى التَّنُوخى[2] الشاعر الفيلسوف المتفنن الزاهد ، صاحب التصانيف والرسائل المأثورة

وهو عربى النسب من قبيلة تَنُوخ من بطون قُضَاعَةَ ، وبيتُهُ بيت علم وقضاء ، وُلِد بمعرّة النعمان[3] سنة ٣٦٣ ﻫ وجُدِر فى الثالثة من عمره فكُفَّ بصره ، وتعلم النحو والعربية على أبيهِ وغيره من أئمة زمانه . وكان يحفظ كل ما يسمعهُ من مرة . وانتفع كثيراً من دار كتب آل عمار[4] أمراء طرابلس الشام . وقال الشعر وعمره احدى عشرة سنة . ودخل بغداد وأقبل عليهِ السيد المرتضى[5]

---

(١) المفعول محذوف أى جلا العظات الشبهات والغفلات فى أمر الدنيا

(٢) راجع مصور جزيرة العرب فى هذا الكتاب (٣) بلدة بين حماة وحلب أضيفت الى النعمان بن بشير الصحابى لانه اجتاز بها فدفن بها ولداً له ثم أقام بها (٤) هم اسرة استبدوا زمنا بطرابلس الشام وملحقاتها وجمعوا من الكتب مالا يحصى فأحرقها الصليبيون عند استيلائهم على طرابلس وأشهر هذه الاسرة أبو طالب بن عمار قاضى طرابلس المتوفى سنة ٤٦٤ ﻫ ثم ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمار (٥) هو السيد الشريف أبو القاسم على بن الحسين أخو الشريف الرضى . وهو صاحب (أمالى السيد المرتضى) توفى سنة ٤٣٦ ﻫ

إقبالاً عظيماً ثم جفاه[١]

ولما رجع الى المَعَرَّة أقام ولم يبرح منزله ونَسَكَ وسمّى نفسه رَهْنَ المحبِسَين : محبس العمى ومحبِس المنزل . ووفد عليه الطلاب والأدباء والرواة والمتفلسفون ، وكاتبهُ الوزراء والعلماء ، و بقى فى منزله مكباً على التدريس والتأليف ونظم الشعر مقتنعاً بعشرات من الدنانير فى العام يستغلها من عَقارٍ له مجتنباً أكلَ الحيوان وما يخرج منه مدّة ٤٥ سنة مكتفياً بالنبات والفاكهة والدِبس[٢] متعللاً بأنه فقير وأنه يرحم الحيوان . وعاش عزَباً إلى أن مات سنة ٤٤٩ هـ بالمعرة . وأوصى أن يكتب على قبره

هذا جنـاه أبي علـيَّ وما جنيت على أحدْ

ولهُ كثير من الشعر يناقض بعضه بعضاً[٣] فى حقيقة العالَم والشرائع والمعبود ، وللناس فى اعتقاده أقوال كثيرة والظاهر أنه كان شاكاً متحيراً

شعره

وكان أبو العلاء المعرى أحكَمَ من رأى الناسُ بعد المتنبى ، ويزيد عليهِ فى الغريب والأخيلة الدقيقة والتكلم فى الطبائع ووسائل الاجتماع وعادات الناس وأخلاقهم ومكرهم وظلمهم ونظام الدول والقوانين والشرائع والأديان ، ولذلك يفضله الإفرنج ومستعربوهم عليهِ وهو فى هذه الأمور معدوم النظير ، ولم ينظم فى الملة أحد غيره فيها . وشعره فى المدائح والمراثى والوصف وبقية أغراض الشعر الأدبية أرق

(١) وذلك أنه جرى يوما بحضرة المرتضى ذكر المتنبي فتنقصه فقال المعرى وكان يتعصب له لو لم يكن له الا القصيدة التى مطلعها « لك يامنازل فى القلوب منازل » لكفاه فضلا . فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه وقال لمن بحضرته أتدرون أى شىء أراد الاعمى بذكر هذه القصيدة فان للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها فقيل السيد النقيب أعرف فقال أراد قوله فى هذه القصيدة :

واذا اتتك مذمتى من ناقص فهى الشهادة لى بانى كامل

(٢) هو عسل التمر والفاكهة (٣) فبينما هو يقول :

لا أطلب الارزاق والـــمولى يفيض علىّ رزقى
ان أعط بعض القوت اعـــلم أن ذلك ضعف حقى

اذ يقول :

اذا كان لا يحظى برزقك عاقل وترزق مجنوناً وترزق أحمقا
فلا ذنب يا رب السماء على امرئ رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

من شعره فى النقد والفلسفة . إلاّ أن أكثر شعره من هـذا القبيل ضمنه ديوانه المسمى لزوم ما لا يلزم فتقيد فيهِ بقيود حبست أفكاره ونهكت معانيهِ فجاءت ألفاظه فيه غريبة وأساليبه معقدة ، وعندنا أن هذا أمقت شذوذ له ، و إلاّ فما للفيلسوف والقيود اللفظية ، وقد كان له فى نظم الأفكار التى لم تخطر على قلب أحد سواه غُنية وشهادة على براعته وسبقه ، ولله فى خلقه شُئُون

ومن مراثيه مرثيته المشهورة ، ومنها :

غَيْرُ مُجْدٍ فى مِلتى واعتقادى نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّم شاد
وشبيهٌ صوت النعىّ إذا قيـــس بصوت البشير فى كل ناد
أَبكتْ تِلْكم الحمامةُ أم غنَّـــتْ على فرْع غصْنها الميّاد (١)
صاحِ هذى قبورُنا تملأ الرُّحـــبَ فأين القبورُ من عهد عاد
خَفِّفِ الوطء ما أظن أديم ال أرض إلاّ من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهـــد هوانُ الآباء والأجداد
سر إن اسطعتَ فى الهواء رويْداً لا اختيالاً على رُفاتِ العباد
ربَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحك من تزاحم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين فى طويل الأزمان والآباد
فاسأل الفرقدَين (٢) عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كمْ أقاما على زوال نهار وأنارا لِمُدْلِجٍ فى سَواد
تَعَبٌ كلها الحياةُ فما أعـــجَبُ إلاّ من راغبٍ فى ازدياد
إنّ حزناً فى ساعة الموت أضعا فُ سُرُورٍ فى ساعة الميلاد
خُلِقَ الناسَ للبقاء فضلت أمةٌ يحسَبُونهم للنفـاد
إنما يُنْقلون من دار أعما لٍ الى دارِ شِقوَةٍ أو رشاد

(١) أى أنى لا أعرف الفرق بين صوت النعى وصوت البشير كما لا يعرف الناس صوت الحمامة فبعضهم يسميه بكاء وبعضهم غناء

(٢) هما نجمان فى بنات نعش الصغرى (الدب الأصغر)

وهى طويلة ومنها ،

بان أمرُ الإله واختلف النا سُ فداعٍ الى ضلال وهاد
والذى حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدَثٌ من جماد
فاللبيب اللبيب من ليس يغتـــرُّ بكَوْنٍ مَصيره للفساد

ومن قوله الموهم فى اللزوميات .

ضحكْنا وكان الضحك منا سفاهة وحُقّ لسكان البسيطة أن يبكوا
تحطمنا الأيام حتى كأننــا زجاج ولكن لا يعادُ لنا سبك

١٢ – ابن خفاجة الأندلسى

هو أبو اسحق ابراهيم بن عبد الله بن خفاجة ، شاعر ، شرقىّ الأندلس ، وأحد وصّاف الطبيعة

وُلد بجزيرة شَقَرْ[١] من أعمال بَلَنْسِية سنة ٤٥٠ ﻫ فتعلم وتأدّب ونظم الشعر ، وأحسن فيه ، وكتب الرسائل الاخوانية البليغة . وما زالت شمس أدبه فى صعود حتى صار واحد زمانه فى الأندلس : شعراً ونثراً ، وحلاوة منطق ، وحسن محاضرة وعلوّ همة ، فقلما تعرض لاستماحة ملوك الطوائف[٢] مع تهافتهم على أهل الأدب . وكان فى صباه طَرُوبًا عاكفًا على الملذات ثم أقلع فى كهولته عن صَبْوته . وغلب على شعره وصف الحوادث الجوّية ومناظر الطبيعة بأخيلة جميلة ، وتشبيهات بديعة شعره
وله غزل رقيق ، ومدح بارع ، ورثاء بليغ . ويمتاز شعره بالجزالة وكثرة المعانى وازدحامها فى اللفظ حتى يحتاج فى فهمها الى التأمل على خلاف مذهب الأندلسيين فى ذلك ، وتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ

---

(١) هى بليدة بين شاطبة وبلنسية من شرقى الاندلس ، وسميت جزيرة لان الماء محيط بها من أكثر جهاتها (٢) لما انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس تقسم ولاتها نواحيها واستبد كل منهم بعمل وسموا ملوك الطوائف

طائفة من شعره

ومن قوله يصف زهرة :

ومائسةٍ تُزْهى وقد خلع الحيَا   عليها حِلَى حمراً وأرديةً خُضْرا
يذوب لها ريق الغمائم فِضّةً   ويجمُدُ فى أعطافها ذهباً نَضْرا

وقوله :

ويومٍ جرى برقه أشقراً   يطارد من مُزنه أشهبا
ترى الأرض فيه وقد فُضضت   ووجه السماء وقد ذهّبا

وقوله يصف نهراً :

متعطف مثل السوار كأنه   والزهر يكنفه مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظُنّ قُرْصًا مفرغا   من فضة فى بُردةٍ خضراء
وغدتْ تحُفُّ به الغصون كأنها   هُدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الأصيل على لجين الماء

١٣ — الطغرائى(١)

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتاب أبو اسماعيل الحسين بن محمد الطغرائى صاحب لامية العجم . وهو أصبهانىّ الأصل ، برع فى الكتابة والشعر حتى كان أوحد زمانه ، ولم ينبغ بعده فى الشرق من يضاهيه . وترقت به الحال فى خدمة سلاطين آل سلجوق الى أن صار وزيراً للسلطان مسعود بن محمود السلجوقى صاحب الموصل . ولما قهره أخوه السلطان محمود كان أولَ من اعْتُقِل الوزير أبو اسماعيل الطغرائى ، فدس بعض حسدته من رؤساء الكتّاب الى السلطان محمود أنه ملحد فقتله ظلماً سنة ٥١٣ هـ

وله ديوان شعر جيد مطبوع فى الأستانة

ومن شعره لامية العجم المعتبرة من عيون الشعر وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ

(١) الطغرائى من يكتب الطغراء (وهى الطرة) وكانت تكتب فى الدولة السلجوقية فوق البسملة بخط معلق فيها نعوت السلطان وألقابه

يشكو فيها الزمان وأهله . وهى مشهورة مشروحة بشروح كبار وصغار أكثرها مطبوع ، ومطلعها :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطَل وحلية الفضل زانتنى لدى العطَل

ومنهـــا :

حب السلامة يثْنى همَّ صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فان جنحت اليهِ فاتخذْ نفقًا فى الأرض أو سلَّمًا فى الجوّ واعتزل
ودعْ غِمار العلا للمقْدِمين على ركوبهـا واقتنع منهنَّ بالبلل
رضا الذليل بخفض العيش مسكنةٌ والعزُّ تحت رسيم الأينق الذلل

وقال يصف :

وكأنما الشمس المنيرة إذْ بدت والبدر يجنح للمغيب وما غرب
متحاربان : لذا مِجنّ صاغه من فضة ، ولذا مجَنّ من ذهب

وقال يصف سحابة :

سارية ذات عُبوس برقهـا يضحك والأجفان منها تهمُل
كحلّةٍ دكناء فى حاشيـة فيها طِرازٌ مذْهَب مسلسَل
اذا دنت عِشارها صاح بها قاصف رعد وحدَتها الشمأل

وقال يصف غديراً :

عجنا الى الجِزع الذى مدّ فى أرجائه الغَيْمُ بساط الزَّهَرْ
حَول غدير ماؤه المنتمى الى بنات المزْن يشكو الخَصر
لو لاذت الريح سَموماً به لانقلبت وهى نسيم السحر
حصباؤه دُرّ ورَضراضـه سُحالة العَسجَد حول الدُّرر
وقد كسته الريح من نسجها دِرعًا به يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من صبغها نوراً به يخطف نور البصر
كأنهـا المرآة مجلوة على بساط أخضر قد نشر

وقال وقد رزق مولوداً على كبر :

هذا الصغير الذى وافى على كبر   أقر عينى ولكن زاد فى فكَرى
سبع وخمسون لو مرَّت على حجر   لبان تأثيرها فى صفحة الحَجر

ومن كلامه فى القصص والأمثال :

شؤم الوشاية

لقد جاء فى أمثالهم أن ثعلباً   وذئباً أصابا عند ليث تقدُّما
أضرَّ به جوع شديد فشفَّه[١]   وأبقى له جلداً رقيقاً وأعظما
ففاز لديهِ الذئب يوماً بخلوة   فقال : كفاك الثعلب اليوم مطعما
فكلْه وأطْعمه[٢] فما هو شكلنا   ولست أرى فى أكله لك مأثما
فلما أحسَّ الثُّعلُبان[٣] بكيده   تطبَّب عند الليث واحتال مُقدما
وقال : أرى بالملك داء مماطلاً   تهدَّم منهُ جسمه وتحطما
وفى كَبِد الذئب الشفاء لدائه   فان نال منها ينْج منه مسلَّما
فصادف منه ذا قبولاً فمندها   أحال[٤] على الذئب الخبيث فصمما
فأفْلت مسلوخ الإهاب[٥] مرمَّلاً[٦]   فلما رآه الثعلبان تبسَّما
وصاح به يا لابس الثوب قانئاً[٧]   متى تخْل بالسلطان فاسكت لتسلما

١٤ — البهاء زُهَير

هو الوزير الشاعر الكاتب أبو الفضل بهاء الدين زهير بن محمد بن على المُهلبى الأزدى المصرى صاحب السهل الممتنع والغزل الرقيق والعتاب الرفيق

ولد بوادى نخْلة قرب مكة سنة ٥٨١ ﻫ ، ونشأ بمصر

وأجاد فنون العربية ؛ فبرع فيها نظماً ونثراً وخطا . ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (من ملوك الدولة الأيوبية) وخرج معهُ فى خدمته الى بلاد الشام والجزيرة . فلما نُكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم الى

---

(١) شفه الهم والمرض أنحله   (٢) أى وأطعمنا منه   (٣) الثعلب الذكر   (٤) أقبل
(٥) الجلد   (٦) أى ملطخاً بالدم   (٧) أى شديد الحمرة

ابن عمه الملك الناصر صاحب الكَرَك وقبض على الصالح واعتقله بقلعة الكرك حفظ البهاء عَهدَ صاحبه ولم يخدم غيرَه ، وأقام بنابلس حتى تقلبت الأحوال واستردّ الصالح مُلك الديار المصرية ، فقدم اليها فى خدمته واتخذه وزيرَه وموضع سره ، وأحله منزلة لم تكن لغيره : لحسن وفائه ورياضة أخلاقه ودماثة سجاياه . ونفع بخدمته خلقاً كثيراً و بقى أثيراً عند الملك الصالح حتى مات . فلزم داره . وحدث فى القاهرة فى شوال سنة ٦٥٦هـ وباء مات به ودفن بالقرافة وهى السنة التى سقطت فيها بغداد فى أيدى التتار

شعره وكانت سهولة طباع زهير تفوق سهولة شعره . وان كان الشعر يشف عن أخلاق صاحبه ورقته فأحرى به أن يكون شعر زهير . ولم يك فى متأخرى المحدثين من هو أسهل نظماً ولا أرقّ لفظاً ولا أكثر تشريفاً للمعانى المبتذلة منه . وأجود شعره ما كان فى المغازلة والمعابثة والمعاتبة ، ولم تنفُق له سوق كبيرة فى غيرها وأكثر معانيه عادية عامية إلاّ أنه كساها ديباجة من لفظه وسهولة أسلوبه رفعتها فى أعين أهل الذوق الى مرتبة أحرار المعانى . وله ديوان شعر طبع مراراً فراجعه

ومن شعره فى غير الغزل وقد غرقت به سفينة فسلم بنفسه منها وذهب ما كان معه :

لا تعتِب الدهر فى خطب رماك به ... إن استرد فقِدْماً طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالىْ تصرفه ... تجدْه أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا
ورأس مالك وهى الرّوح قد سلِمتْ ... لا تأسفنّ لشىء بعدها ذهبا
ما كنتَ أول مقروحٍ بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بِدعاً ولا عجبا
وربّ مالٍ نما من بعد مرزئة ... أما ترى الشمع بعد القطف ملتهبا

وقال يمدح :

أنا ذا زهيرك ليس إلاّ م جودُ كفك لى مُزَيْنَة(١)

---

(١) يشير الى زهير بن أبى سلمى المزنى الجاهلى مادح هرم بن سنان

أهوى جميل الذكر عنـــك كأنما هو لى بُثينة[1]
فاسأل ضميرك عن ودا دى انه فيـهِ جُهينه[2]

وله لغز فى قفل :

وأسود عارٍ أنحل البردُ جسمه وما زال من أوصافهِ الحرْص والمنعُ
وأعجب شىء كونه الدهر حارساً وليس له عينٌ وليس له سمع

الرواية والرواة

جاءت الدولة العباسية وقد اتسع نطاق الرواية ، واختص كل فريق من الناس برواية شىء ، فمنهم : من انقطع لرواية القراءات ، ومنهم من انقطع لرواية الحديث ، ومنهم من انقطع لرواية العربية والشعر والأخبار ، ومنهم من انقطع لرواية الفتوح والسير وغير ذلك

فلما دُوِّنت الكتب فى عصر الدولة العباسية أفرغ الرواةُ ما حفِظوه فى هذه الكتب خوفاً عليه من الضياع ، فكان عصرُهم الأولُ عصر جَمعٍ وتدوين حتى اذا ما جمعت كل هـذه العلوم فى بطون الكتب أخذ أمر الرواية يضمحلّ شيئاً فشيئاً فى اكثر العلوم ولا سيما الأدب ، ثم اقتُصِرَ فى الرواية على تصحيح النطق والأداء فيقرأ التلميذُ على الشيخ القرآنَ أو الحديثَ أو اللغةَ أو الشعرَ وهو يجيزُ له أداءها كما سمع

وكانت الرواية الشغلَ الشاغلَ للعلماء فى صدر الدولة العباسية لاهتمام الأمة بها وبذل الخلفاء المعونة لأربابها . فاندس بين الرواة كثير من الوضّاعين وأدخلوا كثيراً من الروايات المكذوبة فى الحديث وغيرِه . واضطُرَّ العلماء الى البحث عن تمحيص الصحيح فعنُوا شديد العناية بتاريخ الرجال ، ومراتب الأخذ عنهم ، وميزوا ما أمكن تمييزُه من الموضوع . ولكل علم رواةٌ مشهورون . وقد سبق

---

(١) يشير الى جميل الشاعر المحب صاحب بثينة (٢) يشير الى قبيلة جهينة المضروب بها المثل فى تعرف الأخبار

الكلام على رواة العلوم والفنون فى تاريخ وَضعها . ونزيد هنا من ذكر بعض رُواة الأدب اذ كان هو غايةَ درسنا

فمن رواة الأدب والشعر خاصَّة حمادُ الرواية الكوفىُّ (١) وخَلَفُ الأحمرُ (٢) البَصْرىُّ وأبو عمرو الشيبانىُّ الكوفىُّ (٣) والسكرى البغدادىُّ (٤)

ومن رواة الأدب بجميع فنونه لغة وشعراً وأخباراً أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى والأصمعى وأبو زيد الانصارى وأبو عبيد القاسم بن سلاَّم (٥) ومحمد ابن سلام الجُمَحى (٦) وغيرهم . ونذكر على سبيل الاختصار ترجمة أشهرهم فى الرواية وهو الأصمعى فنقول :

الأَصْمَعِىُّ

هو شيخُ رُواة الأدب الامامُ الثَّبْتُ الحُجة الثقة التقىُّ ، أبو سعيد عبد الملك ابن قُرَيْب بنِ عبد الملك على بن أصمَع الباهلى البصرى

نسب الى جدّه أصمَع . وولد سنة ١٢٣ هجرية من بيت عربى قديم العهد فى الكتابة

ونشأ بالبصرة فأخذ العربيةَ والحديث والقراءة عن أئمة البصرة كأبى عمرو

---

(١) هو أبو القاسم حماد الراوية بن أبى ليلى سابور الكوفى الديلمى مولى بكر بن وائل كان أعلم الناس بايام العرب وأشعارها وأخبارها وانسابها ، وهو الذى جمع السبع الطوال المسماة بالمعلقات توفى سنة ١٥٥ﻫ (٢) هو ابومحرز خلف الاحمر بن حيان مولى بلال بن أبى بردة ابن أبى موسى الاشعرى وفيه يقول الاخفش لم ندرك أحداً اعلم بالشعر من خلف ، مات فى حدود سنة ١٨٠ ﻫ (٣) هو أبو عمرو اسحق بن مزار الشيبانى الكوفى كان راوية أهل بغداد واسع العلم باللغة والشعر ثقة فى الحديث نبيلا فاضلا جمع اشعار العرب فى عدة دواوين لكل قبيلة ديوان فكانت نيفاً وثمانين قبيلة.عمر كثيراً حتى أتى عليه١١٩سنة وتوفى سنة٢٠٦ﻫ

(٤) هو أبو سعيد الحسن بن الحسين كان راوية ثقة من كبار الجامعين للشعر جمع شعر جماعة من الشعراء منهم امرؤ القيس والنابغة الذبيانى والجعدى وزهير ولبيد واشعار بنى هذيل وبنى شيبان وبنى يربوع وبنى ضبة والازد وبنى نهشل وتوفى سنة ٢٧٥ ﻫ

(٥) كان أبوه عبداً رومياً اشتغل بالحديث والأدب والفقة فبرع فى جميعها . وكان ثقة دينا توفى سنة ٢٢٤ (٦) هو أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحى البصرى صاحب كتاب طبقات الشعراء وكان من أعلم الناس بالشعر والأخبار توفى سنة ٢٣١ ﻫ

ابن العلاء والخليل بن أحمد ، وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفِدون البصرة . وأكثر الخروجَ الى البادية ، وشافة الأعرابَ وساكَنهم . وربما استغرقت بعضُ رحلاته سنواتٍ يحُجُّ فى أثنائها ويلتقى بالفصحاء فى المواسم ، حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره

وتعلم من خلف الأحمر نَقْدَ الشعر ومعانيه . وكان أحفظَ أهل زمانه حتى قال مرةً انى أحفظ اثنىْ عشرَ ألف أرجوزةٍ فقال له رجلٌ : منها البيتُ والبيتان ، فقال : ومنها المائةُ والمائتان . وراجت بضاعةُ الأصمعى عند الرشيد وأخذ جوائزَه الكثيرةَ ورُزق السعادةَ فى رواية الأخبار والمُلَح دونَ أهل زمانه ، فتهافت الناس على نقلها فى كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتسننه[1] : وكان يُحْجِمُ عن تفسير القرءان الكريم والحديث تحرُّجاً[2] وخوفاً من الزلل . وكان مع كل صفاته الحسنة بخيلاً مخشوشناً . وعمّر حتى أدركَ زمنَ المأمون . وأرادَ المأمونُ أن يُقدِمَهُ اليهِ فاعتذر بكبر السن ، ومات سنة ٢١٦ هجرية . وله من الكتب المؤلفة والرسائل والأمالى شىء كثير

خلاصة أثر الحضارة العباسية فى اللغة العربية

لما كانت حضارة الدولة العباسية قائمة على أساس الحضارتين الفارسية واليونانية باتخاذ خلفائها من أولئك أكثرَ شيعتهم ونصرائهم ، وإيثارهم على العرب بالملك والزّعامة وتقليدهم أياهم فى نظام ملكهم وطرق معايشهم ، ونقلهم عن هؤلاء علومهم وفلسفتهم ، كان لذلك آثار واضحة فى حالة اللغة العربية حسناً وقبحاً

أما الآثار الحسنة فهى :

١ — اتساع أغراض اللغة من حيث تدوين العلوم بها ، وترجمتها اليها وتدريسها ، والمناظرة فيها ، وتأدية مقاصد الصناعات ، ومظاهر الملك والترف والنعيم : من وصف القصور والبساتين . ومناظر الطبيعة ، وأدوات الزينة ، وأساطيل الحرب ، وحصونها وقلاعها ونحو ذلك

---

(١) أى أخذه فى أعماله بالسنة النبوية المطهرة (٢) أى ابتعاداً عن الحرج والاثم

٢ — اتساع أفكار المتكلمين بها وتنوع أخيلتهم مما أدى إلى ابتكار معان جديدة أو توليد حديثة من قديمة

٣ — سهولة الألفاظ وتنوع الأساليب ، والتأنق فى صوغها ، وانفساح طرق التشبيه والكناية والاستعارة ، ووضع كثير من اصطلاحات العلوم والصناعات ، وحدوث لغة أدبيـة متعددة الصور والرسوم ، ولغة تأليفية تقاس بمعيار المنطق والبرهان العقلى ، دُوّن بها ما لا يحصى من المؤلفات التى جعلت العربية أكثر من سبعة قرون أغنى لغات العالم علوماً وآداباً

وأما آثارها السيئة فهى :

١ — كثرة ما دخل عليها من الدخيل الذى قلما خضع لقوانينها الصرفية والنحوية بل كان كالصخرة الخشنة ، لم يصقلها استعمال الفصحاء ، ولا تهافت العامة

٢ — كثرة التأنق فى الحلية اللفظية كالسجع والجناس والتورية ، والمبالغة والتهويل فى الألفاظ والمعانى ، والتفخيم فى الألقاب وصدور المكاتبات ، وكثرة التملق فى المدح ، والاقذاع فى الذم ، والاغراق فى وصف الخمر ، ومجالس الفجور ، والغزل بالمذكر والمجون والخلاعة ، مما ورثوا أكثره من المدنية الفارسية

٣ — ضعف قوة الارتجال واستعجام الألسن مما أفضى إلى اضمحلال أمر الخطابة بالتدريج

العصر الرابع

عصر الدول المتتابعة التركية

٦٥٦ — ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وأدبها في ذلك العصر

لما اكتسح التتارُ ممالكَ الدولة العباسية وخرّبوا البلادَ وقتّلوا العباد وأبادوا الكتبَ ، افترقوا إلى ممالكَ متعددةٍ بآسيا وشرقيّ أوربة ولم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا وشرعوا يخدُمون الاسلام بتقريب العلماء اليهم وترغيبهم فى التأليف ، فأفاد ذلك فى إدامة الحركة العلمية فى الجملة ؛ وإن لم يفد اللغةَ العربية فائدةً تذكر لمكان العُجْمَةِ منهم . أما علومُ العرب وأدبُها فلم يكن لها مَباءةٌ ترجع اليها إلاّ البلادَ العربية كالشام ومصر : فأصبحت القاهرةُ هى المثابةَ الأخيرةَ للعرب والعربية ؛ نعم إن حكومتها كانت تركية أو شركسيةً ولكن لم يكن لرجالها وجُنودها عصبية قويةٌ تجعل لغتهم تُزَاحِمُ العربية ، فبقيت بطبيعة الحال اللغةُ الرسمية هى العربيةَ ، وأصبح العلماء هم رجالَ الإدارةِ والكتابةِ والقضاء والحِسبة وغيرها من المناصب الملكية ، واقتصر المماليك على مراتب الجندية والمناصب العسكرية . غير أن تلك الحال لم تدُمْ أكثرَ من مدة المماليك وصدرِ الدولة العثمانية الوارثةِ لهم ، ثم أصبحت اللغة التركية العثمانية هى اللغةَ الرسميةَ للأعمال الديوانية والسياسية فى جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت العربيةَ مزاحمة ظهر أثرُها بيّنا فى تحرير الرسائل الديوانية والمعاهدات السياسية . ودخل فى اللغة فى أثناء دولتى المماليك والعثمانيين كثير من الألفاظ التركية والفارسية(١)

(١) من ذلك : الاتابكى ، الجاشنكير ، الدوادار ، الخواجه ، اسفهسلار ، شراب خاناه ، فراش خاناه ، طبلخاناه

وعاصرَ دولة المماليك بمصر والشام دولةُ بنى الأحمر بالأندلس(١) ودولة بنى مَرين(٢) والدولة الحَفْصية(٣) بشمالىّ أفريقية ، فكانت حالة لغة الأدب فيها وخاصة الأندلس أخرياتِ هذا العصر خيراً منها فى مصر ، إذ كانت جمهرة السلائل العربية فيها حافظةً صبغتها لقلة طروء العناصر الأجنبية عليها

النـــثر

لغة التخاطب

كادت تحل محلَّ اللغة العامية العربيةِ (فى أعالى الجزيرة وشرقىّ العراق) اللغةُ الفارسية والتركية والكردية ممزوجةً بشىء من الألفاظ العربية

أما بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام ؛ فقد بقيت العامية العربية لسان الجميع فيها حتى الملوك والسلاطين لغلبة العناصر العربية فيها

ولما لم يتهيأ لرؤساء المماليك وسلاطينهم اجادةُ العربية الفصيحة عضدوا العامية باقبالهم على أدبائها واحسانهم إلى من ينظم بها ، فكان ذلك سبباً فى اتساع دائرة الزجل والمَوَاليا ومزاحمتهما للشعر الفصيح ، بل دوّنَ بها بعضُ العلماء ، وان لم يكن ذلك كثيراً ؛ فأصبحت بذلك لغةَ أدب وكتابة وقراءة ، ثم أخذت العناية بها فى الانحطاط أواخر هذا العصر حتى صارت أحطّ ما كانت عليه فى عصر من العصور وكادت تتساوى فيها لغة النساء ولغة الرجال

قال فى صبح الأعشى (الطبلخاناه) ومعناه بيت الطبل ، ويشتمل على الطبول والابواق وتوابعها من الآلات ، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف (بامير علم) يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة ، ويتولى أمرها فى السفر ولها (مهتار) متسلم لحواصلها يعرف (بمهتار الطبلخاناه) وله رجال تحت يديه ما بين (دبندار) وهو الذى يضرب على الطبل و (منفر) وهو الذى يضرب بالبوق (وكوسى) وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصناع اهـ . ومن ذلك أيضاً أون باشا وبيك باشا وبوز باشا وبرنجى وآخرنجى وقهوجى ونوبتجى وبلطجى وخستخانة وكتبخانة وأدب خانة

(١) هى آخر دولة عربية بالأندلس ويسمى سلاطينها بنى نصر

(٢) هى دولة بربرية من الدول المتفرعة من دولة الموحدين ، كانت تملك المغرب الاقصى

(٣) هى احدى الدول المتفرعة من دولة الموحدين ورثها الترك العثمانيون

الخطابة

لم تتغير الخطابة عما كانت عليه أواخرَ الدولة العباسية من حيث قَصْرها على خطَب الجمع والأعياد وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات إلاّ قليلاً من الخطب السياسية كان يعدها ملوك المغرب قبل القائها

وبقيت لغة الخَطابة العربيةَ وحدَها أو مع الترجمةِ إلى الأعجمية فى الممالك التى استعجم لسانها، لمكان العربية من الدين . ولم يبق من أمرها أواخرَ هذا العصر إلاّ ما كان يُقْرأ مكتوباً فى الكتب ، بل قلّ حفظها واستظهارها فى غير القاهرة ، وانتقل وعظها من حسن الذكرى فى أمر الدين والدنيا إلى التخويف من القبر ووحشته ووصف الجنة ونعيمها وجهنم وأهوالها

الكتابة

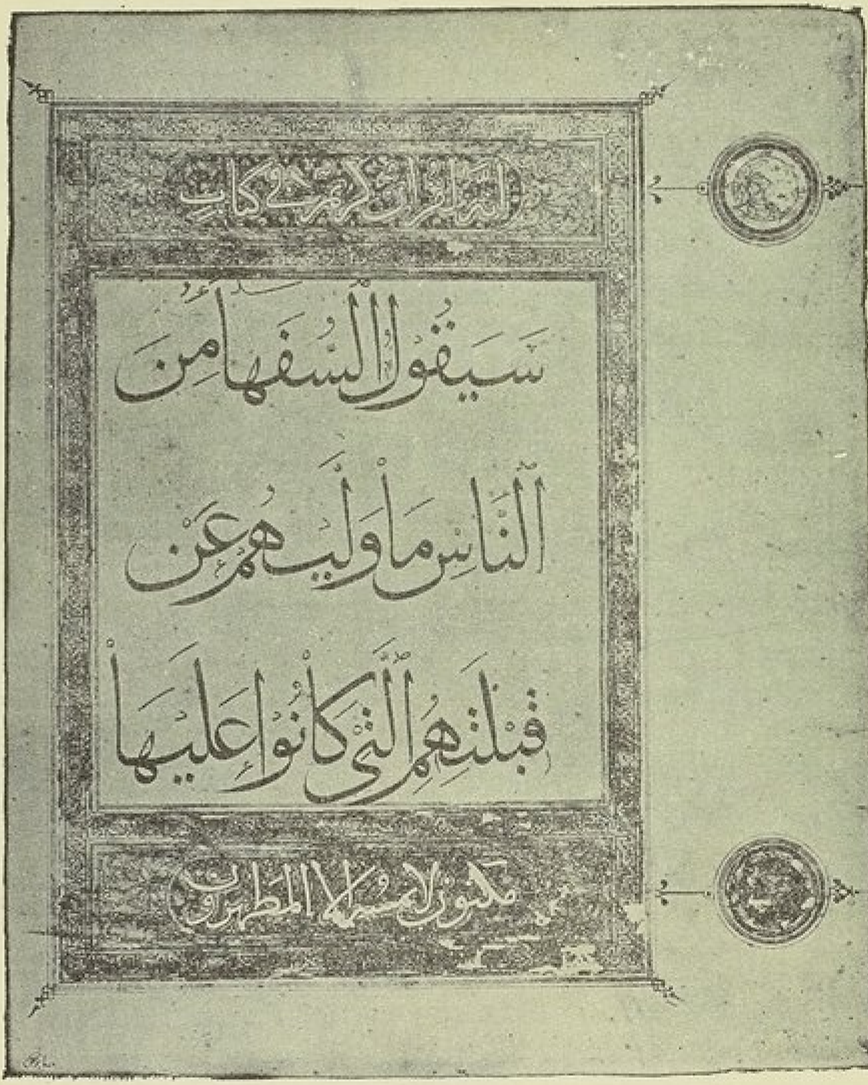
الكتابة الخطية

دَرَج الخط فى هذا العصر فى الطريق التى مهدها ابن مقلة وابن البوّاب وياقوت الملكى وياقوت المستعصمى ، واستعملت فيه أكثر أنواعه ، إلاّ أنه اشتهر من بينها تسعة أنواع :

(١) الجليل (على قاعدة الثلث المعروفة لنا) وتشاهد نماذجه المتعدّدة على جدران مساجد القاهرة ، ومدارسها وأربطتها ، وخرائب قصور أمرائها

(٢) قلم الطُّومار (على قاعدة الثلث أيضاً) وكانت تكتب به أسماء السلاطين وعلاماتهم على المنشورات والعهود ونحوها (راجع صبح الأعشى الجزء الثالث)

(٣) قلم الثلث ويشبه قلم الثلث عندنا ، ومنه الثلث المبسوط الحروف المسمى الآن بالريحانى كما فى هذا الشكل :



(٤) النسخ على قاعدته المعروفة إلاّ أن بعض حروفه معلّق الأطراف الى فوق ويقرب مما نسميه الآن خط التعليق – وكانت تكتب به كتب العلم والأدب

(٥) التعليق – وكان يطلق على الثلث الخفيف عندنا مع تعليق خراطيم الحروف الى أعلى

(٦) قلم الرقاع – وكان وسطاً بين النسخ والتوقيع ، وكانت تكتب به كتب العلم والأدب والرسائل

(٧) القلم المسلسل المشتبك الحروف – وكانت تكتب به عامة الرسائل المطوّلة والعقود وكتب الوقف ونحوها

(٨) الخط الفارسى – وكان استعماله عاماً فى أواسط آسيا وفارس

(٩) الخط الأندلسى – وكانت أنواعه لا تختلف إلاَّ بالصغر أو الكبر ، وربما مال الجليل منه الى بعض قواعد الثلث فى أواخر عصورهم كما يشاهد على جُدران الحمراء بغرناطة

وكان النقط والشكل فى هـذا العصر قليلَىْ الاستعمال فى الرسائل الديوانية والإخوانية كثيريهما فى كتب العلم

وما زال الخط يجرى فى مضماره حتى قبض على عنانه مُكتِبو الترك العثمانيين فحوّلوا بعض أنواعه وخاصةً قلم الرقاع (الرقعة) الى ما نعرفه ، وارتقوا بالمسلسل الى الغاية ، وولدوا منه خط العلامة السلطانية (الهمايونى) وأبدعوا فى بقية الأنواع بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق

ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الأماسى إمام الخطاطين العثمانيين وجلال الدين والحافظ عثمان

الحافظ عثمان

هو الحافظ عثمان بن على أحد نبغاء المجوّدِين من خطاطى الترك العثمانيين ، والبارعين فى كتابة مصاحف القرآن المبين

ولد رحمه الله بالآستانة ونشأ بها وتعلم بمدارسها ، وحفظ القرآن الكريم فلقب لذلك بالحافظ واتصل بالوزير مصطفى باشا الشهير بكبريلى زاده فأظله برعايته زمناً . وحبب اليه من صغره تجويد الخط فكان يختلف لذلك الى أشهر الخطاطين فى عصره كالأستاذ درويش على وغيره حتى حصل على اجازة تعليم الخط ، ولم تعدُ سنه ثمانى عشرة سنة ، ولم يكتف بفوقه قرناءه فى الاجادة حتى خطر له أن يصحح محاكاته لأسلوب الأستاذ المولى حمد الله الأماسى ، فانقطع الى من يجيد هذه الطريقة كالمولى

اسماعيل فأجادها ، وأصبح بذلك نابغة عصره وبذّ الخطاطين جميعاً حتى قال فيه اسماعيل افندى المعروف بأغاقبولى أحد الخطاطين المشهورين : اننا رغم تجويدنا هذه الصناعة لا نرى من يستحق لقب خطاط على الإطلاق غير مولانا عثمان . ولما ذاع صيته اختير معلم خط للسلطان مصطفى خان الثانى والسلطان احمد خان الثانى سنة ١١٠٦ﻫ فنال بذلك حظوة رفيعة ومنزلة سنية لم يقابلها بغير القناعة والزهد والتواضع والاخلاص لتعليم تلاميذه ولو على قارعة الطريق

وكان يخص يوم الأحد بتعليم الخط للفقراء مجاناً، ويوم الأربعاء لتعليم الأغنياء . وللحافظ عثمان جليل الفضل على الخط العربى بما كتبه من نسخ المصاحف التى بلغت خمسة وعشرين مصحفاً عدا مقداراً عظيماً جداً من الرقاع والألواح وأجزاء القرآن ودلائل الخيرات ، إذ قد نقل بعض هـذه بالتصوير الشمسى فذاع فى الأقطار الاسلامية وطبع منه مئات الألوف وحاكاه بها من لا يحصى من المعلمين والمكتبين

ومن هذه المصاحف مصحف حفظ بجامع أيا صوفيا وبخزانة جامع نور عثمانية . وبخزانة المرحوم المفضال نور الدين بك مصطفى (١) بشارع درب الجماميز بالقاهرة جملة رقاع من خطه

وأصيب رحمه الله فى آخر عمره بالفالج وشفى منه وعاد الى خدمة الصناعة ولكنه لم يطل عمره بعدُ أكثر من ثلاث سنوات فتوفى رحمه الله سنة ١١١٠ﻫ ودفن برباط (قوجه مصطفى باشا) بعد أن غبر نحو أربعين سنة يعلم الخط

الكتابة الإنشائية

كتابة الرسائل

اتَّبعت فى كتابة الرسائل فى أثناء هذا العصر طريقة القاضى الفاضل ، التى أساسها المعانى الخيالية والتزام السجع واطالة فقاره ولا سيما الأخيرة منهـا ، والاستعارة ، والطباق ، ومراعاة النظير ، والتوجيه ، والغلوُّ فى التورية والجناس . وعَضَدَ هذه

(١) وعنه نقل حضرة محمود افندى حمزة خلاصة هذه الترجمة منقولة عن التركية

الطريقة من كتاب هذا العصر شهابُ الدين محمودٌ الحلبي[١] ومُحيي الدين بن عبد الظاهر ، وابنُ فضل الله العُمَرى وأولاده . وبقيت هـذه الطريقة مرعيَّةً فى مصر والشام حتى نهايةِ دولةِ المماليك وصدر حكومة العثمانيين

ولما غلبت اللغة التركيةُ العثمانيةُ على كتابة الدواوين وأصبحت رسميةً فى الحواضر والأمصار ، أخذ شأن الكتابة العربية فى الاضمحلال ، وتناقصت الرغبةُ فى إحسان صِناعتها ، وقلّ النابغون فيها ، ولم يعُد فى إستطاعة الكاتب العربى إصابة وجوه البلاغة فضلاً عن إحسانه استعمال المحسّنات اللفظية . فأصبحت الكتابةُ بذلك مُجَرَّد فقَار من السجع المتكلف ، خاليةً من كل مزية إلاَّ المبالغة والتهويل

وأكثر ما كانت تستعمل فى الرسائل الإخوانية وما أشبهها ، بل عجز الكتَّاب فى أواخر هذا العصر أن يكتبوا لإخوانهم من إنشائهم فوُضِعت دواوينُ كتابيةٌ تشمل عدة صور من المكاتبات المعتادة ، يستعير منها المراسل صورة تناسب غرضه تارة وتارة لا تناسبه — أما كتابةُ من عاصَر المماليكَ من أهل الأندلس فكانت أمثل كتابة فى هذا العصر على ما فيها من التكلف أيضاً بحيث يمكن قياسها بكتابة المتأخرين من أهل العصر الماضى

الكتّاب

القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبد الله بن عبد الظاهر الجُذامى المصرى مؤيد الطريقة الفاضلية ، ورأس المترسلين فى دولة المماليك البحرية

وُلد سنة ٦٢٠ هـ ورباه والده تربية شريفة جمع بها بين علوم الفقهاء ، وبلاغة الأدباء، وظَرْف الشعراء ، فكان فى زمانه زعيم كل هؤلاء ، وبرع فى كتابة الرسائل سالكاً طريقة القاضى الفاضل ، وخدم فى ديوان الانشاء مدة الملك الظاهر بيبرس

(١) ولد بدمشق وتخرج على ابن مالك النحوى وعلماء الشام ثم انتقل الى مصر وأقام بها مدة يتقلب فى مناصبها ثم جهز الى دمشق رئيساً لديوان إنشائها الى أن توفى سنة ٧٥٥ هـ

البندقداری[١] وولديه و بعض أيام المنصور قلاوون[٢] و يعتبر محيي الدين وابنه محمد فتح الدين من واضعى اصطلاح الانشاء ونظام ديوانه الذى بقى مرعياً فى مصر والشام حتى نسخه النظام التركى العثمانى ، وتوفى سنة ٦٩٢ هـ وله تآليف ورسائل ومكاتبات سلطانية كثيرة وشعر رائق

ومن فصوله فصل من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يردُّ على صاحب اليمن فى تعزيته على موت ابنه ، و يظهر التجلد على فقده

« ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ ، لا نأسف معه على فائت ولا نأسى على مفقود ، واذا علم الله (سبحانه) حسن الاستنابة الى قضائه ، والاستكانة الى عطائه ، عوَّض كل يوم ما يقولُ المبشر به هذا مولى مولود . وليست الإبل بأغلظَ أكباداً ممن له قلبٌ لا يُبالى بالصدَمات كثُرَتْ أو قلَّتْ ، ولا بالتباريح حَقُرَتْ أو جلَّتْ ، ولا بالأزَمات إن هى توالت أو تولّتْ ، ولا بالجفون إن ألْقَتْ ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت . ويخاف من الدهر من لا حلَبَ أشطُره ، و يأسفُ على الفائت من لا بات بنبأ الخطوب الخطرة . على أنَّ الفادح بموت الملك الصالح (رضى الله عنه) وان كان مُنكيًا[٣] ، والنافح بشجوه وان كان مُبكيًا ، والنافحَ بذلك الأسف وإن كان لنار الأسف مذ كيًا ، فان وراء ذلك من تثبيت الله عز وجل ما ينسفه نسْفًا ، ومن إلهامه الصبرَ ما يُجددُ لتمزيق القلوب أحقَّ ما به تُرفى ، و بكتاب الله (تعالى) وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) عندنا حسنُ اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحًا »

شهاب الدين بن فضل الله العمرى

هو الشاعر الكاتب المصنف القاضى أبو العبـاس شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيي بن فضل الله العمرى ، سليل عمر بن الخطاب وصاحب كتاب مسالك الأبصار

---

(١) هو أشهر سلاطين المماليك البحرية توفى سنة ٦٧٦ هـ أما ولداه فهما الملك السعيد محمد بركة ، تولى الملك سنتين وشهراً وخلع ، والملك العادل سلامش ملك خمسة أشهر وخلعه الامير قلاوون وتولى بدله (٢) هو الملك المنصور قلاوون الصالحى النجمى من أعظم ملوك المماليك توفى سنة ٦٨٩ هـ (٣) الصواب نا كيًا . وهى لجنة كانت شائعه فى كتابة ذلك العصر

ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ هـ وتفقه وتأدب على أبيه وغيره من أئمة وقته فخرج واحد زمانه علماً وأدباً وترسُّلاً وتصنيفاً وشعراً : ولم يكن بين عصره وعصر القاضى الفاضل من يدانيه فى شىء من ذلك على كثرة النابغين فيهما ، وكان أعلمَ أهل القطرين بتاريخ الملوك وطبقات العلماء والأدباء ، وعلم وصف الأرض وأحوال الممالك النائية : كالهند والصين والترك وغيرها ، فوق الفقه الذى نال فيه مرتبة الافتاء ، وكان أبوه وعمه يتناوبان كتابة السر فى مصر والشام لسلاطين آل قلاوون ونوابهم ، وخلفهما فى ذلك شهاب الدين وأخوه وأولادهما فى مناصب رياسة دواوين الانشاء وكتابة السر وغيرهما لآل قلاوون وآل برقوق . وتوفى ابن فضل الله سنة ٧٤٩هـ

ومن إنشائه فى وصف قطِّ زَبَاد من رسالة طويلة : وقط الزّباد الذى لا تحكيه الأسود فى صُوَرها ، ولا تسمح غِزلانُ المسك بما يخزُنه من عرفه الطيّب فى سُررها كم تنقل فى بيوت طابت موطناً ، ومشى من دار أصحابه فقالوا (ربنا عَجّل لنا قِطَّنا)

ومن فصول رسائله فصل كتبه من رسالة على لسان سلطانه الى نائب الشام مع طيور صيد جوَارح أرسلها اليه .

صدرت هذه المكاتبة الى الجناب العالى بسلامٍ جميل الافتتاح ، وثناء يطير اليه وكيف لا تطير قادمةٌ بجناح ، ونعلمهُ أن مكاتبته المتقدمة الورود تضمنت التذكار من الجوارح بما بقى من رسمه ، وجرت عادة صدقتنا الشريفة أن تُحْسَب فى قَسْمه، وقد جهزنا له الآن منها ثلاثة طيور لا يبعد عليها مَطَار ، ولا يُوقد للقرى فى غير حماليقها جذوةُ نار ، ولا تؤمُّ طيراً إلاَّ وترشُّ الأرض بدمه فلا يلحق لها بغبار . وهى طائر كمْ لهامن فتكٍ أخذ الطير من مأمنه ، وسلب ما تحلى به من رياش الريش ثم تزيّا بأحسنه»

ومن تآليفه كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » فى بضع وعشرين مجلدة ولا يعلم قبله كتاب وسع من علوم التاريخ ووصف الأرض والفَلَك والأدب ما وسعه ، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف فى فن إنشاء الدواوين وكتاب « فواضل السَّمر فى فضائل آل عمر »

لسان الدين بن الخطيب

هو ذو الوزارتين ، الكاتب الشاعر ، الفقيه ، المصنف ، الحكيم المتطبب ، أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله المعروف بابن الخطيب

ولد سنة ٧١٣ ﻫ بمدينة غَرناطة من بيت عربى عريق فى العلم والأدب والخطابة والرياضة وقيادة الجند ، وقرأ وتأدّب وتفقه على مَشْيَختها . واجتمع له من الحكمة والأدب ملكة بذّ بها أُدباء الأندلس كتابةً وشعراً وتصنيفاً وسياسة

واشتهر بادئ أمره بنظم الشعر فأنشأ القصائد البليغة ، وأشاد بمدح السلطان أبى الحجاج يوسف أحد ملوك بنى الأحمر فجعله فى عداد كُتابه ، ثم اجتباه وأضاف اليه الوزارة وفوض اليه جميع شؤون المملكة . وما برح على هذه الحظوة حتى مات سلطانه وتولى ابنه مكانه فأقره على الوزارة ، ثم وشى بِهِ حساده من الفقهاء والكتاب عند السلطان ، وكادوا له المكايد ، واتهموه بالإلحاد فى الدين حتى أحفظوه عليه . فلما أحسّ تنكره له فر الى المغرب الأقصى . فأكرمهُ سلطانه ثم ابنه من بعده الى أن سار عليه ثائر وساعد ملكُ بنى الأحمر هذا الثائرَ بشرط أن يسلمه ابن الخطيب فتم له أمره وسُجِن بفاس وخُنِق فى سجنه ثم دفن من الغد بها سنة ٧٧٦ ﻫ

وكان ابن الخطيب خاتمة بلغاء الأندلس وآخر الرؤساء الأعيان من كتاب الرسائل والتأليف . وكان فى عُدوة الأندلس يضارع ابن خلدون فى عدوة أفريقية : فقهاً ولغة وأدباً وتاريخاً وشعراً ؛ غير أن ابن خلدون كان قليل الحفل بالسجع والزخرف ، وكان بابن الخطيب لُوثة منهما

وكانت عبارة رسائله مشوبةً بصبغة يسيرة من أسلوب الفقهاء ورسوم العلماء ، وتُشْفع غالباً بشىء من شعره : إما متخللاً لها و إما متقدّماً صدرها . وقلّما صدرت عنه رسالة موجزة ، شأن أكثر كتاب الأندلس

ومن قصار رسائله رسالة فى الشوق كتبها الى ابن خلدون وهى بعد الديباجة

(أما الشوق فحدّثْ عن البحر ولا حرج ، وأما الصبرُ فَسَلْ به أيّةَ درج ، بعد أن

تجاوز اللِّوى والمُنعرَج ؛ لكن الشدة تعشَق الفرَج ، والمؤمن ينشَق من رَوْح الله الأرَج . وأنّى بالصبر ، على إبَر الدَّبْر ، ومطاولة اليوم والشهر ، وهل للعين أن تسلو سلوّ المقْصِر ، عن إنسانها المبْصِر ، أو تذهَل ذهولَ الزاهد ، عن سرّها الرائى والمُشاهد ، وفى الجسد مُضغةٌ يصلُح إذا صلَحت ، فكيف حالُه ان رحلت عنهُ ونزحت . واذا كان الفراقُ هو الحِمامَ الأوّلَ ، فعلامَ المعُوَّل ؟ أعيتْ مُراوضة الفراق ، على الراق ، وكادتْ لوعةُ الاشتياق ، أن تُفضىَ الى السِّياق :

تركتمونى بعد تشييعكم أُوسع أمرَ الصبر عِصيانا
أقرَعُ سنى نَدَمًا تارةً وأستميحُ الدمعَ أحيـانا

التدوين

ألَّف علماء هــذا العصر تآليفَ جمَّة أخلفت على العربية بعضَ ما أباده التتار والصليبيون : من الكتب النفيسة ، ويرجعُ أكثر الفضل فى ذلك الى علماء مصر والشام وجالية الأندلس اليهما . أما أعاجم المشرق فهم وان ألَّفوا فى العلوم الاسلامية والفلسفية كان تأثير بيئتهم الأعجمية جاعلاً كتبهم على شرف موضوعها وجلال مباحثها صعبةَ التناول ، ضعيفةَ الأثر فى تقدّم اللسان العربى

ونذكر هنا لُمعًا يسيرةً من أحوال العلوم العربية ومؤلفيها فى هذا العصر

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكُتَّاب السبقُ فى وضع الكتب الجامعة التى تبحث فى عدة علوم أدبية أو ملحقةٍ بها . ومن هؤلاء :

شِهاب الدين النُّوَيْرى[١] صاحبُ نهاية الأرب[٢] وابنُ فضــل الله العُمَرى صاحب مسالك الأبصار ، وشهاب الدين القَلْقَشَنْدِى صاحب صُبح الأعشى[٣]

---

(١) هو شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب بن احمد البكرى النويرى المؤرخ الاديب، نسب الى نويرة احدى قرى مديرية بنى سويف توفى سنة ٧٣٣هـ (٢) باشرت دار الكتب المصرية طبعه وانجزت منه بضعة أجزاء (٣) هو شهاب الدين احمد بن على بن احمد القاقشندى نزيل القاهرة ، تفقه ومهر وعانى الأدب وكتب فى الانشاء ، وكتابه صبح الاعشى فى صناعة الانشاء أحسن

وممن ألَّفَ فى الأدب بمناحٍ مختلفة :

جمالُ الدين الوطواط صاحب الغُرر والعُرر ، وشهاب الدين الحلبى صاحب منازل الأحباب ، وحسن التوسل الى صناعة الترسل ، وشهاب الدين أحمد الأبشيهى صاحب المستطرف ، والنواجى [١] صاحب حلبة الكميت

بقية العلوم الاسلامية

لم تكن مصر ولا الشام فى العصور الأولى مَيدانًا لتسابق جِياد علماء اللغة كما كان العِراقان والأندلسُ

ولما أباد التتارُ بقيةَ العلماء والنحاة فى الشرق ، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفَر من النحاة وأهل اللغة لولا أنْ تداركها الله بدخول التتار فى الاسلام ومعاضدتهم هم والدول التى خلفتهم للعلم والعلماء ، وبجَلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبيل حادث التتار وبعده كابن مالك [٢] والشاطبى [٣] وأبى حيان [٤] وابن منظور الأفريقى ، فجدّدوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أفاضل كانوا كواكب العصور المتأخرة ، فدوّنوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشئوا فى العصور المظلمة

على أن أكثر هؤلاء العلماء المتأخرين لم يكونوا منقطعين للعربيـة وحدها بل كان لهم تخرجٌ فى كثير من العلوم ولا سيما الشرعية التى كانت الرغبة فيها حينئذٍ

ما كتب فى تاريخ الانشاء طبع فى مصر فى ١٤ مجلدة ، وتوفى سنة ٨٢١ هـ و (قلقشندة احدى قرى مديرية القليوبية)

(١) هو شمس الدين محمد بن حسن بن على فاق أهل عصره فى الادب وألف كتبا كثيرة فيه توفى سنة ٨٥٩ هـ و (نواج) احدى قرى مديرية الغربية (٢) هو العلامة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائى الجيانى ، نزيل دمشق الشام ، امام النحاة ، ومجدد النحو فى المشرق ، وحافظ اللغة وصاحب الالفية والتسهيل توفى سنة ٦٧٢ هـ و (جيان) بفتح الجيم وتشديد الياء مدينة من مدن الاندلس شرق قرطبة (٣) هو الشاطبى النحوى محمد بن على بن يونس الاندلسى البلنسى تصدر بالقاهرة فى اللغة والنحو وروى عنه أبو حيان وتوفى سنة ٦٨٤ هـ

(٤) هو الامام أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطى نحوى عصره ولغويه ومقرئه توفى سنة ٧٤٥ هـ

تفوق كلّ رغبة . ولم يعنَ فى مصر والشام والغرْبِ بنوع من العلوم الكونية إلاّ بالرياضة العملية من الهندسة والحساب والميقات . وهُجِرت العلوم الفلسفية والمنطق ، بل حكم بعضُهم بكفر منتحلها ، و بقى كثيرٌ من علماء المشرق من الفرس والأفغان والهنود يزاولها الى وقتنا هذا من غير تأثير لهم فى ترقية شأنها عما كانت عليه

كتابة التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت فى المتون ونحوها موجزة جداً ، جارية على أسلوب الأقيسة المنطقية . وكانت فى الشروح والمطوّلات مبسوطةً ، كثيرة النقْل عن الأئمة ، غزيرة الاستدلال بالبراهين والأدلة العقلية والنقلية ، وكان للشافعية فى الإيجاز وتنقيح التحرير الباع الأطول . وبقيت هذه الحال حتى أوائل الحكم العثمانى . ثم اخترع تأليف الحواشى والتقريرات والرسائل الخاصة بشرح قاعدة أو جملة أو قصيدة . وضعُفت عبارتُها وازدادت تعقيداً وغموضاً حتى أصبح ذلك مما يتنافس فيه ، و يظن فى صاحبه العلم والدقة

ومن أشهر المؤلفين فى هذا العصر ابن خلكان — وابن خلدون — والسيوطى وابن مُكرَّم — والفيروز ابادى — وعز الدين بن عبد السلام (١) — وابن حجر العسقلانى (٢) وابن هشام النحوى (٣) — ولسان الدين بن الخطيب — وسعد الدين التفتازانى (٤) — والسيد الجرجانى (٥) — والشهاب الخفاجى

---

(١) هو الفقيه المجتهد الشافعى علامة الزمان عز الدين . نشأ فى الشام وتعلم بها وتصدر وقدم مصر فاقام بها اكثر من ٢٠ سنة وتوفى سنة ٦٦٠ هـ (٢) هو امام الحفاظ فى زمانه قاضى القضاة أبو الفضل احمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى ثم المصرى صاحب شرح البخارى والاصابة فى تمييز الصحابة وغيرهما من نفائس الكتب توفى سنة ٨٥٢ هـ (٣) هو امام النحويين ، وفخر المصريين ، عبد الله بن يوسف بن احمد بن عبد الله بن هشام الانصارى صاحب مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب ، ولد سنة ٧٠٨ هـ وتوفى سنة ٧٦١ هـ ودفن بجوار باب النصر ولايزال قبره معروفا (٤) هو سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله العلامة فى النحو والتصريف والبلاغة والتوحيد والفلسفة والفقه والاصول ، انتهت اليه معرفة العلوم بالمشرق توفى بسمرقند سنة ٧٩١ هـ (٥) هو علامة المشرق السيد الشريف على بن محمد بن على الحنفى الجرجانى ، كان نظير سعد الدين فى اكثر العلوم ويزيد عليه فى فصاحة المنطق ، وجرت مناظرات بينهما فى مجلس الطاغية تيمورلنك وتوفى بشيراز سنة ٨١٦ هـ

ابن خِلِّكان

هو قاضى القضاة شمسُ الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر خِلِّكان الإربلى

وُلد سنة ٦٠٠ هـ بمدينة إرْبِل[1] من بيت كبير عريق فى الفضل ، وتوفى والده وهو ابن سنتين . فنشأ بإربل وأقام بها الى سنة ٦٢١هـ فرحل الى حَلَب ومكث بها سنين ثم الى دمشق وأقام بها مدة ، ثم أقام بمصر وتولى القضاء بها ، وفيها ألف أكثر تاريخه العظيم (وفَيَات الأعيان) ثم تقلبت به الأحوال بين مصر والشام الى أن مات بدمشق سنة ٦٨١هـ

وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، حسَن المحاضرة لطيف المعاشرة ، واسع الاطلاع شديد التحرى والضبط

تاريخه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) أفضل ما بأيدى الناس من كتب التراجم لشدة عنايته بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبُلدان ، وتحقيق الحوادث بحسب الامكان ؛ هذا فوقَ مزيته الكبرى : وهى بناؤه على تعيين الوفيات ، وتنزهه عن رواية أقوال الفحش والخنَا ، وان كان يؤخذ عليه روايته لكثير من الأخبار التى لا تخلو من مبالغة أو وضعها على علاتها متوخياً فى ذلك أمانة النقل . وقد اشتمل هذا التاريخ على ٨٤٦ ترجمة . ثم تمم عليه محمد بن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤هـ بكتابه الذى سماه فوات الوفيات ولكنه لم يدرك شأو سابقه لا فى الضبط ولا فى ذكر تاريخ الوفيات

ابن خلدون

هو حكيم المؤرخين ، وعلَم المحققين الفقيهُ القاضى الكاتب الشاعر المصنف عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون

وكان بيت خلدون هذا من أشرف بيوتات الشرف والرياسة وقيادة الجند

(١) بلدة قرب الموصل

بأشْبيلِيَةَ من قديم الزمان ولم ينقطع منهم الى خدمة العلم والأدب غير المترجم وأبيه وكان أهله قد انتقلوا الى تونس عند تغلب الأسبان على أشبيلية . ويتصل نسبهم بوائل بن حُجْر من أقيال اليمن من حَضْرَمَوْتَ

وُلد ابن خلدون بتونس سنة ٧٣٢ هجرية فحفظ القرآن الكريم وقرأه بالسبع وتلقى العلمَ والأدب من أبيه ومن كبار العلماء ، وقرأ العلوم العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب

ولم يزل مُكِباً على تحصيل العلم حتى دهم أفريقية طاعونٌ جارف مات فيه أبواه واكثر ذوى قرابته وشيوخه فاحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يَطُرَّ شارِبُه ؛ فكتب لبعض ملوك الدولة الحفصية بتونس ودولة بنى مَرِين بفاس ، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بنى الأحمر بالأندلس فحظى عندهم حتى حسده على ذلك صديقه لسان الدين بن الخطيب فأقلع عنها ، وذهب الى صاحب بِجايةَ بالمغرب الأوسط فوَزَرَ له ، وبقى يتردّد بين المغرب الأوسط والأقصى وأفريقية والأندلس حتى حسن فى عينه التخلى عن السياسة والانقطاع الى العلم فنزل على بعض قبائل العرب على حدود الصحراء أربعة أعوام ألف فيها تاريخه ومقدّمته التى لم ينسج أحد من المتقدمين ولا المتأخرين على منوالها ، ثم عزم على الحج فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ زمن سلطانها برقوق[١] . ثم استقدم أهله وولده من المغرب فغرقت بهم السفينة فأقام بمصر حزيناً وجلس للتدريس بالجامع الأزهر وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٧ هـ وأظهر العدل فى أحكامه ، واستقال من القضاء ثم عاد اليه ، وخرج مع كثير من علماء مصر فى جيش السلطان فرج[٢] بن برقوق لمدافعة تيمورلنك[٣] عن الشام

(١) هو الملك الظاهر سيف الدين برقوق بن انص الجركسى أول ملوك الجراكسة وسمى برقوق لجحوظ عينيه ، حكم مصر والشام ثم خلع ثم حكم ثانية وبقى سلطانا حتى توفى سنة ٨٠١ هـ

(٢) هو الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق حكم ثم خلع ثم حكم ثم قتل سنة ٨١٥ هـ

(٣) هو الطاغية الجبار تيمورلنك من سلالة جنكيزخان من جهة النساء ملك أواسط آسيا وأعلى الهند وفارس وكاد يقضى على الدولة العثمانية فى بدء نشأتها مع اسلامه والمامه بكثير من العلوم توفى سنة ٨٠٧ هـ ودفن بسمرقند

فوقع مع كثير من العلماء فى أسر تيمور فأدخل عليهِ فخلبه بسحر بيانه فأ كرمه وسرَّحه الى مصر ليأتى له بتاريخه ومقدمته فذهب ولم يعد اليهِ ، و بقى بمصر يشتغل بالتدريس تارة والقضاء أخرى حتى مات وهو قاضى المالكية بمصر للمرة السادسة[1] سنة ٨٠٨ هـ

منزلته فى الكتابة والتاريخ والشعر

أحيا ابن خلدون فى عصره الكتابة المرسلة الفطرية الخالية من السجع وتكلف البديع فى عصر بلغ فيه غايته ، والى ذلك عمد فى كثير من فصول مقدمة تاريخه فجاء بعض كتابته فيها بمنزلة من البلاغة لا تقل عن كتابة فحول القرن الثالث . ولم يكن الانتفاع بالمقدمة وكتابته فى وقت أظهر مما كان فى أوائل العصر الحاضر ، إذ كانت هى الأسلوب الأمثل لكتاب الصحف والمجلات فى بدء نهضتنا الأخيرة

وكان ابن خلدون إماماً حكيماً فى التاريخ أ كثر مما كان إماماً فى الكتابة فانه يعتبر من أ كبر واضعى علمى العمران والاجتماع بما خطه فى مقدّمته .

ولم تعد أحكامه فى سياسة الممالك الاستبدادية التى ذ كرها فى مقدمته مطردة فى عصرنا هذا ؛ إذ أصبحت طريقة الحكم بممالك عصرنا دستورية ، إلى أن معدات الحروب وظواهر المدنية الحاضرة تختلف كثيراً عن حالتها السابقة

و يؤخذ على ابن خلدون فى مقدمته إنحاؤه على العرب وقسوته فى الحكم عليهم فى كثير من سياسة الملك

ويمتاز تاريخه بأنهُ التاريخ الوحيد الذى فصل الكلام على دول المغرب من البربر وغيرهم

وكان ابن خلدون شاعراً ، طويل النفس ، وشعره بالإضافة الى شعر عصره غاية فى الجودة و إن وصفه هو بأنه متوسط بين الجودة والقصور تواضعاً منه

---

(١) كذا فى حسن المحاضرة للسيوطى

جلال الدّين السيوطى

هو عبد الرحمن جلال الدين ابن الامام كمال الدين الخُضَيْرى السيوطى العالمُ المحدّث المفسر المتفنن الجامع المختصر ، صاحب التصانيف المشهورة ، ورسائل العلم المأثورة

ولد سنة ٨٤٩هـ ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان ، ثم حفظ متونَ الفقه والنحو ، وأخذ العلمَ عن مشايخ وقته وابتدأ فى التصنيف وسنه ١٧ سنة . ثم لازم الأشياخَ وطابَ العلم فى بقاع الأرض فدخل الشامَ والحجازَ واليمنَ والهندَ والمغْربَ والتكْرُور[1] ونبغ فى كثير من العلوم ، ورزق التبحُّر فى التفسير والحديث والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع

وتولى التدريس والافتاء ولم يكن أشهرُ منه فى زمنه . ويُعدُّ السيوطى من الأئمة الذين حفظوا العلمَ للخلف وسهّلوا سُبُلهُ للمتأخرين ، وقد ترك للناس أكثرَ من ثلثمائة مُصَنَّف ، ولو لم يكن له إلاّ الإتقان فى علوم القرآن ، والمزهر فى أصول اللغة ، والأشباه والنظائر فى دقائق النحو وأصوله ، والهَمْع على الجمع فى فروع النحو وأصوله والصرف ، لكفاه ذلك فخراً

وتوفى سنة ٩١١ هجرية ودفن بالمقبرة المنسوبة اليه شرقى القاهرة الجنوبى

الشعـــــر[2]

لما كان أكثرُ سلاطين الإسلام وملوكهِ وأمرائهِ فى هذا العصر بالمشرق والشام ومصر أعاجمَ بالفطرة ، كان ميلُهم الى الشعر العربى غيرَ طبْعىٍّ ، وعطفُهم على فحول الشعراء البلغاء ضعيفاً ، ولذلك انقرض الشعرُ العربىّ من أواسط آسيا وبقيت صُبابةُ

---

(١) هى جزء من السودان الغربى يقابل بلاد مراكش جنوبا والسنغال شرقاً وهى المسماة عند الاوربيين باعالى (النيجر) وكان من أعظم بلاده مدينة (تنبكتو) بضم فسكون مكررين ثلاثا ومدينة (مالى) وهى من البلاد التابعة لفرنسا الآن (٢) يجدر بمن يريد التوسع فى معرفة أحوال الشعر غرضا ولفظا ومعنى فى هذا العصر أن يقرأ على الأقل شرح بديعية ابن حجة المسماة بخزانة الأدب

منه بالعراق والجزيرة ، وبقى على شىء من الرونق فى الشام ومصر والأندلس والمغرب غير أنهُ قلّ التكسُّبُ به فيها ، فمال أكثر الشعراء الى انتحال الكتابة فى الدواوين صناعة ، واستعملوا الشعر فى تملُّق الملوك والرؤساء وفى إظهار التفصُّح والتسلية. فهُجِر قولُه فى الأغراض الهامّة ، وعُدِلَ به إلى أغراض غير فطرية إما مقبولة فى الجملة كمدح النبى صلى الله عليه وسلم[١] والشكوى اليه[٢] أو مدح بعض الأولياء[٣] أو اللَّهَجِ بأحوال التصوف والزهادة ونحو ذلك . وإما تافهة كالأغراض الآتية :

(١) الغزل غير الحقيقى وبخاصّة المذكر ، وزاده مَقتاً وَسَماجة صدوره عن كبار العلماء ومشايخ الصوفية

(٢) إظهار البراعة بنظم مقطَّعات تتضمن غَزَلاً أو وقائع خيالية لمجرد العثور على لفظ تصح فيه توريةٌ[٤] أو يلتئم معهُ جِناس[٥]

(٣) ازدياد المَجَانة والخَلاَعة والهجاء المُقذِع

(٤) وصف كثير من الأشياء والآلات التى لا يُؤْبَه لها كالناعورة[٦] والمخدة[٧]

---

(١) كما فى البردة والهمزية وبديعيات ابن حجة وصفى الدين وعز الدين وديوان البرعى وغير ذلك (٢) وغلب ذلك فى الاندلس عند مضايقة الاسبانيين لهم

(٣) ويكثر ذلك فى دواوين المتصوفين والقصاص وكتب مناقب الاولياء وطبقاتهم

(٤) كقول السراج الوراق

وأحق أضافنا بقتله لنسبة بينهما ووصله
فمن أقل أدباً من سفله قد مد فى وجه الضيوف رجله

(٥) كقول الصلاح الصفدى :

يا من اذا ما أتاه أهل المودة أولم
انا محبك حقاً ان كنت فى القوم أولم

(٦) كقول ابن الوردى :

ناعورة مذعورة ولهانة وحائره
الماء فوق كتفها وهى عليه دائره

(٧) كقول النواجى :

فىّ نفع ولذة للنفوس وحياة وراحة للجليس
كم نديم ارحته باتكاء وتواضعت عند رفع الرءوس

والبساط[١] ورقمة المصلى[٢] وكالمروحة والسكين والدواة والسراج والمِبْخرة

(٥) الألغاز والأحاجى[٣]

أما معانيه فقلَّ فيها الاختراع ودقة التصوير ، وضرب الأمثال وإبراز الحكمة ، وان كثر تنوع التشبيه وتخيل الاستعارة

وأما ألفاظه وأسلوبه فشاع فيها ما يأتى :

(١) الاقتصارُ على الألفاظ السهلة ، وهجرُ الغريب بل اللفظ الجَزْل حتى استعملوا الألفاظ العامية[٤] أو التركية الفاشية فى ذلك الزمان

(٢) الاقتصارُ على التراكيب السهلة ، واستعمال كثير من الأمثال العامية[٥]

(٣) تكلف البديع ولا سيما التورية والجناس ، ثم قلّ ذلك فى أواخر هذا العصر : لضعف الشعراء عن استخراجه والترفق فى استعماله

(٤) إظهار الحِذْق بالاستكثار من الألفاظ المصغَّرة[٦] أو المهملة أو المعجمة[٧]

---

(١) كقول ابن نباتة :

بساط يملأ الاحداق حسنا ... ويهدى للقلوب بها سرورا
ويشرح حين يبسط كل صدر ... وخير البسط ما يرضى الصدورا

(٢) كقول ابن الوردى :

سجــادة أذكرتنى ... منك الذى كنت اعلم
أهديتهـــا لمحب ... صلى عليها وسلم

(٣) كقول النابلسى فى سراج :

ما اسم تراه فى النها ... ر كاسداً اذ لا احتياج
وان طرحت الربع منــــه فى الدجى تلقاه راج

(٤) كقول أبى المواهب البكرى :

ان فى الشاروخ معنى ... لذوى الألباب عبره
ان تعالى فهو فرد ... أو تدلى فهو كثره

(٥) كقول بدر الدين الأزهرى :

لقد عثرت بجنح الليل رجلى ... على شخص ولم يك فى حسابى
فقال مجاوباً لى : أنت أعمى ؟ ... فقلت : نعم ودواس الكلاب

(٦) كقول ابن حجة :

لحيظك والمقيلة مع نظيمى ... سحير فى سحير فى سحير

(٧) كقول الحلى :

غنّ يضن بنض نق ... فيقضى بغبنى فى بغيق

وقوله : كم ساهر حرم لمس الوساد ... وما أراه سؤله والمراد

جملة أو بصورة خاصة[١] ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو ما لا يستحيل بالانعكاس[٢] ، أو التاريخ الشعرى[٣] ، ولا سيما آخر هذا العصر الذى بلغ فيه التاريخ الشعرى غايته

(٥) كثرة تضمين[٤] الشعر المشهور ، وكذلك التشطير والتخميس

(٦) كثرة الاقتباس[٥] من القرآن الكريم والحديث ، وقلما يكون بغير تورية

أما أوزان الشعر فلم يحْدُث فيها فى هذا العصر أوزان جديدة ، و إنما شاع فيه استعمال الأوزان المولدة ونظم كثير من الموشّحات الفصيحة والعامية وكثير جداً من المواليا[٦] والزجل[٧] والقومة[٨] وكان وكان[٩] ونحوها ، وأعجب ذلك ملوك

---

(١) كقول ابن حجة فى المعجم من أعلى فقط :

وقد أمنت وزال الخوف منحدفا نحو العدو ولم أخفر ولم أضم

(٢) كقول عز الدين الموصلى :

لم يستحل بانعكاس فى سجيته (مدن اخا طعم معط اخا ندم)

(٣) كقول الحاتى المصرى : مفتى البرايا بنى لله مدرسة لها من الانس أنوار تغشيها
على الهدى أسست واليمن أرخها دار العلوم فيحيا العدل منشيها

(٤) كقول الصفدى : ملكت كتابا أخلق الدهر رسمه وما أحد فى دهره بمخلد
اذ عاينت كتبى الجديدة جلده (يقولون لا تهلك أسى وتجلد)

(٥) كقول جمال الدين بن نباته :

الله سخر لى (وعائلتى) من حف بى الاكرام والكرما
حتى تلوت قبل رؤيتهم (ياليت قومى يعلمون بما)

وكقول صفى الدين العزى : رب ثقيل أمام قوم يؤم بالناس ثم يجحف
خالف فى الفعل قول طه « من أم بالناس فليخفف »

(٦) تقدم الكلام فى المواليا ومن أمثلته فى هذا العصر قول بعضهم فى التوجيه بالازهار وغيرها :

لك خد يا حى عالم يا كميت الطرد عليه لو نفس صباره وحر وبرد
ناداه والعارض النمام حوله فرد ما فاتك الحسن ساعة ياشقيق الورد

(٧) لاحد لاوزانه وانما أشهرها (مستفعلن فعلن فعلن) أربع مرات لكل دور ، وربما قالوا فعلان بدل (فعلن) الاخيرة كقول بعضهم :

من الكرك جانا الناصر وجب معه أسد الغابه
وركبتك يا شيخ هنطش ما كانت الا كدابه

(٨) نوع من الزجل كان يوقظ به الناس للسحور فى رمضان ووزنه (مستفعلن فعلان) أربع مرات لكل دور كقول بعضهم : ياسيد السادات لك فى الكرم عادات
انا بن ابو نقطه تعيش أبويا مات

(٩) نوع من الزجل ودوره مركب من أربعة شطور : الاول وزنه (مستفعلن فاعلاتن)

مصر ولا سيما بنى قلاوون[١] وبرقوق فأثابوا الزجالين وقربوهم ، وراج الزجل فى أيامهم حتى كاد ينسخ الشعر الفصيح . ومن أشهر هؤلاء الزجالين شيخهم الشيخ خلَف الغبارى زجال آل قلاوون الذى استخدم الزجل فى كل أغراض الشعر

الشعراء

ظهر فى هذا العصر شعراء كثيرون ، من أشهرهم :

(١) شيخ شيوخ حماة شرف الدين الأنصارى المتوفى سنة ٦٦٢ هـ (٢) جمال الدين بن نباته المصرى وسنترجم له (٣) شهاب الدين التَّلَعْفَرِى المتوفى سنة ٦٧٥ هـ (٤) الشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٧ هـ (٥) الامام البوصيرى وسنترجم له (٦) ابن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ (٧) أبو بكر بن حجة المتوفى سنة ٨٣٧ هـ (٨) صفى الدين الحلى وسنترجم له (٩) فخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٨٦٤ هـ (١٠) ابن معتوق الموسوى وسنترجم له

١ — البوصيرى

هو الكاتب الشاعرُ المتصوِّف ، شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصِّنهاجي[٢] البوصيرى صاحب البردة والهمزية

كان أحد أبويه من بوصير والآخر من دلاص . وُلد بدلاص[٣] سنة ٦٠٨ هـ ونشأ ببُوصِير[٤] ثم انتقل الى القاهرة ، وتعلم علوم العربيـة والأدب فقال الشعر البليغ فى جِدِّه وهزله ، ونظم من جَزْله ومرْذوله ، وفصيحه وعاميه ، وكتب الرسائل

والثانى (مستفعلن مستفعلن) أو (مستفعلن مستفعلان) والثالث مثل الاول والرابع (مستفعلن فعلان كقول بعضهم :

تحضر ولكن قلبك غايب وذهنك مشتغل
فكيف يا متخلف تحسب من الحضار

(١) هم أولاد الملك المنصور قلاوون الصالحى النجمى سابع سلاطين المماليك البحرية وأشهرهم الملك الناصر محمد بن قلاوون

(٢) صنهاجة احدى قبائل البربر وأصل وطنها الصحراء جنوبى المغرب الاقصى (٣) قرية من قرى مديرية بنى سويف (٤) هى بوصير قوريدس من قرى بنى سويف أيضاً

الأنيقة ، واتخذ كتابة الدواوين صناعة فتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم، وباشر مديرية الشرقية مدَّة ، وله فى ذم مباشرى الشرقية قصيدة طويلة

ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع فى مدائحه النبوية إلَّا أنهُ لم يحفل بهذه المزايا فى غيرها فجارى شعراء زمانه فى أسلوبهم حتى فى استعمال بعض الألفاظ المولدة والأهاجى المقذعة . ثم تنسك وتصوف

ومن شعره قصيدة البردة الشهيرة التى وقع الإجماع على أنها أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بانَتْ سُعادُ ونحوها من مدائح الصحابة ؛ قيل أنهُ فُلِج فنظمها فى مرضه وتوسَّل بها الى رسول الله فشُفِيَ من مرضه

وأوَّلها :

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ ... مَزَجْتَ دَمْعًا جرَى من مُقْلة بدَمِ

أم هبَّتِ الريحُ من تلقاء كاظمةٍ[1] ... وأومض البرقُ فى الظلماء من إضم[2]

فما لعينيك إن قلت اكْفُفَاهَمَتا ... وما لقلبك ان قلتَ استفق يَهِمِ

أيَحسَبُ الصب أن الحبَّ مُنكتمٍ ... ما بينَ منسجمٍ منـهُ ومضْطرمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله :

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على ... حُبِ الرَّضاعِ وإن تفطِمْه ينفطمِ

فاصرفْ[3] هواها وحاذرْ أن تُوليه ... إن الهوى ما تولّى يُصْمِ[4] أو يَصِمِ

وراعِها وهى فى الأعمال سائمة[5] ... وان هى استحلتِ المرعى فلا تُسمِ

كم حسَّنَتْ لذةً للمرء قاتلةً[6] ... من حيث لم يدر أن السُّم فى الدَّسَمِ

واخشَ الدسائسَ من جُوعٍ ومن شِبعٍ ... فرُبَّ مَخْمَصَةٍ شرٌّ من التخمِ

---

(١) راجع مصور بلاد العرب الملحق بهذا الكتاب (٢) واد يبتدئ من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الاحمر) (٣) الصرف فى عرف زمانهم العزل عن الحكم ضد التولية

(٤) جواب (ما) الشرطية ، أى ما تولى يصم من أصميت الصيد اذا قتلته وأنت تراه (أو يصم) من وصم العود اذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب (٥) يلمح الى ما يستعمل فى رعى الابل

(٦) الايات الآتية يلمح فيها الى صناعة الطب ، والاستفراغ والامتلاء والحمية من الفاظها

واستفرغ الدمعَ من عينٍ قد امتلأتْ من المحارمِ والزمْ حِمْيةَ الندمِ

وقد اتخذ شعراء المدائح النبوية هـذه القصيدةَ نموذجاً ينسِجون على مِنْوالِه فكانت من أقوى الأسباب التى حملت شعراء هذا العصر وما يليه على الاكثار من المدائح النبوية ، وكذلك اتخذها أصحابُ البديعيات مثالاً يحتذونه فعارضوها بقصائدهم وزناً وقافية فلم يَلْحقوا لصاحبها غباراً

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقلُّ عن البردة فى فصاحتها ، وأوّلها :

كيف ترَقى رُقيَّك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك فى عُلاك وقد حا ل سنًى منك دونهم وسناء

ومنها :

صاح لا تأسَ إن ضعُفتَ عن الطا عة واستأثرتْ بها الأقوياء

ان لله رحمةً وأحقُّ النـــاس منه بالرحمة الضعفاء

فابق فى العرْج عند مُنقلب الذَّوْ د ففى العوْد تسبق العرجاء

لا تقل حاسداً لغيرك : هذا أثمرت نخله ونَخلى عَفاء

وأْتِ بالمستطاع من عمل البرّ م فقد يُسقط الثمارَ الإباء

وله قصيدة أُخرى على وزن بانت سعاد ، وأولها :

الى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كل ما قدّمت مسئول

وتوفى البوصيرى سنة ٦٩٥ هـ بالاسكندرية وقبره بها مشهورٌ يُزار

٢ — صفى الدين الحلى

هو الشاعر البديعُ عبد العزيز بن علىّ الشهير بابن سَرَايا الطائى الحلى شاعر الجزيرة

ولد سنة ٦٧٧ هـ ونشأ بمدينة الحِلة من مدن الفُرات فتأدب ونظم الشعر وأجاده وأصبح فيه أشهرَ شعراء عصره ، وخدم به الملكَ المنصورَ نجمَ الدين غازى بن قره

ارسلان : أحد ملوك الدولة الأُرتُقية ملوك ماردين(١) وديار بكر(٢) من ذيول الدولة السلجوقية فحظى عنده ومدحه بكثير من القصائد، ومنها جملة بعدد حروف المُعجم أوائلُ حروفِ أبياتِها كرَوِيِّها وتسمى القصائد الأُرتُقِيَّات، وطبعت على حدتها ومع ديوانه

واتصل بعده بابنه الملك الصالح شمس الدين ثم ذهب الى الحج، وعرّج مُنْصَرَفَه منه على مصر فمدح الملك الناصرَ بنَ قلاوون، وأشار عليه كاتبُ سره القاضى علاء الدين بن الأثير بجمع ديوانه فجمعه مرتّبًا على اثنى عشر بابًا

وتوفى سنة ٧٥٠ هـ ويعتبر صفى الدين من أئمة البديع المبتدعين فى أنواعه المُغالين فى استعماله فى شعرهم بلا كثير تكلف؛ وهو أوّلُ من نظم القصائد النبويةَ الجامعة لأنواع البديع المسماةَ بالبديعيات على مثال بُرْدة البوصيرى . وقد نظم من كل فنون النظمِ : الفصيح والعامىّ من جِدّيهما وهزليهما : فقال القصائد المطوّلة ، والمقطعات والموشّحات والمخمّسات والمشطرات والمواليا والزجل والقومة وكان وكان، وغيرها؛ وله جملة مصنَّفات غير ديوانه شعره

وشعره فى جملته سهل الألفاظ حسن المعانى إلا ما كان يتكلفه للمعاياة واظهار الحذق فانه ردىء النسج، ثقيل على السمع، وله من ذلك فى ديوانه شىء كثير(٣)

ومن قوله فى الأدب : نبذة من شعره

اسمعْ مخاطبةَ الجليس ولا تكنْ عجلاً بنطقك قبلَ ما تتفهّمُ
لم تُعطَ معْ أذنيك نُطقًا واحداً الاّ لتسمعَ ضِعْفَ ما تتكلمُ

وقوله :

اذا الجَدُّ لم يكُ لى مُسعداً فما حركاتى الاّ سكونُ

---

(١) من مدن الجزيرة (٢) هى التى كانت تسمى قديماً آمد

(٣) كقوله من المنقطع الذى لا يتصل منه حرف بالآخر :

اذا ذار داري زور ودود أود وأورده ورد ودى

وكقوله من المتصل الذى لا ينفصل منه حرف عن الآخر :

سل مثلق عطفاً عسى يتعطف فلقد قسى قلبا فما يتعطف

اذا لم يكنْ ما يُريد الفتَى   على رغمه فليُرِدْ ما يكون

وقوله :

بقدر لغاتِ المرء يكثر نفعُه   فتلك له عند الملمَّات أعوان
تهافتْ على حفظ اللغات مجاهداً   فكل لسان فى الحقيقة انسان

وقوله فى وصف عود الطرب :

وَعُودٍ به عاد السرور لأنه   حوى اللهوَ قِدْماً وهو ريّانُ ناعم
يغرّب فى تغريده فكأنه   يُعيدُ لنا ما لَقَنَتْه الحمائمُ

وقوله يصف القاهرة المعزّية :

لله قاهرة المعزّ فانها   بلد تَخَصَّص بالمسرة والهنا
أوَ ما ترى فى كل قطر مُنْيَة[1]   من جانبيها وهى مجتَمع المنى

وقوله يصف نيل مصر حين وفائه :

وفى النيل اذ وفَّى البسيطةَ حقَّها   وزاد على ما جاده من صنائع
فما إن تُوفِّى الناسُ من شكر مُنْعِم   يشار الى انعامه بالأصابع

٣ — ابن نباتة

هو الشاعر الأديب والكاتب المصنف ؛ جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك ، وصاحب سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، ووارث القاضى الفاضل فى التعصب للتورية

وهو من سلالة ابن نباتة الخطيب عبد الرحيم خطيب سيف الدولة الحمدانى ولد رحمه الله تعالى بمصر الفسطاط سنة ٦٨٦ هـ ونشأ بالقاهرة ، وتلقى العلم والأدب على كبار مشيختها ورؤساء دواوينها ، وأكب على قراءة شعر القاضى الفاضل ورسائله ورسخت فيه طريقته من الوَلوع بالتورية والتوجيه والطباق ، فعمل على تأييدها

---

(١) كنية ابن الخصيب ومنية الشيرج ومنية غمر

والاشادة بها ، فكان بعد الفاضل إماماً لهذه الطريقة نظماً ونثراً ، وحاكاه آخرون من أدباء عصره كصلاح الدين الصفدى[1] وكثيراً ما أغار على معانيه وتورياته ، وكزين الدين بن الوردى وغيرهما ، ولم يأت بعده من شعراء مصر والشام من بلغ غايته فى لطف التصور ورقة اللفظ وانسجام العبارة واستعمال المعانى البلدية

وابن نباتة ممن لا يُعنَى باستعمال الجناس ، ولا يحفل به كابن الوردى وابنِ حجة وان وقع أحياناً فى شعره . واختلَط فى أواخر عمره ومات بالبيمارستان المنصورى[2] بالنحاسين سنة ٧٦٨ هـ

ومن شعره قوله :

نبذة من شعره

يا مشتكى الهمّ دعْه وانتظر فرجا   ودارِ وقتك من حينٍ الى حينِ
ولا تعاندْ اذا أصبحت فى كدَر   فانما أنت من ماء ومن طين

وقوله فى رثاء ولده عبد الرحيم :

يا لهفَ قلبى على عبد الرحيم ويا   شوقى اليه ويا شجوى ويا دائى
فى شهر كانونَ وافاه الحِمامُ لقد   أحرقت بالنار يا كانونُ أحشائى

وله ديوان عظيم طبع فى مصر ، وله عدّة مصنفات منها سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، وكتاب مجمع الفوائد ، وكتاب القطر النباتى ، والفاضل من انشاء الفاضل ، وفرائد السلوك فى مَصايد الملوك

٤ — ابن معتوق الموسَوىّ

هو شهاب الدين بن معتوق الموسوى شاعر العراق فى عصره ، وسابق حلبته فى رقة شعره

ولد سنة ١٠٢٥ هـ ونشأ بالبصرة وبها تعلم وتأدّب وقال الشعر وأجاده ، وكان فى نشأته فقيراً ، فاتصل بالسيد على خان أحد أمراء البصرة من قبل الدولة الصفوية

(١) هو خليل بن أيبك المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (٢) هو المشهور الآن بمستشفى قلاوون ولم يبق منه الا قسم الرمد

الإيرانيَّة ، وكانت وقتئذ تملك العراق والبحرين ومدحه مِدَحا رقيقةً ، وأ كثر شعره مقصورٌ عليه وعلى آل بيته فغمره باحسانه

وصف شعره

وابن معتوق من كبار شعراء الشيعة لنشوئه فى دولة شيعية غالية فأفرط فى التشيع فى شعره ، وجاء فى مدح على والشهيدين بما يخرج عن حد الشرع والعقل ؛ ويمتاز شعره بالرقة وكثرة الاستعارات والتشبيهات حتى لتكاد الحقيقةُ تهملُ فيه جُملة

وله ديوان شعر مشهور طبع مراراً بمصر وغيرها ، ويشتمل على قصائد ومقطعات ودو بيت ومواليا و بعض فصول من النثر سماها ابنهُ جامعُ ديوانه بنوداً

ومن قوله يهنئ أميراً بالنصر على أعدائه ، ويصف ايقاعه بهم ويلمح لآيات من القرآن الكريم

وأخرجْتَهُمْ فى رغمهم عن ديارهم ... وما اعتقدوا هذا الى أوَّل الحشر
وألقَوْا حِبال المُنكَرات وخيّلوا ... فعارضتهمْ فى آية السيف لا السحر
كفى الله فيك المؤمنين لدى الوغى ... قتال العدا حتى سلمتَ من الأزر
ولو لم يكفّ البأسَ عفوُك عنهمُ ... لعدت وقد عاد الحديد من التبر[1]
فما لبثوا إلاَّ قليلاً فكم ترى ... لهم من ظليم[2] فرّ عن بيضة الخِدْر
تولوا مع الخُفَّاش فى غَسَق الدجى ... وخافوا طِلابَ الشمس فى عَقِب الفجر
إذا ما لهم عِقْبانُ راياتك انجلتْ ... أعيروا من الغربان أجنحةَ الغر
رميتَهمو فى فيلق قد تغرَّدت ... به طائرات النجح فى عذب السُّمر

وله من قصيدة :

لله أيامُ لَهْوى بالعقيق وإن ... كانت قصاراً وساءتنى قُصاراها
أوقاتُ أنس كأن الدهر أغفلَها ... إذ من صروف الليالى ما عَرفناها
لم نَشْكُ من مِحَنِ الدنيا الى أحد ... من البرية إلاَّ كان إحداها

---

(١) أى فى حمرة الدماء (٢) الظليم ذكر النعام يريد به الفارس الفار عن حرمه

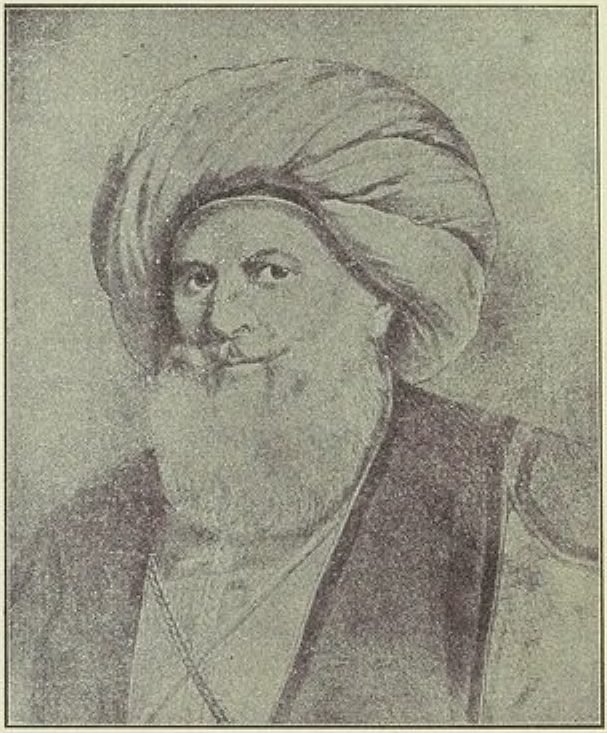
العصر الخامس

وهو عصر النهضة الأخيرة

من ١٢٢٠ هـ — الى الوقت الحاضر

حالة اللغة العربية وآدابها فى هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية فى أوائل القرن الثالث عشر غاية ما وصلت اليه من الفساد والاضمحلال حكومةً وأخلاقاً ولغةً وأدباً ، فرأت أوربة أن قد آن الأوان لأن تُجَدِّدَ غاراتها عليها ففعلت ، ولكن لا بشكل الحروب الصليبية الممقوتة ، بل بدعوة نشر متاجرها وبث علومها وآدابها ، وبمحاربة الواقفين لها فى طريقها ، فابتدِئَ ذلك بحملة نابليون على مصر والشام ، فكانت هى أول ناشر لعلم أوربة وأدبها فى البلاد العربية وان سبقها بقليل بعضُ الدعاةُ المسيحيين من أممها



محمد على باشا

فلما استولى ساكنُ الجنان محمد علىّ باشا على مصر بحذقه ودهائه ، كان أولَ قاعدة أراد أن يبنى عليها مملكته وسلطانه متابعةُ الأوربيين فى الإدارة والتربيـة وتنظيم الجيش : لما رآه من آثار الفرنسيين بمصر ، ولما شاهده من تقدمهم فى أثناء اشتراكه فى حربهم مع الترك والانجليز ، فاستعان بفرنسا وبعض ممالك أوربة على ادخال المدنية الأوربية فى بلاده فتمّ له بعضُ ذلك إلاَّ أن أحوال البلاد الطبْعِية والدينيةَ واللغويةَ لم تكن تُسهّل على مستخدمى الأوربيين ومن معه من الألبانيين والترك أن يستقلوا بجميع أمور البلاد ، فرأى بحكمته أن يربّيَ من أبناء البلاد وجاليةِ الترك والألبان من يكونُ خير واسطة لنقل معارف الأوربيين اليها ، فبعث الى أوربة بثلاثة بُعوثٍ علمية فى أزمنة مختلفة[1] كونت بعدُ ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط : فنقلوا الى اللغة العربية عشراتِ الكتب الجليلة فى العلوم المختلفة فأحدث ذلك فى اللغة العربية انقلاباً عظيماً ، واكتسبت من سَعة الأغراض والمعانى والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية وطرق البرْهنة والاستنباط وترتيب الفكْر ثروةً طائلةً وعهِدَ الى هؤلاء الأساتذة ومن سبقهم ومن لحقهم من الأوربيين فى إنشاء المصانع الوفيرة ، والمدارس الكثيرة من ملكية وحربية ، وحاول أن يجعل اللغة التركيةَ أساسية أو شبه أساسية فى التعليم والسياسة والادارة فتعذّر عليه ذلك ، واضطُرّ الى مُجاراة طبيعة البلاد فأصبحت العربية لغةَ كل ذلك ، وظهرت على اللغة التركية واللغات الأوربيـة المختلفة التى كانت تدرسُ وجوباً معها ، وكان من الأزهر الشريف اكثر المدد الذى استمده محمد على لتربية البعوث العلمية وتدريس العلوم العربية بالمدارس ، ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبل منهم بقبول حسن كل مايحسنونه : من نتيجة كدّهم وثمرة أفكارهم ، فالتفوا حولها وصار للدولة كتابٌ وشعراء ومنشئون فى جريدتها (الوقائع) أول جريدة عربية

البعوث فى أوربة

اثر البعوث فى اللغة

اثر الازهر

---

(١) وقد أوردنا فى الصفحة التالية صور بعض طلبة البعوث العلمية التى أرسلها محمد على باشا الى أوربة



﴿ الأسماء مرتبة من اليمين الى اليسار ﴾

الصف الأول

مصطفى محرمجى (مهندس)
رفاعة بك (ناظر مدرسة الألسن)
حسن بك (وزير بحرية)
محمد بيومى (مدرس بمدرسة الطب)

الصف الثانى

محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح)
محمد شباسى (مدرس بمدرسة الطب)
الوزير على مبارك باشا
أوارى بن كلهو ولد فى ليمو (من أهالى الصومال)
مختار بك (أحد وزراء المعارف)

الصف الثالث

محمد السكرى (مدرس بمدرسة الطب)
أمين بك (ناظر الذخائر)
مظهر بك (مهندس القناطر الخيرية)
محمد شافعى (أحد نظار مدرسة الطب)

اثر السوريين

واقتدى بمصر أهل الشام وصادف ذلك امتداد نفوذ دعاة المسيحية من الأمريكان البروتستنت واليسوعيين الكاثوليك وغيرهم فهاجر كثير من السوريين الى مصر وانتظم فى سلك الحكومة والمدارس المصرية ، ودخل كثير من نصاراهم مدارس الدُّعاة الذين كان أكثرهم من المستعربين العارفين باللغة العربية فدرسوا العلوم وألفوا الكتب باللسان العربى ، ونبغ من مدارسهم رجال كانوا زهرةَ سُورِيةَ ، وغلب عليهم الأدبُ : من الشعر والكتابة وترجمة الرّوايات الأدبية ، واتخذوا ذلك صناعة لهم يتكسبون بها فى الشام ومصر ، فعاد ذلك على القطرين بالتقدم فى الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر والإرادة

اثر اسماعيل باشا فى النهضة

ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها فى مصر كما استمر فى الشام بل ركدت ريحها زمن عباس باشا الأول وزمن سعيد باشا ، ثم تنسمت فى عصر اسماعيل وما لبثت أن صارت رُخاء طيبة فأعاد رحمه الله سيرة جده فى نشر العلم فافتتح المدارس والمكاتب وأنشأ الجسور والقصور والمصانع ، ووجد أكثر رجال البعوث العلمية الذين رباهم جدّه على قيد الحياة فاتخذ منهم المدرّسين ورؤساء الإدارة ، وزاد على جدّه فى ارسال البعوث العلمية الى أوربة ، وظهرت ثمرةُ أعماله فى حياته ، وكادت مصر توشِك أن تكون قطعة من أوربة كما قال هو فى بعض حديثه

وباطراد سيرها على هذا النظام تصبح زهرة الشرق كله ان شاء الله تعالى :

ويمكننا تلخيص أسباب النهضة الأدبية فى الأمور الآتية :

(١) اتصال المدنية الغربية بالمدنية الشرقية من أوائل القرن الماضى وابتدأ ذلك بحملة بونابرت واتخاذ الدعاة المسيحيين من الامريكان والبروتستنت واليسوعيين وغيرهم بلاد الشرق مجالاً لأعمالهم ، وجعلهم اللغة العربية فى أوّل أمرهم اللغة الرسمية لنشر تعاليمهم وآدابهم ، وكان لعملهم فى سورية أثر أبين منه فى مصر ، فانشئوا المستشفيات والمدارس وانتظم فيها كثير من نصارى الشام ، فخرجت عدة طبقات منهم كان لهم الفضل فى نشر اللسان العربى وتوسيع دائرته وعلومه وآدابه

ومن أركان هذه النهضة فى سورية الشيخ ناصيف اليازجى وابنه الشيخ ابرهيم والدكتور فنديك المتعرب الأمريكانى وأحمد فارس وأديب اسحق وغيرهم

(٢) إزدياد عدد المستعربين بأوربة والشرق وسعيهم المتواصل فى إيجاد المطابع العربية وطبعهم فيهـا نفائس كتب العرب ، وعنايتهم بطبعها وتنقيحها . وإنشاء الجمعية الآسيوية الباحثة فى أحوال الشرق وعلومه ؛ وتعد مجلتها الآسيوية من كنوز العلم والأدب

(٣) إيجاد المدارس النظامية المتعددة التى أنشأها المغفور له محمدعلى باشا بمساعدة الأساتذة الأوربيين ثم علماء المصريين ، والمدارس التى أنشأها المغفور له الخديوى اسماعيل وأعظمها خدمة للعربية وآدابها مدرسة دار العلوم التى أُنشئت فى زمنه باقتراح رجل مصر وعالمها المرحوم على مبارك باشا فتخرج فى هذه المدرسة مئات من المعلمين والقضاة والمحامين وكتَّاب الدواوين ، وتربى على أيديهم إما مباشرة وإما بواسطةٍ جميعُ متعلمى العصر الحاضر وفيهم أفاضل الأمة من محرريها وكتابها وقضاتها ومحاميها وشعرائها ، ولا يغمطها هذه الفضيلة إلاَّ كل جاحد مكابر ، ويكفى دليلاً على إثبات هذا الفضل لها ما أورده حكيم المصريين الأستاذ الامام المرحوم الشيخ محمد عبده فى تقريره عن الامتحان النهائى للمدرسة الذى رَأسه سنة ١٩٠٤ قال « وانى انتهز هذه الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة فى نفسى وما أعتقده من منزلتهـا فى البلاد المصرية ومن اللغة العربية : أن الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية واهمال أهلها فى تقويمها ويوجهون اللوم الى الحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة . فإن باحثًا مدققًا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت فى كل مكان ووجدها تحيا فى هذا المكان ؛ وان أوَّل فضل فى تقدم اللغة العربية بتسهيل طرق تناولها وتأليف بعض الكتب المفيدة للمتعلمين فى المدارس الابتدائية

كان للمتخرجين فيها، ثم هم أساتذة المدارس الابتدائية والثانوية، ولا يشك عاقل فى أن تلامذة تلك المدارس يكتبون وينطقون على نمط أقوم مما كان يكتب وينطق عليه أساتذتهم من قبل » اه والفضل كل الفضل فى تأهيل طلابها لقبولهم فيها راجع للأزهر الشريف الذى كان ويكون ان شاء الله المورد العذب لطلاب العربية وفنونها

(٤) البعوث العلمية الذين أرسلهم محمد على باشا ثم اسماعيل باشا الى ممالك أوربة لتلقى العلوم المختلفة، وقد كانت مُدد هذه البعوث تصل أحياناً الى ١٢ سنة

(٥) شيوع تعلم اللغات الأجنبية وجعل تعليمها إجبارياً بمصر والشام فى مدارس الحكومة والجمعيات ومدارس الرهبان والدعاة فنشأ من ذلك نقل كثير من المعانى والأساليب الافرنجية التى يقبلها الذوق العربى فأثْرَتْ بذلك اللغةُ وحَصُفَتْ أفكارُ أهلها واتسعت أغراض القول فى وجوههم ، وترجم منها ألوف الكتب والروايات والمقالات السياسية والعلمية الى العربية ، فاستفاد منها أيضاً من لا يعرف اللغات الأجنبية علماً جماً وأدباً غزيراً

(٦) إيجاد المطابع العربية بمصر والشام والقسطنطينية وطبعها كثيراً من الصحف السيارة وكتب العلم والأدب وخاصة الروايات

ومن أهم الكتب المطبوعة التى جددت حيـاة اللغة والأدب كتب المعجمات مثل الصحاح والقاموس وشرحه ولسان العرب والمخصص ، وكتب الأدب مثل الأغانى والعقد الفريد وكامل المبرد والمقامات للحريرى ، والبديع ، وأمالى القالى ، وصبح الأعشى ، ودواوين الشعر والرسائل الكثيرة ، وأمهات كتب التاريخ : كالطبرى وابن الأثير وابن خلدون ومقدمته الجليلة ذات الأثر البين فى الأدب والكتابة فى العصر الحاضر ، ونفح الطيب وغيرها

وللأوربيين عظيم الفضل باختراع المطابع العربية فى أواسط القرن الخامس عشر المسيحى كما اخترعوا غيرها من قبل ، وطبعوا بها الكتب العربية الجليلة بايطاليا وفرنسا

وأول مطبعة عربية وصلت الى الشرق كانت مع اللجنة العلمية التى صحبت حملة بونابرت وطبع بها فى مصر كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨ ثم كتاب القراءة العربية ثم معجم فرنسى وعربى ثم كتاب فى نحو اللغة المصرية العامية

ولما استولى محمد على باشا على ملك مصر أنشأ دار الطباعة العامرة ببُلاق وصب حروفها على أجمل قاعدة نسخية وفارسية من حجوم مختلفة فطبعت ابتداء بعض الكتب التركية والفارسية ثم أخذت فى طبع نحو ثلثمائة كتاب من الكتب المترجمة عن اللغات الأجنبية فى العلوم الحديثة كالرياضيات والطبَعيات والطب والجراحة . أما الكتب الأدبيـــة فتأخر طبعها قليلاً ومن أول ما طبع منها كليلة ودمنة وخزانة الأدب الكبرى للبغدادى ومقدمة ابن خلدون ومقامات الحريرى وتفسير الرازى والقاموس والأغانى

ثم فشت المطابع فى الشام على أيدى رؤساء الرهبانيات والدعاة وطبعت أولاً كتبها الدينية ثم بعض كتب أدبية وظهرت بُعيدَ هذا الوقت دار الطباعة العامرة بالقسطنطينية فطبعت كثيراً من الكتب الشرقية والفارسية ثم طبعت بعد كتباً كثيرة فى الفقه والنحو والصرف والبلاغة والفلسفة والأصول والكلام وغير ذلك

ثم شرع كثير من المصريين فحاكوا حروف مطبعة بُلاق وأنشئوا مطابع عدة بالقاهرة والاسكندرية سهلت طرق العلم على الطلبة وخصوصاً فقراء طلبة الأزهر

(٧) إنشاء الصحف العربية بمصر والشام والقسطنطينية

وأول جريدة عربية هى الوقائع المصرية التى صدرت سنة ١٨٢٨ وحرر أول عددها باللغة التركية ثم عهد فى تحريرها الى الشيخ حسن العطار والشيخ شهاب الدين صاحب السفينة فحررت فصولها بالعربية والتركية ثم اقتصر فيها فى الأزمان الأخيرة على العربية ثم صارت تطبع نسخ منها بالعربية ونسخ بالفرنسية وكانت تصدر ثلاث مرات فى الأسبوع وبقيت كذلك الى وقتنا هذا

وأول جريدة عربية ظهرت فى سورية كانت جريدة حديقة الأخبار الصادرة

فى سنة ١٨٥٨ وأول جريدة عربية ظهرت فى القسطنطينية سنة ١٨٦٠ كانت الجوائب لصاحبها أحمد فارس وظهرت بعدها فى سورية جريدة سورية الرسمية سنة ١٨٦٥

ومن أوّل الجرائد التى ظهرت بمصر بعد الوقائع جريدة وادى النيل (القديمة) وتلتها جرائد أخرى : مثل الاسكندرية ، والزمان ، والاعتدال ، والفلاح والاهرام ، والمقطم ، والمؤيد ، واللواء ، والعلم ، والجريدة ، والشعب ، وفى سورية من نظائرها كثير

ولنصارى السوريين فضل السبق على المصريين فى اتخاذ صناعة تحرير الصحف حرفة بسورية أولاً ثم بمصر ثانياً ، وهم أوّل من قام بانشائها بمصر بعد الوقائع ووادى النيل ولكنهم لم ينفردوا بها اكثر من عشر سنين ، ثم زاحمهم المصريون فاشتركوا معهم فى تحرير صحفهم وتصحيحها ، ثم اشتغلوا بجرائد أو مجلات خاصة مثل التنكيت والتبكيت للسيد عبد الله النديم ، والمؤيد للشيخ على يوسف ، واللواء لمصطفى كامل باشا ، والجريدة ، والعلم ، والشعب ، والأخبار ، والنظام ، ووادى النيل الثانية والأهالى ثم السياسية والبلاغ وغيرهما لبعض الأحزاب المصرية

ومن أشهر جرائد السوريين التى كان لها جزيل الفضل على نشر العربيــة ، وتحبيب القارئين فى القراءة جريدة الفلاح لصاحبها سليم حموى وقد احتجبت بعد موت صاحبها ، وجريدة الاهرام وأول من أسسها سليم تقلا ثم خلفه أخوه بشارة تقلا ثم ابن بشارة جبريل تقلا ، والمقطم لصاحبيها فارس نمر ويعقوب صروف

هذا والى المطابع والمطبوعات من كتب وصحف ومجلات يرجع أكثر الفضل فى تكوين النهضة الحاضرة

فبها قلّت مؤونة اقتناء الكتب الى حد لم يحلم به أسلافنا ، فسهلت على الحكومة نشر التعليم بين الناشئين : ونشرت التوسع فى العلم والأدب لجميع طبقات الراغبين وضبطت أعمال المصالح والدواوين ، وقربت مسافة الخلف بين أصناف الناس فى الأفكار والعادات والأخلاق ومسائل الاجتماع ، وحفظت للتاريخ أخبار الواقع

والحوادث اليومية : عظيمها وحقيرها بما يطابق الحقيقة أو يقاربها ونحو ذلك مما لا يحصى

(٨) تنظيم التقاضى والترافع منذ انشاء المحاكم الأهلية ونشأ عن ذلك صناعة مستقلة ، أداتها فصاحة اللسان وقوة الحجة فى الخصومة : وهى صناعة المحاماة ، ونشأ بجانبها نظير لها فى مناصب المحاكم هى مرافعة وكلاء النيابة فى اثبات التهم ، واستتبع كلتاهما الاجادةَ فى تحرير القضاء صُوَر الأحكام ، ووجدت لغة قانون قضائية أكسبت العربية ثروة عظيمة

(٩) حدوث الأندية والجمعيات العلمية والأدبية لالقاء الخطب والمحاضرات وللسيد جمال الدين الأفغانى الفضل فى احداثها بمصر

(١٠) حدوث فن التمثيل باللغة العربيـة — وأوّلُ ما ظهر فى الشام ثم انتشر فى مصر ، بيدَ أنهُ لم يُؤْدِّ بعدُ كلّ الغرض المطلوب منه لجهل أكثر الممثلين بصناعته وضعفهم فى العربية الفصيحة وسوء اختيار القصص الممثلة الملائمة لبلادٍ شرقية اسلامية

(١١) إحداث الشهادات الدراسية واعتبار الحصول عليها شرطاً فى خدمة الحكومة ، والاحتراف بالحرف العلمية كالطب والهندسة والمحاماة

(١٢) تنظيم التعليم بالأزهر الشريف والمعاهد الدينية وإدخال كثير من العلوم الحديثة بين مواد دراستها ، وللشيخ محمد عبده جليل الفضل فى اقتراح هذا الاصلاح الذى جعل مساعدة الأزهر بالمال والآراء السديدة وضمان مستقبله موضوع عناية دولتنا السنية — هذا وقد سبقتْ مصر والشام غيرَهما من البلاد العربية ثم اقتفى أثرهما العراق والحجاز واليمن والهند وتونس

النثر

المحادثة أو لغة التخاطب

كانت العامية فى أوائل هذه العصور غاية فى الانحطاط ، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين دخل فى عباراتهم كثير من الفصيح ، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين و بعض النساء . وساعد على ذلك أيضاً جعل التقاضى باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والروايات . وترقى الزجل والمواليا والواو[1] ، و بلغ الزجل فى عصر اسماعيل باشا وتوفيق باشا غايته ، ومن أشهر رجاله المرحوم محمد عثمان جلال بك ، والمرحوم السيد عبد الله نديم ، والمرحوم الشيخ محمد النجار والمرحوم الشيخ احمد القوصى وغيرهم ، إلاَّ انه أخذ يضمحل فى عصرنا هذا بغلبة الشعر الفصيح عليه وترفُّع كبار الرجال عن استماعه

الخطابة

كان المصريون والسوريون أوائلَ هذا العصر لا يستعملون الخطابةَ فى غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأفكار فى عصر اسماعيل باشا ، وصادف ذلك مجيء السيد جمال الدين الأفغانى الى مصر ، والتف حوله كثير من الأزهريين ولفيف من أدباء المصريين والسوريين ، فأدخلهم فى عداد جمعيته وألف منهم أندية كانوا ينتابون الخطابة فيها فى الأمور الدينية والأخلاق ، ثم تعدت ذلك الى الأمور السياسة

وانتشرت الخطابة بين شبان مصر وفشتْ بعد عصر اسماعيل فى زمن توفيق باشا وولدت رجال الثورة العرابية

---

(١) هو نوع من الزجل وزنه مثل بحر المجتث (مستفعلن فاعلاتن) أو فاعلاتان أربع مرات واختراع هذا النوع أواخر العصر الماضى وفشا جدا فى صعيد مصر صدر العصر الحالى ومنه قول ابن عروس المتصوف :

مسكين من يطبخ الفاس   ويريد مرق من حديده
مسكين من يصحب الناس   ويريد من لا يريده

ومن أشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم وكان لا يجارى فى سرعة البديهة وشدة التأثير فى سامعيه ، ويحسن الخطابة بالفصيحة والعامية ، والشيخ محمد عبده وغيرهما

ولما أسست الجمعيات والأندية الأدبيـة بمصر ، شغلت موضعاً فسيحاً فى عالم الخطابة و بلغت فى عصرنا هذا بسبب حالة مصر السياسية مبلغاً عظيما وأصبحت فى حال زاهرة لا تقل كثيراً عما كانت عليه فى عصور الدول الاسلامية الغابرة

الـكتابة

الكتابة الخطية

وقف الخط فى سبيل تقدمه عند الحد الذى رسمته له الطبقة الناشئة فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر من خطاطى الترك ، وكل من نشأ بعدهم فانما هو متبع طريقهم وحاذٍ حذوهم

وأشهر من نبغ فى العصر الذى نحن بصدد الكلام فيه عبد الله الزهدى وهو الذى خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوى وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبة بالقاهرة وجامع الرفاعى ، ومحمد مؤنس افندى ، وتخرج عليه وعلى تلميذه المرحوم محمد جعفر[1] بك جميع خطاطى قطرنا المصرى

عبد الله بك الزهدى

هو الخطاط الشهير والمجود الخطير عبد الله بك الزهدى

ولد بالآستانة ونشأ بهـا وتلقى الخط على مشهورى عصره أمثال حافظ راشد افندى الشهير بأيوب على ومصطفى افندى عزت الذى كان قاضى عسكر ومن هذا الأخير حصل على إجازة الخط ، فعين معلماً له بجامع نور عثمانية بالآستانة ، ثم ندبه السلطان عبد الحميد لكتابة خط الحرم المدنى فسافر الى الحجاز ، ولما قدم منه مجتازاً مصر أبقاه المرحوم اسماعيل باشا وأمر بتعيينه مدرساً للخط بالمدرسة الخديوية فقام

(١) كان مدرساً للخط بمدرسة دار العلوم وهو الذى كتب حروف المطبعة الأميرية المستعملة الآن

بهذه الوظيفة خير قيام ، ثم كلفته الحكومة كتابة الآيات القرآنية وغيرها على كسوة الكعبة الشريفة فأبدع فيهـا أيما أبداع ، ولا تزال كتابته عليها تشهد له بالبراعة وحسن الرونق ، وقد عهد اليه اسماعيل باشا كتابة الخط على سبيل أم عباس بالصليبة فأجاد كعادته ، ولا تزال هـذه الكتابة ماثلة للعيان ، وقد تخرج عليه كثيرون فى القطر المصرى ممن جودوا الخط وكان لهم فضل عظيم فى نشره وتحسينه . واستمر يعلم الخط بالمدرسة الخديوية حتى توفى سنة ١٢٩٦ ﻫ

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

مات رب الخط والأقلام قد   نكست أعلامها حزنًا عليـه
وانثنت من حسرة قاماتها   بعد ما كانت تباهى فى يديه
ولذا قد قلت فى تاريخه   مات زهدى رحمة الله عليه
٤٤١ ٣٦ ٦٤٨ ٦٦ ١١٥
١٢٩٦

الكتابة الانشائية

مضى العصر المتقدم وليس لكُتَّاب الدواوين فى أواخره شأن يذكر لجعل التركية هى اللغة الرسمية ، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير فى الممالك العثمانية إلاَّ قليلاً وشرعت تتغير فى مصر الاَّ أنه لم يكن تربى بها من فتيان المسلمين من يتولى الكتابة فى مناصب الحكومة ، فكانت مقاليدها فى يد كتبة القبط واشتهر من بينهم المعلم غالى(١)

ثم استخدمت الحكومة رجال البعوث العلمية وتلاميذ المدارس المنشأة بمصر والسوريين فى أعمال الكتابة فتقدمت شيئًا ما . ويعرف ذلك من صورها السقيمة المدرجة فى أعداد الوقائع المصرية لذلك العصر ، ثم لما أُنشئت المدارس النظامية وتولى التدريسَ بها مشايخ الأزهر ثم متخرجو مدرسة دار العلوم نشأت طبقة من

(١) كان رئيساً للكتاب وكاتب سر محمد على باشا وقتل سنة ١٨٢١

كتاب الدواوين رقّوا كتابتها . وقد هجر السجع الذى أكثر منهُ الأقدمون إلاَّ أن عبد الله باشا فكرى أشهر المصلحين للكتابة الديوانية الفصيحة ألمّ به فى كثير من مكاتباته الرسمية

ومن أهم البواعث على اجتناب زخرف البديع فى الانشاء تعلم اللغة الأجنبية والترجمة عنها لأنها أقرب الى الطبيعة من الطرق الموروثة عن مستعربى الفرس فى العصور الوسطى

أما كتابة التأليف والصحف فانهـا أخذت تنحو منحى كتابة ابن خلدون فى مقدمته لانكباب كثير من المدرّسين والقارئين والمحررين على دراستها ومحاكاتها

ولما ولت الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير الوقائع الرسمية والأشرافَ على تحرير الجرائد ، ترقّت كتابتها كثيراً ودرجت فى سبيل التقدم الى الآن

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التى أُلفت أو ترجمت فى مصر علمية لشدة احتياجها اليها فى تأييد حكومتها وادخال اصلاحات فى زراعتها وماليتها وادارتهـا وقضائها ؛ أما سورية فكانت حالة الأدب فيها فى النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها فى مصر ، ولكن مصر نهضت فى النصف الثانى ، واسترجعت حياتها الأدبية ، وأدخلت دراسة أدب اللغة فى مدارسها وألّفت فيه عدة كُتب ، وانحط شأنُ سورية فى العربية ، ولا سيما بين طوائف النصرانية : لعدول جمعيات البعوث الدينية عن التعليم باللغة العربية الى اللغة الأجنبية ، فلم ينبغ فى العربية من السوريين فى السنوات الأخيرة من يضارع سابقيهم

ويعتبر عصرنا الحاضر من أزهى عصور العربية بمصر فقد أصبحت قبلةَ العالم العربى ومركز حضارته وبلاغته بمن نشأ فيها من كبار العلماء والمؤلفين والمترجمين والمهندسين والقضاة والمحامين وكتاب الجرائد والمجلات والخطباء والشعراء والمدرسين وسلك العلم فى سيره طريقاً حديثاً غير طريق أهل الأزهر

ومن أشهر العلماء الأزهريين فى هذا العصر الشيخ الجبرتى والشيخ حسن العطار والشيخ العروسى والشيخ التميمى والشيخ الباجورى والشيخ عليش والشيخ الابيارى والشيخ السقا والشيخ الانبابى والشيخ الأشمونى الأخير والشيخ الشربينى وغيرهم

ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة رفاعة بك شيخ المترجمين والمؤلفين وعلى مبارك باشا مؤسس دار العلوم وأشهر المؤلفين المصريين ، والنطاسى الشهير محمد على باشا ، والسيد صالح مجدى بك ، ومحمود باشا الفلكى ، وأحمد ندى بك ، وعبد الله باشا فكرى ، وقدرى باشا ، ودرّى باشا

نماذج من النثر

كتب الأستاذ المرحوم الشيخ حمزة فتح الله الى صاحب السماحة السيد عبد الحميد البكرى معتذراً :

مولاى — أما الشوق الى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم ، وود صميم ، وخُلّة لا يزيدها تعاقب المَلَوَين ، وتألُّق النَيّرَين ، إلا وثوقاً فى العُرا ، وإحكاماً فى البنا ، ونماء فى الغراس ، وتشيداً فى الدعائم . ولا يظنن سيدى أن عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائى طلعته المنيفة ، لتقاعس أو تقصير ، فان لى فى ذلك معذرة اقتضت التأخير ، والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجائى من مقامكم السامى أن لا تكون معذرتى هذه عائقاً لكم عن زيارتى ، فلكَمْ مِنّةٍ طوقتمونيهما ، ولكم فيها فضل البداءة وعلىّ دوام الشكران ، والسلام م؟

وكتب المرحوم الشيخ عبد الكريم سلمان وقد أهدى كتاباً :

الانسان الكامل ، والمولى الفاضل ، دام كماله ، وزاد اقباله

كتابى الى الأستاذ ، والهدايا تزيد فى التوادّ ، وتوسع فى قوة الارتباط ، ان كانت لغير من حظرها عليه الشرع القويم ، والشيخ منى بمنزلة الأخ من أخيه ، وأنا منه بمثابة الولد من أبيه ، ولا داعية لى اليه سوى الصلة به ، ولا أريد منه غير الوداد

(قل لا أسألكم عليهِ أجراً إلاَّ المودة فى القربى) وقد اخترت لك من كتب الأدب العربى القديم كتاباً حديث العهد بالوجود ، بعثته إلى حضرتك معترفاً بأنهُ نموذج فضلك ، ومعنى أدبك ، يعترف لك مهديه ، بأنهُ لاحظ المناسبات ، ونظر الى الرغبات وقبل أن تشتغل بالبحث فيه عن اسمه والأوصاف ، أعلمك بأنهُ كتاب المنسوب والمضاف ، فهنيئاً له بالشيخ يقدره حق قدره ، وهنيئاً للشيخ به يزيده فى أمره ، وان قبول الأستاذ لهديتى مكفول بحسن أخلاقه ، وطهارة أعراقه ، و بعلمه بأن النفع بها وهى عنده أهم وأوفى ، فله الحمد على ما قبل ، والشكر على ما أولى

وكتب المرحوم الشيخ حسن افندى توفيق يعتب على صديق له :

عذلت أيها الصديق ولات حين عذل ، حيث أملت أن أكون لك كما أنت لى ، وأنا ذلك الخدن الذى ملئت جوانحه شوقاً ، وحشيت أحشاؤه صدقاً ، أغرك إرجاء المكاتبة ، أم صَمْت الأقلام ، والقلوب كالسبيكة إذا أصدأها السكون فهى خالصة الباطن ، أو كجمرة الزند تتأجج وهى مغبرةُ الظاهر ؛ بل تحكم لديك الشك فحكمت وكان عهدى بك اليقين ، ومع هذا فانى أشكرك على عذلك وأحمدك على فضلك ، فلا لوم إلاَّ بين أصدقاء ، ولا عتاب إلاَّ بين أوِدّاء ، وما اختيارى لهذا أن أقرع عصاك ، بل أن أجعل شكك يقيناً فى صديقٍ رؤيتك أشهى آماله ، ولقاؤك أعظم أمنياتهِ ، والسلام ؟

الكتّاب والعلماء

رفاعه بك رافع الطَّهطاوى

هو الكاتب الشاعر الأديب المترجم السيد رفاعة بك الحسينى الطهطاوى شيخ الترجمة و إمامُ النهضة الحديثة

وُلد بطهطا من أُسرة شريفة افتقرت بعد غنى فتنقل بهِ والده فى بعض بلاد مديريتهِ مديرية قنا بضع سنين تعلم فى أثنائها القرآن الكريم ودرس مبادئ العربية وحفظ كثيراً من المتون على أخواله

ثم توفى والده فتولت والدته تربيته فأرسلتهُ الى الجامع الأزهر فأكمل دراسته

فيهِ ، ثم انتخب إماماً لبعض فرق الجيش ، ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد على باشا إماماً ومعلماً لأول بعث على أرسل الى فرنسا سنة ١٢٤١ ﻫ فراقته علوم أوربة وعظمتها فأكب بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية حتى أجادها فهماً وإنشاء وان لم يُجِدها نطقاً وارتجالاً ، وكتب فى أثناء إقامته بباريس كتاب رحلتهِ الى أوربة ، وترجم قلائد المفاخر فى غرائب الأوائل والأواخر ، فسر بذلك محمد على باشا فلما عاد الى مصر سنة ١٢٤٧ ﻫ اختاره رئيساً للترجمة بمدرسة أبي زعبل ، فترجم بها كثيراً من الكتب والدروس



رفاعة بك رافع الطَّهطاوى

واشترك هو وأستاذه الشيخ حسن العطار فى اقتراح إنشاء الوقائع المصرية وتحريرها ثم نقل الى مدرسة المدفعية (الطبجية) بطرة لترجمة الكتب الهندسية ، ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة فبلغ عدد تلاميذها ٢٥٠ تلميذاً ، تمّ على أيديهم ترجمة أكثر ما نقل من علوم أوربة الحديثة الى العربية زمن محمد على باشا واسماعيل باشا ، ولما ألغيت مدرسة الألسن زمن عباس باشا الأول ، تقلب فى عدة مناصب ثم بقى مدة بلا عمل الى أن أعيد زمن اسماعيل باشا الى نظارة قلم الترجمة ، وانتخب عضواً بلجنة المدارس ، وتولى ادارة مجلة روضة المجالس ، وعكف على الترجمة والتأليف حتى

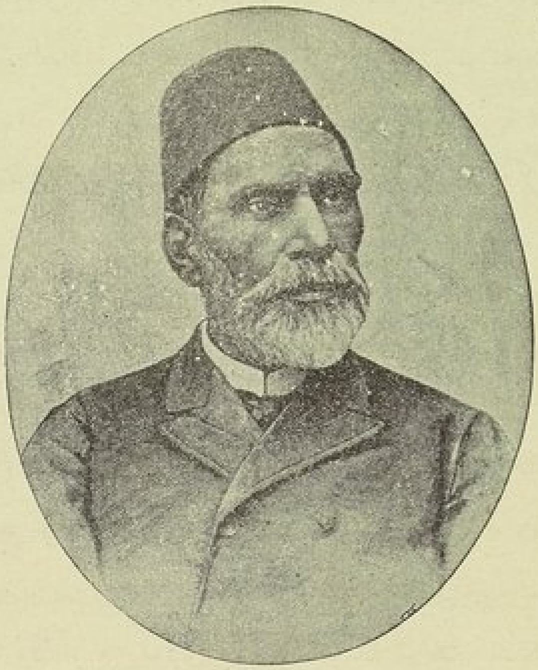
توفى سنة ١٢٩٠ هـ تاركاً لمصر كتباً ورجالاً هم أركان النهضة الحديثة

وقد ألف وترجم رفاعة بك غير ما تقدم كتباً تزيد على عشرين كتاباً ، أهمها ترجمة جغرافية (ملطبرون) والتعريبات الشافية لمريد الجغرافية ، والمرشد الأمين فى تربية البنات والبنين

وترجم القانون المدنى الفرنسى ، وكتاب هندسة (ساسير) ، ورواية تليماك ، وكتاب مناهج الألباب المصرية ، وله كتب شتى فى الأدب وعلوم العرب ، وآخر ما ألفه نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ؛ وكان فى ترجمته وتأليفه ينتحى أحياناً طريق السجع ؛ واضطر لانجاز ما يكلفه من الترجمة أن يستعمل بعض الألفاظ التركية أو العامية الشائعة فى زمنه

عبد الله فكرى باشا

هو الكاتب الشاعر الأديب عبد الله فكرى باشا أحد أركان النهضة الأدبية فى الديار المصرية



عبد الله فكرى باشا

كان أبوه محمد بليغ افندى ضابطاً بالجيش المصرى وهو ابن الشيخ عبد الله أحد علماء الأزهر

ولد سنة ١٢٥٠هـ وتوفى والده وهو فى سن الحادية عشرة فكفله بعض أقاربه فعلمه القرءان وبعث به الى الأزهر فأكبَّ على تعلم علومه مشتغلاً أيضاً باللغة التركية واستُخدم من أجلها مترجماً للعربية والتركية فى عدة مناصب آلت الى نقله الى حاشية سعيد باشا ثم اسماعيل باشا ، فعهد اليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من امراء بيت الملك

ثم تقلب فى جملة مناصب آخرُها نظارة المعارف سنة ١٢٩٩هـ وبقى بها حتى زمن الثورة العرابية فسقط مع الوزارة واتهم فى الثورة فقبض عليه ثم اتضحت براءته فاطلق وردَّ اليه معاشه بعد أن استعطف الخديو توفيقاً بقصيدة طويلة وتوفى سنة ١٣٠٧هـ

وكان فكرى باشا كاتباً بليغاً سلك فى كتابته طريقة كتاب القرن الرابع كالبديع الهمذانى والخوارزمى : من التزام السجع القصير القليل التكلف للمحسنات البديعة فى اكثر رسائله الصادرة عن القصر والنظارات . وبذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفى مدرس الأدب والعربية بدار العلوم (لو تقدم به الزمان لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان) . ويعدّ عبد الله فكرى من واضعى الاصطلاحات والألفاظ الديوانية المصرية الحديثة ، وبعضها مقتبس من اصطلاح دولة المماليك .

وله شعر وسط فى الجودة ، ومن كتابته ما كتب به وصاية بشخص قال بعد الديباجة

رافع هذا الرقيم ، الى حِمى المقام الكريم ، يذكُرُ أنَّ مسألته طال فيها المَدَى ، وبقى فى انتظارها على مثل رُءوس المُدَى ، ويشكو من الفقر المُدقع ، والضرّ المُضجع ما احْرجَ صدْره ، وأخرج عنهُ صبرَه ، وأشرف به على اليأس ، والاستسلام لمخالب البأس ، لولا أمل من مولاى يُبْقى على حَوْبائه ، وينشرُ تذكارُه ميْتَ رجائه وله فى سيدى ثناء يبارى نفحاتِ الأزاهر ، ويبقى على صفحات الدهر الداهر . ثم

هو بقيَّة بيت حفِظت الأيامُ نسبَهُ ، وأن أضاعت حوادثُها نَشبهُ ، وهو أولى من تعطِف عليه عواطفُ كرمه ، وتنعطف اليه جياد هممه ، وأرجو أن يحقق مولاى فى تلك الشيم الكريمة ما أمّله . وأهدى من الثناء أتمّه وأ كمله

علىُّ مبارك باشا

هو أبو المعارف المصرية العالم المؤرخ المؤلف المترجم المربى العظيم على بن مبارك ابن سليمان بن ابراهيم ، مصلح العلم والادارة بالديار المصرية ، ومؤسس دار العلوم ودار الكتب المصرية



على مبارك باشا

ولد سنة ١٢٣٩ﻫ بقرية برنبال الجديدة من مديرية الدقهلية وكان والده الشيخ مبارك من أهل الفقه والعلم ببلده فضاق به العيش فانتقل الى مديرية الشرقية وشُغِل

بالمعاش عن تربيته بنفسه فكان يرسله الى معلّم قاس يتعلَّم عليهِ القرآن الكريم فحفظَه وهرب من المعلم لقسوته وضَرْبه : وأخذ يتعلم الكتابةَ على بعض كتاب المراكز والقرى ، ويفر من قسوة هـذا الى ظلم ذاك ، حتى عثر فى بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين الى مدرسة أبي زعبل فصحبهم ودخل المدرسة

ثم اختير فى جملة من تلاميذها لمدرسة قصر العينى وسنه ١٢ سنة ، ودرس الرياضة فبرع فيها فانتخب طالباً بمدرسة الهندسة فأكمل فى خمس سنوات درْس فن الهندسة ، وأرسل إلى أوربة سنة ١٢٦٠ هـ ليتمم دراسته بها ، فمكث نحو أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد الى مصر ضابطاً بالجيش ثم قدّم لعباس باشا الأول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد اليهِ فى رياسة ديوانها وألف بعض الكتب الدراسية فكان أوَّل من نظَّم المدارس المصرية وفى زمن سعيد باشا وُشِيَ بِهِ اليهِ فساء حظه وبُعِثَ الى البلاد العثمانية فى الحملة التى وُجهت لمحاربة روسيا فعاد منها بعد أهوال ، وبقى يعتزل الخدمة طوراً ويخدم آخر ويتجر أحياناً ويعلّم أُخرى حتى كان زمن اسماعيل باشا فألحقه بحاشيته وتقلد عدَّة مناصب هندسية جرى على يده فيها عظيم الأعمال

ثم عيّن سنة ١٢٨١ هـ وكيلاً لديوان المدارس وسافر الى فرنسا لمهمة فأحسن أداءها وأنعم عليه برتبة الباشا (الميرميران) وتزاحمت عليهِ المناصبُ فكان مديراً للسكك الحديدية وناظراً للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية فقام بذلك فى آن واحد خير قيام

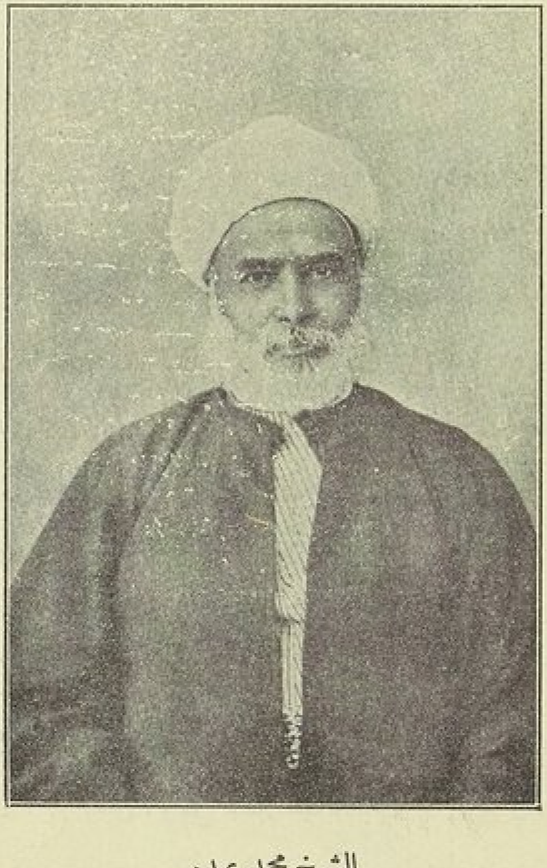
ومن أعماله العظيمة انشاء دار الكتب ، وانشاء مدرسة دار العلوم ليوفق بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ، ويحسّن تعليم العربية فجاءت هـذه المدرسة بأحسن ما يطلب منها . ومنها تجديد مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر بانشاء شوارعها وميادينها العظيمة ، وانشاء كثير من الترع والجسور كترعة الابراهيمية والاسماعيلية وبقى يتقلب فى النظارات ووكالتها حتى جاءت الثورة العرابية فكان من شيعة

توفيق باشا ، ثم قلد نظارة المعارف وغيرها حتى اعتزل الأعمال قبيل وفاته وتوفى سنة ١٣١١ ﻫ

وله مؤلفات جليلة منها الخطط التوفيقية فى عشرين جزءا وكتاب علَم الدين وكتاب نخبة الفكر فى تدبير نيل فى مصر ، وكتاب الميزان فى الأقيسة والأوزان ، وكتاب الهجاء والمسامرات وغيرها

الشيخ محمد عبده

هو المصلحُ الكبير ، والمجتهد الخطير ، والكاتب البليغ ، والخطيب المصقع ، الأستاذ الامام الحكيم الشيخ محمد عبده أحد أركان النهضة العربية ، ومؤسس الحركة الفكرية



الشيخ محمد عبده

ولد باحدى قرى مديرية الغربية ونشأ بين أسرته بمحلة نصر من مديرية البحيرة وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة ثم رغب فى التعلم فحفظ القرآن الكريم ، وطلب العلم بالجامع الأحمدى ، ثم انتقل الى الأزهر ونبغ فى علومه

ولما قدم مصر السيد جمال الدين الأفغانى سنة ١٢٨٦ﻫ وأعاد الى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة والكلام بعد نضوب مَعينها عدَّة قرون ، لزمه المترجَمُ هو وطائفةٌ من نابغى الأزهر كانوا يُعَدُّون ألسنةَ الفصاحة وأئمة الحركة الفكرية ، وكان الشيخ محمد عبده أنبغ تلاميذه ، وأحرصهم على ملازمته والاستفادة منه ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ﻫ واختير سنة ١٢٩٥ﻫ مدرّساً للأدب والتاريخ العربى بدار العلوم ومدرسة الألسن ، ثم فصل منهـا ولزم بلده الى أن أُشير على رياض باشا باختيار المترجَم لاصلاح لغة الوقائع المصرية ثم صار رئيس تحريرها ، وفى هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها

وحدثت عقب ذلك الثورة العرابية فاشترك فيها ونفِى من مصر فذهب الى سورية وتولى التدريس بمدارسها ، ثم انتقل الى أوربة فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس فأنشأ جريدة العروة الوثقى ، ثم عاد الى مصر ورضى عنهُ الخديو توفيق باشا فجعل قاضياً بالمحاكم الأهلية ، وبقى مدة طويلة مثالاً للعدل الى سنة ١٣١٧ﻫ فأسند اليه منصِب افتاء الديار المصرية ، وتولى التدريسَ بالأزهر . وما زال كذلك حتى توفى سنة ١٣٢٣ﻫ . وكان رحمه الله من خير مَن ظهر فى مصر من شيوخ العلم منذ قرون ويعتبر باجتهاده فى كثير من مسائل العلم من أئمة الدين ، كما يعتبر بكتابته البليغة من فحول الكتاب . وله القدم الراسخة فى كتابة الجدل والنقد ، ولم يترك الشيخ كأستاذه كثيراً من المؤلفات لكثرة مشاغله بالمناصب العلمية والادارية ولمناهضة الخصوم له أكثر حياته . ومن مؤلّفاته : رسالةُ التوحيد ، وشرح نهج البلاغة وشرح مقامات بديع الزمان . وأملى تفسير سورة البقرة وآل عمران والنساء بطريقة لم يسلكها مفسر فى انطباقها على مقاصد الاسلام، وكتب تفسير جزء عمّ وجزء تبارك .

وله رسائل بليغة منها ما كتب به من مصر الى بعض الأصدقاء الفضلاء قال فيه :

تناولتُ كتابَك ولم يُذكِّرْ منّى ناسياً، ولم ينبّه لذكرِك لاهياً . فانى من يوم عرفتُك لم يغب عنى مثالك ، ولا تزال تتمثل لى خلالُك ، ولو كشف لك من نفسك ما كشِفَ منها لى لفُتِنْتَ بها ولحُقّ لك أن تتيهَ على الناس أجمعين ، ولكن سترَ الله عنك منها خيرَ ما أودَع لك فيها ، لتزينها بالتواضع ، وتُجملها بالوَدَاعة ، ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع ، فتكون قُدْوةً لاخوانك فى علوّ الهمةِ ، و بذْل ما يعزّ على النفس فى نَفْع الأمة ، زادك الله من نِعَمه ، وأوسع لك من فضله وكرمه ، ومتّعنى بصدق ولائك ، وجعلك لى عوناً على الحق الذى أدعو اليه ولا أحيا إلا به وله والسلام

الشيخ حمزة فتح الله

هو الشيخ الوقور ، اللغوى الحجة التقى حمزة فتح الله المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف المصرية

ولد رحمه الله بثغر الاسكندرية سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) ونشأ بها ، و بعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم فى سلك طلبة العلم بجامع الشيخ ابراهيم باشا ثم اكمل دراسته بالأزهر الشريف ، وأمعن فى قراءة الأدب واللغة ، وقرَض الشعر وحرر الرسائل وحفظ الغريب . ثم عاد الى الاسكندرية واختير (فى منتصف العقد الثالث من عمره) محرراً فى احدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالى ثمانى سنوات اكتسب فيها الدربة على كتابة الصحف السياسية ، ثم عاد الى مصر فوجد نار الفتنة العرابية مستعرة فانضم الى حزب الخديو توفيق ، وكتب وخطب فى تأييده ، وعهد اليه بعد ضرب الاسكندرية فى اصدار صحيفة تكون لسان حال الخديو وتهدئ الخواطر ، و بعد أن انتهت الفتنة العرابية استخدم فى وزارة المعارف ومكث بها زُهاء ثلاثين سنة متنقلاً بين التفتيش والتدريس حتى كان فى سنة ١٩١٠ م مفتشها الأول للغة العربية، وفى غضون تلك المدة ندبته الحكومة مرتين لحضور مؤتمر المتعر بين ممثلاً لها لما لها فيه من الثقة . ولما له من غزارة المادة ، وسعة الاطلاع ، ثم أحيل الى المعاش

واستمر مشتغلاً بمدارسة العلم حتى بعد أن كف بصره ، ولم يثنه عن ذلك الا ما فاجأه من الموت فى فبراير سنة ١٩١٨ م

علمه وأعماله — كان الشيخ أكرم الله مثواه كثير القراءة فى كتب اللغة والأدب والحديث شديد الحفظ والذكر قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلاّ روى فيها شعراً أو مثلاً أو قصة . وكان فكه المحاضرة صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة وهو أملأ من شاهدناه باللغة والأدب والصرف

عهد اليه بالتدريس فى دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى ، وأظهرُ ما كان ذلك فى مواهبه الفتحية

أسند اليه تفتيش اللغة العربية فى مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية ، وأوضار الدخيل ، وفساد التراكيب ، وعجمة الأساليب ، فأخذ يرشد المعلمين الى ما يعثر عليه من ذلك فى كتابة التلاميذ ، ويتحفهم بمرادفه تارة . ويرشدهم الى المظان أخرى ، فتنبه بذلك الغافل ، ودقق المتساهل ، واتهموا أنفسهم فى كل كلمة ، وحاسبوها على كل جملة ، وعكفوا على مراجعة معجمات اللغة بعد أن طال هجرها ، ووقفوا عند نصوصها ناسجين على منوال الشيخ (من الوقوف عند السماع دون العمل بالقياس) بل تغالى بعض المفتونين منهم . وتعدوا طورهم ؛ فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة فى اللغة ، ولو وجدت فى شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى ، ولعلهم لم يعرفوا من اللغة أكثر من طريقة الكشف فى معجماتها على ندرة المطبوع منها ، فلقى المؤلفون والأدباء وبلغاء الناس منهم بلاء عظيماً وعَنَتاً مَقيتاً

أخلاقه : كان الشيخ حليماً رحيماً ، تقياً ورعاً ، لا تأخذه فى الله لومة لائم ، صالحاً مهذباً ، يميل الى الصالحين من المعلمين ؛ ويحارب من يشاع عنهم التهاون بشعائر الدين ، وربما سعى فى فصلهم من عملهم ؛ يعمل ذلك ولا غاية له إلاّ احاطة النشء

بسياج من الفضيلة ، حتى لا يتسرب اليهم الزيغ فى زمن قد كثر فيه أنصار الرذيلة ، وقل طلاب الفضيلة

وكان جزاه الله خيراً يحب العرب والعربيـة ، ويرى أن الله قد خصهما بكل مزية ، وأن جميع ما يتجدد من أنواع المدنية الحديثة قد سبق الى نوعه العرب ، وأن لاسمه مرادفاً فى لغتهم . يعرف ذلك من خالطه أو قرأ مواهبه

مؤلفاته : مما عرف من مؤلفاته كتاب المواهب الفتحية فى علوم اللغـة العربية ، وباكورة السلام فى حقوق النساء فى الاسلام ، ورسالة فى التوحيد ، وأخرى فى الخيل ، وكتيِّب فى المفردات الأعجمية التى فى القرآن

شعره وكتابته : كان بدوى الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه ، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء ؛ ولم نر له شعراً مدوناً إلاَّ قصيدته البائية التى اختتم بها مؤتمر العلوم الشرقيـة ، المنعقد باستكهلم أواخر سنة ١٣٠٦ هـ ، سنة ١٨٨٩ م

أما كتابته فيؤخذ مما عثرنا عليه منها أنه كان لا يلتزم فيها طريقة واحـدة بل تارة تكون سهلة يكثر فيها السجع وان لم يلتزم غالباً، وآونة تكون ضخمة الألفاظ غريبتها عليها مسحة التعمل والتكلف ، وأكثر ما كان ذلك فى توقيعاته

نموذج من شعره :

كم جامح بالثريا راضـه سفر — فوق الثرى بين أكوار وأقتاب
إن الثواء تواء والقصور قبو — ر العاجزين ولا إيراء للخابى
ومن بغى نيل مجد وهو فى دعة — فقد بغى من صفاة دَرَّ أحلاب
والمرء فى موطن كالدُّر فى صدف — والتبر فى معدِن والتِّبع فى غاب
والسيف مثل العصا ان كان مُغتَمِدا — وزامر الحىّ لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس فى علم وصاحبـه — أدنى الأحبة من أهل وأصحاب

نموذج من نثره

ومن رسائله ما كتب به الى السيد توفيق البكرى يمدحه :

إعادة العَرَض يوم العَرْض

مسألة كلامية ثارت فيها عَجَاجَةُ الكلام ، بين علمـاء الكلام ، فمن إيجاز وإطناب ، فى سلب وإيجاب ، (وتعلم أنت أن الألفاظ أعراض سيَّالة) لكننى آمنت عِيانا ، أن الله تعالى يحيى الموتى أعراضاً وأعياناً ، إذ كانت كتبك زيادةً فى البيان والبرهان ، وان كان خبر المعصوم أوثَقَ من الحِسّ ، فى النفس ، فأنشُدُ الله أمرأ شيمته العدل ، والقول الفصل ، أليست كتبُك هذه حجة للمُوجب دامغةً للسالب ، أليس ذلك البيان ، غاية شأو قُسّ وسحبان ، أليس قصارى ابن العميد ، وحُمادى عبد الحميد ؟ و بعـد فقد أُعيد العرَض الذى هو الكلام فى الدنيا ففى الأخرى أحرى ، فتراني يا مليك اليراعات ، وقسْوَر تلكم الغابات ، أسيفاً على ضن الزمان بك الى الآن ، فلو أن الله تعالى بَرَاك ، وخلقك فسوّاك ، حين استعر الخصام . فى هذا المقام ، لما اختلَفَ فى شأنه اثنان ، ولا انتطح عَنْزان

نموذج من توقيعاته : وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت اليه ليقرأها بعد أن ضرب على بعضها

لم أُرد بذلك الترميج الا الرُّعوى على النشء فان قُلاًّ مع حفظ المبنى وفهم المعنى خيرٌ من كُثر يُطوّح بهم فى موامى المُنْبَتّ

باحثـــــة البادية

هى المفكرة ، الكاتبة الشاعرة السيدة ملك حفنى ناصف

ميلادها ونشأتها — ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦م ولما ميزت ، أرسلها والدها الى احدى المدارس الأولية ، ثم الى المدرسة السنية ، فحصلت منها على شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م (وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات لنيل هذه

الشهادة) ثم أتمت دراستها فى قسمها العالى ، واختيرت مدرسة فى إحدى مدارس البنات بالقاهرة

وفى سنة ١٩٠٧ م تركت التعليم العلمى بالمدارس واشتغلت بالتعليم العملى فى بيت زوجها

أخلاقها وأعمالها : كانت مدة دراستها خير نموذج لقريناتها ، أخلاق سامية ، وسريرة صافية ، ونفس أبية ، ومثابرة على العمل

وكانت بعد زواجها تباشر أكثر أعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتى يلقين حبال أمورهن على غواربها ، ويتركن بيوتهن الى من لا يحسن القيام عليها ، والتدبير فيها ، فيوقعن أزواجهن فى الفقر المدقع والبلاء الشديد . وكانت اذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعة ، وتعرّف أحوال السيدات وزيارة مدارس البنات ، وفحص مناهج التعليم بها كل أولئك لتكوِّن لها رأياً صحيحاً ، وفكراً ناضجاً فى تربية البنات ، واصلاح حال الأمهات وظلت تستسهل فى ذلك الصعب ، وتستحلى المر

وكان من رأيها فى تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجل ما لا ينافى الشرع الشريف ، وألا تكون زينتها مَشْغلة لها ولا عبئاً ثقيلاً ينوء بِهِ بعلها ، ولها فى ذلك خطب فى محافل نسوية كان لها تأثير فى عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة . وكان بيتها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يستنرن به فى الوقوف على مبلغ رقى المرأة المسلمة وما ينتظرن من شئونها المستقبلة . ولم يكن شيء من ذلك كله لينسيها ما يجب عليها لزوجها وذوى قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر ، وأعوزتهم الحاجة . وأشد ما كان برها لوالدها (أغدق الله عليهما رحمته) فكانت تألم الألم كله لألمه

آثارها العلمية : —

(١) كتابها الذى أسمته (النسائيات) وهو مجموع ما خطبته وكتبته فى (الجريدة) خاصاً بالمرأة

(٢) حقوق النساء وهو كتاب لم يطبع بعدُ أنجزت منه ثلاث مقالات : الأولى فى الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية ، والمرأة المتمدينة الغربية فى الحقوق المالية ، والثانية فى حقوق المرأة المسلمة من جهة ادارة الأعمال العامة ، والثالثة فى حقوق المرأة المسلمة من جهة الانتخاب

(٣) رسالة ضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد فى مايو سنة ١٩١١ م بمصر الجديدة ضمنتها آراءها السديدة فى وسائل ترقية المرأة المصرية

ثم عاجلتها الحمى الأسبانية سنة ١٣٣٧ هـ فاحْتُضرت وهى فى ميعة شبابها . ويانع عمرها فتركت بفقدها فى العالم النسوى المصرى فراغاً لم يشغل بعد

كتابتها — أن الناظر فى كتاباتها المختلفة يرى عبارة سهلة صحيحة الألفاظ . عربية الأسلوب . خالية من تصنع السجع . وتعمل البديع . قد عنى فيها بدلالتها على المعانى تمام الدلالة كما عنى فيها بنشر ألفاظ حديثة للمسميات التى تسربت الى الشرقيات من المدنية الغربية وترى ذلك واضحاً فى كتابها النسائيات

شعرها — قالت الشعر وهى فى الحادية عشرة من عمرها وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه فى المدرسة تارة جِداً وتارة هزلاً . ثم كان لها من حسن استعدادها وكثرة قراءتها ونبوغ والدها فيه خير معوان على تعبيد سبيله . وتذليل أبيه ، وأكبر ما كانت تتناوله من الأغراض غرض واحد وهو ترقية المرأة الشرقية. وشعرها حسن الديباجة جميل الأسلوب يعد فى الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها

رسالة كتبتها من رمل الاسكندرية لصديقة لها وهى :

عزيزتى السيدة بلسم

أحييكِ : ولولا برودة البحر لالتهبت اليكِ شوقاً ، ولولا تصبُّرى لطرتُ اليك

حبا ، وانى لم ينسنى صفاء السماء صفاء ودِكِ ولا رقة النسيم رقة حديثك ، انما شجانى وذكرنى ولم أكن ناسيةً

عزيزتى

ليتكِ كنْتِ معى ترينَ الطبيعةَ بجمالها : ترينَ البحر يزخَر كالرعد ، والأمواج تتلاطم زرافات ووحدانا : صفاء فى البحر وصفاء فى السماء كأنهما قلبانا ، وتسمعين تغريد الطيور وحفيف الأشجار ، انها لعمرك مناظر تلهى المرء ولكن هيهات لمثلى أن تلهو ، وهى تعلم ما يكنه الدهر وما يخبئه الليل والنهار . تقبلى منى أحرّ قبلاتى ، وأوفر أشواقى م ؟

المخلصة

ملك ناصف

ومن شعرها تخاطب المرأة المصرية :

سيرى كسير السحب لا تأنَىْ ولا تتعجلى
لا تكتسى أرض الشوا رع بالازار المُسبَل
أما السفور فحكمه فى الشرع ليس بمُعْضلِ
ذهب الأئمة فيه بين محرم ومحلل
ويجوز بالإجماع منهم عند قصد تأهل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصرى أو طولى
فاذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألى
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولى
لا أبتغى غير الفضيلة للنساء فأجملى

الشعـــر

كانت حالة الشعر فى النصف الأول من هذا العصر لا تزيد شيئاً مذكوراً على ما كانت عليه فى العصر الماضى؛ إذ كانت حكومة محمد على باشا فى أوّل أمرها تركية الصّبغة، وكان هو أُمياً لا يحُل عنده الأدب محل العلم الذى عليه مدارُ تأسيس المملكة

ولكنّ الشعر أخذَ بعد ذلك فى الترقى . وسارت مصر فى طريقه، وانتشرت بينها العربية حتى زمن اسماعيل باشا، وكان هو متأدباً وعصره غاصًّا بالأدباء . فتقدم الشعر فى عصره خطوات تمثلت فى شعر السيد على أبى النصر والشيخ على الليثى . ثم طفر طفرة الى عظيم الشعراء البارودى

ولم يزل للعلم والعلماء مع ذلك المقام الأوّل فى مصر حتى كان العصر الحاضر ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكُتبه، فهب أهلُه يتفكهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه، ويستمعون الشعر ويحضرون المجامع العظيمة لانشاده، فأقبل الشعراء على نظمه فى كل أغراضه القديمة والحديثة ونحَوْا به نحو الشعر الفرنجى : من وصف المناظر الطبْعية، وأحوال الوجْدان والعواطف النفسية، وكثيرٌ من الشعراء بعد البارودى لم يحاكِ القدماء فى ندْب الديار ووصف الظعائن وحث المطايا مستغنياً عن ذلك بوصف القِطار والكهرباء والمسرة والبرق . ويقول الآن(١) الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراء فى مصر والشام والعراق إلاّ أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل فى هذا العصر

ومما يمتاز به شعرُ هذا الوقت خلوُّه من تكلف البديع والجناس، والرجوع به الى حالته القديمة الطبْعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس

نماذج من النظم

قال المرحوم السيد على أبو النصر :

كلِفْتُ فيا نفسى الأبية خاطرى ... بصادر آمالى ووارد خاطرى
تدين الأمانى لامرئ غير قادر ... ولا تجزعى ان هال خطب فربما

(١) أما قبل الآن أى زمن محمد على وسعيد واسماعيل فكان يرمى الى الاغراض القديمة كما ترى فى النماذج

وكونى على حمل الأذى مستعدّة … فكم عادل أرخى العنان لجائر
ولا تشتكى الأيام إلاَّ لمنصف … فلا خير فى الشكوى الى غير ناصر
ومن لم يكن ذا همة هاشمية … أخافته فى الهيجا بروق البواتر

وقال المرحوم محمود صفوت الساعاتى يمدح الشريف على باشا ابن عون و يعاتبه :

ترنو النجوم بلحظها البراق … والجو فى الأرعاد والأبراق
فاذا تبسمت البروق لغبطة … بكت السماء بدمعها المهُرَاق
عاملتمونى بالجفاء رويدكم … الورد ذو أرج بلا احراق
مالى أراكم تنكرون مكانتى … الشمس لا تخفى مع الاشراق
قلدتمُ غيرى الجميل وقلتم … حسبُ المغرد زينة الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتمُ … طرُق الرجاء علىّ بالاطراق
إن لم يكن مثلى يسىء ومثلكم … يغضى فأين مكارم الأخلاق

وقال المرحوم السيد على الليثى فى الحكم :

كل حال لضده يتحول … فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
يا فؤادى استرح فما الأمر إلاَّ … ما به محكم القضاء تنزل
قدرٌ غالب وسر الخفايا … فوق عقل الأريب مهما تكمل
رب ساعٍ لحتفه وهو ممن … ظن بالسعى للعلا يتوصل

وقال المرحوم الشيخ شهاب يرثى ابراهيم باشا و يؤرخ وفاته سنة ١٢٦٤ ﻫ

صبراً على ما قد مضى … إذ لا مخلص من قضا
كيف التصبُّر والمنا … يا ذات عضب منتضى
أردَت بابراهيم مذ … بلغ المقَامَ المرتضى
واليــهِ آل الأمر فى … حكم (الإيالة) وانقضى
فمضى وقلت مؤرخاً … (الله يرحم من مضى)

١٢٦٤ ﻫ … ٨٥٠ ٩٠ ٢٥٨ ٦٦

الشعـــراء

شعراء هذا العصر كثيرون و إنك لترى شعرهم منشوراً فى الصحف والمجلات ، وإنّ سابق حلبتهم وقائدهم فى هذا العصر محمود سامى باشا البارودى وهاك ترجمته :

البارودى

هو رب السيف والقلم أمير الشعراء وشاعر الأمراء محمود سامى باشا ابن حسن حسنى بك البارودى ، أحد زعماء الثورة العرابيـــة وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية

وُلد سنة ١٢٥٥ وتولى أبوه تربيته حتى إذا بلغ سبع سنين توفاه الله وكفله ذوو قرابته حتى بلغ الحادية عشرة فأُدْخِلَ المدرسة الحربية فتعلم فنون العسكرية ورُقى منها ضابطاً بالجيش وما زال يترقى فيه حتى كان أحد ضباط الحملة التى أمدّت بها مصرُ الدولةَ العثمانية فى أثناء ثورة البَلْقان و إقريطش ، وكان له فى مواقعها الحربية شهرة ذائعة . ورجع الى مصر فتقلب فى مراتب الجيش وغيرها حتى ولاّهُ المرحوم الخديو توفيق باشا نظارتى الحربية والأوقاف . ثم استقال منهما واعتزل العمل حتى وُلّىَ رياسة النظار قبيل الثورة العرابية . فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤُها على اصطلاء نارها فخبَّ فيها ووَضع . وحُكِمَ عليه بعد انقضائها بالنفى الى جزيرة سرنديب (سيلان) حتى عمى وشُفع فيه فأُذِن له بالقدوم الى مصر بعد مضى ١٧ سنة من منفاه ، و بقى فى منزله كفيفاً يشتغل بالأدب الى أن مات سنة١٣٢٢ﻫ

وقد عانى نظم الشعر من صغره بدون معلّم ولا تخريج فى العروض والقافية بلْهَ النحوَ والصرف والبلاغةَ بل كان ينظمه محاكاةً ومعارضة لشعر الأقدمين ، فحفظ من كلامهم كثيراً ونسج على مِنوْاله ؛ ولذلك صدر شعره فى رتبة شعر فحول القرن الثالث والرابع خالياً من تكلف البديع ضخم المعانى جزل الألفاظ متين الأسلوب ، وخير ما صدر عنه أيام شبابه وفى أثناء محنته . ثم ضعف شعره قبيل وفاته لكلال ذهنه ولخمود قريحته . وله شعر كثير جمع فى ديوان وطبع منه جزءان



محمود سامى باشا البارودى

ومن قوله :

والدهر كالبحر لا ينفك ذا كَدَرٍ   وانما صفوه بين الورى لُمَعُ
لو كان للمرء فكر فى عواقبه   ما شان أخلاقَه حرصٌ ولا طَبَع
وكيف يُدرك ما فى الغيب من حدَث   من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يَغُرّ وآمال تَسُرّ وأعمار تمرّ وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأُمور قد تضرُّ به   وليس يَعْلم ما يأتى وما يدع
ياأيها السادر المزورُّ من صَلَف   مهلاً فانك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت لهُ   لعلّ قلبك بالايمان ينتفع
إن الحياة لثوبٌ سوف تَخْلَعُهُ   وكل ثوبٌ إذا ما رثَّ ينخلع

ومن قوله وهو آخر ما قاله :

أنا مصْدَرُ الْكَلِمِ البوادى | بين المحَاضِرِ والنّوادى
أنا فارسٌ أنا شاعرٌ | فى كلّ مَلْحمة ونادى
فاذا ركبتُ فإننى | زَيْدُ الفوارس فى الجِلاد
وإذا نَطَقتُ فإننى | قُسُّ بنُ ساعِدة الإيادى

حفنى ناصف بك

هو القاضى الفاضل الشاعر الكاتب المصنف محمد حفنى ابن الشيخ اسماعيل ابن الشيخ خليل بن ناصف ، أحد أركان النهضة الأدبية بالديار المصرية

ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٢٧٢ﻫ يتيما فقيراً ، فكفله خاله وجدته أم أبيه



حفنى ناصف بك

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يُفرط فى ضربه ففر ماشياً على قدميه الى الأزهر؛ حتى علمت جدته لأبيه بخبره، فحملت له الزاد والمئونة. وجاور فى الأزهر عشر سنين، جَوّد فيها القرآن، وحفِظَ المتون، ودرس فقه الشافعى، وعلوم اللسان العربى، واشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما؛ حتى أصبح من شعراء الأزهر المعدودين وحج فى أثناء ذلك. ثم كان أول الناجحين من الطلبة المقبولين فى دار العلوم، وبقى أولهم حتى خرج من المدرسة. ثم اختير مدرساً وضابطاً لمدرسة الخرس والعميان، فأتى فى تعليمهم بالعجب العجاب. ثم نقل الى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن؛ فاستعان به فى تحرير جميع كتبه باللسان العربى. واختير فى الوفد الذى ندب لحضور مؤتمر علماء الشرقيات بمدينة ويانة (فينا)؛ فلم يقبل بمحاضر جلسات المؤتمر سوى رسالته (مميزات اللغة العربية) فطبعت فى مجموعة المؤتمر. ثم نقل مدرساً للانشاء والبلاغة والمنطق وآداب البحث والمناظرة بمدرسة الحقوق، فقام بتعليمها بها خمس سنين نبغ على يده فيها أكثر نابغى العصر من الوزراء والمستشارين وكبار المحامين. وفى أثناء ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأليف سلسلة كتب سهلة لتعليم النحو والصرف والبلاغة فألف خمسة كتب لم يزل العمل فى التعليم جارياً عليها وعم بها النفع فى مصر وغيرها. ثم نقل إلى القضاء الأهلى، فمكث يترقى فى درجاته مدة عشرين سنة كان فى خلالها مثال العدل والنزاهة. ونقل من وكالة محكمة طنطا الأهلية مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف، ولم تكن تزيد المدة الباقية من أمد خدمته القانونى على أكثر من ثلاث سنوات خدم فيها اللغة العربية وفن التعليم خدمة لا يزال يذكرها المدرسون والطلبة بالثناء عليه والإعجاب بهِ. وأحالت عليه الوزارة مع مؤلفَىْ هذا الكتاب تطبيق رسم المصحف الشريف الذى طبعته على رسم الإمام عثمان بن عفان (رضى الله عنه)، وضبط أئمة العربية، فأحيل على المعاش فى أثناء هذا العمل، وأتمه مع رفاقه بعده؛ فكان أعظم عمل قامت به دولة اسلامية لخدمة المصحف الكريم منذ

ستمائة سنة ؛ ووقَّع على آخر تجربة مطبعية منه قبل موته بأيام ، وتوفى صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩م ودفن يوم الأربعاء بالقرافة (مقبرة الامام الشافعى)

خلقه وعلمه وأدبه

كان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثاً ، وأرقهم فكاهة ، وأملحهم نادرة ، وأحضرهم جواباً ، مع دعابة فيه . وقلّ أديب من أدباء العصر الحاضر لم يرو عن حفنى ناصف نكتة أدبية ، أو نادرة فكاهية ، أو جواباً حاضراً مسكتاً . وكان مع ذلك إذا حضر مجلس الأزهريين فكأنه أكبر شيخ فيهم لغة وفقهاً وفهماً لكتبهم ومنظوماتهم ، وإذا حضر مجلس المتعلمين على نظام الأوربيين فكأنه (فيما عدا اللغة الأجنبية) أحد المتخرجين فى باريس

أما شعره فلم ينكر الأدباء عليه أنهُ أبو الطبقة التى نشأت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى ؛ وكل من نبغ بعد ممن انتهت اليهم الرياسة فى الشعر فعليه تعلم ، أوله قلَّد ؛ حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان

وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع الكثير الملح المطربة ، والنكت الأدبية المعجبة ، حتى فى المراثى : لتمثلها فى صورة جدية بديعة

وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطريقة البديعية المسجوعة الكثيرة التورية (التى سميناها طريقة القاضى الفاضل) الى طريقة الترسل الحالية

ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم بك المويلحى ، والشيخ على يوسف صاحب المؤيد . وله فى كلتا الطريقتين رسائل بليغة

ومن شعره يخاطب أحد الرؤساء :

أحييتَ آمالى وكنت أمتُّها ... من طول ما لاقيتُ من اخوانى
أدلى باخلاصى لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحى ولسانى
محضتهم ودى فلما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسيانى

حسبى من الدنيا صديقٌ ثابت　　فردٌ فكنْه ولا احتياج لثان

وقال قطعة تكتب على باب دار سعادة احمد باشا تيمور فى دعوة :

زوروا الذى بجميلكم　　قبل الزيارة يعترفْ
واسعَوْا لأحمد إنهُ　　عن شكركم لا ينصرف

وقال تاريخاً يكتب على قبر عريان بك :

لقد هوى فى أفق هذا المكان　　بدرُ العلا عريانُ فخر الزمانْ
ومذ أتى الجنات أرختـه　　عريانُ أضحى فى ثياب الجِنان
سنة ١٨٨٨ م

وقال أيضاً :

أتقضى معى-ان حان حينى-تجاربى　　وما نلتهـا إلاَّ بطول عنائى
ويُحزننى أن لا أرى لىَ حيلةً　　لاعطائها من يستحق عطائى
اذا ورّث المُثرون أبناءهم غِنًى　　وجاهًا ، فما أشقى بنى الحكماء ؟

وقال عند ما أُعلن بالإحالة الى المعاش قبل انتهاء مدة خدمته بعشرين يوماً .

برّزت فى سحر البيا　　ن وشاب فيه مفرقى
وقضيت عمرى فى البلا　　غة سابقاً لم ألحق
وخدمتُ ديوان المعا　　رف مخلصاً بتشوق
والآن أذّن بالرحيـــل مؤذن لم يُشفق
عشرون يوماً قد بقـــين وبعدها لا نلتقى
فتبلغى يا نفس بالـــمفروض للمسترزق
فات الكثير من الحيا　　ة وقل منهـا ما بقى

كتبه ومؤلفاته :

وللمرحوم حفنى بك غير كتب النحو والبلاغة الخمسة كتاب مميزات اللغة ،

وكتاب حياة اللغة العربية (دروس الأدب بالجامعة المصرية) ، وكتاب القطار السريع فى علم البديع ، ورسالة فى البحث والمناظرة ، ورسالة فى المنطق ، ورسالة فى الأصول ، ورسالة فى العروض والقوافى ، وكتاب الأمثال العامية ، وكتاب بديع اللغة العامية ، وكتاب عامية الشام ، وكتاب عاميـة الصعيد ، ورحلته الى الآستانة ، وديوان شعره ، وديوان رسائله ، وكتابه الذى ألفه مشتركاً مع مؤلفى هذا الكتاب فى رسم المصحف وضبطه

وأكثر مؤلفاته لم يطبع ، وبعضها ضاع فى أثناء تفتيش أوراق أولاده بعد وفاته فى الفتن الأخيرة . رحمه الله وجزاه عنا خير ما يجزى مخلص لأمتـه وعامل على إحياء لغته آمين ؟

﴿ والحمد لله أولاً وآخراً ﴾

فهـــرس
كتاب الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه

صفحة

مصور جزيرة العرب قبيل الاسلام
٢ فاتحة الكتاب
٣ تعريف التاريخ ، والأدب ، واللغة
٣ نشأة اللغات (هامش)
٤ أدب اللغة — وتاريخ أدب اللغة
٥ أهم فوائد اللغة
٥ الأمة العربية وطبقاتها
٧ جدول العرب العاربة والبائدة
٨ جدول العرب المستعربة
٩ جدول نسب قريش
١٠ عصور اللغة العربية وآدابها
١١ العصر الأول عصر الجاهلية
١١ حالة اللغة وآدابها فى عصر الجاهلية
١١ عوامل نمو اللغة وتوحيد اللغة المروية
١٢ مراتب تهذيب اللغة وسوق عكاظ
١٣ اختلاف لهجات العرب
١٥ كلام العرب
١٦ المثل والحكمة ، وطائفة من الأمثال
١٧ تقسيم الأمثال ١٨ أثرها
١٨ طائفة من الحكم
١٩ أغراض اللغة فى الجاهلية ومعانيها

صفحة

٢٠ عبارة اللغة فى الجاهلية
٢١ تقسيم كلام العرب
٢١ النثر وتقسيمه الى محادثة وخطابة وكتابة — وأقسام النثر
٢١ مميزات النثر الجاهلى
٢٢ أمثلة النثر المرسل والمسجوع
٢٣ المحادثة أو لغة التخاطب
٢٣ الخطابة ٢٤ دواعيها ، وأغراضها
٢٥ قلة ما ورد منها ، وأدلتها
٢٦ عادة الخطباء ، وصفاتهم
٢٦ أقدم الخطباء وأشهرهم
٢٧ تراجم خطباء النعمان (هامش)
٢٨ نماذج من الخطب والوصايا
٣٠ قس بن ساعدة
٣٢ أكثم بن صيفى ٣٤ الكتابة
٣٦ جدول يبين كيفية اشتقاق الحروف الهجائية على رأى العرب والأفرنج
٣٧ كتابة الرسائل والفنون
٣٨ علوم العرب وفنونها
٤٢ النظم — الشعر والشعراء — الشعر
٤٦ أغراضه فى الجاهلية

صفحة

٥٠ معانيه وأخيلته فى الجاهلية
٥١ ألفاظه وأسلوبه ٥٢ أوزانه وقوافيه
٥٢ نماذج من الشعر الجاهلى
٥٨ الشعراء ٥٩ التكسب بالشعر
٦٠ طبقات الشعراء ٦١ امرؤ القيس
٦٦ النابغة الذبيانى
٦٩ زهير بن أبي سلمى
٧٣ عنترة العبسى ٧٦ عمرو بن كلثوم
٧٨ طرفة بن العبد ٨٠ أعشى قيس
٨٣ الحارث بن حلزة
٨٥ لبيد بن ربيعة
٨٩ أمية بن أبي الصلت
٩٢ الرواية والرواة
٩٣ مصور الدولة العربيـــة والبلاد التى خضعت لسلطانها
٩٤ العصر الثانى : عصر صدر الاسلام ويشمل بنى أمية
٩٤ حالة اللغة وآدابها فى صدر الاسلام
٩٤ خلفاء بنى أمية (هامش)
٩٦ أغراض اللغة
٩٦ معانى اللغة ٩٧ عبارة اللغة
٩٧ التعريب (هامش)
٩٨ القرآن الكريم وأثره فى اللغة
٩٨ إعجاز القرآن (هامش)

صفحة

١٠٠ طائفة من آيات القرآن الكريم
١٠١ جمع القرآن وكتابته
١٠٢ الحديث النبوى
١٠٢ طائفة من الأحاديث الشريفة
١٠٣ النثر وتقسيمه الى محادثة وخطابة وكتابة
١٠٣ لغة التخاطب ١٠٥ الخطابة
١٠٥ أسباب رقيها ١٠٦ مميزاتها
١٠٨ نماذج من الخطب والوصايا
١٠٩ الخطباء ١١٠ أبو بكر الصديق
١١١ عمر بن الخطاب
١١٣ عثمان بن عفان
١١٤ على بن أبي طالب ١١٥ سحبان وائل
١١٦ زياد بن أبية ١١٩ الحجاج
١٢٢ الكتابة الخطية
١٢٤ صورة كتاب النبي عليه السلام للمقوقس
١٢٥ صورة كتاب قديم خال من النقط
١٢٦ صورة نموذج من المصحف مضبوط بضبط أبي الأسود
١٢٧ الكتابة الانشائية
١٢٧ كتابة الرسائل والدواوين
١٢٨ مميزات الكتابة الانشائية
١٣٠ نماذج من الرسائل والأمثال والحكم
١٣٣ الكتاب ١٣٣ عبد الحميد

صفحة

١٣٦ موازنة بين النثر فى الجاهلية ونثر صدر الاسلام
١٣٧ التدوين والتصنيف
١٣٩ الشعر والشعراء
١٤١ أغراض الشعر وفنونه
١٤٢ معانيه وأخيلته
١٤٣ ألفاظه وأسلوبه
١٤٣ أوزانه وقوافيه
١٤٣ نماذج من الشعر فى هذا العصر
١٥٠ الشعراء
١٥١ تكسب الشعراء بالشعر
١٥٢ كعب بن زهير
١٥٤ عمرو بن معد يكرب
١٥٦ الخنساء
١٥٨ حسان بن ثابت
١٦١ الحطيئة
١٦٣ النابغة الجعدى
١٦٦ عمر بن أبي ربيعة – ١٦٨ الأخطل
١٧١ الفرزدق – ١٧٥ جرير
١٧٨ الكميت – ١٨٢ الرواية والرواة
١٨٣ العصر الثالث عصر الدولة العباسية
١٨٣ أثر الحضارة العباسية فى أحوال اللغة وآدابها
١٨٣ خلفاء بنى العباس الى سنة ٣٣٣ (هامش)
١٨٤ أغراض اللغة

صفحة

١٨٦ المعانى والأفكار
١٨٧ الألفاظ والأساليب
١٨٨ النثر – والمحادثة – ١٨٨ الخطابة
١٩٠ نماذج من الخطب
١٩١ الخطباء ١٩١ داود بن على
١٩٣ شبيب بن شيبة
١٩٤ الكتابة الخطية
١٩٦ نموذج من القرآن مضبوط بضبط الخليل وأبي الأسود
١٩٧ ابن مقلة
١٩٨ الكتابة الانشائية
١٩٨ كتابة الرسائل الديوانية والاخوانية
٢٠٢ نماذج من الرسائل والتوقيعات والمقامات
٢٠٤ الكتاب — ٢٠٥ ابن المقفع
٢٠٨ ابراهيم الصولى
٢٠٩ ابن العميد
٢١٠ أمراء الدولة السامية وبقيـة العباسيين (هامش)
٢١١ الصاحب ابن عباد
٢١٣ أبو بكر الخوارزمى
٢١٤ بديع الزمان الهمذانى
٢١٦ ابن زيدون
٢١٨ القاضى الفاضل
٢٢٠ التدوين والتصنيف
٢٢٠ كتابة التصنيف والتدوين

صفحة

٢٢١ العلوم اللسانية ونشأتها
٢٢١ الأدب ٢٢٢ الجاحظ
٢٢٤ احمد بن عبد ربه ،
٢٢٥ العقد الفريد ٢٢٥ الحريرى
٢٢٦ فن التاريخ
٢٢٧ العروض والقافية
٢٢٧ النحو
٢٢٨ علم اللغة
٢٢٩ علوم البلاغة
٢٣٠ الخليل بن احمد
٢٣١ سيبويه
٢٣٢ الكسائى
٢٣٢ العلوم الشرعية — التفسير
٢٣٣ الحديث
٢٣٤ الامام البخارى
٢٣٥ علم الفقه
٢٣٥ أبو حنيفة النعمان
٢٣٦ الامام مالك
٢٣٧ الامام الشافعى
٢٣٨ الأمام احمد بن حنبل
٢٣٨ علم الكلام
٢٣٩ أبو الحسن الأشعرى
٢٤٠ الغزالى
٢٤١ نشأة العلوم الكونية المنقولة وترجمتها وأشهر المترجمين

صفحة

٢٤٤ الشعر
٢٤٥ فنون الشعر وأغراضه
٢٤٦ معانى الشعر وأخيلته
٢٤٧ لفظ الشعر وأسلوبه
٢٤٧ أوزان الشعر والقافية
٢٤٨ نماذج من الشعر
٢٥٣ الشعراء
٢٥٤ التكسب بالشعر
٢٥٥ بشار بن برد
٢٥٧ أبو نواس
٢٥٩ مسلم بن الوليد
٢٦١ أبو العتاهية
٢٦٣ أبو تمام
٢٦٦ البحترى
٢٦٨ ابن الرومى
٢٧٠ ابن المعتز
٢٧٢ المتنبى
٢٧٦ ابن هانئ الأندلسى
٢٧٨ أبو العلاء المعرى
٢٨١ ابن خفاجة الأندلسى
٢٨٢ الطغرائى
٢٨٤ البهاء زهير
٢٨٦ الرواية والرواة
٢٨٧ الأصمعى
٢٨٨ خلاصة أثر الحضارة العباسية فى اللغة العربية

صفحة

٢٩٠ العصر الرابع عصر الدول المتتابعة
٢٩٠ حال اللغة وأدبها فى ذلك العصر
٢٩١ النثر — لغة التخاطب
٢٩٢ الخطابة
٢٩٢ الكتابة الخطية
٢٩٣ نموذج من القرآن بالخط الريحانى
٢٩٤ الحافظ عثمان
٢٩٥ الكتابة الانشائية - كتابة الرسائل
٢٩٦ الكتاب — محي الدين بن عبد الظاهر
٢٩٧ شهاب الدين بن فضل الله
٢٩٩ لسان الدين بن الخطيب
٣٠٠ التدوين — الأدب
٣٠١ بقية العلوم الاسلامية
٣٠٢ كتابة التدوين والتصنيف
٣٠٣ ابن خلكان ٣٠٣ ابن خلدون
٣٠٦ جلال الدين السيوطى
٣٠٦ الشعر
٣١٠ الشعراء
٣١٠ البوصيرى
٣١٢ صفى الدين الحلى
٣١٤ ابن نباته
٣١٥ ابن معتوق
٣١٧ العصر الخامس عصر النهضة الأخيرة

صفحة

٣١٧ حالة اللغة وآدابها
٣١٧ صورة محمد على باشا
٣١٩ صورة رجال البعثة العلمية الى أوربا
٣٢٠ أسباب النهضة العلمية والأدبية
٣٢٦ النثر — لغة التخاطب
٣٢٦ الخطابة
٣٢٧ الكتابة الخطية
٣٢٧ عبد الله بك الزهدى
٣٢٨ الكتابة الانشائية
٣٢٩ كتابة التدوين
٣٣٠ نماذج من النثر
٣٣١ الكتاب والعلماء
٣٣٢ رفاعة بك الطهطاوى وصورته
٣٣٣ عبد الله باشا فكرى وصورته
٣٣٥ على مبارك باشا وصورته
٣٣٧ الشيخ محمد عبده وصورته
٣٣٩ الشيخ حمزة فتح الله
٣٤٢ الحقبة الثانية
٣٤٦ الشعر
٣٤٦ نماذج من النظم
٣٤٨ الشعراء ٣٤٨ البارودى
٣٤٩ صورة البارودى
٣٥٠ حفنى ناصف بك وصورته

١٩٣١/١٢/٢٠٢٠/٩